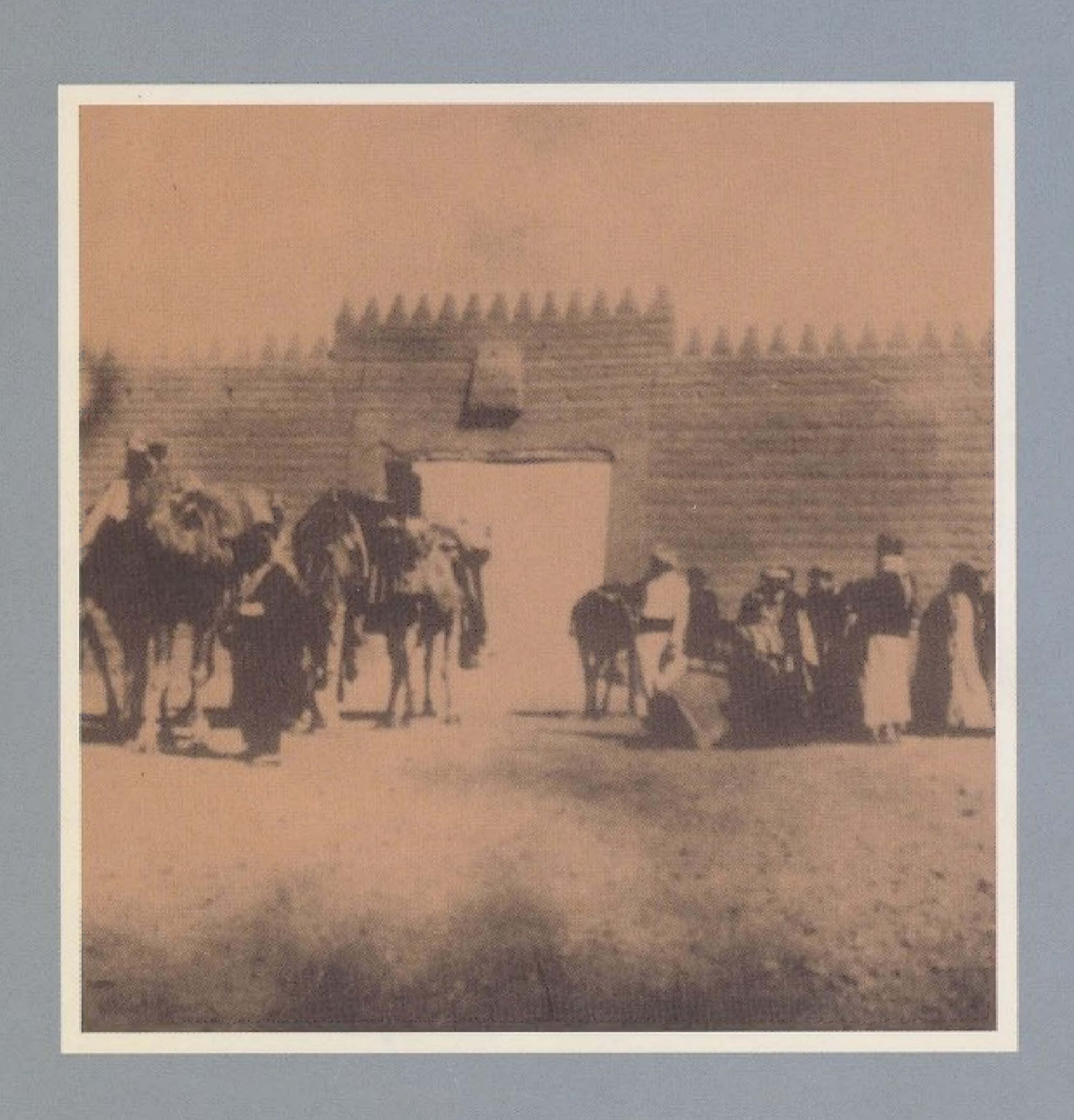
الطبعة الثانية

مضاوي الرشيد

السياسة في واحة عربية

إمارة آل الرّشيد





السياسة في واحة عربية

إمارة آل الرشيد

صدر للمؤلفة عن دار الساقي

تاريخ العربية السعودية بين القديم والحديث

مضاوي الرشيد



إمارة آل الرّشيد

ترجمة

عبد الإله النعيمي

دار الساقي

Madawi Al Rasheed, *Politics in an Arabian Oasis*,
I.B.Tauris & Co Ltd, London, 1991

الطبعة العربية

الطبعة الأولى ١٩٩٨

الطبعة الثانية ٢٠٠٣

ISBN 1 85516 813 8

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb
DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

المحتويات

شكر وتقدير

يستند هذا الكتاب إلى رسالة دكتوراه قُدمت إلى قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة كمبريدج في عام ١٩٨٨. وبودي أن أغتنم هذه الفرصة للتعبير عن امتناني إلى البروفيسور ايرنست غلنر Ernest Gellner على اشرافه الصبور والدؤوب والكريم طيلة الأعوام الثلاثة التي أمضيتها في كمبريدج. كما أعبر عن امتناني البالغ للدكتور روبن بدويل Robin Bidwell لتعريفي على أرشيفات لندن وقراءة مسودة مبكرة لهذه الدراسة. وبودي أيضاً أن أشكر الدكتور بروس انغهام Bruce Ingham والدكتور أوغو فابيتي Ugo Fabietti والدكتور تيم رايت Tim Wright والدكتور فرانسوا بويون François Pouillon على قراءة فصول من هذا الكتاب وعلى انتقاداتهم البناءة. وبودي أن أشكر ممتحني الداخلي الدكتور بول سانت ـ كاسيا Paul Sant - Cassia على تعليقاته واقتراحاته.

وأخيراً فإن عليَّ ديناً دائماً من الامتنان للدكتور مايكل غيلسنان Michael Gilsenan الذي كان نقده المحفز ومؤازرته الصميمة قيمين للغاية.

وبودي أن أشكر زملائي في قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة كمبريدج على تشجيعهم المتواصل وملاحظاتهم وانتقاداتهم.

امتناني الأكبر لوالديَّ اللذين جعلا هذا البحث ممكناً بما أبدياه من نكران ذات في تعضيدهما وتشجيعهما وتفهمهما. وبودي أن أعبر أيضاً عن امتناني لمخبريَّي من أفراد آل رشيد الذين أجابوا عن أسئلتي الفضولية بصبر وسعة صدر حيث طُلب منهم أن يعيدوا سرد حكايات من الماضي أحيت ذكريات مؤلمة. أعبر عن امتناني لمعونتهم التي لولاها لكان هذا البحث متعذراً. ولكنني أتحمل المسؤولية كاملة عن أي آراء وأخطاء وثغرات.

م. الرشيد

مدخل

يتناول هذا الكتاب إمارة الرشيد التي ظهرت في القرن التاسع عشر بين رعاة الابل الشمّر في وسط الجزيرة العربية. فعلى امتداد ذلك القرن كانت شمّر وأمراؤها منخرطين في عملية توسع سلالي هدفه توحيد وسط الجزيرة العربية في كيان موحد بزعامة الرشيد.

هذه الدراسة محاولة لردم الفجوة بين فرعين هما التاريخ والأنثروبولوجيا. إذ إنني تخرجتُ أنثروبولوجية أصبحتُ مهتمة بتلك العمليات التي لا يمكن أن تدرس إلا بمرور الزمن. وقد أدركتُ أن تكوين الامارات القبلية وتحول الزعامة السياسية ظواهر ماضوية تُفهم على خير وجه بالجمع بين المعرفة الأنثروبولوجية والمنظور التاريخي. واخترتُ أن أستطلع تاريخ امارة الرشيد الذي أتاح لي التوفيق بين اهتماماتي الأكاديمية ورغبتي الشخصية.

هذا الكتاب هو دراسة حالة تمثلها عملية هيمنة بسطتها قبيلة على واحة فأصبحت امارة قبلية. ويستحضر هنا مفهومان خلافيان في الأنثروبولوجيا هما القبيلة والسلالة. وكانت شمّر تعتبر نفسها ويعتبرها الآخرون (بمن فيهم قبائل أخرى في المنطقة وحكام سلاليون آخرون والمسؤولون العثمانيون) قبيلة، وهي رابطة واسعة بين أفراد يدّعون انتماءهم إلى أصل مشترك. وتسببت المناظرة الأنثروبولوجية غير المحسومة حول مفهوم القبيلة في تردد الأنثروبولوجيين عن ذكر الكلمة من دون اشتراطات وتحديدات ومزيد من التنقيحات، مما يُعدُّ عَرَضاً من أعراض غياب الاتفاق بينهم على ما يعنيه هذا المفهوم وما إذا كان أداة سوسيولوجية ـ تحليلية مجدية. وستُناقش هذه المعضلة في الفصل الأول.

حين نعرف أن غالبية شمّر كانوا رعاة ابل من الرحل مع بعض الأنساب

القبلية المتوطنة، يصبح مفهوما القبيلة والسلالة ـ اللذان يصفان عمليات ثقافية وسياسية بالدرجة الرئيسية ـ متداخلين مع اقتصاد المجموعة ويزيدان القضايا ذات العلاقة تعقيداً. وكان الاقتصاد الذي تعمل قبيلة شمّر وإمارتها في اطاره يتألف من تركيبة تجمع بين الرعوية والتجارة وقدر أقل من الزراعة.

وينشأ تعقيد آخر من الحقيقة الماثلة في أن شمّر كانوا رجال قبائل مسلمين يعملون في الاطار الثقافي العام للإسلام. فمنذ القرن الثامن عشر شهد وسط الجزيرة العربية ظهور الوهابية، وهي حركة دينية مناهضة لأعراف القبائل، وخاصة ولاءها القبلي، لكنها أصبحت معتمدة عليها في نشر الدعوة. وقد وقف الشمّريون لا ضد مبادئ الوهابية بل ضد دلالاتها السياسية. وحين دافعوا عن ديارهم بوجه التوسع السعودي ـ الوهابي في أواخر القرن الثامن عشر كانت أعمالهم دفاعاً عن استقلالهم القبلي. بكلمات أخرى، كانت صداماتهم العسكرية موجهة ضد الهيمنة السياسية لا الدينية.

كانت شمّر تقطن أرضاً تقع في اطار ما تدعيه الأمبراطورية العثمانية من سلطة. ويضع هذا مناقشة القبيلة والامارة الشمّرية في سياق أوسع يبين أن التكوينات المحلية (القبيلة والامارة معاً) ليست منظومات معزولة وقائمة بذاتها. وقد جمعت شمّر بين بدويتها وسيطرتها على واحة استوطنتها بعض الأنساب مثل الرشيد. وبدأ هذا النَّسَب يمركز سلطاته، وهي عملية أدت إلى قيام حكم سلالي. وليس هذا بغريب، حيث مرت بعض المجموعات القبلية في ما يسمى الآن الشرق الأوسط بتطورات مماثلة (ل. بيك L. Beck ١٩٨٦ وغ. غارثويت G. Garthwaite ١٩٨٣ وفان برونيسن Van Bruinessen ١٩٧٨ ور. تابر R. Tapper ١٩٨٣).

كان لدى غالبية هذه القبائل نوع من الزعامة القبلية رغم احتفاظها، على ما يُعتقد، بدرجة من اللامركزية السياسية تغذيها ظروف البداوة وغياب الفائض. وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان بدو الروالة في الصحراء السورية والفضل والحسانة في سهل البقاع والمرّة في الربع الخالي، يسمون زعماءهم شيوخاً وأمراء (و. لانكستر W. Lancaster ١٩٨١ ود. شطي D. Chatty ١٩٧٧ و١٩٨٦ ود. كول D. Cole ١٩٧٥). وكان لدى القبائل البدوية الايرانية مَنْ يحملون لقب خان والخاني زعماء قبليون لها (ل. بيك ١٩٨٦ وغ. غارثويت ١٩٨٣). ولكن

درجة السلطة التي يمارسها هؤلاء الزعماء القبليون كانت متفاوتة. وكانت الفوارق في المركزية السياسية بين القبائل البدوية المختلفة في الشرق الأوسط، تعتمد على عدد من العوامل مثل تنوع الاقتصاد من حيث جمعه بين الرعوية والتجارة والزراعة وقدرة النظام على خلق فائض ودرجة العزلة الاجتماعية للمجموعة ذات العلاقة واحتوائها من قبل الدول أو الأمبراطوريات المركزية ومستوى التمايز الداخلي ضمن المجموعة.

يميل الأنثروبولوجيون الذين يعتمدون مقاربة نشوئية إلى أن يعتبروا تكوين تنظيم سياسي مركزي بين البدو، مرحلة في اطار نشوئي خطي (م. سالنز M. Sahlins ١٩٦٨ وأ. سيرفس E. Service وم. فريد M. Fried ١٩٦٧). إذ يُعتقد أن المجتمعات تنشأ من تنظيمات سياسية بسيطة، أي عُصب وقبائل ومشايخ، إلى نظم سياسية أكثر تعقيداً توجد في المجتمعات الدولتية. ولكن هذه المقاربة بما تذهب إليه من مراحل تطور جامدة، لا تفسر كيف تحدث اللامركزية السياسية أحياناً بعد مرور مجتمع بفترة من المركزية. إذ لا تكون الحال متمثلة دائماً في اتباع المجتمعات تطوراً سياسياً نشوئياً خطياً يفضي في اتجاه واحد إلى قيام أشكال معقدة من التنظيم السياسي. وعلى سبيل المثال، تذبذبت بعض القبائل الأفريقية الشمالية بين نظامين منتقلة من التبعثر واللامركزية السياسية إلى نظم سياسية شبيهة بالامارة، على قدر أكبر من المركزية (ابن خلدون ١٩٨٧، ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٠، إ. غلنر E. Gellner ١٩٨١). كما انهارت امارات وعادت قبائل إلى نظم سياسية لا مركزية. بكلمات أخرى، كان نشوؤها السياسي دورياً لا خطياً. وبدلاً من اعتبار المركزية السياسية مرحلة نشوئية في نموذج خطي، فإني أبحث في العوامل التي تدفع عمليات كهذه.

وأحد العوامل المسؤولة عن المركزية السياسية بين البدو هو احتكاكهم بالعالم الخارجي، لا سيما علاقاتهم مع مجتمعات حضرية، وتفاعلهم مع دول وأمبراطوريات أكثر مركزية (أ. خزانوف A. Khazanov ١٩٨٤، ر. تابر ١٩٨٣). وعلى افتراض أن البدو يدخلون في علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية مع المجتمع الأوسع، تكون هذه العلاقات مسؤولة عن تغيير بنى البدو السياسية والاقتصادية فيصبحون نتيجة لذلك قابلين للمركزية السياسية. ولدى النظر في تفاعل البدو مع العالم الخارجي على امتداد فترة تاريخية، يمكن تقييم

صلاحية هذه المقاربة لدراسة المركزية السياسية بينهم. وهي صالحة بصفة خاصة لفهم صعود امارة الرشيد بين قبيلة شمّر. وفي هذا الكتاب لا يعتبر مفهوما القبيلة والسلالة بأنهما يصفان مرحلتين نشوئيتين حيث الأولى، أي القبيلة، أعقبتها الثانية. ففي حالة شمّر تعايشت القبيلة مع السلالة وكانتا في البداية كياناً واحداً.

ملاحظات منهجية

بوصفي من أفراد آل الرشيد بدأ اهتمامي بتاريخ آل الرشيد وأنا طفلة. وفي سن مبكرة أصبحت ملمة بالحكايات والقصص التي كان أفراد أسرتي يروونها عن ماضيهم. وإذ وُلِد بعضهم في حائل وعاشوا هناك زمناً، كانت لديهم صورة حية عن تلك الفترة من تاريخهم. كما أنهم كانوا أبناء الرعيل الأول الذي أُجبر على الرحيل عن حائل والاقامة في الرياض، العاصمة السعودية، بعد أن استولى ابن سعود على الواحة وأنهى حكم آل الرشيد في عام ١٩٢١. وقد ولد آخرون من أفراد الأسرة في الرياض ولم يُسمح لهم قط بالعودة إلى حائل، ولا حتى في زيارة قصيرة لها. وعاش أمثال هؤلاء تجربة المنفى في الرياض. وكنت أستمع إلى حكاياتهم من باب الأدب، لكنني لم آخذها قط على محمل الجد. كنت أظن أن تاريخ الرشيد يمتُّ إلى ماضٍ بعيد لا أثر له في حياتنا اليومية.

وإذ وُلِدْت في باريس لأب من آل الرشيد وأم لبنانية وترعرعت طفلة في الرياض، لم أعرف إلا موطناً واحداً حتى سن الثانية عشرة. عشت هناك مع أهلي وعائلتي. وكنت مدركة لتاريخ أسرتي الذي قيل لي أن لا أتطرق إليه مع الأصدقاء والمعلمين في المدرسة. وكان يجري تحذيري بأننا في غنى عن مشاكل جديدة. ولم أفهم قط ما المقصود بهذه التحذيرات حتى عام ١٩٧٥ عندما قُتل الملك فيصل، عاهل العربية السعودية، على يد ابن أخيه الأمير فيصل بن مساعد الذي كانت أمه عمتي. وعاد التاريخ حياً من جديد. إذ كانت هناك شائعات عن ضلوع آل الرشيد. وأصبحت هذه الشائعات شكوكاً عندما دخل أفراد المخابرات السعودية بيتنا وبيت عمي وفتشوا ممتلكاتنا واقتادوا أبي للتحقيق وأودعوا عمي السجن. وإذ لم يُسجن أبي، بقي في البلد ثلاثة أشهر قرر في نهايتها مغادرة العربية السعودية بإرادته. وظل عمي في السجن قرابة عام رغم توثق التحقيقات السعودية من أن قاتل الملك فيصل تصرف بمفرده ولم يتعاون مع أحد. وبعد الإفراج عن عمي، غادر العربية السعودية وتخلى عن جنسيته السعودية. وهو يعيش الآن في العراق.

كطفلة في الثانية عشرة راعتني هذه الأحداث وتوجهت إلى أفراد العائلة في محاولة لمعرفة السبب وراء مضايقتنا وإجبارنا بصورة غير مباشرة على مغادرة الوطن. وقيل لي اننا بسبب تاريخنا علينا الآن أن نعيش تجربة المنفى الجديدة هذه. وبدأ اهتمامي يتبلور بتاريخ الرشيد وسياستهم عموماً. فقرأتُ المتاح من أدب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا حائل والتقوا أجدادي. كما أصبحت أكثر اهتماماً بشعر الرشيد النبطي الذي حفظه وسجله بعض أفراد عائلتي.

بعد الرياض عشت في لبنان حيث أُرسلت إلى المدرسة. وأصبحتُ منفصلة عن تاريخ آل الرشيد حين جثمت اضطرابات لبنان خلال الحرب الأهلية والاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٨٢، على حياتي اليومية وأبعدتني عن اهتماماتي المبكرة. وبعد التخرج في المدرسة جئت إلى إنكلترا لمواصلة تحصيلي في التعليم العالي. فدرست الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا. وكانت الأنثروبولوجيا هي الفرع الأكاديمي الذي وجدتُ فيه محاولات جادة للاجابة عن عدد من الأسئلة التي كدَّستُها. واخترتُ الاستمرار في استكشاف الفرع الذي يتكلم مؤسسوه لغة أستطيع الارتباط بها وفهمها.

وفيما كنتُ أفتش عن موضوع بحث أقدمه إلى قسم الأنثروبولوجيا في جامعة كمبريدج، لم أتمكن من مقاومة إغراء الكتابة عن أمراء حائل من آل الرشيد في رسالة دكتوراه. ولكنني لم أكن واثقة من رد فعل القسم على كوني ذات بحثي وموضوعه، وهي ثنائية حرص الأنثروبولوجيون على صيانتها. وتفاقمت توجساتي حول آفاق مثل هذا المشروع البحثي لأني كنتُ أعرف أنني لن أتمكن من القيام بعمل ميداني في حائل. وفي عام ١٩٨٦ لم أكن في وضع يمكنني من الإقدام على ذلك لأسباب سياسية مختلفة. وكان من دواعي دهشتي أن المشروع حظي بالقبول.

ان هذا العرض للظروف التي أسفرت عن تأليف هذا الكتاب، واهتمامي الشخصي القوي، ومنحدري، ضرورية لتقييم عملي وتفسيره. ومع تقدم البحث الذي شرعت فيه بدأت أدرك الأفضلية الايجابية التي لديَّ بوصفي شاهداً من أهلها، والمآخذ الناجمة عن كوني ذات البحث وموضوعه. وكان أنثروبولوجيون معنيون بقضايا المنهج قد تناولوا هذه المشكلة (ب. رابينو P. Rabinow ١٩٧٧، د. مسَّرشميدت D. Messerschmidt ١٩٨١، س. التركي S. Altorki وك. الصلح C. El Solh ١٩٨٨)، وسأكتفي بالقول إن علاقتي الشخصية الحميمة بآل

الرشيد فتحت أبواباً عديدة كانت على الأرجح ستبقى مغلقة بوجه الغرباء. ولكني اذ نشأتُ بعد الثانية عشرة من العمر خارج العربية السعودية، كان أقاربي دائماً يعتبرونني بعيدة عن تاريخي وماضيّ. وكثيراً ما كانوا يعلقون على سذاجتي حين أطرح أسئلة تكشف عن معرفتي المحدودة بالشؤون والاعراف القبلية، وبالماضي عموماً. ورغم ذلك كانوا متسامحين مع جهلي الذي أرادوا تبديده في سياق ما أعددته ونفذته من مقابلات. ففي نظرهم أصبحت هذه المقابلات هي الوسيلة لتربيتي اجتماعياً واثراء معرفتي بتاريخي ذاته.

وكوني من عناصر الداخل بالولادة، بدأتُ أدرك أيضاً ما ينطوي عليه ذلك من مثالب. وكانت المثلبة الأولى تتصل بعجزي عن القيام بعمل ميداني في حائل، محدّداً بذلك امكانية وصولي إلى طائفة أوسع من الشهود الذين كان بمقدورهم أن يثروا هذه الدراسة. وثانياً، انني طيلة هذا البحث كنت أشعر دائماً بالضغط الناجم عن محاولة اجتناب التحيز، وهو ضغط ربما ما كان الغريب ليتحسسه بقوة. إذ أدركتُ أن من الممكن اتهامي بالدفاع عن آل الرشيد، وكنتُ واعية لمشاعري الشخصية القوية حول تاريخي وانتماءاتي وولاءاتي. فإن بحث المرء في مجتمعه أو أهله ينطوي على صراعات شخصية لا مفر منها، على الباحث أن يتعلم العيش معها وحلها. وتشخيص المرء لولاءاته لا يمكن الا أن يكون الخطوة الأولى نحو حسم هذا الصراع.

ان البيانات الأثنوغرافية التي يقوم عليها بحثي لا تصف بالتفصيل الوضع الحالي بين شمّر، الذي درسه مؤخراً أنثروبولوجيان (أ. فابيتي U. Fabietti ١٩٨٤ ور. فيرني R. Fernea ١٩٨٧). اني بدلاً من ذلك أركز على تاريخ شمّر وآل الرشيد في القرن التاسع عشر، فهو تاريخ له أوثق صلة بفهمنا للوضع الحالي. وفي مجرى هذا البحث استخدمتُ بيانات جُمعت من خلال مقابلات مع أفراد من آل الرشيد خارج العربية السعودية، ومادة أرشيفية وأدب رحالة أوروبيين.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦ وخلال الفترة الواقعة بين حزيران/يونيو وأيلول/سبتمبر ١٩٨٧، جمعتُ حكايات شعبية وشعراً نبطياً (باللهجة العامية) ومرويات وتواريخ حياتية ترتبط بمادة موضوع هذه الدراسة. وكانت بعض مصادري أقرباء مباشرين ما زالوا يعيشون في السعودية، قابلتهم لدى سفرهم خارج البلاد. وكان البعض الآخر يعيشون في المنفى، وهؤلاء قابلتهم في لندن

وباريس. وكان أكبر مصادري سناً في أوائل الخمسينات من العمر، ينتمي إلى الجيل الأول من الأسرة بعد الاستيلاء على حائل في عام ١٩٢١.

المادة الأرشيفية التي استخدمتها توجد في لندن وباريس. واستعنت بأرشيفات مكتبة وسجلات مكتب الهند India Office Library and Records (لندن) حيث اطلعت على مراسلات القناصل والوكلاء السياسيين والمقيمين السياسيين والمندوبين السامين لدى حكومة الهند ووزارة الخارجية. ولأنه لم يكن هناك ممثل أو وكيل سياسي بريطاني في وسط الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر فقد اعتمدت على مراسلات المندوبين البريطانيين في الخليج الفارسي، وخاصة في بوشير والبحرين والكويت. كما عملت في أرشيفات وزارة الخارجية في باريس (Archive du Ministère des Affaires Etrangères) حيث استعنت بسلسلة المراسلات السياسية والتجارية والمراسلات القنصلية والتجارية و«مذكرات ووثائق»، وترد أرقام ومراجع الملفات التي جرت الاستعانة بها في قسم البيبليوغرافيا. واستخدمتُ بالاضافة إلى ذلك بيانات أرشيفية منشورة من الأرشيفات الوطنية للقاهرة (القاهرة، عابدين) التي توثق الغزو المصري لوسط الجزيرة العربية بقوات محمد علي. وكانت هذه في الأصل بالتركية العثمانية ثم ترجمتها الحكومة المصرية فيما بعد إلى العربية. وللأسف لم أتمكن من استخدام الأرشيفات العثمانية في اسطنبول. ففي عام ١٩٨٧ تقدمت إلى السفارة التركية في لندن بطلب ترخيص بحثي كان من شأنه أن يتيح لي اجراء بحث أرشيفي في تركيا. وكان هذا سيمكنني من استطلاع السياسة والعلاقات العثمانية مع أمراء حائل في أواخر القرن التاسع عشر. وبسبب الرفض الذي قوبل به طلبي كان علي أن أعتمد على مصادر بريطانية تغطي الفترة نفسها. وآمل أن السلطات التركية ستدرك في المستقبل قيمة الوثائق العثمانية وتخفف قيودها.

كما جرى في معرض هذا البحث الاستئناس بأدب الرحالة الأوروبيين. فابتداء من منتصف القرن التاسع عشر استقطبت حائل اهتمام رحالة مثل غ. والن G. Wallin و و. بالغريف W. Palgrave وش. دوتي C. Doughty وآ. بلنت A. Blunt وك. غرماني C. Guarmani وش. هوبر C. Huber وا. نولده E. Nolde وج. يوتنغ J. Euting الذين زاروا الواحة ووصفوا كيف أصبحت مركزاً من مراكز السياسة في الجزيرة العربية حينذاك (للاطلاع على المراجع انظر

البيبليوغرافيا). وكان هذا الأدب يشترك في لغز أساسي: كيف يمكن لواحة تقع في وسط الصحراء أن تصبح عاصمة امارة مزدهرة يسودها القانون والنظام؟ كانت لدى الرحالة وقتذاك صورة عن الجزيرة العربية بوصفها منطقة تسودها قبائل بدوية متنقلة، تعيش في حالة هوبزية من الطبيعة ولا تعرف إلا الغزو والفوضى والسلب. وفي حائل رأوا شيئاً لم يتوقعوه ولم يكونوا قادرين على تفسيره. وقد أُعيد النظر بهذا الأدب وأُعيد تقييمه بصورة نقدية (ك. تدريك K. Tidrick ١٩٨١، ر. بدويل R. Bidwell ١٩٧٦ ور. برينت R. Brent ١٩٧٧). وجادل تدريك أن رحالة القرن التاسع عشر الأوروبيين أخفقوا في التمييز بين النظام القيمي للجماعة معبراً عنه في ما يقوله أفرادها عنه والنظام القيمي الذي يمكن استقراؤه من ملوك أفرادها (ك. تدريك K. Tidrick ١٩٨١ : ٢٩).

للأسف، ان هذا الفارق الأساسي الذي يبدو بسيطاً وواضحاً لأي عالم اجتماعي تأهل في السنوات الخمسين الماضية أو نحو ذلك، لم يكن على هذا القدر من الوضوح لغالبية الرحالة الأووربيين. ورغم أي نواقص اعترت كتابتهم فإنها كانت دائماً وما زالت مصدر معلومات مهماً عن تاريخ الجزيرة العربية بصفة عامة. وقد اعتمد عليها مؤرخون (ر. وايندر R. Winder ١٩٦٥) وانثروبولوجيون (هـ. روزنفيلد H. Rosenfeld ١٩٦٥، ل. سويت L. Sweet ١٩٦٥، م. ميكر M. Meeker ١٩٧٩) في أبحاثهم.

واستند روزنفيلد بقوة إلى هذا الأدب في نموذجه الانثروبولوجي الخاص بامارة آل الرشيد. ويبدو أن افتتان الرحالة بالتنظيم العسكري للقبائل وغزواتها وحروبها أثر في فهم روزنفيلد للآليات التي أدت إلى ظهور ما يسميه امارة آل الرشيد من نمط الدولة. وفي الحقيقة أنه يبدأ تحليله بالفرضية القائلة إن المفتاح إلى فهم مستوى تطور مجتمع من المجتمعات هو التركيب الاجتماعي لجيشه. وقد منعه اعتماده الكامل على أدب الرحالة من استطلاع نواحٍ أخرى ذات صلة من نواحي الحياة الاجتماعية، ومن ربط عمليات سياسية محلّية بسياق تاريخي أوسع. وأنا بخلاف روزنفيلد، استخدمت دراسات الرحالة بالارتباط مع مصادر أخرى لتفادي الوقوع في فخ مقاربة اختزالية ناجمة عن الاعتماد على هذا الأدب وحده.

لندن، ١٩٩٠

الفصل الأول

الأرض والبشر

كانت ديار شمّر في الشمال الأوسط مما هو الآن العربية السعودية. وكانت تتألف من الجنوب الشرقي لصحراء النفود الكبرى وجبل شمّر. وقبل ظهور الإسلام كان هذا الأخير يُعرف بأنه جبل طيء، موطن قبيلة طيء العربية القديمة (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢ : ٦٣). ولعل الجبل أصبح يعرف باسم جبل شمّر بعد انتقال شمّر إلى المنطقة.

لا المصادر التاريخية ولا التراث الشمري المحكي يوفر توثيقاً دقيقاً حول انتقال شمّر إلى جبل شمّر. ويقول الشمّر في مروياتهم المحكية إنهم انتقلوا إلى هذه المنطقة من اليمن قبل أربعة قرون. وتبقى أسباب الهجرة غير واضحة. ولكن القسم الغالب من هجرة القبائل في المنطقة كان يحدث نتيجة الجفاف أو تزاحم القبائل على الموارد الطبيعية، أو نتيجة ضغوط عسكرية من مجموعات أخرى. وإذ أرسى الشمّر موضع أصولهم في اليمن فقد حددوا موقعهم بين القبائل العربية. وكانوا يمنيين ذوي مكانة خاصة لأنهم يدّعون الانحدار من أصل قحطاني. وتذهب شمّر في أساطيرها إلى أنهم أحفاد جد أعلى هو شمّر بن العملوق، أحد ملوك اليمن في العصور القديمة[١].

تقول شمّر إن احدى عشائرها، وهي العبدة، تولت الزعامة في جبل شمّر فور وصولهم، وإنها أبعدت الزعيم المحلي، وهو رجل يُدعى «بهيج»[٢]. وتميل مرويات شمّر إلى الإطناب حول الهجرة والتوطن في جبل شمّر. ولكن المرويات تصبح أقل استفاضة بشأن الفترة التي أعقبت توطنهم في جبل شمّر. بكلمات أخرى، ليست هناك تقارير مفصلة عن احداث القرنين السادس عشر والسابع عشر. وبالتالي فإن من الصعب، ان لم يكن من المتعذر، أن يعاد بناء التاريخ

الشمري خلال هذه المئتي عام من تراثهم المحكي. ولكن صورة أوضح تتكون عن فترة القرن الثامن عشر اللاحقة، وتتكون صورة حتى أفضل عن القرن التاسع عشر حيث تصبح مرويات شمّر أغنى وزاخرة بالتوصيفات المفصلة لموقعهم في ديارهم.

وليس هذا بمستغرب. فإن غالبية التواريخ القبلية المبنية على التراث المحكي تُبدي انماطاً مماثلة. وتميل القبائل إلى أن يكون لديها ذخر حافل بالذكريات عن أصولها وهجرتها. ولكن الذكريات تضمحل ويعقبها نوع من فقدان الذاكرة التاريخية حين يُسأل الأفراد عن أحداث لاحقة. غير أن مرويات الأعوام المئة السابقة وذكرياتها تصبح حية وتميل إلى الاسهاب. وشمر ليست متفردة من هذه الناحية. فقد لاحظ باحثون في تاريخ القبائل ثراء الأساطير المتعلقة بالأصول القبلية للجماعة والثغرات الموجودة في المرويات بشأن الأحداث اللاحقة، ومعرفتها التفصيلية بالتاريخ حديث العهد[٣]. ولكن ذكريات القبيلة الجمعية لا يمكن أن تعتبر حقائق تاريخية كما يفهمها المؤرخون. فهي حقائق سوسيولوجية وبالتالي ذات صلة بمفهومنا لتصورات البشر عن أنفسهم ودعاواهم وتبريراتهم لوجودهم في أرض معطاة. تُناقَش السمات الجغرافية لهذه الأرض في القسم التالي.

الأرض

صحراء النفود الكبرى

تغطي صحراء النفود الكبرى زهاء ٢٥٠٠ ميل مربع من الكثبان الرملية على ارتفاع يبلغ حوالي ٣٠٠٠ قدم. وهي تمتد قرابة ١٤٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب وزهاء ١٨٠ ميلاً من الشرق إلى الغرب. والكثبان الطويلة التي تمتد عشرات الأميال ويصل ارتفاعها إلى ٣٠٠ قدم وتفصلها وديان تتسع إلى حد ١٠ أميال عرضاً، هي السمات الرئيسية لهذه الصحراء. ويضفي أوكسيد الحديد على الرمال صبغة ضاربة إلى الحمرة، لا سيما حين تكون الشمس منخفضة. وفي عمق الصحراء هناك أماكن متعددة لورود الماء فيها، ويُخرج مطر الشتاء أعشاباً قصيرة العمر لكنها نضرة تتيح للبدو إمكانية الرعي في أواخر الشتاء والربيع. والآبار الكبيرة في هذه الصحراء هي الشقيق وعطوى وحفر وحيانية وعرتيان. وعلى الضد من المعتقدات التقليدية الشائعة فإن صحراء النفود الكبرى ليست قاحلة. وهي تعتبر أكثر اخضراراً بالأحراش وأغنى بالمراعي من أي جزء من الصحارى الواقعة شمالها أو جنوبها (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨ : ١٥٧ الجزء الأول).

اعتبرت شمّر القسم الجنوبي الشرقي من صحراء النفود جزءا من أرضها القبلية التقليدية. وكانوا يملكون هذه المراعي والآبار ملكية مشاعية، ويقيمون مضاربهم هناك في الشتاء والربيع حين تكون هناك وفرة من الكلأ والماء. وكانت خيامهم تتموضع عادة حول الآبار التي تحمل وسم قبيلتهم. وخلال موسم الحر والجفاف كانت شمّر إما ترابط قرب آبارها أو تنتقل مقتربة من قرى جبل شمّر وواحاته. وكان المناخ الصيفي الحار يجبرها على قضاء خمسة أشهر على الأقل قرب الآبار أو الواحات. وكانوا يدّعون السيطرة على هذه الآبار، والاستئثار بحقوق الماء والكلأ معاً في المنطقة. وأتيحت لعشيرة الرُّمال إمكانية الوصول إلى الواحة الوحيدة في المنطقة وهي واحة جُبَّة التي كانت ديرة منعزلة ذات ثمانين منزلاً. وقد استقر في القرية مَنْ ينتمون إلى الحمولة الرئاسية في عشيرة الرمال فاعتبروا شيوخ المستوطنة (أ. فابيتي U. Fabietti ١٩٨٤).

جبل شمّر

إلى الجنوب من صحراء النفود الكبرى يتألف جبل شمّر من هضبتين هما جبل أجا وجبل سلمى، وكلاهما سلسلتان من الغرانيت على ارتفاع كبير. فإن جبل أجا يرتفع في المتوسط ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وتغطي الهضبة مساحة تبلغ حوالي ١٠٠ ميل على بعد أكثر من ٤٢٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي من بغداد وأكثر من ٤٨٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق. وجبل سلمى لا يقل كثيراً من حيث الارتفاع لكنه أصغر بكثير في المساحة. ويمكن تقسيم المنطقة إلى قطاعين: السهل الغربي والشمالي الغربي ذو الحجارة الرملية الذي تتخلله صخور من هذه الحجارة، متحدراً في النهاية إلى القاع الرملي لصحراء النفود، والسهول البازَلتية الجنوبية والشرقية التي تنبثق منها السلاسل الغرانيتية، مقطوعة بالبازَلت. ويرتفع جبل أجا شاقولياً من السهل وتعتليه صخور شامخة. ومما يزيد جناحيه جدباً تعارضه مع قدر كبير من الخضرة في أخاديده. وتبين الأحراش وأشجار السَنْط والنخيل أن هذه التلال تجتذب قدراً معيناً من الماء. وكانت هناك أيضاً أعداد كبيرة من الحيوانات: الوعول والغزلان والثعالب والذئاب وبنات آوى والحَجَل (ادميرالتي Admiralty ١٩٢٠: ٣٧٥).

يجتذب جبل شمّر قدراً كافياً من الأمطار لتأمين امداد معين من العشب. وتبدأ الأمطار الأولى في تشرين الثاني/نوفمبر، وإذا كانت وفيرة فإنها تتكفل بظهور

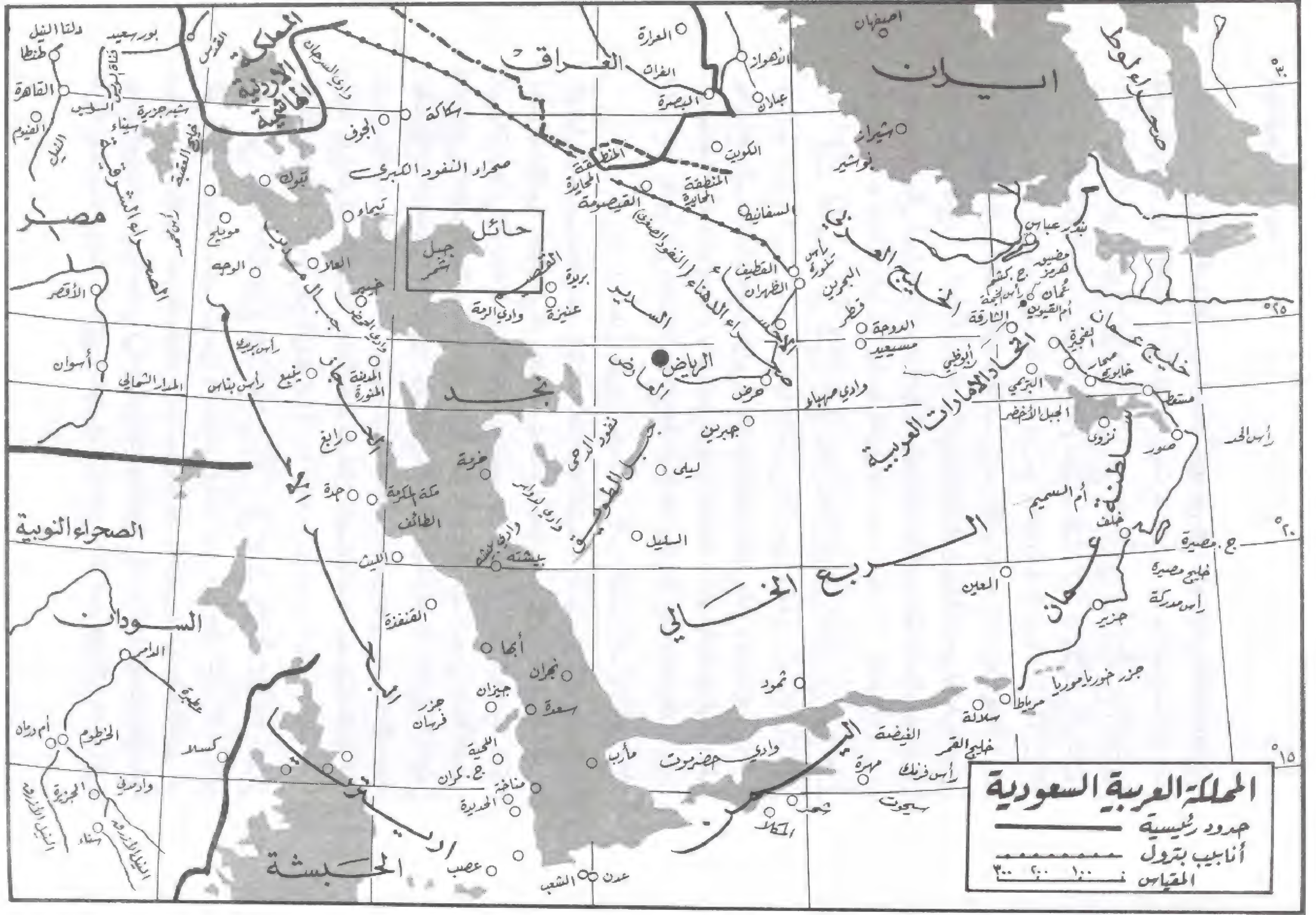
مراع جيدة. والماء الموجود تحت السطح قريب منه وسهل الاستخراج حتى أن هناكَ عنقوداً كبيراً بصورة غير اعتيادية من الواحات ـ بين جبل أجا وجبل سلمى ـ التي يمكن أن توصف بأنها مناطق من الخضرة محاطة بالصحراء. في القرن التاسع عشر أصبحت حائل «عاصمة» جبل شمّر.

بالاضافة إلى حائل كان هناك عدد صغير من الواحات والقرى الصغيرة في جبل شمّر. إذ كانت فيض تقع على بعد ٤٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من حائل. وكانت بساتين نخيلها تمتد ميلين أو ثلاثة أميال، وكانت الحبوب تزرع بقدر كبير. وكان تعداد سكانها الذين ينتمي قسم منهم إلى شمّر وقسم إلى بني تميم، يبلغ زهاء ١٠٠٠ نسمة. وكانت غُفار، الواحة الثانية، تساوي حائل تقريباً في عدد سكانها. وكانت الواحة واسعة وبساتين نخيلها حتى أكثر عدداً من بساتين حائل. وكان يسكنها بنو تميم. وكانت عَقْدة تضم مجموعة من القرى المبعثرة على مساحة واسعة من بساتين النخيل تملأ وادياً مغلقاً في جبل شمّر. إذ كانت مقفلة تماماً بجُرُف غرانيتية شديدة الانحدار، وكان آل الرشيد يعتبرونها معقلهم الأصلي (ادميرالتي Admiralty ١٩٢٠ : ٣٨٦). وكان اجمالي عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة. وكانت موقق والسبعان والمستجدة والغزالة والروضة واحات أخرى أصغر في جبل شمّر، مأهولة بخليط من قبيلتي شمّر وبني تميم.

قُدِّر عدد سكان جبل شمّر بعشرين ألف نسمة في عام ١٨٧٧ (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٢٠ الجزء الثاني). وقدَّره «دليل الجزيرة العربية» Handbook of Arabia بثمانية عشر ألفاً في عام ١٩٢٠[٤].

حائل

كان عدد سكان حائل الواقعة على ارتفاع ٩٧٩ متراً يبلغ ٣٠٠٠ نسمة في عام ١٨٧٧ (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٢٠، الجزء الثاني). ولا يمكن الركون إلى التقديرات الخاصة بعدد سكان حائل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فإن «دليل الجزيرة العربية» Handbook of Arabia يقترح رقماً قدره ٥٠٠٠ في عام ١٩٤٦ (ادميرالتي Admiralty ١٩٤٦ : ٥٦٦). ويذكر والن «ربما كانت حائل من آخر القرى التي نشأت في البلاد، حيث تدين بأصلها أساساً إلى كونها مسقط رأس العائلة الرئاسية الحالية والسابقة. ولا يرد ذكر


المملكة العربية السعودية
حدود رئيسية
أنابيب بترول
المقياس
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
إيران
العراق
الخليج العربي
خليج عمان
مسقط
عمان
الاتحاد الإمارات العربية
الربع الخالي
اليمن
نجد
الرياض
حائل
جبل شمر
المملكة الأردنية الهاشمية
مصر
السودان
الحبشة
الصحراء النوبية
الصحراء الشرقية
صحراء النفود الكبرى
صحراء لوط
الدهناء
الكويت
البصرة
العمارة
الفرات
الأهواز
عبادان
شيراز
بوشهر
أصفهان
بندر عباس
السفانية
الجوف
تبوك
تيماء
العلا
الوجه
مويلح
خيبر
المدينة المنورة
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة
الطائف
خرمة
الليث
القنفذة
أبها
نجران
جيزان
جزر فرسان
اللحية
الحديدة
عدن
الشعب
مأرب
المكلا
شحر
سيحوت
الغيضة
مهرة
خليج القمر
صلالة
مرباط
ثمود
العين
جزر خوريا موريا
جزيرة ج. مصيرة
خليج مصيرة
رأس مدركة
رأس الحد
صور
نزوى
الجبل الأخضر
البريمي
أبوظبي
الشارقة
أم القيوين
الدوحة
مسيعيد
قطر
البحرين
الظهران
القطيف
رأس تنورة
حرض
ليلى
السليل
جبرين
السدير
القصيم
بريدة
عنيزة
وادي الرمة
المنطقة المحايدة
القيصومة
الخرطوم
أم درمان
كسلا
الدامر
عطبرة
الجزيرة
سنار
القاهرة
طنطا
دلتا النيل
بورسعيد
السويس
شبه جزيرة سيناء
الأقصر
أسوان
النيل
الفيوم
٣٠°
٢٥°
٢٠°
١٥°
خريطة رقم « ١ »

حائل في عمل الجغرافيين العرب بوصفها قرية بل مجرد مكان في سلسلة أجا (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤: ٢٠٠).

عُدِّدت احياء حائل، بترتيب تقريبي من الغرب إلى الشرق، على أنها سماح وبرزان وسبهان وعبده ولبدة ومغيثة وعتيق وجبارة وجراد وقريشي ورخيص وفريخ وضبان وزقيدي ووسيطة (ج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٨: ٦٠٠ - ٦٠١ الجزء الثاني A). وكانت حائل محاطة بسور من اللبن يرتفع ١٥ - ٢٠ قدماً. وكان محيط السور يبلغ ٣ - ٤ أميال. وله أبراج دائرية وخمس بوابات هي بوابة المدينة إلى الجنوب الشرقي وبوابة مبَّة من ناحية الشرق وبوابة النجف إلى الشمال وبوابة جُبَّة غرباً وبوابة صغيرة أخرى إلى الجنوب الغربي.

كانت الأرض داخل السور تُزرع تيناً وقمحاً ومحاصيل أخرى في حين كانت الزراعة خارج السور أساساً زراعة النخيل والليمون الحلو والرمان والمشمش والتفاح والبرتقال. ويصف لوريمر الميدان الرئيسي في حائل، واسمه المسحب، بأنه يمتد ٢٥٠ ياردة طولاً و٢٥ ياردة عرضاً. وكانت السوق الرئيسية تسمى المبيع ولها ١٤٠ متجراً (ج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٨: ٦٠١ الجزء الثاني A).

كانت البيوت ذات طابق علوي بناؤها من الآجر المجفف بحرارة الشمس أو النخيل أو خشب الطَّرفاء. وكانت مادة البناء الرئيسية اللَّبِن غير المحروق وكانت الجدران المكتملة تُجعل ملساء ناعمة باستخدام الجص الطيني. وكانت هذه الجدران سميكة جداً وتوفر عازلاً ضد الدرجات القصوى للأحوال المناخية المحلية. وكان السطح يتألف من دعامات خشبية عليها حُصُر من سعف النخيل أو الأغصان، تغطيها عادة طبقة من الطين. ولم تكن الحجارة تُستخدم إلا للأساسات وفي التحصينات. وكثيراً ما كانت البيوت تُشيَّد حول فناء وسطي ليس له إلا منافذ قليلة على الشارع. وكانت مداخل البيوت تُغلق بنهايات طينية مستطيلة كبيرة ذات أشكال مزخرفة تنتصب في الزوايا.

في عام ١٨٣٦ نجح عبد الله بن رشيد في اقامة قاعدة سلطته في حائل التي بدأت تضطلع بدور سياسي واقتصادي قيادي ليس في جبل شمّر فحسب بل وفي وسط الجزيرة العربية بصفة عامة. وأنجز عبد الله بن رشيد بناء القصر في حائل الذي يوصف بتفصيل في الفصل الثالث. فقبل عام ١٨٣٦ كانت حائل مجرد قرية ذات بساتين من النخيل وسوق صغيرة. وخلال النصف الثاني من القرن

تحولت هذه القرية إلى واحة مهمة، وبدأت تكتسب بعض الخصائص الحضرية مثل الكثافة السكانية العالية. وشهدت نمو سكانها (٣٠٠٠ نسمة) وتركزهم في دائرة محيطها ٣ ـ ٤ أميال، على النقيض من واحات جبل شمّر الأخرى قليلة السكان. يضاف إلى ذلك أنه كانت لدى حائل مواقع حضرية كبيرة مثل المسجد والسوق وقلعة الحاكم.

علاوة على ذلك، ان سكان حائل أخذوا يصبحون أكثر تنوعاً بصورة متزايدة باجتذابها تجاراً من سوريا وبلاد النهرين ومنطقة القصيم. وتوطن هناك تجار مسيحيون ويهود شدهم إليها الازدهار والأمان بزعامة أمراء آل الرشيد. وعدَّد دوتي Doughty ٣٥ عائلة شيعية تحترف التجارة وتاجراً شيعياً من مشهد علي في العراق، كانوا قد توطنوا بالفعل (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٦٥٦ الجزء الأول).

وأدى وجود حائل محطة لقوافل التجار والحجاج القادمين من بلاد فارس وبلاد النهرين لزيارة مكة والمدينة إلى توسيع دورها. وشجع هذا على اقامة صلات ثقافية واقتصادية بين السكان المحليين وأهل حضارات متوطنة أعرق مثل سكان بغداد والبصرة وبلاد فارس.

وفي حائل بدأت تتكون فئات ذات مكانة متميزة على أسس محدَّدة[٥]. فتبوأت مجموعة آل الرشيد والعوائل الشمّرية القائدة التي توطنت في الواحة، أعلى موقع في الهرم التراتبي. وكان تجار حائل الفئة الموسورة الثانية التي حققت ثروتها نتيجة التعامل مع القوافل التجارية. وأصبحوا أصحاب نفوذ بتحالفهم مع الفئة الحاكمة التي التقت مصالحها التجارية مع مصالح التجار. وكانت الفئة الثالثة تتألف من زراع متوطنين من بني تميم يمتلكون أرضهم الخاصة في الواحة ويمارسون زراعة النخيل بالدرجة الرئيسية. وكانت الفئة الرابعة تضم الحرفيين الذين احتلوا موقعاً متدنياً بسبب مهنتهم وافتقارهم إلى الأصل القبلي. وكانت الفئة الأخيرة ضمن التركيب الطبقي في حائل، تتكون من العبيد الذين كانوا خدماً في البيوت وعمالاً زراعيين.

وانعكس عدم تجانس سكان حائل في الاصطفاف المكاني. فقد كانت الحارات المختلفة تتجمع في ثلاثة أحياء رئيسية هي لبدة، حي الحرفيين والتجار، وبرزان حي العبيد والغرباء في المدينة، ووقيدة، حي الفئة الحاكمة (ر. مونتان .R

Montagne ١٩٤٧ : ٧٧). ولكن حائل لم تكن فريدة من هذه الناحية[٦]. اذ يزعم موسيل Musil واصفاً واحات شمال الجزيرة العربية «أن كل واحة أو مستوطنة تنقسم إلى مناطق مأهولة بأفراد عشيرة أو قبيلة واحدة. ولكل منطقة زعيمها. وأقوى الزعماء يعتبر كبير زعماء المستوطنة» (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٣٠٢). وظلت فئات السكان المختلفة منعزلة فيزيائياً إلى حد بعيد عن بعضها بعضاً. وكان سكان الحي يمثلون شبكة متلاحمة وليس سكان الواحة بصفة عامة. وكانت الاقامة في الحي تعتمد على الأصل العائلي والمهنة.

بقيت الحياة في حائل، رغم سماتها المدينية، امتداداً لحياة الصحراء. وكان هذا نابعاً من الحقيقة الماثلة في أن حائل تقع في جبل شمّر، وهو منطقة تقطنها أعداد متساوية تقريباً من السكان الحضر والبدو ـ على النقيض من جنوب نجد الذي كانت تسكنه بالدرجة الرئيسية جماعات متوطنة في عناقيد من الواحات. وفي غياب الاحصائيات الدقيقة، يتعين الاعتماد عل التقديرات المتاحة. وقد قدر وهبة أنه كان في جبل شمّر ٢٠ ألف بدوي و٢٢ ألف حضري في العقد الأول من القرن العشرين (هـ. وهبة H. Wahba ١٩٣٥ : ٧٣). وبالتالي أصبحت حائل، بوصفها مدينة صحراوية، جزءاً من عالمين لم يكونا مختلفين بالضرورة أحدهما عن الآخر. ولم يكن سور حائل يرسم حدوداً صلدة بين الصحراء والواحة بل كان هناك فضاء متصل بين الاثنتين طمس التقسيمات بين الحضر والبدو.

في القرن التاسع عشر لم يكن من المشاهد غير المألوفة رؤية بدو مع خيامهم على بعد مسافة قصيرة من الواحة. ففي موسم الحر والجفاف كانت حائل تجتذب عدداً كبيراً من أفراد شمّر الذين يضطرهم المناخ للانكفاء إلى مناطق يكون الماء وفيراً فيها. ولاحظ دوتي وجود «بدو مقيمين» نصبوا خيامهم حول سور حائل عندما زار المنطقة: «انهم شمّر الذين توجد ماشيتهم القليلة مع أهل قبيلتهم في الفلاة: في أشهر الربيع ينتقلون أيضاً صوب هذه الناحية، ويجددون نشاطهم في موسم الحليب القصير. . حسبتُ خيامهم، ثلاثين، وأقرب إلى بوابة غُفار كانت خمس عشرة سقيفة أخرى لشمر شبه مقيمين، منصوبة دون بناء طيني» (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٦٧١ ـ ٦٧٢ الجزء الأول).

لعل هذه التعليقات تجيز لنا أن نعيد النظر في ثنائية البدو والحضر، على الأقل في سياق جبل شمّر. فحين تُستخدم تسمية «البدو» لوصف شمّر، تشير إلى

مجموعة من البشر يمارسون رعي الحيوانات ويتّبعون نمطاً من الترحال ويقيمون في الواحات لبعض الوقت، لا سيما خلال موسم الجفاف، وربما يملكون مساكن ومزارع نخيل في الواحات، ويدخلون في علاقات تجارية مع الحضر. بكلمات أخرى، لم تكن البداوة إلا جانباً واحداً من حياتهم. ومن الجهة الثانية، تشير تسمية «الحضر» إلى أهل الواحات الذين يسكنون في بيوت بصورة دائمة، ويكونون من الزراع أو الحرفيين أو التجار، وربما لديهم قطعان من الحيوانات في الصحراء.

وازداد التقسيم بين البدو والحضر ضبابية نتيجة علاقات التكافل التي كانت قائمة بين الجماعتين. فقد كان الاقتصاد المحلي لجبل شمّر يتسم بتجاور ثلاثة نشاطات اقتصادية هي الرعوية (أي رعي الحيوانات) والزراعة (زراعة النخيل بالدرجة الرئيسية) والتجارة. ولم تكن هذه تشكل ثلاثة قطاعات منفصلة ومتخصصة بل كانت جزءاً من اقتصاد واحد. ولم يكن من الغريب أن توجد عوائل شمّرية تمارس رعي الحيوانات على أساس منتظم وتتعاطى التجارة في الآن نفسه. إذ كانت بعض العوائل تشارك في تجارة القوافل مع بلاد النهرين. وكانت تضطلع بنقل البضائع، وكان بعض هؤلاء أنفسهم من التجار، كما كان شائعاً بين العوائل الشمّرية أن تملك أرضاً زراعية ومزارع نخيل في الواحات، وكانت لدى بعض العوائل الرئاسية القائدة بيوت دائمة هناك.

وعلى الغرار نفسه كانت لدى بعض سكان الواحة قطعان في الصحراء. وظلت عوائل شمّرية حضرية في حائل تمتلك جمالاً تسرح مع أفراد العوائل أو الرعاة في الصحراء. وكان سكان الواحات يعتمدون على أصحاب الحيوانات لإمدادهم باللحوم والزبدة المصفاة والأصواف والمنتجات الحيوانية بصفة عامة. وكان بعض سكان الواحات تجاراً يمثلون حلقة وصل بين البدو والحضر. وكانت لدى التجار علاقات تجارية مع بلاد النهرين حيث كانوا يستوردون منتجات مختلفة بضمنها الحبوب والتمور والرز والبن والسكر والملابس والأحذية والأسلحة.

لذا كان الاقتصاد المحلي يتسم بعلاقات تكافلية بين «البدو» و«الحضر». وقد أتاح الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين الصحراء والمدينة وجود استمرارية ثقافية بدلاً من وجود ثنائية بين قطاعي السكان.

البشر

كان شمّر الذين يسكنون صحراء النفود الكبرى وجبل شمّر يعتبرون أنفسهم ويعتبرهم الآخرون[٧] بأنهم ينتمون إلى قبيلة، وهي تسمية محلية تستخدمها جماعات عديدة في الشرق الأوسط، وكثيراً ما تترجم إلى الإنكليزية بكلمة tribe. ولكن هذه التسمية ربما كانت تمثل واحداً من أكثر المفاهيم خلافية في الأدب الانثروبولوجي، من جراء الادعاء القائل بأنها تصف جماعات متنوعة قد تكون أو لا تكون لها سمات مشتركة فيما يتعلق بالتنظيم الاقتصادي والسياسي. ففي الجزيرة العربية، مثلاً، كان هناك حضر مثل بني تميم، يسمون أنفسهم قبيلة. وكان هناك رعاة إبل مثل شمّر والمرَّة في الربع الخالي وعنزة والروالة في الصحراء السورية، يعرفون أيضاً بوصفهم قبائل. يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك قبائل تمارس رعي الغنم والماعز مثل الحوازم والشرارات. وخارج الجزيرة العربية وفي عموم شمال افريقيا تستخدم جماعات كثيرة تسمية «القبيلة». ففي مصر، على سبيل المثال، ذُكر أن أولاد علي يستخدمون التسمية (ل. أبو لغد L. Abu-Lughod ١٩٨٦). وترد كلمة «قبيلة» المرة تلو الأخرى بين بني سعدى في سرنيقة (ا. ايفنز ـ بريتشارد E. Evans-Pritchard ١٩٤٩. وا. بيترز E. Peters ١٩٦٧) وبني بتو في المغرب (د. ايكلمان D. Eickelman ١٩٧٦).

ان القائمة طويلة جداً ولا يراد لهذه الأمثلة أن تكون نهائية. والنقطة التي أشدد عليها هنا تتعلق بالطائفة المتنوعة ممن يُسمون قبليين على أساس نشاطهم الاقتصادي (يمكن أن يكونوا رعويين أو زراعيين أو تجاراً في حالة قبيلة قريش في القرن السادس) وأصلهم الاثني (في حالة الشرق الأوسط يمكن أن تكون القبائل عربية أو بربرية أو كردية أو تركية أو فارسية وهلم جراً) والتنظيم السياسي ـ الاجتماعي (يمكن أن يكونوا بلا رئاسة أو ممركزين بقيادة زعماء وشيوخ وأمراء أقوياء) ودرجة الاستقلال السياسي (يمكن أن تحتويهم الدولة أو يكونوا مستقلين عن السلطة المركزية).

ويشجع تنوع المجتمعات التي تعتبر نفسها قبائل بعض الانثروبولوجيين على الجدال بأن المفهوم باطل وليس له قيمة سوسيولوجية (م. غوديليه M. Godelier ١٩٧٧، م. فريد M. Fried ١٩٧٥). وذهب آخرون إلى أن القبائل مُختَلَقات من صنع القوى الاستعمارية لأغراض ادارية. وفي حالات مثل المغرب والسودان

عملت القوى الاستعمارية في السابق على تشجيع الهويات «القبلية» وطورت الادارة القبلية إلى فن رفيع في محاولة لتعطيل الحركات القومية (د. ايكلمان D. Eickelman ١٩٨١ : ٨٩). وقبل فريق ثالث بتسمية «القبيلة» لأنها تمثل مفهوماً محلياً يشير إلى هوية ووحدة وتلاحم بين أفراد يدعون أن بينهم علاقات قرابية مشتركة.

وما أن يُقْبَل المفهوم حتى تصبح مشكلة التعريف مشكلة حادة. وقد نُشر الكثير من المقالات والكتب حول مفهوم «القبيلة»[٨]. ويشعر تقريباً كل الانثروبولوجيين الذين يستخدمون كلمة «قبيلة» بالحاجة إلى تحديد المقصود بها، الأمر الذي يشير إلى غياب الاتفاق على معنى الكلمة. وأحياناً تُعطى هذه التعاريف بلغة عامة وفضفاضة لتشمل الطائفة المتنوعة من المجتمعات التي تسمي نفسها «قبائل».

شدد الانثروبولوجيون، معرِّفين كلمة «القبيلة»، على ثلاثة أبعاد. أولاً، يستحضر الأفراد في أحيان كثيرة الأصل المشترك والصلات القرابية حين يدَّعون الانتماء إلى قبيلة. فهم يقولون «اننا نرتبط نَسَبياً وبالتالي نحن قبيلة واحدة» أو «اننا قبيلة واحدة وبالتالي لا بد أن نكون مرتبطين نَسَبياً». وعلى سبيل المثال، يؤكد تابر Tapper أن القرابة هي نمط التنظيم السائد بين القبائل (ر. تابر R. Tapper ١٩٨٣ : ٩). ثانياً، جرى التشديد أيضاً على الوظائف السياسية للقبيلة. فما يصنع القبيلة هو الحقيقة الماثلة في أنها رابطة تعاضدية محلية يساعد أعضاؤها بصورة مشتركة في الحفاظ على النظام داخلياً والدفاع عن الوحدة خارجياً (ا. غلنر E. Gellner ١٩٨٣ : ٤٣٨). وتُعطى التعاريف أحياناً من زاوية الطريقة التي تنشأ بها القبائل. ويجادل بيك، مثلاً، بأن القبيلة كيان ينبثق من الاحتكاك بين أفراد محليين يتقاسمون الموارد، منظمين تنظيماً غير دولتي، وكيانات أكبر، أشد تعقيداً، لا سيما الدول (ل. بيك L. Beck ١٩٨٦ : ١٤ ـ ١٥). رابعاً، بدلاً من اعطاء تعريف واحد، يميز بعض الانثروبولوجيين بين أربعة استعمالات: الايديولوجيا المحلية الأصلية للهوية القبلية، والمفهوم الاداري، والمفهوم العملي الضمني لدى الأفراد، وأخيراً مفهوم القبيلة التحليلي ـ الانثروبولوجي (د. ايكلمان D. Eickelman ١٩٨١ : ٨٨). وبحسب هذه المقارنة، كلما يرد ذكر كلمة «قبيلة»، يتعين على المرء أن يوضح ما إذا كان يشير إلى الايديولوجيا أو المفاهيم العملية أو

التعريف الاداري أو التعريف السوسيولوجي للعلماء.

ولكن تعريف القبيلة في هذه الدراسة لن يُعطى بمعنى عام بل سيكون مستمداً من سمات المفهوم بين شمّر. وبالتالي فإنه قد يصح أو لا يصح على القبائل عموماً.

شمر

في القرن السابع عشر انقسمت شمّر إلى مجموعتين: شمّر بلاد النهرين (أو شمّر الشمالية) وشمر جبل شمّر (أو شمّر الجنوبية). وتقطن المجموعة الشمالية، مع مجموعات أخرى، المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات. وقد انتقلت من جبل شمّر إلى الشمال بحثاً عن كلأ ومياه أفضل. ولكن هجرة جديدة حدثت في أواخر القرن الثامن عشر نتيجة المجابهة مع الامارة السعودية ـ الوهابية الآخذة في التوسع[٩]. والعشائر الرئيسية لشمر الشمالية هي شمّر الجرباء وشمر طوقة وشمر الزقاريط. واستمرت بعض هذه المجموعات في ممارسة الرعي فيما أصبحت مجموعات أخرى من الزراعيين الحضر. وعلى سبيل المثال أصبحت شمّر طوقة وشمر الزقاريط شبه بدوية بمعنى أنها كانت ترحل إلى الجزيرة (الصحراء السورية) غرب الفرات في الربيع وتعود إلى قراها في الصيف. واعتنقت المذهب الشيعي في بلاد النهرين بتأثير الجماعات الشيعية في المنطقة بينما بقيت شمّر الجنوبية سنية من المذهب الحنفي[١٠]. وشمر الجنوبية هي موضع الاهتمام الرئيسي لهذا الكتاب، وسيشار إليها بوصفها شمّر توخياً للتبسيط.

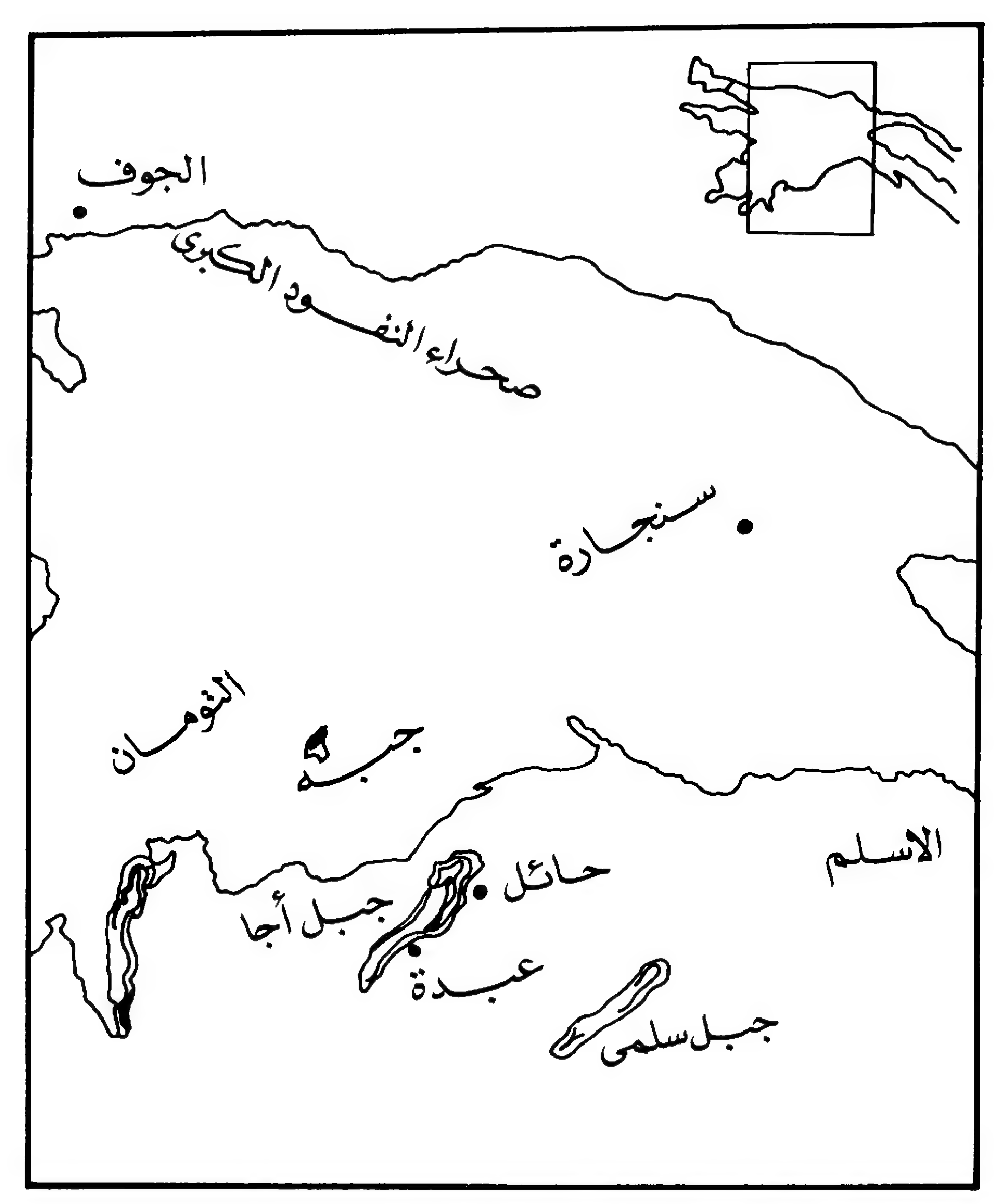
قبل الاقدام على أي تعريف للقبيلة بين شمّر، من المهم أن نحدد حجم الوحدة. وفي غياب الاحصائيات الدقيقة يتعين الاعتماد على التقديرات المتاحة عن شمّر في القرن التاسع عشر. واستناداً إلى «دليل الجزيرة العربية» Handbook of Arabia قُدِّر أن مضارب شمّر كانت تتألف من ٤٠٠٠ خيمة (ادميرالتي Admiralty ١٩٢٠ : ٧٧). ومن الجهة الأخرى يزعم مونتان «ان شمّر تشكل اتحاداً يمكن أن يقدر حجمه، في غياب أي احصاء، بحوالي ١٥٠ ـ ٢٠٠ ألف نسمة». (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢ : ٦٣). وكانت تقديرات مونتان تشمل شمّر الواحات الحضر الذين بلغ عددهم زهاء ٢٠ ألف.

هؤلاء الـ ١٥٠ ـ ٢٠٠ ألف شخص كانوا يشكلون قبيلة شمّر المؤلفة من

اتحاد وحدات أصغر. واستناداً إلى متخصصين في أنساب شمّر فقد كانت تنقسم إلى أربع عشائر هي الأسلم (١٢٠٠ خيمة) وسنجارة (١٠٠٠ خيمة) وعبدة (١٥٠٠ خيمة) والتومان (٣٠٠ خيمة) (تقديرات في «دليل الجزيرة العربية» Handbook of Arabia ١٩٢٩). وكانت هذه العشائر تدعي انحدارها من رأس واحد، وتشترك في أرض محدَّدة تتقاسم مواردها ومراعيها ومياهها وواحاتها. إذ كانت شمّر عبدة تستخدم الأرض الواقعة بين جبل أجا وجبل سلمى في حين كانت خيام الأسلم إلى الشرق من عبدة. وكانت سنجارة تقطن الجزء الأوسط من صحراء النفود الكبرى (الخريطة رقم ٢).

لذا كانت القبيلة رابطة كبيرة بين أفراد يدعون الانحدار من أصل مشترك، الأمر الذي أسبغ عليها وحدة هشة. إذ كانت الحقيقة الماثلة في أن القبيلة تتألف من مجموعة كبيرة منتشرة في صحراء النفود الكبرى وجبل شمّر، تعمل ضد نشوء احساس قوي بالوحدة[١١]. يضاف إلى ذلك أنه، حتى عام ١٨٣٦، لم يكن لدى قبيلة شمّر زعيم أو رأس واحد. ولم ترتبط شمّر بقيادة مشتركة الا بعد صعود أمراء آل الرشيد إلى السلطة في حائل. وعلى النقيض من القبيلة كانت للعشيرة وحدة سياسية وعسكرية تنعكس في دور شيوخ العشائر. إذ كان رأس العشيرة يمثل مركزاً يلتف حوله أفراد العشيرة.

وكانت كل عشيرة تتألف من عدد من الأفخاذ. وتستخدم شمّر استعارة فخذ الإنسان الذي يمتد بالتعريف من الجذع، وهو في هذه الحالة العشيرة. وكانت الأفخاذ (١٠٠ ـ ١٥٠ خيمة) هي الوحدات الأساسية في ممارسة الرعي ونصب الخيام، تنتقل وتقيم خيامها مع حيواناتها. وكان الفخذ يدَّعي ملكية الآبار والمراعي الموجودة في ديرته. وتحمل الآبار وسم الفخذ الذي يشير إلى استئثار الأنساب الأصغر بحق استخدام الآبار. ويتألف الفخذ من عدد من الأنساب الأصغر (الحمولة). والحمولة مجموعة تشاركية ذات نَسَب أبوي تتألف من جد وجدة (جدات) وذات ego وزوجته (زوجاته) وأبنائه وأشقائه أو أخوته وزوجاتهم وأبنائهم. بكلمات أخرى، تتألف الحمولة من مجموعة من أبناء العمومة الحقيقيين. ويقيم أفراد الحمولة، عادة، خيامهم قرب بعضهم بعضاً، ويرعون حيواناتهم كوحدة واحدة.



خريطة رقم « ٢ »

توزع شمر

تنقسم الحمولة بدورها إلى عوائل أصغر تسمى كل منها «بيت». والبيت هو الوحدة السكنية. ويتألف البيت من الذات وزوجته (زوجاته) وأطفاله، ويميل البيت إلى أن يقام على أساس الزواج. فإن زواج الابن يتيح له الانتقال من خيمة أبيه ونصب خيمته الخاصة. كما يُعطى الابن نصيبه من القطيع بما يمكنه من البقاء مكتفياً ذاتياً في استهلاك عائلته من الحليب واللحوم.

كانت القبيلة والعشيرة والفخذ والحمولة والبيت وحدات ذات أحجام وأهمية سياسية متفاوتة. فقد كانت الأولى والثانية وحدات سياسية في حين أن الثلاثة الأخيرات كانت وحدات اقتصادية وخيمية وسكنية. وهذه التسميات مستمدة من لغة التقسيم عند شمّر ولم تكن خاصة بشمر وحدها[١٢].

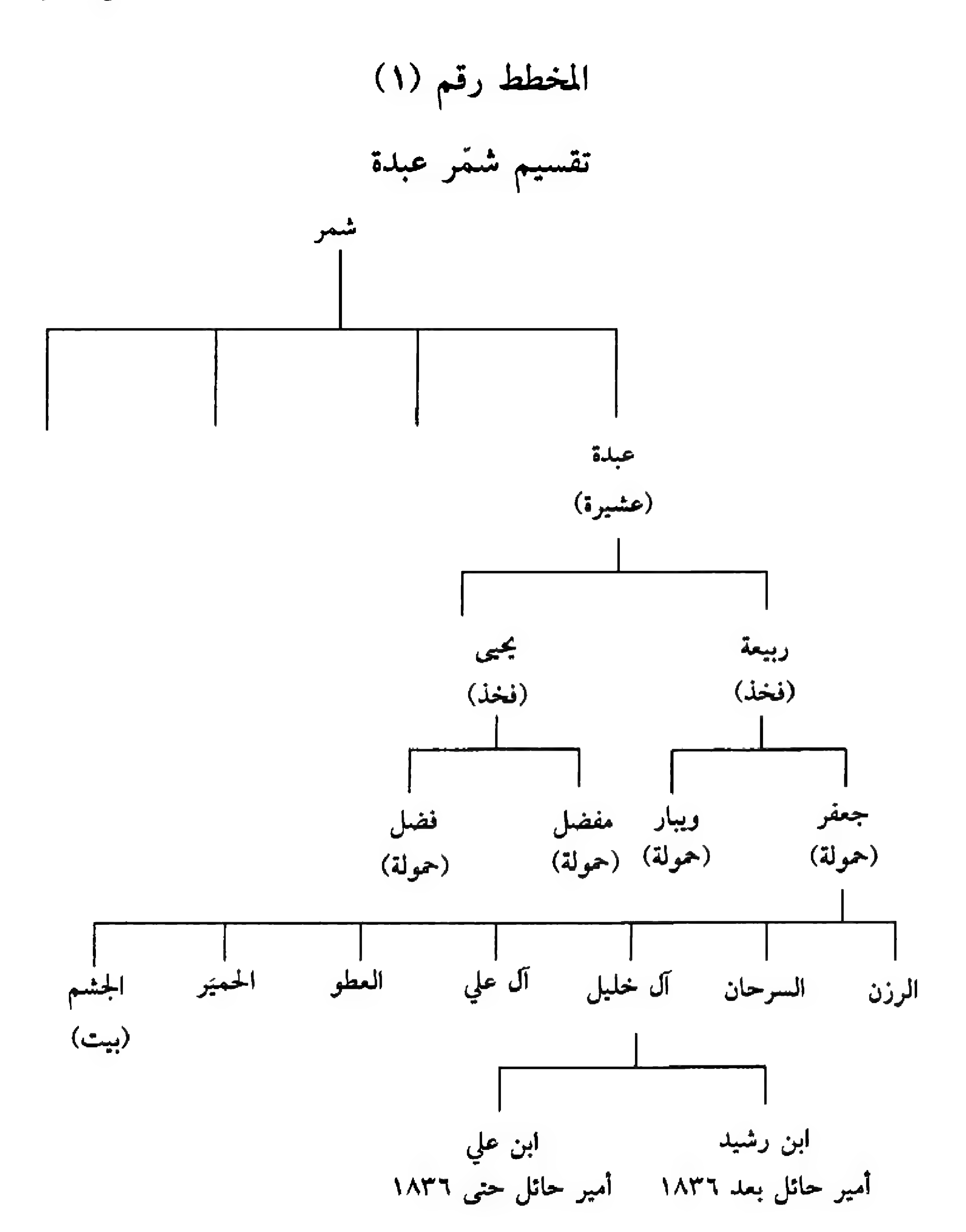
كانت البيوت في غالبية الحالات غير قادرة على الوجود بمفردها نظراً لصغر حجمها وعجزها عن الدفاع عن نفسها بقواها البشرية المحدودة وحدها. وكان القطيع لا يكفي أحياناً لادامة أود البيت الذي يبقى مرتبطاً بحمولته. وكانت الحمولة تجمع مواردها لتتقاسمها فيما بينها وترعى حيواناتها بصورة مشتركة رغم أنها لا تمتلك مراعيها ومياهها الخاصة. وكانت عدة حمائل تتحد لتشكيل فخذ يكون مخيم الرعي الرئيسي. وكان الفخذ يمارس السيطرة على موارده وقطعانه ويمتلك مراعي وآباراً في ديرة القبيلة. وكانت الأفخاذ أجزاء من العشيرة. وفي حين أنها كانت وحدات اقتصادية فإن العشيرة كانت ذات أهمية سياسية. وكان لكل عشيرة من عشائر شمّر شيخ يكون عادة ابن حمولة مرموقة. وكانت زعامة سنجارة لابن ثنيان وكان ابن طوالة شيخ الأسلم فيما كان ابن تمياط شيخ التومان.

كانت شمّر عبدة أكبر العشائر (١٥٠٠ خيمة) وكانت سلالة آل الرشيد في حائل تمثل هيمنة هذه العشيرة لأن أمراء آل الرشيد ينحدرون في أصلهم من عبدة. وتنقسم عبدة إلى فخذين: يحيى وربيعة. وينقسم فخذ يحيى إلى حمولتين: الفضل وشيخهم ابن جبرين والمفضل وشيخهم ابن عجيل. وتتألف ربيعة من حمولتين حيث كان ابن علي شيخ الجعفر فيما كان ابن جدي شيخ الويبار. وتتألف حمولة الجعفر من سبعة بيوت: الجشم، الحِمْيَر، العطو، آل علي، آل خليل، السرحان، والرزن (المخطط رقم ١). وكان حاكم حائل قبل عام ١٨٣٦، وهو ابن علي، ينحدر من آل خليل كما ينحدر منهم أمراء آل الرشيد.

ورغم وجود مستويات مختلفة من التقسيم فإن شمّر التزمت بايديولوجيا عملية أكدت فيها وحدتها على مستوى القبيلة. وما أعنيه بالايديولوجيا العملية، على حد تعريف ايكلمان، «منظومة المعتقدات التي تؤلفها افتراضات مشتركة، ضمنية في الأساس حول جوانب أساسية في النظام الاجتماعي مثل مفاهيم القبيلة والقرابة والأسرة والشخص... الخ» (د. ايكلمان D. Eickelam ١٩٨١ : ٨٦). وكانت لدى شمّر افتراضات مشتركة ذات صلة مباشرة بحياتها اليومية. وكانت هذه الافتراضات تغطي المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، وتشترك في تركيزها على تعزيز وحدة الجماعة وتلاحمها. فالافتراضات السياسية تشدد على التسوية السلمية للنزاعات القبلية، والتعاضد. كما كانت القبيلة تمثل حلبة التحالفات السياسية المحتملة. وعلى المستوى العسكري اتخذت شمّر على عاتقها التزامات قوية بشأن تفادي المجابهة العسكرية مع بعضها بعضاً والتعاون العسكري بوجه الخطر الخارجي. وكانت هذه الالتزامات تتبدى في معايير ثقافية. وكانت أحياناً توضع في حيز التطبيق ولكنها ظلت في غالب الأوقات معتقدات مثالية تصف «العمل الصائب». والأدلة المتاحة من تاريخ شمّر تسند هذه الصيغة[١٣]. إذ من الصعب أن نتخيل أن شمّر، وهم مجموعة تضم ١٥٠ ـ ٢٠٠ ألف شخص، كانوا يتعاونون على المستوى العسكري للدفاع عن بعضهم بعضاً حين تتعرض عشيرة أو فخذ إلى هجوم. إذ سيكون من المتعذر استنفار مجموعة كبيرة كهذه للدفاع أو الهجوم. وعلى المستوى الاقتصادي كانت لدى شمّر أيضاً منظومة من الافتراضات حول الالتزام بتقاسم الموارد الاقتصادية في أرضهم، ومساعدة بعضهم بعضاً في أوقات الجفاف والشح.

المخطط رقم (١)

تقسيم شمّر عبدة



يعتبر مصطلح «القبيلة» هنا مفهوماً سوسيولوجياً هاماً لأنه مفهوم ثقافي أوجده الأفراد في ظروف من التشظي والتشتت والتهديدات الدائمة بالهجوم. ويمنح هذا المفهوم للأفراد احساساً بالهوية ليس سكونياً أو جامداً. فحين كان الأشخاص الذين يسكنون صحراء النفود الكبرى وجبل شمّر يدَّعون الانتماء إلى قبيلة واحدة، كانوا يطلقون دعاوى حول خصوصيتهم ووجود أواصر جماعاتية تنطوي بالتعريف على التعاون والتعايش السلمي. لذا يمكن اعتبار القبيلة مفهوماً دينامياً يرسي معايير لتنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية بين أفراد يدعون وجود صلات قرابية بينهم. وارتبط المفهوم في الأدب الانثروبولوجي بنموذج النسب التقسيمي Segmentary lineage model.

ظهر هذا النموذج لأول مرة كنظرية منهجية في كتابات ايفنز ـ بريتشارد Evans-Pritchard (١٩٤٠) واستُحدث في البداية من أجل تفسير التنظيم السياسي للنوَر، رعاة الماشية في جنوب السودان. واستخدم النموذج فيما بعد في سياق شمال أفريقيا، وخاصة بين بدو سرنيقة في ليبيا (١٩٤٩). وسعى ايفنز ـ بريتشارد إلى أن يفسر وجود ووظائف أنساب قبلية معقدة وآليات التحالفات السياسية في المجتمعات القبلية التي ليس لها سلطة مركزية. وجادل بأن الوظيفة الأساسية للنَسَب القبلي هي توفير نموذج Paradigm للعمل السياسي، كأن يكون، على سبيل المثال، تسوية نزاعات بين المجموعات المختلفة الممثَّلَة في النَسَب. ولكي تكون نظرية النَسَب التقسيمية صالحة للتطبيق ينبغي أن يتوفر الآتي: أولاً، ينبغي أن تكون لدى الجماعات ايديولوجيا أصل أحادي قوية. ثانياً، ينبغي أن توازن الجماعات جماعات أخرى ذات قوة متساوية على كل مستوى من مستويات التقسيم. وثالثاً، ينبغي أن تكون لدى الجماعات والأفراد ايديولوجيا مساواة قوية تقوم على المساواة في الولادة. وإذ حاول ايفنز ـ بريتشارد أن يفسر النظام والسلام في المجتمعات التي لا رأس لها، ذهب إلى أنه في غياب الزعامة المركزية، يُصان السلام نتيجة المعارضة المتساوية بين جماعات تقسيمية. فهناك وضع من الفوضى المنظَّمة بدلاً من اللاانتظام التام والنزاعات الأبدية (١٩٤٠ : ٦). وينبثق النظام السياسي التقسيمي من الظروف السياسية غير المستقرة بين شعوب ليس لديها مؤسسات سياسية متطورة.

لقد استخدم نظرية النَسَب التقسيمي انثروبولوجيون كثيرون يشتغلون بمادة

قبلية مستقاة من أفريقيا والشرق الأوسط (م. فورتس M. Fortes ١٩٥٣، ج. مدلتون J-Middleton، د. تيت D-Tait ١٩٥٨، أ. م. لويس I.M- Lewis ١٩٦١، وا. غلنر E- Gellner ١٩٦٩). وانتقد هذه النظرية مؤخراً انثروبولوجيون عديدون (م.غ. سميث M.G- Smith ١٩٥٦، ا. بيترز E. Peters ١٩٦٧، أ. حمودي A. Hammoudi ١٩٨٠، هـ. غيرتز H. Geertz ١٩٧١، سي. غيرتز C. Geertz، ل. روزن L. Rosen ١٩٧٩، م. ميكر M. Meeker ١٩٧٩، ج. ب. ديغار J.P. Digard ١٩٧٨، ود. ايكلمان D. Eickelman ١٩٧٦ و١٩٨١). وقد أعيد انتاج المناظرة بين أنصار النظرية وخصومها (أ. غلنر وسي. ميكود C. Micaud ١٩٧٣، ا. غلنر ١٩٨١، م. سالنز M. Sahlins ١٩٦١ ود. ايكلمان ١٩٨١) في مجال آخر ولا داعي لتكرارها. لكن ما يعنينا هنا هو مساهمة بيترز Peters في فهمنا للنظرية. ففي دراسته لبدو سرنيقة يجادل بأن النموذج النَسَبي التقسيمي ليس نموذجاً سوسيولوجياً بل اطار مرجعي يستخدمه شعب محدَّد لمنحه فهماً من النوع المنطقي لعلاقاته الاجتماعية (١٩٦٧: ٢٦١). ويزعم بيترز أن النموذج التقسيمي إذ يكون نوعاً من الايديولوجيا يمكّن البدو من فهم علاقاتهم الاجتماعية، سيكون من الخطأ الخلط بين مثل هذا النموذج الشعبي والتحليل السوسيولوجي. ويسوق أربعة اعتراضات على النموذج: أولاً، أن حجر الزاوية في نظرية الأنظمة النَسَبية يتمثل في أن هذه الأنظمة تتألف من جماعات في معارضة متوازنة مع بعضها بعضاً طول الوقت، ولكن هذا لا يصح على الجماعات التقسيمية. ثانياً، بحسب هذه النظرية، تلتقي الجماعات لتشكيل أقسام أكبر في مواجهة أقسام مماثلة، ولكن حين تتحد في سرنيقة، فإنها تفعل ذلك حسب قواعد نظرية النَسَب التقسيمية. ثالثاً، طبقاً لهذا النموذج يجب أن تكون لدى الجماعات كلها موارد متساوية وحجم متساوٍ. ولكن الجماعات في الواقع تتفاوت في الحجم والثروة الاقتصادية. رابعاً، ان نظرية النَسَب لا تأخذ في الحسبان دور النساء والصلات التي تقام من خلالهن. وتستند انتقادات بيترز لنظرية النسب التقسيمية إلى التشديد على الافتراق بين ما يقوله البدو وما يفعلونه حقاً. وبسبب هذا التباين يخلص إلى أن النموذج التقسيمي عديم الفائدة كاطار تحليلي وسوسيولوجي.

انثروبولوجيون آخرون مثل ميكر Meeker انتقدوا النظرية التقسيمية على أسس شكلية. اذ يجادل ميكر بأنه «في الوقت الذي توحي [النظرية] بأن البدو رجال عمليون يفكرون بلغة المصلحة الذاتية فإنها تخفق في تفسير الطريقة الشكلية

إلى حد بعيد التي يتصورون بها مصلحتهم الذاتية» (م. ميكر M. Meeker ١٩٧٩ : ١٣). وحين يُطبق النموذج على بدو شمال الجزيرة العربية يجادل ميكر قائلاً إن النموذج لا يكون صالحاً للعمل. فإن نمط تقسيمهم السياسي لا يتفق مع «المفهوم الكلاسيكي للنظام السياسي التقسيمي» حسبما طوره ايفنز ـ بريتشارد. ويجادل ميكر بأن العلاقات السياسية بين بدو شمال الجزيرة العربية لم تكن ممثلة بمؤشرات نَسَب تقسيمي سياسياً. وبدلاً من ذلك برز مستوى واحد من التجمع السياسي، هو القبيلة، بوصفه جماعة سياسية ذات مرجعية سياسية واضحة المعالم. يضاف إلى ذلك زعمه القائل بأنه لم يكن هناك بكل تأكيد تراث نَسَبي كبير بين هؤلاء الأفراد يحلل بنية اتحادهم القبلي على مستوياته الأعلى ويحلل الأصل النَسَبي الأبوي لكل ذكر من أفراد القبيلة على مستوياته الأدنى. فإن العلاقات النَسَبية بين القبائل لم تكن عادة تُمَثَّل بمعايير نَسَبية. وإن قبائل شمال الجزيرة العربية لم تكن جماعات مبنيَّة، ولا كانت علاقاتهم السياسية علاقات مبنيَّة. ويخلص ميكر إلى أنه ليس من الممكن وصف العلاقات السياسية لبدو شمال الجزيرة العربية بأنها نمط ثابت من التحالفات السياسية التقسيمية. فداخل القبيلة ليس هناك تمثيل نَسَبي منهجي للقبيلة بوصفها بنية تقسيمية سياسياً. وخارج القبيلة كانت العلاقات بين القبائل مُمَثَّلة في شكل تقسيمي ولكن هذه التمثيلات لا ترتدي شكل ايديولوجيا تقسيمية سياسياً لأن التحالفات بين القبائل لم تكن ثابتة بما فيه الكفاية لتصورها بلغة نَسَبية (المصدر السابق: ١٩٢). والجدير بالملاحظة أن ميكر خلص إلى استنتاجه من خلال تحليل أدب الرواية السياسي.

يسوق ميكر وبيترز على السواء أمثلة على أوضاع لا يخضع فيها التنظيم القبلي وتسوية النزاعات والتحالفات السياسية للنموذج التقسيمي. وقد أتاحت مثل هذه الأمثلة لهما ولخصوم آخرين أن يدَّعوا أن النموذج عديم الفائدة كاطار سوسيولوجي لتحليل التنظيم السياسي بين القبليين. وبغية التوصل إلى تقييم للنموذج، يميز دريش Dresch بين نظرية النَسَب والتقسيم. فالأولى تُعنى بتعاقب احداث على مستوى الملاحظة (وخاصة بظهور الجماعات) فيما يتناول الثاني العلاقات الشكلية التي تتسم بها أنواع ممكنة من الأحداث (پ. دريش P. Dresch ١٩٨٦ : ٣٠٩). بكلمات أخرى، أن التقسيم يرتبط ببنية جماعات في حين أن نظرية النَسَب التقسيمية توفر اطاراً من أُطر التنظيم بين الأقسام. ويقر دريش بمفهوم «التقسيم» لأنه يقدم عوناً ضرورياً لأفق «تحديد الافتراضات الضمنية التي

يصنعها الأفراد أنفسهم» (المصدر السابق: ١٣٩)، ولكنه ينبذ نموذج النَسَب التقسيمي الذي لا يتيح مجالاً للأفعال والانشغالات الفردية. وهو يضيف، أن التقسيم ليس بأي حال المبدأ الوحيد الذي يعمل في المجتمع القبلي لأن الجماعات يمكن أن تتشكل وتتراكب مع أنماط كثيرة أخرى غير الأنماط التي توحي بها التصنيفات القبلية. ويقدم مفهوم الشرف بوصفه خياراً يكتسب مضمونه من مفهوم التقسيم: «لا يمكن أن يكون للقبلي شرف بمفرده (في الحالة اليمنية يحتاج إلى أحد للذود عن الشرف ضده)، ولا يمكن أن تكون للقبيلة أو العشيرة، وللعشائر والقبائل ماهية تُذكَر عدا هذا الشرف الذي يشترك فيه أفرادها» (المصدر السابق: ٣١١).

ان تمييز دريش بين التقسيم ونظرية النَسَب التقسيمية تمييز مفيد. فالتقسيم يمكن أن يعتبر اطاراً للعمل والتنظيم السياسيين اللذين لا يمكن تفسيرهما بالاحالة حصراً إلى نموذج نَسَبي تقسيمي. وقد تمسكت شمّر بمفهوم عام للتقسيم كان معروفاً لشمر كافة. ورغم أن رجال القبائل البسطاء كانوا غير قادرين على تقديم شروح مفصلة لعلاقاتهم النَسَبية مع مجموعات بعيدة أخرى فقد كانوا يدركون بهذا القدر أو ذاك صلتهم النَسَبية مع هذه المجموعات. وكان أصحاب السلطة العليا، خاصة الذين ينتمون إلى أنساب قيادية، أكثر وعياً نَسَبياً لأنهم كانوا قادرين على تقديم شروح نَسَبية مستفيضة لعلاقات الأفراد وصلاتهم. وكانوا ينظرون إلى علاقاتهم وتحالفاتهم السياسية القبلية على أنها دالة للتقسيم تُفسِّر، في شكل النَسَب، وجود عشائر وفخوذ وحمائل وبيوت مختلفة. وكان المفهوم يجسد تشديداً على الوحدة النَسَبية المشتركة بوصفهم أحفاد جد رأسي واحد (في حالة العشائر) أو جد مشترك في حالة الحمائل. وكان المفهوم يوفر منظومة من القواعد للتعاون والعمل الاجتماعيين والسياسيين على كل مستوى من مستويات التقسيم.

لقد ساق أفراد قبيلة شمّر، وخاصة شيوخهم، محاجّات حول وحدة القبيلة لتفسير علاقاتهم القبلية. وفي غالبية الحالات جاءت هذه المحاجّات رداً على أسئلة طرحها غرباء من خارجهم. وكان رجال القبيلة يجيبون بالاشارة إلى تحالفات راهنة أو بايجاد أوضاع تحالفات افتراضية ثم يبينون كيف سيكون رد فعل الجماعة. وكانت هذه المحاجّات تفسر كيف ينبغي أن تكون العلاقات وليس كيف كانت بالفعل. وإذ ينظر المرء إلى علاقات شمّر وتحالفاتها القبلية بمنظور تاريخي، لا

يملك إلا أن يلاحظ أن هذه العلاقات لا تتبع النموذج النَسَبي التقسيمي الذي يستحضره الأفراد أنفسهم.

لقد كانت معرفة التقسيم شيئاً والعمل السياسي شيئاً آخر. فإن التقسيم الشمري كان الاطار البنيوي العام للتنظيم لكنه لم يكن العامل المحدِّد للعمل السياسي. وتكشف الملاحظة التاريخية لتنظيم شمّر القبلي وتحالفاتها السياسية ونزاعاتها ومعارضتها أن هذه لم تكن دائماً تتبع مبادئ النموذج النَسَبي التقسيمي. وعلى سبيل المثال، كانت عشائر شمّر المختلفة تسالم مجموعات أخرى على أساس المصلحة الذاتية والنفعية السياسية والضرورة الاقتصادية[١٤]. والأكثر من ذلك أن السياق التاريخي للعمل السياسي كان من الناحية السوسيولوجية أهم بكثير من قواعد النموذج النَسَبي التقسيمي. وسيجري توصيف هذا السياق في الفصل التالي.

الفصل الثاني

غليان في وسط الجزيرة العربية
(١٧٤٤ ـــ ١٨٤١)

ابتداء من القرن السادس عشر كان وسط الجزيرة العربية، رسمياً، جزءاً من الأمبراطورية العثمانية رغم أن موارد المنطقة الشحيحة، مرتبطة بعزلتها الجغرافية، حالت دون ضمها إلى الأمبراطورية بالكامل. وأُبقي على هذا الوضع حتى صعود الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر. وأخذ تبني الحركة سعودياً وتوسع القوات السعودية ـ الوهابية يهددان سلامة الأمبراطورية في الجزيرة العربية بصفة عامة، وقبل كل شيء في الحجاز. وقد وضع هذا التوسع ورد الفعل العثماني عليه وسط الجزيرة العربية في حالة غليان طيلة ما يقرب من مئة عام. وتسببت الحروب الداخلية، التي أشعلها السعوديون لنشر رسالتهم، في تدمير البلاد. وازداد هذا تفاقماً بالتدخل العثماني الذي تولى محمد علي، والي مصر، تنسيقه نيابة عن السلطان العثماني.

الحركة الوهابية

يُستخدم مصطلح «الوهابية» هنا للاشارة إلى حركة القرن الثامن عشر الانبعاثية الدينية للشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كان اتباعه يسمون أنفسهم «أهل التوحيد» أو «الموحدين» لا الوهابيين[1]. وقد وجدت أصول الحركة بين جماعات الواحات والجماعات الحضرية في جنوب نجد، المنطقة الوسطى لما هو الآن العربية السعودية. وكان مؤسس الحركة نفسه زراعياً حضرياً يزرع النخيل ويربي بعض الماشية في العيينة، وهي قرية صغيرة في وسط الجزيرة العربية (أبو حكيمة ١٩٦٧ : ٢٦).

كان ابن عبد الوهاب، وهو من تلاميذ المدرسة الحنبلية في الفقه الإسلامي وأحد مريدي الاحيائي المجدِّد في القرن الرابع عشر، ابن تيمية[٢]، ينادي بالعودة إلى معتقدات بسيطة ونقية، والعيش حياة زاهدة والتطبيق الصارم لشريعة صدر الإسلام. وقد صاغ مبدأ الحركة الأول، وهو الدعوة إلى مذهب التوحيد في عمله «كتاب التوحيد». وكان الهدف من دعوته العودة إلى أصول الإسلام في القرن السابع وتنقية الدين من البدع التي لاحظها بين السكان الحضر والبدو في وسط الجزيرة العربية والحجاز وسوريا وبلاد النهرين. وكانت هذه البدع تتمثل في عبادة الأولياء وممارسة طقوس وثنية والانغماس في الترفيات. وكانت زيارة أشجار مقدسة طلباً للبركة واستخدام الأولياء للشفاعة وبناء الأضرحة على مقابر مقدسين (بما في ذلك قبر الرسول وقبر ابن عمه والخلفاء الأربعة) ممارسات أدانها المذهب الوهابي. وكان مبدأ الوهابية الثاني يتعلق بالاجتهاد. وقد حدد ابن عبد الوهاب الاجتهاد بثلاثة مصادر هي القرآن والسنة (أحاديث الرسول وأعماله) وسيرة السلف (أحاديث وأعمال الخلفاء الراشدين) وكان مبدأ الوهابية الثالث يتصل بالجهاد. وقد اعتبر ذلك واجباً هاماً ينبغي أن يحترمه الموحدون. وكان ابن عبد الوهاب يؤكد أن من مسؤولية المسلمين الحقيقيين محاربة أهل البدع، وهم فئة تضم كل من لا يشاطر الوهابيين معتقداتهم. وأثبت هذا المبدأ كونه ضرورياً لتوسع الحركة.

شرع ابن عبد الوهاب، في البداية، يبشر وينشر تعاليمه علناً في قريته العيينة التي وعد حاكمها عثمان بن معمر بتبني رسالة الشيخ (ابن بشر ١٩٣٠: ١٨ ـ ١٩). وبدأ ابن عبد الوهاب، متشجعاً باستعداد الحاكم لمناصرته، يضع تعاليمه في حيز التطبيق. وحاول أن يفرض الشريعة في كل نواحي الحياة. وعلى سبيل المثال، يذكر ابن غنام أن امرأة زانية رُجمت في العيينة بموجب الشريعة الإسلامية. وأثارت قسوة العقاب وتعاليم الوهابيين التي لا مهادنة فيها، ردود أفعال من شيوخ منطقة الاحساء الدينيين الذين رفضوا الدعوة وهددوا باخمادها في العيينة. وطُلب من ابن عبد الوهاب أن يرحل عن العيينة بسبب خوف حاكمها من العواقب المترتبة على موقف المراجع الدينية التي تعارض الحركة الوهابية (ابن غانم ١٩٧١: ٩٧ الجزء الثاني). فانتقل إلى الدرعية في محاولة لكسب تعاطف حاكمها محمد بن سعود.

السعوديون يتبنون الحركة

بعد فترة وجيزة من وصول ابن عبد الوهاب إلى الدرعية في عام ١٧٤٤، رُتِّب لقاء بينه وبين محمد بن سعود ـ أُرسي فيه الأساس لاقامة تحالف بين الرجلين. وقد أُبرم بميثاق شكَّل الأساس لأول إمارة سعودية ـ وهابية.

كان نفوذ محمد بن سعود يقتصر وقتذاك على مدينته، وكان التحالف فرصة ثمينة لتمكين توسعه أبعد من دائرته المحدودة. وعَرَض أن يشمل ابن عبد الوهاب بحمايته على أن يخضع لشرطين: أولاً: أن لا يتخلى عنه بعد نجاح دعوته وأن لا يبايع أي حاكم آخر في المنطقة. وثانياً، أن لا يتدخل أو يحاول منع محمد بن سعود من فرض الإتاوات التي يجبيها الحكام السعوديون من رعاياهم (المصدر السابق: ٨١ وابن بشر ١٩٣٠: ١٢). فقَبِل ابن عبد الوهاب بهذين الشرطين وطمأن محمد بن سعود إلى أن لا يقلق بشأن الإتاوة لأن «الله يعد بمنافع مادية أكثر على شكل غنائم من الكفار». وكانت التعاليم الوهابية تشدد على أهمية ركنين من أركان الإسلام، هما الزكاة والجهاد. وكانت لهذين الركنين جاذبية واضحة عند السعوديين لأنهما كانا يعدان بعائدات كبيرة للحاكم. فقد وصف ابن غنام الدرعية في عصر «الشِرك»، أي قبل نشر التعاليم الوهابية، بأنها بلدة فقيرة تفتقر إلى الامدادات الأساسية من الغذاء في حين أنها في عصر «التوحيد» كانت لديها كميات وفيرة من الغذاء والنقود الذهبية والفضية والخيول والجمال والملابس (ابن غنام ١٩٧١: ٢٣).

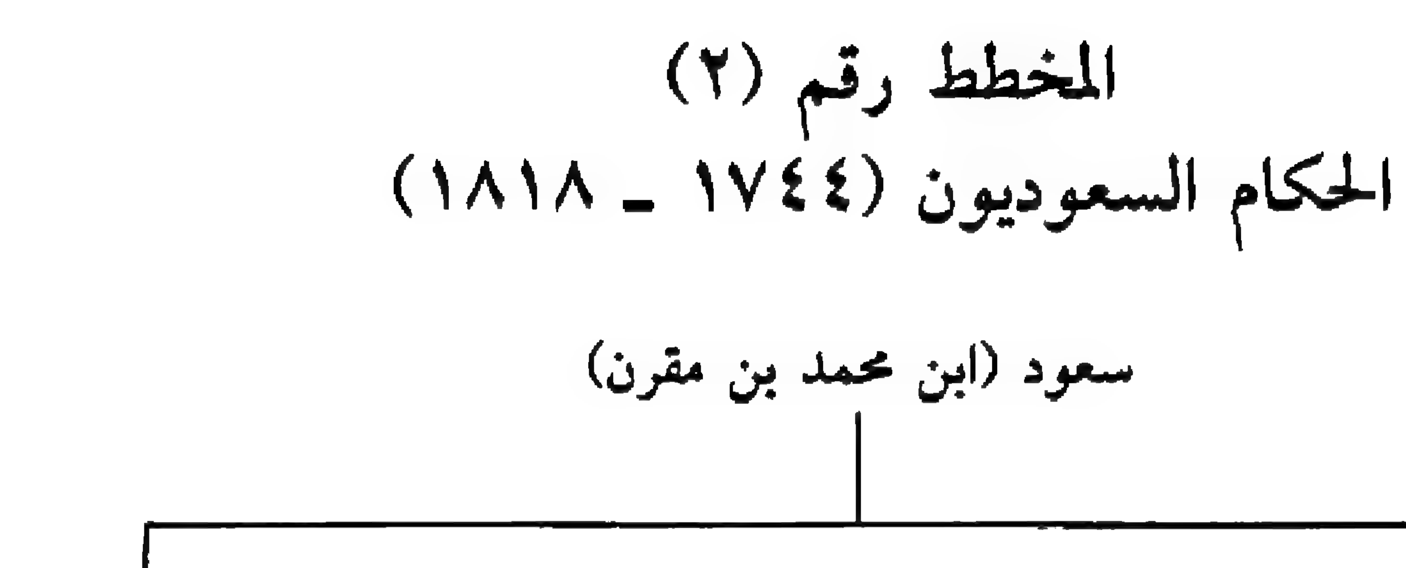
بعد اتفاق ١٧٤٤ بدأ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود مهمة جهادية كانت أهدافها دينية وسياسية. وكان ابن عبد الوهاب مدفوعاً برغبته في رؤية إسلام مُصلَح وأُمة إسلامية توجهها أحكام الشريعة. ومن الجهة الثانية كان محمد ابن سعود يرغب في رؤية نفسه زعيم هذه الأمة.

التوسع السعودي ـ الوهابي في الجزيرة العربية ١٧٤٤ ـ ١٨١٨

من الدرعية حاول محمد بن سعود أن يبسط سيطرته على وسط الجزيرة العربية برمته. وقد أثبت هذا كونه أمراً صعباً ولكنه ليس بالضرورة مستحيلاً بسبب التوجه العسكري القوي لاتباع محمد بن عبد الوهاب وتعصبهم تعصباً لا

مهادنة فيه وتصميمهم الذي لا يتزعزع. وكان من المحتم أن يزجهم تنفيذ هذه الرسالة الدينية في مواجهة مع مراكز القوى المختلفة في المنطقة التي اعتبرت التوسع السعودي ـ الوهابي تهديداً لاستقلالها السياسي[٣]. وأبدى الحكام المحليون لمدن الرياض وخرج والقصيم مقاومة، وعطل هذا توحيد نجد لكنه لم يفلح في منعه. وبحلول عام ١٧٩٢ وقعت كل المدن المذكورة تحت سيطرة القوات السعودية ـ الوهابية. وعُيِّنَ ممثلون وقضاة في المناطق المقهورة التي أصبحت وحدات ادارية في أول إمارة سعودية ـ وهابية.

المخطط رقم (٢)
الحكام السعوديون (١٧٤٤ ـ ١٨١٨)



لقد مهدت أربعة عوامل الطريق أمام توسع السعوديين وانتشار الوهابية في نجد (عبد الرحيم ١٩٧٦ : ٧٣). أولاً، كان انقسام الحكام النجديين يعني أن السعوديين يستطيعون دحرهم كلاً على انفراد. ثانياً، أن الصراعات العائلية الداخلية بين أفراد الفئات الحاكمة أضعفت مقاومتها وأتاحت للغزاة امكانية استخدام منشقين لمآربهم. ثالثاً، ان نزوح قبائل نجدية معينة إلى العراق بسبب الضغط السعودي ـ الوهابي المتعاظم والآثار الناجمة عن موسم جفاف، كان عوناً اضافياً للغزو. ورابعاً، ان اعتناق عدد من المجموعات للوهابية سلمياً وفر دعماً للتوسع على مستوى القواعد حتى قبل حدوثه (المصدر السابق).

بعد انجاز الحملات في وسط الجزيرة العربية حاولت القوات السعودية التوسع شرقاً، لا سيما باتجاه منطقة الاحساء. وكان قسم كبير من السكان هناك يتألف من شيعة يمثلون بنظر الوهابيين حالة متطرفة من حالات «أهل البدع». وقد فتح اخضاع القطيف في منطقة الاحساء في عام ١٧٨٠، الطريق إلى شواطئ الخليج الفارسي وعُمان. وأقرت البحرين بتسيد الوهابيين من خلال دفع الزكاة. واعتبر نفوذ الوهابية المتنامي في الخليج تهديداً للمصالح الأجنبية، وخاصة مصالح بريطانيا وفرنسا، ولكن لم تكن لدى أي من البلدين الموارد اللازمة للتأثير مباشرة في مجرى الأحداث.

ان توسع القوات السعودية غرباً، وبصفة خاصة في الحجاز وضعها في مواجهة شريف مكة. ورغم المقاومة العنيدة التي أبداها الحجازيون فقد بسط السعوديون هيمنتهم على الطائف في عام ١٨٠٢ بعد ذبح أهلها وأهل مكة في عام ١٨٠٣. وأصبح الشريف غالب، شريف مكة، مجرد ممثل للسعوديين (المصدر السابق)[٤]. وقد طلب العلماء الوهابيون منه أن يهدِّم قبر الرسول وقبور الخلفاء ذات القبب حسب المذهب الوهابي.

شجع نجاح السعوديين في الحجاز توسعهم جنوباً إلى عسير حيث تبنى زعماؤها القضية الوهابية وانضموا إلى قواتهم للزحف على اليمن. وقد حالت المقاومة الشديدة التي أبداها الزيديون الشيعة، متضافرة مع التضاريس الجغرافية غير المعروفة للمنطقة، دون ضم المرتفعات اليمنية.

وشمالاً امتد التوسع السعودي إلى المناطق الخصبة لبلاد النهرين مهدداً أمن البقاع الأكثر حيوية في الأمبراطورية العثمانية. ففي عام ١٨٠١ أغار على مدينة

كربلاء الشيعية المقدسة عشرة آلاف رجل على ستة آلاف جمل، وأسفرت الغارة عن تدمير ونهب مرقد الحسين، أكثر الأضرحة قدسية في التراث الشيعي (ج. غلوب J. Glubb ١٩٦١ : ٤٤). وفي الأعوام ١٨٠٨ و١٨١٠ و١٨١٢ تعرضت حتى بغداد إلى الخطر نتيجة الغارات الوهابية. ولكن الخلافات الايديولوجية والفقهية الحادة بين المذهب الشيعي والمذهب الوهابي، والمسافة الممتدة بين بلاد النهرين وقاعدة السلطة السعودية ـ الوهابية في وسط الجزيرة العربية، منعت السعوديين من الحفاظ على وجود مستمر لهم هناك. وكان همّ الوهابيين حينذاك يدور حول أخذ الغنائم من هذه الأقاليم الغنية للأمبراطورية العثمانية دون أن تكون لديهم نية في اقامة وجود دائم.

ويمكن ملاحظة نمط ماثل في سوريا. فقد واصل السعوديون الاغارة على المدن والبلدات دون اقامة قاعدة دائمة هناك. كما كانوا يغيرون على قوافل الحج، وخاصة القوافل القادمة من سوريا إلى الحجاز. وفي عام ١٨١٠ تعرضت القرى الواقعة جنوب دمشق إلى غارات، وتمكن السعوديون أيضاً من فرض ضرائب على القبائل الموجودة قرب حلب. وفي بعض الأوقات كانوا يرفضون السماح للحجاج القادمين من سوريا بدخول مكة والمدينة.

التوسع السعودي ـ الوهابي في جبل شمّر، ١٧٩٢

يستحق هذا أن يُناقش باستفاضة لأنه شكّل السياق التاريخي لصعود أمراء آل الرشيد إلى السلطة في حائل. ففي سبعينات القرن الثامن عشر وصل التوسع السعودي ـ الوهابي إلى أراضي شمّر.

وقع الصِدام الأول عندما تحالفت شمّر مع حاكم اقليم الاحساء، سعدون ابن عريعر من قبيلة بني خالد، الذي نظم غارة على بلدة بُريدة في منطقة القصيم التي وقعت أصلاً تحت السيطرة السعودية. ولم يكن التحالف مع بني خالد ناجحاً لأن الممثل السعودي في بُريدة كان قادراً على الرد. فقد جرَّد حملة على جبل شمّر الذي وقع تحت الهيمنة السعودية في عام ١٧٧٩ (ابن بشر ١٩٣٠ : ٩٤ الجزء الأول وابن غنام ١٩٧١ : ١٣٠ الجزء الثاني). ولم تصبح جزءاً من دائرة السيطرة السعودية إلا واحات الجبل، بما فيها حائل وغُفار ومستجدة ـ حيث انكفأ بدو شمّر الرحل إلى صحراء النفود الكبرى وأفلتوا من السيطرة. وحافظ مَنْ استطاعوا

الهرب على استقلالهم وإدارتهم الذاتية بانتظار اللحظة المناسبة لمهاجمة القوات السعودية.

وتحالفت شمّر مع شريف مكة خلال الدفاع عن أرضه ضد الغزو السعودي ـ الوهابي في عام ١٧٩٠ (ابن بشر ١٩٣٠: ١٠٨ ـ ١٠٩ الجزء الأول). وقُتل شيخ شمّر، مسلط بن مطلق في المعركة بين الجانبين، وخسرت شمّر ٦٠٠٠ جمل و١٠,٠٠٠ رأس من الغنم (المصدر السابق: ١٠٩ ـ ١١٠ وابن غنام ١٩٧١: ١٥٠ ـ ١٥٢ الجزء الثاني). وهاجرت بعض عشائر شمّر بقيادة الشيخ مطلق الجرباء إلى بلاد النهرين. وظل مَنْ رحلوا عن الجبل يناصبون الوهابيين العداء. وقد تعقبتهم القوات السعودية التي انقضّت عليهم في مكان قرب السماوة في عام ١٧٩٥. ومرة أخرى قُتل زعيمهم مطلق في المعركة (المصدر السابق: ١٥٠ و١٥٧). وكانت العشائر الشمّرية التي بقيت في العراق تنتمي إلى الجرباء. وهي ما زالت تعيش في البلد ويشار إليها باسم شمّر الشمالية.

لقد اتخذ تاريخ مَنْ بقوا في وسط الجزيرة العربية، وهم شمّر الجنوبية، منحى مغايراً. ويؤكد تراثهم المحكي أنه بالرغم من أن الغالبية كانت من البدو فقد كانت لديهم قاعدة سلطة في حائل، الواحة المركزية في جبل شمّر. وكان حاكم هذه الواحة من بيت ابن علي الذي ينتمي إلى عشيرة عبدة. وكانت الزعامة تأتي من أفراد هذا البيت طيلة القرن الثامن عشر (ابن بشر ١٩٣٠). ولكن من الصعب ايجاد دليل يؤكد متى وكيف بلغ أفراده موقع الزعامة. غير أنه في بداية القرن التاسع عشر يجد المرء اشارة إلى حاكم حائل وقتذاك محمد بن عبد المحسن بن علي. وهذا ما تؤكده مرويات شمّر المحكية التي تذكر أن محمداً توطن في حائل. وكانت لديه أيضاً حقول زراعية، غالبيتها من بساتين النخيل، كانت تُستَزرع بعمل العبيد في حين كان القسم البدوي من حمولته حول حائل وصحراء النفود الكبرى، يتولى العناية بقطيعه من الإبل.

وحين وقعت منطقة جبل شمّر تحت سيطرة القوات السعودية ـ الوهابية، كان الدور الذي لعبه ابن علي مبهماً. فنحن لا نعرف إلى أي مدى تقوّضت سلطته بالحقيقة الماثلة في أن جبل شمّر أصبح أحد الأقاليم السعودية. ويشير المؤرخان النجديان المحليان ابن بشر وابن غنام إلى حقيقة أن ابن علي كان أحياناً يجبي الزكاة من سكان حائل ويسلمها إلى السعوديين. ونعرف بكل تأكيد أنه في بداية القرن

التاسع عشر أصبح محمد بن علي حليفاً للسعوديين وحافظ على علاقات ودية معهم. ويذكر ابن بشر أنه قدم دعماً عسكرياً للسعوديين في مناسبات عديدة. وكانت علاقاته مع السعوديين على النقيض من علاقات عشيرة شمّر الجرباء البدوية في العراق. وقد وفر محمد بن علي دعماً عسكرياً للقوات السعودية ـ الوهابية في عام ١٨٠٥ خلال محاولتها منع الحجاج السوريين بقيادة عبد الله باشا العظم من زيارة مكة والمدينة. ولاحقاً في عام ١٨١٠ قام محمد بن علي بمهاجمة الصحراء السورية نيابة عن القوات السعودية ـ الوهابية. والأكثر من ذلك أن حاكم حائل قدم في عام ١٨١٤ دعماً عسكرياً للسعوديين في اقليم القصيم في بداية الغزو المصري الذي انطلق في عام ١٨١١ بقيادة طوسون باشا (المصدر السابق: ١٨٨ ـ ١٨٩، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٤٩ و٢٩١).

رد الفعل العثماني: الغزو المصري الأول (١٨١١ ـ ١٨١٨)

أسفر التوسع السعودي ـ الوهابي في كل الاتجاهات عن انقطاع قوافل الحج التي كانت مهددة بخطر الغارات، لا في طريقها إلى الحجاز فحسب بل وفي المدن المقدسة نفسها. وقد شجعت هذه الأحداث السلطان العثماني، الذي كان من الناحية الرسمية مسؤولاً عن أمن الحجاج والمدن المقدسة، على اتخاذ اجراءات جادة لكبح نفوذ الوهابية الصاعد. وكان السلطان محمد الثاني يراقب هذا النفوذ عن كثب متحيناً اللحظة المناسبة لتجريد حملة هدفها انهاء السطوة السعودية في الجزيرة العربية.

خلص السلطان إلى استنتاج مؤداه أن والي بغداد ووالي دمشق ليسا قويين بما فيه الكفاية لتنفيذ الخطة الرامية إلى ازالة هذا الخطر الجديد الذي نجح حتى الآن في احراج العثمانيين في العالم الإسلامي وفي النيل من سلطتهم. فهما لم يصيبا نجاحاً في مواجهة التوسع السعودي ـ الوهابي على حدود هاتين المدينتين الكبيرتين من مدن الأمبراطورية العثمانية. وأخذ السلطان يبحث عن والٍ بديل لتنفيذ المهمة. وهذا ما وفرته القيادة الدينامية لمحمد علي، والي مصر. وكان السلطان، باختياره محمد علي لهذه المهمة، يسعى إلى تحقيق هدفين، الأول انهيار السلالة السعودية ـ الوهابية والثاني إنهاك قوات محمد علي بصراع ضارٍ في وسط الجزيرة العربية. فلقد كان السلطان يدرك ما يمثله محمد علي من مخاطر، وجاء التاريخ

اللاحق ليبرر مخاوفه بالكامل[٥]. فاتُخذ القرار بإبقاء محمد علي منشغلاً لبعض الوقت في الأقاليم الجنوبية من الأمبراطورية العثمانية وبعيداً عن المناطق الشمالية الحيوية في بلاد النهرين. وتلقى محمد علي الأوامر الأولى من السلطان بتجريد حملة ضد القوات السعودية ـ الوهابية في عام ١٨٠٧ (عبد الرحيم ١٩٧٦ : ٢٩٨).

وجه محمد علي رسائل إلى السلطان أبدى فيها عجزه عن الاضطلاع بحملة كبيرة كهذه من دون ما يلزم من سلاح وعتاد وإمدادات غذائية لجنوده خلال نقلهم إلى ساحات القتال (أرشيفات القاهرة، محفظة عابدين ١٨٠٨، الدفتر الأول، ص ٦، ٩، ١٢ و١٣). ولم يدفع محمد علي بقواته الأولى التي نزلت في ينبع على البحر الأحمر في عام ١٨١١ بقيادة نجله طوسون باشا إلا بعد أن وعد السلطان بمده بالسلاح والمال اللازمين. وما لبث الجيش المصري أن زحف على المدينة ودمر القوات السعودية ودخل المدينة بعد حصار دام أربعة عشر يوماً. وخسر السعوديون ١٥٠٠ رجل في معركة المدينة.

استولت القوات المصرية على مكة التي انتزعتها من السعوديين في عام ١٨١٣ ثم واصلت زحفها على الطائف التي سرعان ما سقطت بعد مكة. ولاحقاً، في عام ١٨١٣، نزل محمد علي نفسه في جدة ومعه ٢٠٠٠ جندي من سلاح الفرسان و٢٠٠٠ من المشاة لإعطاء الغزو زخماً جديداً (ن. سفران N. Safran ١٩٨٥ : ١٣). وباحتلال مدن الحجاز المقدسة أعاد محمد علي سلطة السلطان على هذه المناطق المهمة. ثم أرسل ابنه طوسون إلى القصيم في عام ١٨١٥. وبالاضافة إلى القوات النظامية فقد انضم إلى الجيش المصري أفراد قبيلتي مطير وحرب الذين أعربوا عن اذعانهم للهيمنة السعودية ـ الوهابية ولكنهم كانوا يريدون التحرر منها.

ومن القصيم بدأ طوسون باشا مفاوضات مع الحاكم السعودي عبد الله في محاولة لانتزاع اعتراف من السعوديين بسلطة طوسون في الحجاز. ولكن لم يتم التوصل إلى اتفاق لأن والد طوسون طلب منه العودة إلى القاهرة. وحل محله في عام ١٨١٦ ابن آخر هو إبراهيم باشا الذي واصل الزحف على العاصمة السعودية بألفي رجل من سلاح الفرسان و٥٦٠٠ جندي من المشاة و١٢ مدفعاً وعدد من رجال القبائل (المصدر السابق). وبدأ حصار الدرعية في عام ١٨١٨ ودام خمسة أشهر. وتعرض الحاكم السعودي عبد الله إلى ضغط للاستسلام، ووقع في أسر إبراهيم باشا الذي أرسله إلى القاهرة ثم إلى اسطنبول حيث دُقت عنقه. وقامت

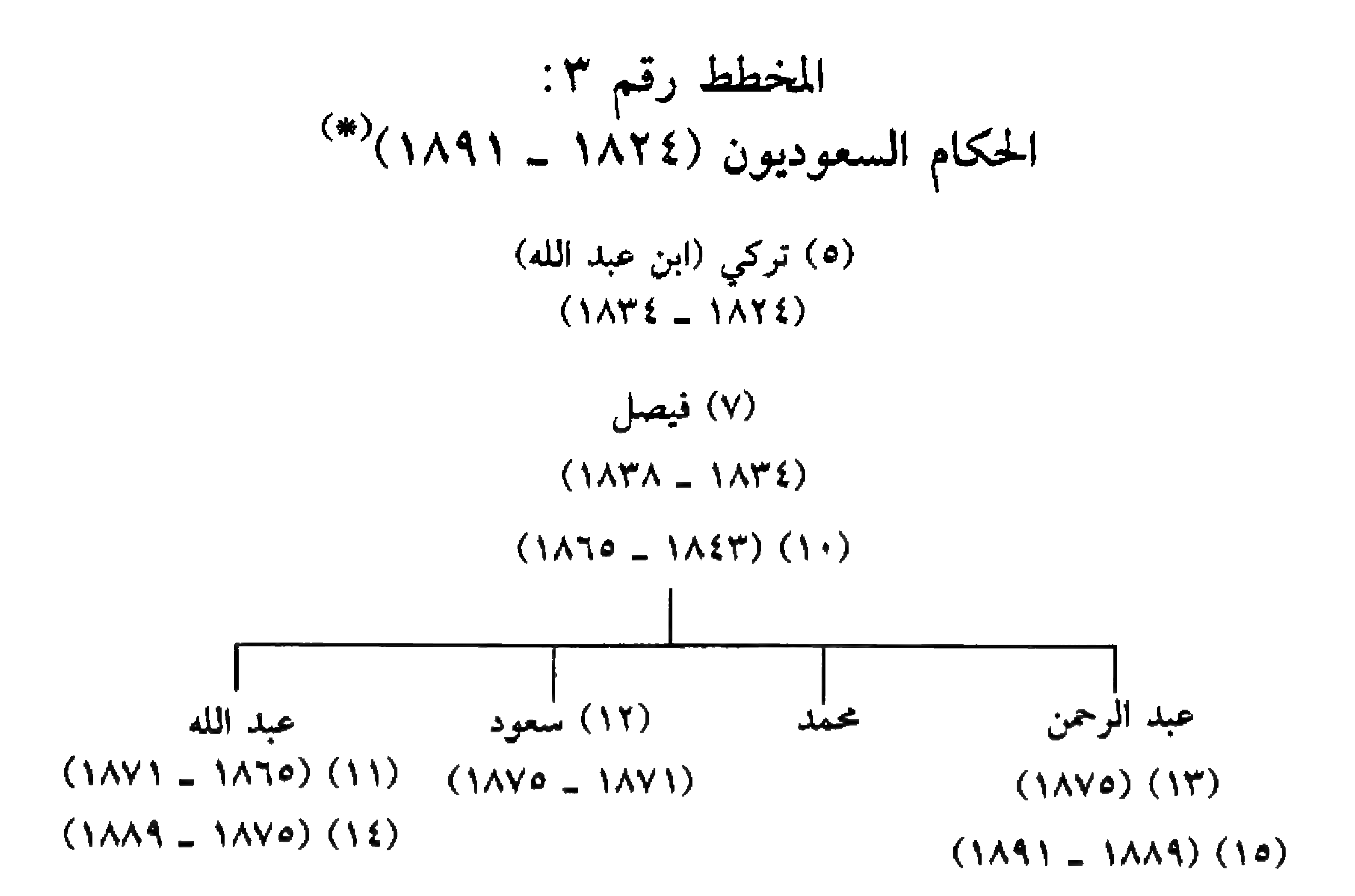
القوات المصرية بتدمير المدينة تدميراً ماحقاً وحرق مزارعها من النخيل وسلب سكانها. وبموت عبد الله وتدمير الدرعية انتهت الإمارة السعودية ـ الوهابية الأولى بعد حوالى سبعين عاماً من التوسع.

استمرت القوات المصرية في الابقاء على وجودها في وسط الجزيرة العربية هادفة إلى قهر كل الأراضي التي أُلحِقت بدائرة السيطرة السعودية. وإذ كانت لسكان واحات جبل شمّر علاقات ودية مع الحكام السعوديين فقد تعرضوا إلى هجوم القوات المصرية في عشرينات القرن التاسع عشر. وقام ابراهيم باشا بغزو المنطقة بـ ٦٠٠ جندي تركي و١٠٠٠ بدوي، وتمكن من اجبار السكان على الاعتراف بسلطته على أرضهم (العثيمين ١٩٨١ : ١٣). وخلال الحملة على جبل شمّر قُتل حاكم حائل، محمد بن علي، فأصبح شقيقه صالح حاكم المدينة ـ مواصلاً سياسة أخيه في دعم الزعامة السعودية.

الانبعاث السعودي الضعيف في ١٨٢٤

في عام ١٨٢٤ نجح السعوديون في اقامة قاعدة سلطة سعودية ـ وهابية جديدة في الرياض، جنوبي عاصمتهم القديمة. ويمكن اعتبار الإمام تركي بن عبد الله، حفيد الحاكم الأول في دائرة السلطة السعودية ـ الوهابية، مؤسس الامارة الثانية (انظر المخطط رقم ٣). وبعد الاستقرار في الرياض سعى تركي إلى غزو منطقة الاحساء في عام ١٨٣٠، وحاول بحلول عام ١٨٣٣ أن يفرض الاعتراف بالهيمنة السعودية على امتداد ساحل الخليج. ورغم أنه كان وهابياً متزمتاً فقد حرص على عدم تأجيج نيران التعصب، وحاول أن يتفادى الدخول في صدامات مع القوات العثمانية ـ المصرية التي ما زالت ترابط في الحجاز. ولكن التحدي الأكبر الذي واجهه تركي كان من مصدر آخر.

المخطط رقم ٣:
الحكام السعوديون (١٨٢٤ ـ ١٨٩١)(*)



(*) للحكام ٦، ٨، ٩ انظر المخطط رقم (٢).

ففي عام ١٨٣١، حين كان تركي يقود حملة ضد بعض القبائل، بَلَغه أن ابن عمه مشاري الذي عينه حاكم منفوحة، قد تمرد عليه. وعاد تركي إلى الرياض ليجد أن ابن عمه لاذ بالفرار. وإذ أخفق مشاري في تعبئة دعم اضافي من شريف مكة، أذعن لسلطة تركي وعاد إلى الرياض حيث وُضِع تحت الاقامة الجبرية. وفي عام ١٨٣٤، نجح مشاري في تدبير اغتيال تركي حين كانت القوات السعودية بقيادة فيصل، نجل تركي، مشتبكة في حرب مع القطيف والبحرين. وقُتل تركي أثناء خروجه من المسجد بعد صلاة الجمعة.

وفي غضون أربعين يوماً من اغتيال تركي عاد نجله فيصل إلى الرياض قادماً من البحرين ودحر مشاري. لكن السلام لم يدم طويلاً لفيصل. فإن محمد علي، والي مصر، بعد أن انشق عن السلطان العثماني، هزم قواته وأخضع ما هو الآن فلسطين وسوريا ولبنان لحكمه، وبدا في طريقه إلى الحاق الجزيرة العربية كلها بأمبراطوريته. وفي عام ١٨٣٦ نزلت قوات مصرية جديدة في ينبع لبدء غزو ثانٍ، طارحةً هذه المرة دعاوى محمد علي نفسه بدلاً من السلطان. ونقلت القوات المصرية

معها ابن عم لفيصل اسمه خالد سعت إلى تنصيبه حاكماً صنيعةً لوسط الجزيرة العربية. وفي عام ١٨٣٨ هُزم فيصل وأسر وأُرسل إلى القاهرة لاحتجازه هناك.

تركت القوات المصرية خالداً يحكم في نجد حين أُجبرت على الانسحاب من الجزيرة العربية في عام ١٨٤١. وجاء الانسحاب مدفوعاً بضغوط من القوى الأوروبية، وخاصة بريطانيا[٦]. وعلى اثر ذلك شهد عام ١٨٤١ نهاية التدخل المصري في الجزيرة العربية. وهرب فيصل من سجنه في القاهرة، وعاد إلى نجد وتمكن من استعادة موقعه في الرياض في غياب القوات الأجنبية. وقد امتنع عن تحدي سلطة السلطان في الحجاز وأخذ يدفع له إتاوة سنوية اعترافاً بإذعانه. وحكم فيصل في الرياض حتى وفاته في عام ١٨٦٥.

بعد وفاة فيصل أصبح نجله عبد الله حاكماً في الرياض. ولكن السلطة السعودية دخلت طوراً من الانحدار بسبب الصراع على الحكم، بين أبناء فيصل الأربعة، الأمر الذي أضعف مشروعية السعوديين في وسط الجزيرة العربية ومهد الطريق إلى تفكك دائرة سلطانهم. ولكنهم تمكنوا من الاحتفاظ بسلطة هشة حتى عام ١٨٩٠ حين طردهم أمراء آل الرشيد في حائل من الرياض لينهوا بذلك الحقبة الثانية من السلطة السعودية ـ الوهابية[٧].

جبل شمّر بين غزوين، ١٨١٨ ـ ١٨٤١

بعد نجاح الغزو المصري الأول (١٨١١ ـ ١٨١٨) في تدمير الدرعية، وإضعاف الامارة السعودية الثانية بالغزو الثاني (١٨٣٦ ـ ١٨٤١) بدأت حائل وجبل شمّر يسطران، بصورة تدريجية، تاريخاً منفصلاً عن تاريخ السعوديين. ورغم شفاء السعوديين من آثار الغزوين ونجاحهم في اقامة قاعدة سلطة هشة جديدة في الرياض في عام ١٨٢٤، فإن هذه المرحلة الثانية من تاريخهم لم تمكنهم من التأثير في مجرى الأحداث في المناطق الشمالية من وسط الجزيرة العربية[٨].

ان استمرار وجود القوات المصرية حال دون توسع السعوديين. ولم يتمكن تركي بن عبد الله الا من استرجاع بعض المناطق التي فُقدت نتيجة الغزو المصري، ولم يكن قادراً على فرض السيطرة السعودية في جبل شمّر رغم حفاظه على علاقات ودية مع حكام حائل. وقد شهد هذان العقدان تصاعد الأحداث في المنطقة.

صعود آل الرشيد إلى السلطة

في عام ١٨١٨ كان حاكم حائل، محمد بن علي، يواجه تحدياً من النفوذ المتعاظم لابني عمومته، عبد الله وعبيد ابن رشيد. ورغم وفاة محمد بن علي خلال الغزو المصري في عشرينات القرن التاسع عشر فقد استمر بعده الصراع بين الأخوين رشيد وصالح، الذي خلف محمداً.

دام الصراع بين بيت ابن علي والأخوين من آل الرشيد حتى عام ١٨٣٦ عندما أُنهيت زعامة بيت ابن علي على حائل. وكان محمد بن علي ينحدر من بيت آل خليل، وهم عائلة رئاسية من عوائل جعفر التي تنتمي إلى عشيرة عبدة الشمرية. وكان محمد بن علي والأخوان من آل الرشيد يشتركون في أب واحد لأجدادهم هو علي الكبير. ولكن هذه الآصرة النَسَبية لم تكن شديدة الوضوح في أذهان المتحدرين منهم. وكانوا يشيرون إلى علاقتهم على أنها علاقة ابن عم. وظلت درجة هذه العلاقة مبهمة، وكان مصطلح «ابن العم» يُستخدم استخداماً تصنيفياً للاشارة إلى صلة نَسَبية بعيدة نوعاً ما.

لا المصادر التاريخية ولا مرويات شمّر المحكيَّة تُعطينا وصفاً واضحاً لأسباب النزاع وفضّه. ويزعم أ. موسيل أن عبد الله بن رشيد وشقيقه عبيد كانا طموحين ونشيطين في مرافقة القوافل التجارية من العراق إلى حائل. فقد عرض الشقيقان حمايتهما للقوافل ضد هجمات وغارات القبائل البدوية. وذاع صيتهما بالشجاعة وكسبا عدداً كبيراً من الأنصار بين شمّر. وبدآ يتجاوزان على سلطة حاكم حائل الذي رتَّب لعبد الله أن يتزوج بابنته سلمى. ولكن هذا لم يثن عبد الله عن إبداء رغبته في ادارة شؤون حائل السياسية. وبعد وفاة حاكم حائل، محمد بن علي، خلال الغزو المصري الأول، رفض شقيقه صالح الاعتراف بمطالب عبد الله بن رشيد. وسرعان ما رحل عبد الله عن حائل عندما بدأت علاقاته تتردى مع صالح (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٧ وف. حمزة ١٩٣٣ : ٣٤١).

تفسير و. بالغريف يختلف عن تفسير موسيل. فهو يزعم أن النزاع بين عبد الله بن رشيد وصالح بن علي بدأ بعد انسحاب القوات المصرية من نجد. ويجادل قائلاً إن عبد الله غادر حائل لأنه فقد بعض مؤازريه، وخاصة بين أهل غُفار، وهي قرية قرب حائل، حيث قرروا تأييد صالح بن علي (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٢٠ ـ ١٢١ الجز الأول).

ومرة أخرى لا تتفق المصادر التاريخية على وجهة عبد الله بن رشيد بعد رحيله عن حائل. ويذكر هوبر Huber أن الأخوين لجآ إلى جبل أجا (هوبر C. Huber ١٨٨٨ : ١٥١ ـ ١٥٢). وقد علم حاكم حائل بأمرهما وبعث بأحد عبيده الموثوقين لاعادتهما كي يواجها القصاص. وتمكن عبد الله بن رشيد، بعد قتل العبد، من الهرب إلى العراق حيث بقي عامين. وأجبر والده فيما بعد على مغادرة حائل. واستناداً إلى هوبر، كانت وجهة عبد الله الثانية هي الرياض، عاصمة السعوديين الجديدة. ويقدم موسيل قصة مغايرة. فهو يزعم أن عبد الله بن رشيد توجه أولاً إلى جُبَّة، وهي واحة في صحراء النفود الكبرى، ثم إلى قبيلة فدعان. وفيما بعد توجه صوب العراق حيث بقي مع الجرباء، النَسَب الرئاسي في شمّر. (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٧).

يذكر بالغريف أن عبد الله بن رشيد أراد في البداية أن يتوجه إلى الجوف، وهي واحة تقع على الحافة الشمالية من صحراء النفود الكبرى، لكنه أدرك أنه قد لا يستطيع تحشيد ما يكفي من الأنصار هناك (و. بالغريف ١٨٦٥ : ١٢١ ـ ١٢٢ الجزء الأول). فغيّر وجهته إلى وادي السرحان حيث هاجمته قبيلة عنزة. وساعده تاجر سوري على الشفاء من جروحه ثم توجه إلى الجنوب وبقي في الرياض. وتبدو النبرة الأسطورية واضحة في قصة بالغريف الذي يقدم سرداً مفصلاً لجروح عبد الله حين عُثر عليه في الصحراء وكيف أنقذ التاجر السوري حياته.

أن هذا التشوش بين الرحالة الأوروبيين الذين زاروا حائل في القرن التاسع عشر، حول أصل النزاع ووجهة عبد الله بن رشيد بعد نفيه، يمكن أن يُجلى جزئياً بقراءة تقارير المؤرخين المحليين وتدقيق هذه التقارير مع مرويات شمّر. وهناك اتفاق في كل هذه الطروحات على أن صالح بن علي كان حاكم حائل في عشرينات القرن التاسع عشر. وكان سبب النزاع بين صالح وابني عمه من آل الرشيد عصيانهما لأوامره. وعلى ما يظهر، فإن قبيلة عنزة غارت على مجموعة من بدو شمّر قرب حائل وأراد الشقيقان من آل الرشيد مد يد العون إلى رجال قبيلتهما في الدفاع عن أنفسهم. ولكن صالحاً كان يخشى أن يزيد هذا في شعبيتهما. وللحفاظ على النظام والسلام طلب صالح بن علي منهما عدم الدخول في النزاع.

أغار عبد الله وشقيقه عبيد على عنزة ودحراها لينالا سمعة بشجاعتهما عززت مخاوف صالح من سطوتهما المتنامية. فأمر عبد الله وعُبيداً وأمهما بالرحيل

عن حائل. وبدا أن صالحاً استخدم قضية عنزة ذريعة لطرد ابني عمه الطموحين. وكانت وجهة عبد الله، بعد نفيه، لدى شمّر الجرباء في العراق، حيث مكث حتى عودته إلى نجد. وفي العراق ساعد شمّر الجرباء في معركتها ضد والي العراق، داود باشا (ض. بن رشيد ١٩٦٦ : ٦٤). وأخذت سمعة عبد الله تتعاظم بوصفه قائداً عسكرياً محنكاً، وشجع هذا الإمام السعودي تركي بن عبد الله بن سعود على استقباله بحفاوة عندما ظهر في العاصمة السعودية.

وفي الرياض عقد عبد الله بن رشيد صداقة مع فيصل، نجل الإمام تركي، الذي أراد من عبد الله أن يرافقه في غاراته على القبائل المنشقة، الثائرة ضد الهيمنة السعودية. وفي عام ١٨٣٣ كان عبد الله مع فيصل خلال الحملة على القطيف والبحرين عندما أقدم مشاري، ابن عم فيصل، على قتل الإمام تركي. وكما ورد ذكره سابقاً، فقد عاد فيصل في الحال إلى الرياض لمعاقبة ابن عمه، وقام عبد الله ابن رشيد بدور مهم في الهجوم على مشاري. وإذ توقع مشاري وصول فيصل، لجأ إلى قلعة البلدة حيث ضُرب عليه حصار. وأسفر هذا الهجوم عن مصرع مشاري في عام ١٨٣٤. وبمساهمة عبد الله بن رشيد في حل النزاع بين آل سعود ازداد حظوة لدى الإمام الجديد، فيصل بن تركي. وفيما بعد تزوج عبد الله بابنة فيصل، الجوهرة.

هذه الصداقة شجعت الإمام فيصل على القبول بنشاطات عبد الله بن رشيد في حائل وجبل شمّر، وطموحه لاطاحة ابن عمه، ابن علي. ولم تكن لدى الإمام فيصل إلا سلطة معنوية على جبل شمّر الذي كان مستقلاً سياسياً بعد الغزو المصري الأول. إذ لم تكن لديه الموارد ولا القوة للمشاركة بنشاط في الاخلال بميزان القوى بين ابن علي وابن رشيد. وكان الإمام فيصل منهمكاً في اعادة توطيد زعامته بعد حادثة مشاري، وكان عليه أن يواجه أيضاً الوجود المصري في المنطقة. وما ان أدرك عبد الله الآفاق المحدودة لتحالفه مع الإمام السعودي حتى رحل عن الرياض وتوجه إلى جبل شمّر دون أن يذهب في الحقيقة إلى حائل.

وفيما كان عبد الله في جبل شمّر بلغته أنباء زيارة يقوم بها صالح بن علي إلى الإمام السعودي. وقام فيصل بدور الوسيط في النزاع. وفي مجلسه طرح الفريقان موقفهما ولكن الإمام فيصل لم يكن قاطعاً في حكمه لأنه حتى ذلك الوقت كانت لديه علاقات طيبة مع طرفي النزاع. ويجادل هوبر قائلاً إن فيصلاً اقترح في النهاية

أن الاثنين ينبغي أن يتوجها إلى حائل ويعملا معاً حاكمين للواحة. وحين عاد الاثنان كان عبد الله في موقع أقوى ورفض أن يتقاسم السلطة مع ابن علي الذي غادر حائل وذهب إلى بريدة. (هوبر C. Huber ١٨٨٨ : ١٥٢ ـ ١٥٤).

يشير ابن بشر إلى أن عبد الله بن رشيد كان يرافق الإمام فيصل في غارته على منطقة شعارى عندما قرر فيصل تعيين عبد الله بن رشيد حاكماً لحائل. ويذكر ابن بشر لتأكيد قصته أن قاضياً أرسل مع عبد الله إلى حائل (ابن بشر ١٩٣٠ : ٨٤، الجزء الثاني). وكرر هذا الرأي مؤرخ سعودي حديث هو العثيمين (١٩٨١ : ٤٣). ولكن سيكون من المضلّل الخلوص من ذلك إلى أن الإمام فيصل قام بتعيين عبد الله بن رشيد حاكماً لحائل. فإن وجود القوات المصرية في الجزيرة العربية كان يحدِّد مجرى الأحداث لا في جبل شمّر فحسب بل وفي العاصمة السعودية نفسها، ولم تكن لدى فيصل سلطة لفرض أي قرار كهذا.

بعد اجتماع الرياض في مجلس الإمام فيصل عاد صالح بن علي إلى حائل فيما بقي عبد الله بن رشيد في منطقة جبل شمّر حيث كان يسعى إلى تحشيد بعض الأنصار من بين بدو شمّر (ض. بن رشيد ١٩٦٦ : ٦٨ ـ ٧٧). وهناك سمع عبد الله من رجل يدعى عُريفي أن والي المدينة المصري وضباطه يبحثون عن أشخاص أكفاء يساعدونهم في الغزو الثاني لمنطقة نجد. فتوجه عبد الله إلى المدينة وتعاون مع الوالي. وأراد ابن عمه صالح بن علي أن يستغل المنافسة بين قوات محمد علي في الجزيرة العربية والعثمانيين في العراق لصالحه[٩]. فتوجه إلى العراق على أمل بناء قوة عسكرية برعاية عثمانية لصد الغزو المدعوم مصرياً، لكنه عجز عن الوصول إلى الممثل العثماني في العراق. وبدأ صالح يشك في ما إذا كان سيجني فائدة من رحلته إلى العراق. وتوقف، لدى عودته إلى حائل، في قرية تدعى سُليمي حيث قُتل مع اثنين من أبنائه على يد عُبيد، شقيق عبد الله بن رشيد. وهرب الابن الثالث عيسى إلى المدينة ولجأ عند الوالي.

أراد عيسى من الوالي أن يضمن عودته سالماً إلى حائل للحلول محل أبيه. والتقى عيسى قبل الوصول إلى المدينة اسماعيل آغا، قائد القوات المصرية في القصيم، الذي كان يريد كسب ولائه ظناً منه بأن عيسى سيكون حليفاً أفضل من عبد الله بن رشيد. ومد القائد العسكري عيسى بأربعمئة رجل يرافقونه خلال عودته إلى حائل، فمكنه هذا من تنصيب نفسه حاكم الواحة في عام ١٨٣٦ (ابن

بشر ١٩٣٠ : ٦٢ الجزء الثاني). ولكن سكان حائل استاؤوا من دعم القوات المصرية.

وفيما بعد انسحبت غالبية الجنود المصريين من جبل شمّر تاركين عيسى ومعه مئة رجل فقط لتوطيد سلطته. وعندما سمع عبد الله بن رشيد بعودة عيسى سارع إلى مغادرة الواحة وتوجه إلى غُفار التي راح يخطط منها اطاحة عيسى. وحاول عبد الله الاعتماد على دعم قبيلة شمّر، وخاصة حمولة جعفر. يضاف إلى ذلك أن مجموعة أقاربه المباشرين وشقيقه وعَبيدَه كانوا يوفرون القسم الأعظم من القوة التي ستغزو حائل. وكان لتضامن حمولة جعفر ودعمها لعبد الله بن رشيد أهميتهما في تمييز زعامته عن زعامة عيسى، الذي بدا شديد الاعتماد على دعم القوات المصرية. وقد وصف بالغريف كيف وظف عبد الله مصاهرته حمولة جعفر لتعزيز موقعه (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٢٧، الجزء الأول):

أقام في مرحلة مبكرة تحالفاً تصاهرياً مع عائلة رئاسية قوية من جعفر، الذين كانت له صلة قرابية وثيقة بهم. وإذ استقوى بدعم هذه العائلة المتوثبة، أخمد بمساعدتهم منافسة وجهاء المدينة والريف، وأشبع في آن واحد طموحه وجشع حلفائه البدو بإجراءات سحقت أعداءه الداخليين وضمنت صعوده.

أمضى عبد الله الشطر الأكبر من فترة منفاه مع حمولة جعفر ولكنه، حتى يتوفر دعمهم له، كان يعرف بأنه سيكون من المتعذر التصدي للقوات المصرية. لذا أرسل عبد الله أخاه عُبيداً ومعه ٢٠٠٠ جمل إلى خورشيد باشا، قائد القوات المصرية في الحجاز. ويزعم موسيل أن عبد الله بن رشيد، محض منذ عام ١٨٣٤ «دعمه للوالي المصري خورشيد باشا في غارات السلب التي كان يشنها على قبيلتي حرب وهتيم» (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٩). وكان هدفه كسب تأييد هذا الباشا والتوصل عن طريق المفاوضات إلى تسوية سلمية تضمن عودته إلى حائل. وقبل خورشيد باشا هذا العرض مقابل خدمات عبد الله متمثلة بتوفير الجمال اللازمة لنقل السلاح والجنود والعتاد إلى نجد. وقد وصف خورشيد باشا تعاون عبد الله في رسالة إلى محمد علي نقل فيها أن عبد الله مستقل الآن عن الإمام فيصل، ولذا يمكن أن يكون موضع ثقة وعوناً للمصريين. وطُلب من عبد الله أن يوفر امداداً متواصلاً من الجمال، وبالمقابل اعترف خورشيد باشا بعبد الله ابن رشيد الحاكم الوحيد لحائل وجبل شمّر بدلاً من ابن عمه عيسى بن علي

(أرشيفات القاهرة الوطنية، محفظة عابدين ٢٤٠). واقترح خورشيد باشا على الحكومة المصرية أن تدفع مخصصات شهرية إلى عبد الله زاعماً أن عائداته غير كافية لتغطية مصروفاته وأن خدماته لا غنى عنها لنجاح الغزو المصري. يضاف إلى ذلك أن خورشيد باشا سمح لعبد الله بالاحتفاظ لنفسه بثلث الزكاة المستحصلة من جبل شمّر (المصدر السابق: ٢٦٤). وفيما كان عبد الله منشغلاً مع القوات المصرية، عاد أخوه عبيد إلى حائل وطرد عيسى، ثم عاد عبد الله بن رشيد إلى حائل وأعلن نفسه حاكماً في عام ١٨٣٦.

قرر عيسى بن علي أن يلتقي خورشيد باشا ويطلب ايضاحات. وقد لاقى ترحيباً حاراً من القائد العسكري المصري الذي كان يريد الحفاظ على ولاء عبد الله ابن رشيد من خلال التهديد بدعم غريمه. وتعويضاً عن خسارة عيسى لمركزه حاكماً على حائل، عينه المصريون مسؤول بيت المال لمنطقة حائل. وتوفي في عام ١٨٣٩ تاركاً عبد الله بن رشيد حاكم حائل وجبل شمّر بلا منازع.

نشب النزاع بين ابن علي وآل الرشيد في مرحلة حاسمة من تاريخ وسط الجزيرة العربية، متزامناً مع تدمير الامارة السعودية ـ الوهابية الأولى وانحسار الهيمنة السعودية في الجزيرة العربية. وكانت المنطقة، رسمياً، جزءاً من الأمبراطورية العثمانية التي عملت من خلال الوالي المصري للحد من التوسع السعودي. وكان هذا تذكيراً لكل مَنْ عملوا في السابق بصورة مستقلة، بأن أعمالهم، في الحقيقة، تحت المراقبة ويمكن تقييدها بمشيئة السلطان العثماني. وكان هذا الأخير قد فقد السيطرة على الوضع عندما بدأ نفوذ محمد علي يتنامى فوق المستوى المتوقع. وفي عام ١٨٤١ اضطر محمد علي إلى سحب قواته من الجزيرة العربية تحت ضغط دولي تاركاً مستقبل وسط الجزيرة العربية تقرره مراكز قواه المحلية.

في عشية الانسحاب المصري من نجد كان السعوديون في الرياض قد اعتراهم الضعف وقواتهم أنهكتها سلسلة من الصدامات العسكرية مع المصريين. ولم تكن سلطتهم قد توطدت بعد في عاصمتهم الجديدة الرياض، وبدأ نفوذهم بين القبائل البدوية بالانحسار. ومن الجهة الثانية، في جبل شمّر وحائل، أسفرت عمليات الغزو المصرية عن ايجاد أسرة حاكمة جديدة هي آل الرشيد.

بدأ آل الرشيد ببطء يعملون مستقلين عندما لم يشعروا بالحاجة إلى التحالف

مع امارة سعودية اعتراها الضعف. وكانوا قادرين على القيام بذلك نتيجة الدعم من قبيلة شمّر التي التفت حول هذه القيادة واعتبرتها قيادتها. ورغم أن عبد الله ابن رشيد تمكن من نيل دعم المسؤولين المصريين فقد أدرك في مرحلة مبكرة أن هذا ليس كافياً لتحقيق مطامحه السياسية. وكان شقيقه عبيد وحمولة جعفر حلفاءه الأقوياء من البداية. كما كسب إلى جانبه غالبية سكان حائل الذين حسبوا أن شخصاً مثله سيخدم مصالحهم التجارية على نحو أفضل، لا سيما أنه أبدى رغبة في حماية القوافل التجارية. ولا تشير المصادر التاريخية إلى أي مقاومة كبيرة من جانب سكان حائل. وج. لوريمر وحده يأتي على ذكر ثورة قام بها سكان غُفار ضد عبد الله بن رشيد (ج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٨ : ١١٦١): «نجح عبد الله في كسب غالبية مواطني حائل إلى جانبه ولكن أهل مدينة غُفار المجاورة دعموا غريمه». وأدرك عبد الله بن رشيد أهمية عشائر شمّر البدوية التي فضلها لتحطيم قوة سكان غُفار الحضر. ورغم أن عبد الله نشأ في حائل فقد أمضى زمناً طويلاً مع البدو خلال منفاه وكان يتمتع بشعبية لمهاراته العسكرية وشجاعته وبسالته وبلاغته.

كما كان دعم شمّر لعبد الله بن رشيد نابعاً من مخاوفها حينذاك. فهي، أولاً، شهدت تنامي الهيمنة السعودية ـ الوهابية واندحارها أمام هذه الهيمنة في أواخر القرن الثامن عشر. وثانياً، تعرضت شمّر إلى هجوم القوات المصرية التي اعتبرت أرض شمّر جزءاً من دائرة السيطرة السعودية. وأشاعت المصالح المصرية والنفوذ المصري في وسط الجزيرة العربية حينذاك ظروفاً من اللايقين بين شمّر. ورغم أن هدف المصريين كان تدمير قاعدة السلطة السعودية ـ الوهابية فقد انشغلوا فيما بعد بضم نجد إلى أمبراطورية مصرية من نوع ما. وبالتالي فقد كانوا حريصين على احتواء المجموعات القبلية المستقلة. وعندما انحسرت الهيمنة السعودية ـ الوهابية على وسط الجزيرة العربية بدا أن هناك فراغ سلطة في المنطقة. وكان هذا وضعاً ملائماً لبسط الهيمنة المصرية بنجاح.

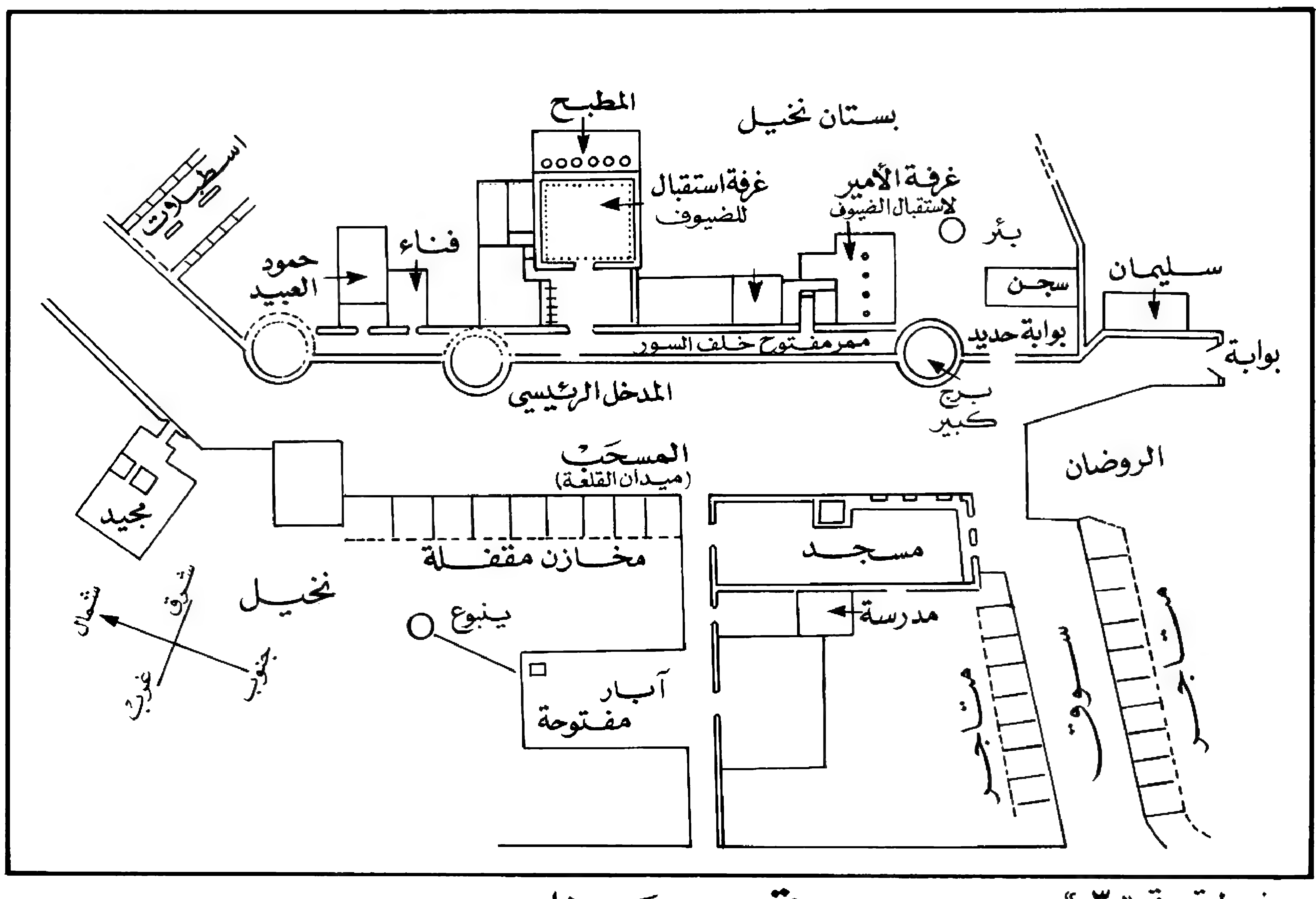
كانت شمّر بدعمها آل الرشيد تبحث عن زعامة تضمن أمنها واستقلالها. ويمكن اعتبار الاجراءات التي اتخذتها العشائر الشمّرية المختلفة، استراتيجية تكيُّفية هدفها التخفيف من وطأة الاحتواء على أيدي قوى خارجية. وشمّر بدعمها آل الرشيد المرتبطين بعلاقة نَسَب مع عشيرة عبدة الشمرية، أرست الأساس لتنظيم

دفاعها وهجومها وتعزيز وحدتها التي جرى التعبير عنها في السابق بلغة الأصل المشترك. وكان تمركز السلطة بأيدي آل الرشيد نابعاً من هذا السياق الذي كان سياق اضطراب سياسي وغليان عسكري وتدخل أجنبي. ونتيجة لذلك تمكنت شمّر من التعامل مع التجاوز الأجنبي على أرضها وصيانة استقلالها لا في أثناء الفترة الأخيرة من الغزو المصري فحسب بل وخلال المحاولات العثمانية اللاحقة لالحاق وسط الجزيرة العربية بالأمبراطورية[١٠].

خرج عبد الله بن رشيد من الصراع السياسي وهو أقوى من سلفه. وازدادت سلطاته بدعم شمّر حيث منحه ذلك قاعدة سياسية أوسع ضمت سكان حائل وجبل شمّر الحضر بالاضافة إلى بدو شمّر الرحل. وأخذ دور عبد الله بن رشيد في الاتساع وبدأ يكتسب سلطات اضافية كانت بكل بساطة غير متاحة لابن عمه. وكان اتساع دائرة نفوذ عبد الله وتبلور سلطته نتاج مخاوف شمّر وغموض وضعها السياسي وقتذاك. وكان تمركز السلطة بين شمّر الخطوة الأولى نحو تكوين شكل من أشكال الحكم (أو امارة).

كان لتبلور الزعامة السياسية والعسكرية بين شمّر في منتصف القرن التاسع عشر حالات موازية بين مجموعات بدوية أخرى في الشرق الأوسط حيث واجهت هذه المجموعات هياكل دولة مركزية متسعة. وطُرحت المحاجَّة القائلة إن نشوء قيادة مركزية بين المجتمعات القبلية التقسيمية هي رد فعل على محفِّز خارجي يتبدى بمحاولات الدول لاحتواء مجموعات قبلية مستقلة. وهذا ما لاحظه غارثويت (G. Garthwaite ١٩٨٣) في دراسته لتاريخ قبيلة بختيار. فإن التنظيم السياسي المركزي بين بدو بختيار في ايران وتبلور دور الخاني، شيخ مشايخ الاتحاد القبلي، اعتمدا اعتماداً بالغاً على النفوذ الخارجي وضغوط الدولة الايرانية. وهو يجادل بأن هذا كان ناجماً عن تطور سياسي بادرت به الدولة ولكنه أقيم على القاعدة البدوية الرعوية للجماعة القبلية نفسها (المصدر السابق ٤ ـ ١٥). ودراسة بيك لبدو القشقاي في جنوب غرب إيران هي الأخرى محاولة لربط تمركز السلطة في أيدي نخبة قبلية بعوامل خارجية. وفي حالة القشقاي بدا أن تنامي اهتمام الغرب ونفوذه وسطوته في الخليج هو على وجه التحديد الحدث الذي أوجد الظروف الاقتصادية والسياسية الممهدة لتكوين شكل التنظيم السياسي القشقائي (ل. بيك L. Beck ١٩٨٦ : ٢٥). كما يتوصل خزانوف إلى الاستنتاج القائل إن الكيانات البدوية

وتمركز السلطة بين جماعات منظمة تنظيماً قبلياً إنما هي نتاج تفاعل مع سكان حضر ودول، وردود أفعال على هذا التفاعل (أ. خزانوف A. Khazanov ١٩٨٤: ٣٠٣ ـ ٣٠٤). وتنظر هذه الدراسات والكثير غيرها (و. ايرنز W. Irons ١٩٧١ و١٩٧٩، وفان برونيسن Van Bruinessen ٢٩٧٨) إلى الجماعات البدوية في سياق تاريخي وسياسي أوسع وتعتبر التنظيم السياسي البدوي تنظيماً دائم التغير والتحول بتأثير محفزات خارجية. ولكن رغم أن تكوين الكيان السياسي الشمري كان مدفوعاً بالسياق التاريخي لتدخل قوى أجنبية فإن هذا الكيان السياسي شكلته وأدامته خصوصية تنظيم شمّر السياسي وظروفها الاقتصادية.



قصر برزان

خريطة رقم «٣»

الفصل الثالث

أنماط الزعامة
أمير وشيخ وإمام

محل اقامة الأمير

ما ان نجح عبد الله بن رشيد في طرد ابن عمه من حائل حتى كان في لهفة على ايجاد مقر طبيعي دائم لحكمه[1]. واختار عبد الله أن ينجز بناء موقع برزان الذي بدأه سلفه. وقد وُصف في تقارير رحالة أوروبيين زاروا الواحة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤، و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥، ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩، أ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨، ش. هوبر C. Huber ١٨٨٨، ج. يوتنغ J. Euting ١٨٩٦، غ. بيل G. Bell ١٩١٤، أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨). وزعم بالغريف أن الموقع كان يشغل عُشر مساحة الواحة (بالغريف ١٨٦٥: ١٠٣). وقد توفي عبد الله بن رشيد في عام ١٨٤٧ وأنجز ابنه بناء القصر (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨: ٢٣٩) الذي أصبح المحل الرسمي لاقامة الأمير في حائل. ويزعم والن أن مساحة برزان كانت تميزه عن البيوت الأخرى: «لا يتميز محل اقامة ابن آل الرشيد عن البيوت الأخرى في شيء إلا بكبر حجمه وسعته، اللذين يستلزمهما اسكان عائلته الكبيرة ذاتها والعدد الكبير من الضيوف الذين يستضيفهم الشيخ طيلة العام». (غ. والن ١٨٥٤: ٢٠٠).

لعل خريطة يوتنغ لبرزان كانت الأوضح والأكثر تفصيلاً (انظر الخريطة رقم ٣). كان القصر يقع قرب السوق والمسجد وكان يحيطه سور ذو أبراج عالية. وكان يتألف من فناءين وغرفة لاستقبال الضيوف وغرفة الاستقبال الخاصة بالأمير

واسطبلات ومطبخ ومسكن خاص. وكان المدخل الرئيسي يطل على ميدان عام يسمى المسحب. وكان مجلس الأمير اليومي يعقد في المسحب الذي كان خارج القصر عاكساً الطبيعة العلنية لهذه الاجتماعات المنتظمة وانفتاحها على جمهور واسع. وقبالة هذا الميدان العام توجد مخازن الأمير وغرف الضيوف. وكانت بيوت صغيرة ملحقة بجانبي المبنى، يسكنها حمود بن عبيد وسليمان، وهما من أقارب الأمير. وتوجد على مقربة الآبار، وهي المصدر الرئيسي لامدادات الماء. وتبين خرائط أخرى مثل خريطة بالغريف موقع سوق للعبيد وراء القصر (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥).

ارتبط انجاز بناء موقع برزان على أيدي عبد الله بن رشيد وابنه برغبة أمراء آل الرشيد في اقامة قاعدة متينة، ظاهرة ودائمة في حائل. وكان موقع القصر وتحصيناته واستخدامه للمكان، تعكس النظام السياسي الذي بدأ يظهر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. **فأولاً**، يتسم موقعه قرب المسجد الكبير الذي تقام فيه صلاة الجمعة، وقرب سوق حائل المركزية، بأهمية بالغة لفهمنا طبيعة زعامة الأمراء ودورهم. وكان أمراء آل الرشيد، بوصفهم حكام واحات، يمثلون قيادة سياسية ذات أبعاد اقتصادية ودينية. وكانت مشاركتهم الاقتصادية في التجارة، ومركزية السوق التي كانت منفذ مثل هذه المشاركة، ودورهم العسكري بوصفهم حماة القوافل التجارية، قد انعكست في قرارهم بالاقامة قرب السوق. ومن الجهة الثانية كان قرب محل إقامتهم من المسجد يشير إلى وجود قيادة من نوع ما. ورغم أن الأمراء أنفسهم لم يقودوا صلاة الجمعة فإنهم كانوا يعينون إماماً لأداء المهمة. وكانت هذه الممارسة تضمن سيطرتهم وإشرافهم على هذه المؤسسة الدينية الهامة. وقد لاحظ والن أنه «في مسجد حائل الكبير كانت الصلاة يتلوها إمام يعيِّنه ويدفع أتعابه الأمير نفسه. وهو عموماً رجل تلقى شيئاً من التعليم الأدبي في المدينة أو القاهرة أو الرياض» (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٤).

ثانياً، كان تحصين القصر وحمايته بأسوار عالية يشيران إلى ضرورة انعزال الحاكم وحاشيته عزلة مكانية - مؤشر إلى وجود نوع من الخوف على الحاكم وخطر الاغتيال والسطو وما إلى ذلك. وكانت الأسوار تمثل الميل الناشئ نحو قدر أكبر من التفريق المادي، ولكن ليس بالضرورة تفريقاً اجتماعياً أو سياسياً، بين الحاكم ورعاياه. وكان هذا يُحافَظ عليه بوجود عدد من الحراس على البوابة الرئيسية

يكونون عادة من العبيد في أصولهم، يراقبون الدخول على الأمراء ويحمونهم من الضيوف غير المرغوب فيهم والزوار الخطرين. وهذه السمة المحدَّدة كانت تعبيراً عن تحول نمط الزعامة في حائل. فإن الحاجة إلى الحماية لم تكن من صفات شيوخ شمّر الذين كانوا يعيشون وينصبون خيامهم مع عشيرتهم. وكانت خيامهم الحدود الوحيدة القائمة بينهم وبين مجموعتهم.

ثالثاً، كان ترتيب المكان داخل القصر يعكس اهتمامات الحكام السياسية. وعلى سبيل المثال، كان المطبخ وغرف الاستقبال تشغل حيزاً كبيراً. وكان الأول يُستخدم لتحضير الوجبات اليومية لضيوف الأمراء. وكانت هذه الولائم تساهم في توطيد زعامة الأمراء والحفاظ على علاقتهم بأتباعهم. وقدر دوتي كلفة هذه الوجبات في عام ١٨٨٨ بـ ١٢٠٠ جنيه استرليني (ش. دوتي Doughty ١٩٧٩: ٣٥ الجزء الثاني). وكانت هذه استراتيجية سياسية هدفها زيادة شعبية الحاكم ومشروعيته.

وكانت اسطبلات الأمراء ترتيباً مكانياً مهماً آخر. فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أثارت اسطبلات أمراء آل الرشيد وسمعة خيولهم اهتمام القوى الأمبراطورية مثل الحكومات العثمانية والمصرية والبريطانية. وأبدى رحالة اوروبيون كذلك اهتماماً حين زاروا ووصفوا هذه الاسطبلات التي كانت تُربى فيها خيرة انسال الخيول العربية. وكانت بعض هذه الخيول تُرسل هدايا إلى اسطبلات أخرى وشيوخ قبائل آخرين وولاة عثمانيين لتعزيز تحالفات سياسية. وقد لاحظ والن:

هذه الحيوانات أكثر هنا منها في أي جزء آخر زرته من الجزيرة العربية... وقيل لي ان اسطبل عبد الله وحده يحوي زهاء ٢٠٠ حصان موزعة على القرى المختلفة لأرضه. ويُرسَل زوج من هذه الحيوانات سنوياً إلى المدينة مع قافلة الحج، هدية للباشا التركي، وزوج آخر إلى مكة لوالي هذه المدينة، وأحياناً زوج ثالث إلى باشا بغداد، وفي السنوات الأخيرة كان عباس يرسل بعثة من مصر كل عام تقريباً لشراء عدد من الخيول لاسطبله الباهظ الكلفة في الاسكندرية. وكانت أخرى تُقدَّم أحياناً إلى أمراء آل سعود، أو تُباع بصورة خاصة إلى بدو الجوار (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٨).

وكان عدد صغير من هذه الخيول ينتهي في سوق الكويت حيث كان ممثلو الحكومة البريطانية يبتاعونها ويرسلونها إلى بومباي. وكان هذا نشاطاً تجارياً ضيق

النطاق لأن الخيول كانت حيوانات ثمينة تستحق التقدير والعناية. وكانت قيمتها العسكرية أهم سبب لتربيتها. اذ كانت تؤمن هيمنة عسكرية تفوق ما تحققه الابل البطيئة وغير المناسبة لاستراتيجيات الكر والفر العسكرية رغم أن بقاءها فترات طويلة بلا ماء وعلف كان أسهل. وعلى النقيض من ذلك كانت الخيول مناسبة للصدامات العسكرية القصيرة قرب الآبار أو مصادر الماء. ومرة أخرى كانت اسطبلات الأمراء ترتيباً مكانياً يعكس ضرورات العصر السياسية والعسكرية. وقد ازدادت زعامة حائل قوة نتيجة الغزو والتوسع العسكري، وبالتالي كانت الاسطبلات والخيل جزءاً من مستودعها العسكري فضلاً عن اعلاء مكانتها الاجتماعية والسياسية.

لم يكن عرف البدو في الجزيرة العربية يضع السجن في تصوره. ولكن بقيام إمارة الرشيد في حائل وُجِدت مثل هذه المؤسسة وبدأ يظهر نظام لاحتجاز الرهائن. وقد أُلحق بالقصر سجن كان يُستَخدم لمعاقبة المجرمين والمنشقين السياسيين والخونة. كما كان شيوخ القبائل وحكام المدن المندحرون يُحتجزون في هذا السجن بعد قهر أرضهم. لذا كان السجن مكاناً للعقاب ولاحتجاز الرهائن[٢]. ولم يكن هذان الجانبان من جوانب السجن شائعين بين البدو ولكنهما نشآ في الواحات والمدن. وكانت ادامة نظام من السجون تتطلب وجود موقع مكاني دائم وقوة دائمة من الشرطة لمراقبة السجن وحراسته. وأصبح الاثنان متاحين لامارة آل الرشيد التي كانت تتغير بصورة تدريجية.

كانت مشروعية عبد الله بن رشيد تنبثق من تضافر خصائص منسوبة ومتحققة. فهو، **أولاً**، ينتمي في أصله إلى بيت آل الرشيد الذي كان من البيوت المرموقة في حمولة آل جعفر. وكانت الحمولة فرعاً من عشيرة عبدة، احدى عشائر شمّر الأربع. وكانت شمّر تقر بأصل عبد الله النبيل من آل جعفر وتثمن هذا الأصل. وقد منحته سمعة الأصالة المنسوبة ولاء لا ينازعه فيه أحد بين شمّر، ونوعاً من المشروعية التي لا يتطرق إليها الشك. **وثانياً**، كان عبد الله، قبل أن يقيم امارته في حائل، قد نجح في صيانة ما له من سمعة ذائعة الصيت بالشجاعة والبلاغة والبسالة والكرم والمهارات العسكرية المتقدمة. وكانت هذه الصفات المتحققة موضع تقدير بالغ بين شمّر. وهي صفات تستدعي الاحترام والاعجاب والولاء.

كانت زعامة عبد الله (١٨٣٦ ـ ١٨٤٨) في البداية امتداداً لدوره شيخاً قبلياً تمكَّن من اثبات سمعته ومشروعيته بين عشائر شمّر. وخلال العقد الأول من زعامته كان لم يزل معروفاً بوصفه الشيخ، وهو تسمية كانت تستخدم بالتساوي للاشارة إلى زعيم العشيرة أو رأسها. وفي حائل حدث تحول دور الشيخ تدريجياً. ولم يُنجز هذا التحول إلاّ خلال حكم طلال بن رشيد (١٨٤٨ ـ ١٨٦٨) ومحمد بن رشيد (١٨٦٩ ـ ١٨٩٧). وكان هذا يعني مزيداً من المركزية السياسية وتعزيز السلطة وزيادة الهيمنة العسكرية واقامة حكم سلالي. ومن المهم التأكيد على أن هذا التغير النوعي اقترن بظهور لقب جديد للاشارة إلى الزعامة السياسية. فقد بدأ آل الرشيد يُعْرَفون بأنهم أمراء لا شيوخ. وكان اعتماد هذا اللقب يعكس بداية عملية أصبح «الزعيم» القبلي في اطارها «حاكم» واحة.

زعامة الأمراء

أخذ آل الرشيد اسمهم من رشيد، جد عبد الله، الذي كان له ابن وحيد اسمه علي. واستناداً إلى بعض التقارير النَسَبية فقد كان لدى رشيد ابن ثان اسمه جبر ولأن المتحدرين من جبر لم يكن لديهم أي نفوذ سياسي، لن يُدرس تسلسل نسبهم أبعد.

كان لعلي، ابن رشيد، ابنان هما عبد الله وعُبيد مؤسسا امارة آل الرشيد في حائل. ويمكن أن تُشخص سلسلتان نَسَبيتان ضمن الفئة الحاكمة لآل رشيد هما سلسلة المتحدرين من عبد الله وسلسلة المتحدرين من عُبيد (انظر المخطط رقم ٤). وكان لدى عبد الله ثلاثة أبناء هم طلال ومحمد ومتعب. وقد استأثر المتحدرون من ذرية عبد الله بمنصب الأمير طيلة ما يقرب من تسعين عاماً. وخلال هذه الفترة كان عشرة من مجموع اثني عشر أميراً أبناء عبد الله وأحفاده. ومن الجهة الثانية، فإن عُبيداً، رغم دوره الهام في توطيد حكم أخيه في حائل، لم يصبح حاكماً بعد وفاة أخيه. يضاف إلى ذلك أن اثنين فقط من أحفاد عُبيد، هما سلطان وسعود، تبوّآ هذا المنصب لفترة قصيرة من الوقت. ولعل السبب في أنه لا عبيد ولا المتحدرون من ذريته كانوا مشاركين رسمياً في القيادة السياسية، يرتبط بالحقيقة الماثلة في أن عبد الله بن رشيد طالب أخاه بعهد يُبقي التعاقب على منصب الأمير في بيت عبد الله[٣]. ولكن رغم حقيقة أن المتحدرين من ذرية عبيد لم يتبوأوا مناصب رسمية فقد أصبحوا مجموعة دعم مهمة للأمير. ويقدم الجدول رقم (١) قائمة بالامراء الاثني

عشر الذين حكموا في حائل خلال الفترة الواقعة بين ١٨٣٦ و١٩٢١.

وثمة اتفاق بين الرحالة الأوروبيين والمؤرخين المحليين لوسط الجزيرة العربية على أن قيام امارة آل الرشيد في الواحة يرتبط بنجاح عبد الله بن رشيد[٤]. وقد لاحظ والن خلال زيارته لوسط الجزيرة العربية أن عبد الله كان «.... باعتراف الغالبية والي نجد في واقع الأمر». وأضاف والن أن جهود عبد الله أفضت إلى إقامة الحكم السلالي لأسرته: «.... أصبحوا أقوى العوائل الرئاسية وأشدها نفوذاً في الجزيرة العربية برمتها» (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٢). كما لاحظ والن أهمية أصل عبد الله النبيل بوصفه من حمولة آل جعفر وصفاته الشخصية:

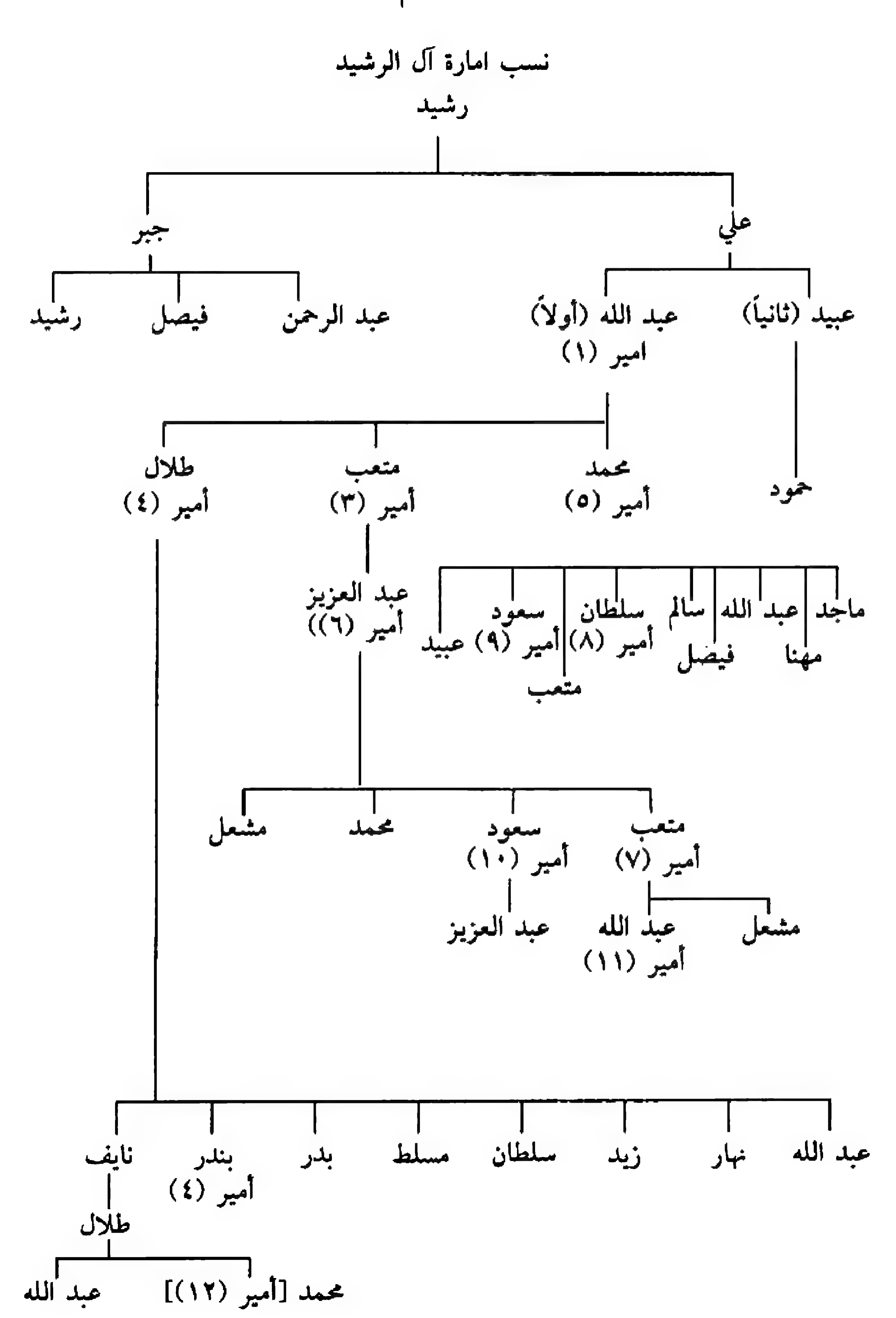
كان يدين بذلك أكثر بكثير لصفاته الشخصية الكبيرة، لبسالته ومروءته، لعدالته الصارمة، الميّالة في أحيان كثيرة إلى القسوة، لالتزامه الثابت بكلمته ووعده الذي لم يُعْرَف ذات يوم أنه وضع نفسه في موقع المذنب بخرقه، وقبل كل شيء، لضيافته التي لا تفوقها ضيافة وعطفه على الفقراء الذين من المعروف حق المعرفة أن أحداً منهم لم يغادر بابه دون عون منه. وهذه الفضائل، وهي أعلى ما يمكن أن توهب لبدوي، وهِبت لعبد الله بدرجة عالية. (المصدر السابق)

ولعل أكبر انجازات عبد الله كان نجاحه في الحفاظ على القانون والنظام ليس في حائل فحسب بل وفي واحات جبل شمّر الأخرى أيضاً. وكان أمن الواحات والمستوطنات وسلامتها وضعاً جديداً أوجده عبد الله بن رشيد، حسب سكان المنطقة:

هناك قول شائع بين السكان الحاليين يذهب إلى أن المرء يستطيع أن يسير من نهاية أرضهم إلى النهاية الأخرى حاملاً ذهبه على رأسه دون اعتراضه بأي أسئلة. وقيل لي، في السابق كان القرويون ينقسمون إلى مجموعات تعيش في تمرد سافر تنهب وتسلب بعضها بعضاً لدى كل فرصة، في الطرقات وفي بيوت أحيائهم ذاتها. (غ. والن G. Wallin : ١٨٣).

وهذا ما أكده موسيل الذي زعم أن عبد الله «سرعان ما أشاع السلام والنظام في كل المستوطنات الموجودة حول هضبتي أجأ وسلمى، وسعى إلى كسب شيوخ شمّر على اختلافهم بالكرم والسخاء» (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٨).

المخطط رقم (٤)



نسب امارة آل الرشيد
رشيد
جبر
علي
رشيد
فيصل
عبد الرحمن
عبد الله (أولاً)
أمير (١)
عبيد (ثانياً)
طلال
أمير (٤)
متعب
أمير (٣)
محمد
أمير (٥)
حمود
عبد العزيز
أمير (٦))
ماجد
عبد الله
مهنا
سالم
فيصل
سلطان
أمير (٨)
متعب
سعود
أمير (٩)
عبيد
مشعل
محمد
سعود
أمير (١٠)
متعب
أمير (٧)
عبد العزيز
عبد الله
أمير (١١)
مشعل
نايف
بندر
أمير (٤)
بدر
مسلط
سلطان
زيد
نهار
عبد الله
طلال
عبد الله
محمد [أمير (١٢)]

الجدول رقم (١)

أمراء آل الرشيد (١٨٣٦ ـ ١٩٢١)

أمير	حكم	نهاية الحكم
١ ـ عبد الله بن رشيد	١٨٣٦ ـ ١٨٤٨	مات لأسباب طبيعية
٢ ـ طلال بن عبد الله	١٨٤٨ ـ ١٨٦٨	مات في حادث
٣ ـ متعب بن عبد الله	١٨٦٨ ـ ١٨٦٩	قتله ابن أخيه بندر
٤ ـ بندر بن طلال	١٨٦٩	قتله عمه محمد
٥ ـ محمد بن عبد الله	١٨٦٩ ـ ١٨٩٧	مات لأسباب طبيعية
٦ ـ عبد العزيز بن متعب	١٨٩٧ ـ ١٩٠٦	مات في معركة مع ابن سعود
٧ ـ متعب بن عبد العزيز	١٩٠٦ ـ ١٩٠٧	قتله ابن عمه سلطان بن حمود
٨ ـ سلطان بن حمود	١٩٠٧ ـ ١٩٠٨	قتله أخوه سعود
٩ ـ سعود بن حمود	١٩٠٨ ـ ١٩١٠	قتله أخوال ابن عمه
١٠ ـ سعود بن عبد العزيز	١٩١٠ ـ ١٩٢٠	قتله ابن عمه عبد الله بن طلال
١١ ـ عبد الله بن متعب	١٩٢٠ ـ ١٩٢١	استسلم لابن سعود
١٢ ـ محمد بن طلال	١٩٢١	استسلم لابن سعود

وكانت رغبة عبد الله في ضمان السلام واستتباب الأمن في المستوطنات مؤشراً إلى بداية عملية كان يجري فيها تحويل دوره كشيخ وتعقيده وإعادة تحديده. وقد بدأ يأخذ على عاتقه مسؤوليات جديدة تتعلق بالحفاظ على القانون والنظام. إذ شرع عبد الله «يحكم» ويتصرف كحاكم. وكانت تحت تصرفه قوة دائمة من عبيده وحراسه قادرة على تنفيذ قراراته ومعاقبة المجرمين وقطاع الطرق.

وعموماً أرست فترة زعامة عبد الله الأساس لاقامة حكم سلالي. وبعد وفاته في عام ١٨٤٨ خلفه ابنه الأكبر طلال. ويزعم بالغريف أن طلالاً عُين أمير حائل بالاجماع بعد موت والده: «كان طلال أصلاً واسع الشعبية... واتفقت جميع الأطراف على إعلانه وريثاً وحيداً للمملكة وخلفاً شرعياً لسلطة المُلْك وهكذا أُخمدت من البداية ونُحيت بلا نزاع الدعاوى المنافسة التي رفعها عبيد، المكروه من كثيرين والمرهوب من الجميع». (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٢٨).

أصبح طلال أمير حائل دون أي تعقيد يتعلق بالخلافة. فإن عُبيداً، المرشح المحتمل الآخر، كان قد أعطى شقيقه عبد الله، كلمته التي وافق فيها على ترك منصب الأمير لذرية شقيقه. يضاف إلى ذلك أن عُبيداً كان معروفاً باسم الذئب، وهو لقب يشدد على شخصيته الحربية، وأنه كان ميالاً إلى التفرغ لقيادة وتنظيم التوسع العسكري لمُلك آل الرشيد نيابة عن أخيه ثم ابن أخيه. وسرعان ما نالت هذه الصفات اعتراف طلال «الذي تمكن من أن يؤمّن في آن واحد وفاء عمه الخطر وغيابه بتكليفه مسؤولية تلك الحملات التي كانت خير ما يشفي غليل عُبيد المتفجر طاقة». (المصدر السابق: ١٢٩).

وخلال حكم طلال (١٨٤٨ ـ ١٨٦٨) انتعشت التجارة في حائل بفضل جهوده المتواصلة لصيانة ما أنجزه والده في اشاعة السلام والأمن. وكثيراً ما وُصف طلال في الأدبيات بأنه شخص يهتم بالتجارة ويهوى الترفيات. وقد شجع تجاراً من أنحاء مختلفة من نجد وتجاراً من البصرة ومن مشهد علي في العراق على الاقامة في حائل. وكان غالبية هؤلاء من الشيعة الذين اتخذ طلال نحوهم موقفاً منفتحاً ووفر لهم حماية. وعلق بالغريف على ذلك قائلاً «ان الكثير من هؤلاء التجار كانوا ينتمون إلى الطائفة الشيعية التي يكرهها كل السنة الأتقياء ويكرهها الوهابيون كراهية مضاعفة. ولكن طلالاً تظاهر بعدم رؤية اختلافاتهم الدينية وأسكت كل اللغط بالتفاتات من المحاباة الخاصة نحو هؤلاء الرافضين أنفسهم، وكذلك بالمنافع التي ما لبث أن حققها وجودهم للمدينة» (المصدر السابق: ١٣٠).

كما كان طلال معروفاً باهتماماته «الحضرية». فتحت إشرافه أُنجز بناء قصر برزان وكذلك مخازن القصر وتجديد السوق التي أضاف إليها ٨٠ متجراً. و«حول القصر وفي العديد من أجزاء المدينة الأخرى قام بشق الطرق وحفر الآبار ومد حدائق فسيحة إلى جانب تقوية التحصينات القديمة من كل النواحي وإضافة تحصينات جديدة». (المصدر السابق: ١٢٨). يضاف إلى ذلك أن طلالاً سعى إلى إعمار مستوطنات جبل شمّر التي تضررت خلال النصف الأول من القرن نتيجة غزوات القوات السعودية ـ الوهابية والقوات المصرية. وأمر ٨٠٠ عبد من عبيد أسرته بالانتقال إلى غُفار، وهي واحة تقع جنوب حائل، حيث كان مطلوباً منهم أن يشتغلوا عمالاً زراعيين في بساتين النخيل العائدة لأسرته. ولاحظ موسيل: «ان الآبار المطمورة فُتحت وبساتين النخيل القديمة نُظّفت وبساتين جديدة غُرست

وحُميت من الرمال بأسوار عالية وقصوراً بُنيت في وسط بساتين النخيل وأن حرفيين وتجاراً استُقدموا من العراق وسوريا وأن خطاً تجارياً منتظماً أقيم مع العراق» (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٩).

وكان هذا الانغمار في البناء الحضري والأشغال العامة يؤشر مزيداً من التعقيد في دور الأمير وميلاً متزايداً إلى التوطن والحياة الحضرية. واستناداً إلى موسيل فإن الاجراءات التي اتخذها طلال زادت لا في ازدهار رعاياه فحسب بل وفي توسيع نفوذه وسلطانه. وإذ ولجت حائل مرحلة من النمو والازدهار المستديمين، كان بمقدور طلال أن يفكر في توسيع مُلْكِه (المصدر السابق: ٢٤٠). فغرباً امتدت امارة آل الرشيد إلى واحات خيبر وتيماء التي تخلت عنها القوات التركية ـ المصرية التي أُجْلت عن وسط الجزيرة العربية في عام ١٨٤١. ولاحقاً وقعت منطقة القصيم الجنوبية، بين جبل شمّر ومجال السيطرة السعودية ـ الوهابية، ضمن دائرة نفوذ آل الرشيد. واستناداً إلى بالغريف فإن سكان القصيم بدأوا «يضمون» أنفسهم إلى أمير حائل:

ان سكان القصيم، إذ أعياهم الطغيان السعودي، وجهوا أنظارهم صوب طلال الذي وفر ملاذاً كريماً ومصوناً لكثير من المبعَدين السياسيين من هذه المنطقة. جرت مفاوضات سرية، وفي لحظة مناسبة ضَمَّت وهاد ذلك الإقليم برمتها ـ على نحو ليس في حقيقة الأمر خاصاً بالجزيرة العربية ـ نفسها إلى مملكة شمّر باقتراع عام واجماعي. (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٢٩).

وشمالاً امتد التوسع حتى الجوف، وهي واحة على الحافة الشمالية من صحراء النفود الكبرى، في عام ١٨٥٣. وكانت هذه الواحة أصلاً ضمن دائرة نفوذ آل الرشيد حيث اعترف سكانها بسلطتهم من خلال دفع اتاوة. وما ان اندلعت نزاعات داخلية بين سكان الجوف حتى دفع أمير حائل بقوة كبيرة تحت قيادة عمه عبيد وشقيقه متعب لفرض سيطرته على الواحة (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٩).

مات طلال في عام ١٨٦٨ في حادث غامض. ويذكر دوتي القصة التي تذهب إلى أن طلالاً وقع مريضاً بعد تسميمه في شرق نجد وبعث في طلب حكيم (طبيب) فارسي أبلغه أن مرضه سيؤدي إلى اختلال عقلي. فرفض طلال القبول بجنونه ومات نتيجة رصاصة انطلقت من مسدسه حين كان يمسك به. ويخلص

دوتي إلى أن طلالاً لا بد أنه انتحر (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٢٨ الجزء الثاني). ولكن موسيل يزعم أن طلالاً عانى سنوات عديدة من خُراج نغص عليه حياته. وأنه مات نتيجة رصاصة انطلقت وهو يجرب مسدساً من نوع غير مألوف وأن موته ربما كان قضاء وقدراً وليس محاولة متعمدة للانتحار. (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٤٠). وقد خلَّف سبعة أبناء هم بندر وبدر ومسلط ونهار وعبد الله وزيد ونايف. وبعد وفاته لم يرث ابنه الأكبر، بندر، منصب الأمير مثلما ورثه طلال عندما توفي والده في عام ١٨٤٨. ولعل السبب في ذلك أنه كان لا يتجاوز الثامنة عشرة أو العشرين من العمر حينذاك ولم يكن قادراً على نيل التأييد اللازم.

تبوأ منصب الأمير متعب، شقيق طلال، الذي حظي بتأييد الكبار من أفراد أسرة الرشيد وشيوخ عشائر شمّر. ولم يحكم متعب إلا مدة عام واحد ثم قتله بندر بإطلاق النار عليه في قصر برزان. وقد خلف ابناً في الثانية من العمر هو عبد العزيز. وبعد مقتل متعب رحل الكبار من أفراد العائلة، بمن فيهم عمه عبيد وابن عبيد، حمود، وشقيق متعب محمد، عن حائل متوجهين إلى الرياض، العاصمة السعودية. وحين استتب الوضع لبندر في منصبه شجع أعمامه على العودة إلى حائل. وقد توفي عبيد في الرياض ولم يعد إلا حمود. وآثر محمد الالتحاق بالقوافل التجارية المسافرة بين الجزيرة العربية والعراق. وكان ذلك محاولة لتحشيد أنصار من بين السكان الحضر والبدو. فقد كان محمد قائد قوافل مشهوراً، وكان معروفاً بدعمه المصالح التجارية لأبناء المدن. وكان يمتلك مهارات عسكرية لولاها ما كان بمقدوره أن يضمن أمن القوافل التجارية ومرورها بسلام.

وفي احدى رحلات محمد، عائداً من العراق، استقبله ابن أخيه بندر، حاكم حائل الجديد. وليس واضحاً ما كان بندر يضمره من نيات حينذاك. ويزعم موسيل أن بندر الذي لم يكن في وسعه الاعتماد إلا على عَبيدِه الفتيان، خرج راكباً في مقدمة حرسه لمنع عمه من الاتحاد مع السكان الحضر في حائل (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٤٢). ولكن عم بندر الذي انتابه احساس بالخطر بادره بإطلاق النار عليه. وواصل محمد رحلته إلى حائل وأعلن نفسه أميراً. ولقطع الطريق على احتمالات الثأر أمر محمد بإعدام أشقاء بندر الذين كانوا أبناء طلال. ولكن ذرية طلال لم تُمح بالكامل لأن أحد أبنائه، نايف، نجا من المجزرة.

وتابع سكان حائل الحضر هذه الاضطرابات الدموية التي اعتبروها قضية

خاصة تهم العائلة الحاكمة، وامتنعوا عن التدخل. ويزعم موسيل أن الأمر سيان عندهم أياً كان الفرد الذي عليهم أن يؤدوا الاتاوة والخدمة العسكرية له من أفراد العائلة الحاكمة (المصدر السابق: ٢٤). ولكن مع ذلك، لا بد وأن مصالح محمد التجارية وانخراطه في تجارة القوافل أمَّنت له على الأقل تأييداً ضمنياً بين أوساط حائل التجارية ـ رغم عدم امتلاكها الوسائل للمشاركة بنشاط في الصراع على الزعامة. يضاف إلى ذلك أن شيوخ شمّر كانوا مع محمد من البداية لأنه كان يراعي مصالحهم ـ خاصة تلك المرتبطة بتجارة القوافل التي كان البدو يقومون بدور نشيط فيها كمرافقين وادلاء وزبائن وكانوا يوفرون لها وسائط النقل.

أدرك محمد أن المخاطر التي أقدم عليها للوصول إلى موقع الأمير مخاطر كبيرة جداً وظل طيلة حياته يخاف من إمكانية الثأر. وفي محاولة لكسب أكبر عدد ممكن من المؤازرين بين صفوف الأسرة، أقام محمد صلات وثيقة مع فرع عُبيد الذي بدا أنه يفوق فرع عبد الله عدداً على أثر المجزرة التي ارتكبت بحق أبناء طلال. وأصبح حمود، أكبر أبناء عُبيد، حليفاً قوياً من حلفاء محمد. وقد وصف دوتي هذا التحالف:

ربط حمود الأميري نفسه بقَسَم أمام ابن عمه بأن يحيا ويموت معه؛ فأبواهما كانا شقيقين، ولأن أحداً في سن البلوغ لم يبق في بيت الأمير فإن حمود بن رشيد يأتي بعد محمد في السلطة، وهو نائبه في الداخل ويقاتل إلى جانبه في الميدان ويحمل بيرق الأمير. وحمود رفيق الحاكم في كل الخدمات والمجالس اليومية. (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٦٤٧ الجزء الأول).

أدرك محمد أن أفراد فرع عُبيد يشكلون خطراً كامناً، وحقيقة أن محمداً لم يكن لديه أبناء زادت الوضع تفاقماً. ولإعادة التوازن الديموغرافي أخذ محمد يبحث عن ورثة محتملين بين المتبقين من ذرية عبد الله. وكانت الامكانية الوحيدة يوفرها طفل صغير لشقيق محمد، متعب، أول مَن قُتل من أفراد فرع عبد الله. وقد تبنى محمد ابن شقيقه اليتيم، وهو فتى يافع اسمه عبد العزيز عقد محمدا العزم على إعداده للزعامة.

رغم التعقيدات والمجازر التي حملت محمداً الى منصب الأمير فقد اتضح أن حكمه أطول حكم في تاريخ سلالة آل الرشيد لأنه ظل أمير حائل وجبل شمّر حتى وفاته في عام ١٨٩٧. واقترنت زعامته بفترة من الاستقرار والتوسع

والازدهار. وفي نهاية القرن التاسع عشر امتدت دائرة نفوذه لتشمل القسم الأعظم من نجد، بما في ذلك منطقة القصيم والعاصمة السعودية، الرياض. وفي عام ١٨٩١ قام محمد بن رشيدَ بطرد العائلة السعودية من الرياض. ولجأ حاكم الرياض، عبد الرحمن وابنه عبد العزيز (المعروف باسم ابن سعود، مؤسس المملكة السعودية الحالية) إلى الكويت. ووصل توسع ابن رشيد إلى الجوف وتَدْمر شمالاً وإلى تيماء وخيبر غرباً. ويزعم موسيل:

ان الأمير محمداً عزز الآن سلطته في الجوف ومدَّها إلى كل المستوطنات في منخفض السرحان إلى حد جبال حوران وحتى إلى تدمر التي أُجبرت على دفع إتاوة له. . . . لقد كانت سلطة ابن رشيد في أوجها، ونفوذه يمتد من حلب ودمشق إلى البصرة وعسير. (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٤٣).

مات محمد لأسباب طبيعية. وحينذاك كان ابن أخيه، عبد العزيز، الذي تولى تربيته، قد بلغ سناً مناسبة للاضطلاع بمسؤولية الزعامة. وأصبح عبد العزيز ابن متعب أميراً من دون التعقيدات التي اكتنفت تعاقب الحكام السابقين. وللحفاظ على هيمنة شمّر التي حققها محمد كان عبد العزيز بحاجة إلى امداد متواصل من السلاح والعتاد. وكان سلفه قد اعتمد على ميناء الكويت الخاضع لسيطرة عائلة الصباح، وميناء عقير التركي في منطقة الاحساء شرق الجزيرة العربية. ولكن حكام الكويت كانوا متحالفين مع آل سعود. وجعل هذا امكانية الوصول إلى ميناء الكويت أمراً بالغ الصعوبة. وكان عبد العزيز يريد توسيع دائرة سلطانه لتشمل منفذاً على الساحل ولكنه كان منشغلاً بالدفاع عن أرضه. وكان التحدي الوحيد الذي تعين على عبد العزيز بن رشيد أن يواجهه هو صعود سلطة ابن سعود الذي نجح في عام ١٩٠١ في العودة من الكويت واستعادة موقع أسلافه في الرياض. وقُتل عبد العزيز بن رشيد في معركة روضة مهنا التي وقعت بينه وبين ابن سعود في عام ١٩٠٦. وقد ورث ابن عبد العزيز الأكبر، متعب، موقع والده وكان أمير حائل لمدة عام واحد.

لم يعترف بمتعب أميراً لحائل إلا أنصار أبيه ولم تعترف به عائلة حمود بن عُبيد. وإذ لم يتمكن متعب من نيل اجماع الأغلبية في أسرته، فقد كان غير قادر على التأثير في أي تطور سياسي أو عسكري. وفي عام ١٩٠٧ قتله فرد صاعد من أفراد فرع عُبيد، هو سلطان بن حمود. ورغم أن حمود بن عبيد والمتحدرين من

أصله أصبحوا قريبين من الأمير القوي محمد بن رشيد فإنهم لم يكونوا قادرين على رفع مطالب سياسية أكبر نتيجة الاتفاق المبرم بين جدهم وعبد الله بن رشيد. ولم يكن أحد من ذرية عبيد قد تبوأ منصب الأمير حتى ذلك الوقت. والآن أعلن سلطان بن حمود نفسه أمير حائل رغم اعتراضات أبيه الذي أعرب في شعره المحكي عن استيائه من خرق ابنه للاتفاق:

سلطان خنت العهد لو ترقيت

الشمس إلّي زالت يزول الظلال

في هذه الأبيات يستهجن حمود أعمال ابنه التي يرى أنها لا تمثل نصراً. ويقول لابنه أنه نكث بالاتفاق ولن يتوفق نتيجة ذلك، مضيفاً بأن عندما يُهزم الفرع الرئيسي من آل الرشيد فإن هذا سيقترن بسقوط آل عبيد. ويستخدم حمود صورة الشمس وظلها: متى ما تشرق الشمس يكون هناك ظل والغروب دائماً يقترن بزوال الظل.

وفي محاولة للتقليل إلى الحد الأدنى من فرص أشقاء متعب كي يثأروا لأبيهم، أقدم سلطان بالتعاون مع أخيه غير الشقيق سعود، على اعدام اثنين من أبناء عبد العزيز بن متعب بن عبد الله. والابن الرابع سعود، وهو فتى صغير في الثامنة من العمر، أخذه أخواله السبهان إلى المدينة المنورة في محاولة لإنقاذ حياته.

كان سلطان طموحاً ومتلهفاً على توسيع دائرة نفوذه أبعد من حائل ووسط الجزيرة العربية. وقد وصفه تقرير من غ.ب. ديفي G.P. Devey إلى الحكومة البريطانية في عام ١٩٠٧: «لسلطان بن حمود طموح أوسع من أن يكون أمير حائل. فهو يتراسل مع دروز جبل حوران من خلال وكيله في الجوف، الشيخ صالح الموزيني، متعهداً لهم بعقد صداقة أبدية وتحالف قوي، ناهيكم عن وعوده وتفانيه الصريح من أجل قبيلة عنزة ومطير وعتيبة وسكان القصيم[٥]».

مع ذلك فَقَد سلطان عدة مناطق، وخاصة في القصيم. ويجادل موسيل بأنه في حائل وواحات جبل شمّر الأخرى، كانت المجموعات المتنازعة على اختلافها تقتتل فيما بينها، وأن الأرض كانت اقتصادياً وسياسياً في خراب. يضاف إلى ذلك، أن قافلة الحج لم تعد تمر عبر حائل، الأمر الذي ألحق ضرراً بالغاً بالازدهار الاقتصادي لأهل المدينة[٦]. وأضاف موسيل: «لم يكن سلطان قادراً على منع قوات

ابن سعود من نهب مستوطنات عديدة في أواخر ١٩٠٧. ونتيجة لذلك قتله شقيقاه سعود وفيصل في الأيام الأخيرة من كانون الثاني/يناير ١٩٠٨». (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٤٧).

بعد عملية الاغتيال أعلن سعود، شقيق سلطان، نفسه أمير حائل وعُين شقيقه فيصل حاكم الجوف. ولم يحكم سعود الا عامين قبل أن يتحدى زعامته أخوال سعود، ابن عبد العزيز بن متعب ذي السنوات العشر حينذاك. وقد نالوا تأييداً من قبيلة شمّر وطوقوا حائل وذبحوا مَنْ تبقوا من أبناء حمود بن عُبيد ـ باستثناء فيصل الذي كان في الجوف. وأعلن الخالان من آل سبهان، زامل وحمود، ابن شقيقتهما سعوداً، أميراً لحائل وجبل شمّر. وقد حكم تحت وصاية أخواله لأنه كان أصغر من أن يتبوأ موقع الزعامة.

ورغم أن سعود بن رشيد تولى منصب الأمير في حائل حتى عام ١٩٢٠ فإن الزعامة الحقيقية كانت بأيدي آل سبهان. إذ كان خاله زامل بن سبهان وزيراً حتى مقتله على يد قريب له، هو سعود بن صالح بن سبهان، في عام ١٩١٤. وأصبح الأخير وزير سعود بن رشيد واستغل في الحال عجز الأمير الصغير عن ممارسة أي سلطة. واستناداً إلى موسيل، شعر سعود بن سبهان بنفسه قوياً حتى أنه أراد أن ينصّب نفسه أميراً (المصدر السابق: ٢٥٠). ورغم أنه تمكن من أن يكسب إلى جانبه عدداً كبير من قبيلة شمّر، وخاصة عشيرة الأسلم، وبضعة أنصار من حمولة جعفر التي تنتمي إلى شمّر عبدة، فإن أياً من هاتين المجموعتين لم تكن متحمسة لرؤيته يحل رسمياً محل الأمير الصغير. وكانت أم ابن سبهان من العبيد في أصلها (أمَة) ولعل هذا كان وراء احجام شيوخ شمّر عن دعم مخططاته للاستيلاء على منصب الأمير. وفي النهاية اجبر سعود بن سبهان وأتباعه على الرحيل عن حائل من قبل المجموعة التي دعمتهم في البداية. وقد هرب إلى العراق حيث قُتل في عام ١٩١٩. وشغل منصب الأمير فيما بعد عقاب بن عجيل، الذي كان سعود بن رشيد صهره.

في عام ١٩٢٠ قُتل سعود بن رشيد على يد ابن عمه عبد الله بن طلال الذي قُتل بدوره في الحال على أيدي عَبيد سعود. ثم أُعلن عبد الله بن متعب أمير حائل الحادي عشر وقام على الفور بسجن شقيق القاتل، محمد بن طلال، خوفاً من الاغتيالات الثأرية.

واجه عبد الله بن متعب صعود سلطة ابن سعود الذي كان أصلاً يخطط لانهاء زعامة آل رشيد في حائل وجبل شمّر. وتوصل ابن سعود إلى اتفاق مع ابن شعلان، شيخ قبيلة الروالة للهجوم على حائل من الشمال فيما تتقدم قواته على المدينة من الجنوب. وفي عام ١٩٢١ هاجم ابن سعود معسكر عبد الله بن متعب وأجبره على الاستسلام. وفي حائل أُفرج عن محمد بن طلال من السجن بعد استسلام عبد الله وأُعلن أميراً وطولب بمواصلة المعركة ضد ابن سعود. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢١ دخل ابن سعود حائل وأنهى امارة آل الرشيد(٧). ونُقل محمد بن طلال، آخر أمراء حائل، وبقية عائلته إلى الرياض حيث بقوا تحت الاقامة الجبرية. ولم يُسمح لهم بالعودة إلى حائل لخوف ابن سعود من أنهم قد يحشدون أنصاراً من رجال شمّر الذين كانوا ما زالوا مستعدين للدفاع عن دعاوى آل الرشيد بالسلطة. وكانت سياسة عامة لدى ابن سعود أن يقيم جميع شيوخ القبائل والأمراء وحكام المدن المهزومين في عاصمته الرياض. فكان هذا ايذاناً بانتهاء امارة آل الرشيد في حائل وجبل شمّر.

وطيلة هذه الفترة من الامارة كان عدد من وجوه آل الرشيد الذين لم يصبحوا حكاماً في حائل، يُعتبرون مع ذلك شخصيات سياسية نافذة. فلقد كانوا أشقاء الأمير وأعمامه وأبناء اخوته وأبناء أعمامه. ورغم أنهم لم يكونوا مشاركين في القيادة السياسية الرسمية فإنهم كثيراً ما كانوا يوفرون دعماً سياسياً وعسكرياً اضافياً للأمير. وعاش بعض أفراد الأسرة حياة عسكرية فقاموا بدور هام في توسيع حدود امارتهم العائلية. فعلى سبيل المثال، كان عُبيد، شقيق عبد الله، قائداً عسكرياً ناجحاً لعب دوراً نشيطاً في بناء زعامة شقيقه وفي الحملات العسكرية اللاحقة وتوسيع امارة أخيه. نتيجة لذلك كان عُبيد معروفاً بمهاراته العسكرية الثمينة وشخصيته المحاربة وبصفات شخصية لا غنى عنها مثل الشجاعة والاستبسال والصلابة في القتال.

كما كان عُبيد معروفاً ببلاغته ومواهبه الشعرية. وما زالت قصائده التي سجل فيها تسيُّد أسرته وتفوق قبيلة شمّر بصفة عامة، تُذكر وتُلقى. وهذه المواهب الشعرية المحدَّدة أعدت عُبيداً للقيام بدور الناطق باسم مجموعته، وهو دور هام في مجتمع كانت للكلمة فيه قوة السيف ولم يكن التعليم متطوراً تطوراً عالياً بعد. وقد ضمنت هذه المهارة على وجه التحديد الاحترام والاعجاب لعبيد ورفعت سمعته(٨).

صفة أخرى ثمينة من صفات عُبيد كانت كرمه مع المعوزين. ولكن الكرم لم يكن عملاً بسيطاً من أعمال الاحسان بل كان استراتيجية سياسية هامة تضمن للمانحين ولاء لا ينازعهم فيه أحد. لقد كان الكرم نوعاً من «الرشوة». فالزعيم الذي يجزل العطاء وينفق ببذخ على اتباعه كان يراكم رأس مال ضخماً من طبيعة غير مادية. وكانت مكانته تعلو أكثر. وإذا اقترن هذا بمهارات شعرية، كما في حالة عُبيد، فإنه يستطيع أن ينشر شهرته وسمعته، ليزيد بذلك اتباعه، وكثيراً ما كان يضمن له أرصدة مادية.

ظل عُبيد يحظى بالاحترام بوصفه من كبار أفراد العائلة حتى مماته. وسار ابنه حمود على خطى أبيه وتحالف مع محمد بن رشيد، حاكم حائل. ومما شجع التحالف بين الاثنين الحقيقة الماثلة في أن محمداً جاء إلى السلطة نتيجة ذبح أبناء أخيه مستعدياً على نفسه أقرباءه المباشرين، من ذرية عبد الله.

لم تكن العلاقة بين الأمير والآخرين من آل الرشيد دائماً علاقة مودة. فالكل كانوا يتنافسون على الزعامة لأنهم جميعاً كانت لديهم دعاوى متساوية للمطالبة بالسلطة. والذي ينجح في تنصيب نفسه أميراً كان دائماً يخشى منافسة الآخرين الذين يشكلون مجموعة من الأمراء المحتملين. وحاول بعض الأمراء لجم نفوذ الآخرين إما بالسجن أو بالتصفية الجسدية. وعلى سبيل المثال، ان محمد بن طلال (الأمير الثاني عشر) أودعه السجن ابنُ عمه عبد الله بن متعب ما أن أصبح الأخير أمير حائل في عام ١٩٢٠. كما أن محمد بن عبد الله تسلم مقاليد السلطة في عام ١٨٦٩ بعد ذبح أربعة أمراء صغار هم أبناء أخيه. وكانوا قد قُتلوا وهم أطفال رضع لاعتبارهم يمثلون خطراً محتملاً على استقرار امارة محمد واستمراريتها. وكان الصراع بين أفراد الأسرة من الرجال على المركز السياسي من الضراوة حتى باتت الاغتيالات هي القاعدة تقريباً.

لقد كان أفراد آل الرشيد يمثلون تهديداً ومستودعاً محتملاً للتحالفات السياسية على السواء. وكثيراً ما كان الأمير يقع في مأزق. فهو إذا تجاهل مطالب أشقائه وأبناء عمومته وأعمامه بمزيد من المشاركة السياسية، سيواجه خطر تحالفهم ضده. ولكنه إذا اختار تقاسم السلطة معهم وزيادة شعبيتهم ومشاركتهم في الشؤون السياسية والعسكرية، سيواجه خطر حلول واحد منهم محله. وتعطي الاغتيالات المتكررة لأفراد الأسرة الصغار مؤشراً إلى التوتر وصعوبة تحقيق التوازن المطلوب.

توارث منصب الأمير

فيما يتعلق بالتعاقب على منصب الأمير جرى احترام واتِّباع مبدأ وراثي عام طيلة ما يقرب من تسعين عاماً. إذ كان يتبوأ المنصب أشخاص يدَّعون أصلهم من آل الرشيد ويشكلون أسرة آل الرشيد. وكانت مشروعية الامارة تمنح لـ «البيت» بكل أفراده وليس لشخص محدَّد وذريته. وكانت هذه الممارسة تضمن استمرارية الزعامة. وقد بايعت شمّر «بيت» رشيد مكرسة بذلك امارة آل الرشيد وزعامتهم السياسية. وكان آل الرشيد يوفرون الأمراء لحائل ولم يكن الترشيح ممكناً من خارج العائلة. وتجلى الالتزام الصارم بهذه القاعدة في حالة آل سبهان الذين تعززت سطوتهم خلال امارة سعود بن رشيد. وإذ تنامت سلطة أخوال الأمير الصغير من آل سبهان تدريجياً وحاولوا احلال امارتهم محل امارة آل الرشيد، فقدوا مشروعيتهم وتسامح عشائر شمّر التي محضتهم دعمها في البداية.

ورغم أن المبدأ الوراثي العام كان سارياً فإن آليات حركته الداخلية لم تُحدَّد وتُنظَّم على نحو واضح. وكان من الحقائق الثابتة بين قبيلة شمّر أن يبقى منصب الأمير في بيت آل الرشيد. ولكن كيف كان يُنظم للانتقال بسلاسة من أمير إلى آخر؟ هل كان ابن الأمير أكثر تأهلاً لوراثة أبيه أم أن شقيق الأمير هو الوريث الشرعي للمنصب؟ هل كانت هناك قاعدة تنص على حق الابن البِكر؟ بكلمات أخرى، هل كانت الخلافة أفقية أم عمودية بين الفئة الحاكمة من آل الرشيد؟

يكشف العرض المقدَّم سابقاً لتعاقب أمراء حائل الاثني عشر عن التذبذب بين الأفقية والعمودية. فبعد موت الأمير ليس واضحاً مَنْ سيخلفه. وللأبناء والأشقاء فرصة متساوية في ذلك. وكلهم متساوون من الناحية النظرية بوصفهم أصحاب حق وورثة محتملين للمنصب. ونتيجة لذلك كانت الخلافة تتبع نمطاً غير محدَّد. كما أن الأمير لم يكن يعينّ وريثه قبل وفاته، وانعكس هذا في غياب منصب «ولي العهد» المُمأسَس. ولكن على مستوى غير رسمي، كانت لدى بعض الأمراء تفضيلات لأن يخلفهم أفراد معينون من الأسرة. فإن محمد بن رشيد (١٨٦٨ ـ ١٨٩٧) كان أبتر، وتبنى ابن أخيه، عبد العزيز، الذي آثر ان يرثه بعد وفاته. وكما هو متوقع، أصبح عبد العزيز أميراً بلا أي تعقيد أو مقاومة من أفراد الأسرة الآخرين. ولكن علاقة العم/ابن الأخ لم تكن دائماً علاقة تحالف ومؤازرة وتعاون. وقد جرت أشد المنافسات والصراعات الداخلية ضراوة على امتداد هذا

الخط القرابي. ولأنه لم تكن هناك قاعدة صريحة تقضي بأن تنتقل الامارة عمودياً من الأب إلى الابن وليس أفقياً من الحاكم إلى شقيقه فإن العلاقة بين العم وابن الأخ كانت علاقة مبهمة وتنافسية ومشحونة بالصراع. وأوجد الطابع غير المحدَّد لنظام الخلافة نمطاً متعرجاً من الصراع رغم أن هذا لا يعني بالضرورة أنه لو كانت هناك قواعد صريحة لاجتُنِبَت هذه الصراعات الداخلية. فحتى في حالات تكون القواعد واضحة فيها، تبدو الصراعات على الخلافة صراعات متوطنة داخلياً.

يجادل غودي Goody قائلاً إن وراثة المنصب تنطوي، شأنها شأن وراثة المُلكية، على تخصيص موارد شحيحة. وبالتالي فإن وراثة القريب، كما في القاعدة القائلة بأقرب الانسباء، على سبيل المثال، تعني أن عبء الصراع على المنصب يقع على العلاقة البيتية النووية. ويميل غياب التحديد في مثل هذا النظام، مقترناً بانفتاحه الشديد، إلى زيادة احتمال نشوء علاقات متوترة بين الورثة المحتملين. يضاف إلى ذلك، أن وجود بنيتين، هما النَسَب والدولة، يولِّد نزاعاً شخصياً وعدم استقرار متمأسساً ينعكسان بكل وضوح في موقع الحاكم. فإذا كان الحاكم رئيس تراتبية دولتية وأحد أفراد العائلة والنَسَب الملكيّين، يكون موقعه الفريد على رأس الدولة في تناقض مع عضويته ضمن العصبة الملكية من الانداد. ولكن وجود نظام نَسَبي بحد ذاته، حسبما يجادل غودي، ليس هو الذي يؤدي إلى التوتر. فالصراع ينشأ من وجود تعددية أفراد ملكيين يعتبرون العرش مُلكية مشتركة حتى وإن تعيَّن أن يجلس عليه في واقع الأمر فرد واحد. (ج. غودي J. Goody ١٩٦٦: ٢٣ ـ ٢٥).

مثل هذه العوامل كانت حاضرة بشكل مبالغ فيه بين أمراء آل رشيد. فالصراع والتنافس على منصب الأمير كانا على قدر كبير من الاحتدام لأن الأعمام وأبناء الاخوة على السواء كانوا يعتبرون المنصب منصبهم. وحدثت أول واقعة من صراع العم/ابن الأخ بعد وفاة طلال في عام ١٨٦٨. فإن متعباً، شقيق طلال، أصبح حاكماً في الحال بسبب أقدميته من ناحية السن، ولكن ابني طلال الشابين، بندر وبدراً، تعاونا على قتل عمهما لأنهما اعتبرا نفسيهما أولى بوراثة منصب أبيهما. وقُتلا بدورهما على يد عم ثان هو محمد بن عبد الله. وأطلقت هذه الأحداث سلسلة من أعمال القتل والثأر والثأر المضاد بين أفراد من العائلة تربطهم علاقة قربى وثيقة.

وفي أوضاع يحدث فيها القتل بين أفراد قبيلتين أو عشيرتين أو حتى بين حمولتين يكون من الأرجح أن تُغلق القضية حالما تتسلم عائلة الضحية ديتها. ولكن عندما يحدث القتل داخل العائلة الواحدة أو الأسرة الأوسع، لا يبدو أن هناك وسيلة لانهاء العداوات. ويجادل بيترز بأنه بين بدو سرنيقة يفضي القتل، في مثل هذه الحالات، إلى طريق مسدود في العلاقات. فلا دفع الدية ولا الثأر يبدوان مناسبين لأن الأولى تعني أن مَنْ يدفعونها سيكونون كمن يتسلمونها في حين أن الاستراتيجية الثانية ليس من شأنها الا زيادة المشكلة تفاقماً ومضاعفة الخسارة الأصلية. (إي. بيترز E. Peters ١٩٦٧: ٢٦٣). وقد شهد بيترز حالات تطوع فيها القاتل بنفي نفسه، وعاد إلى المخيم بعد مرور عدد من السنين. وبين آل رشيد، حين كان أمير يُقتَل على يد قريب وثيق العلاقة فقد كان القاتل يروم تنصيب نفسه في منصب الضحية. لذا لم يكن الإبعاد استراتيجية لأن هذا سيجعل فعل القتل بلا معنى وبلا ضرورة. وفي كل حالات القتل بين آل الرشيد، سوى حالة واحدة، نجح القاتل في تنصيب نفسه أميراً لفترة قصيرة على الأقل قبل أن يقتله فرد آخر من أفراد العائلة.

كان منصب الأمير يمثل مركزاً متعدد السلطات لأنه يشتمل على حاكمية الواحة ورئاسة قبيلة شمّر ورئاسة الفئة الحاكمة. وكان المنصب يضع صاحبه في موقع سياسي أعلى ازاء أفراد الفئة الحاكمة الآخرين. ولم يكن لذلك مبرر لأن مساواة جميع أفراد العائلة بالولادة كانت لم تزل موضع التزام واحترام. بكلمات أخرى، ان المساواة النَسَبية كانت تناقضها الظروف السياسية الناجمة عن اضطلاع شخص واحد بمنصب الأمير. وظلت هذه التناقضات المتأصلة في النظام بلا حل وأثبتت إضرارها باستقرار الزعامة في امارة آل رشيد.

كما كان الصراع بين أبناء العمومة متوطناً في هذا النظام. وحدثت أول واقعة كهذه عندما أقدم سلطان بن حمود على قتل ابن عمه متعب بن عبد العزيز في عام ١٩٠٧. وكان ذلك ثورة فرد متحدر من ذرية عبيد على هيمنة المتحدرين من ذرية عبد الله. وحدثت الواقعة الثانية عندما أقدم عبد الله بن طلال على قتل ابن عمه سعود بن عبد العزيز في عام ١٩٢٠. وكانت هذه جريمة قتل بين أبناء عمومة متحدرين من أصل واحد، أي من ذرية عبد الله. ويمكن اعتبار الصراع السياسي على هذا المستوى استمراراً للصراع الذي نشب على مستوى العم/ ابن الأخ الأول.

وكان النزاعان متماثلين بنيوياً، وقد فجرهما مبدأ التناحر نفسه بين أخلاف حاكم وأبنائه من جهة وشقيقه وأخلافه من الجهة الثانية. وعلى مستوى ثالث، تبدى الصراع أيضاً بين أشقاء، كما حدث عندما قُتل سلطان بن حمود على أيدي شقيقيه سعود وفيصل في عام ١٩٠٨.

ورغم الطابع غير المحدَّد لنظام الوراثة فقد كان هناك مبدأ ضمني قوي توفَّر بموجبه نوع من الارشاد بشأن انتقال الامارة. وكان هذا المبدأ يتعلق بالأقدمية. اذ كان يخلف الحاكم عادة أشقاؤه حتى يُستنفد الجيل، فتنزل الخلافة إلى أكبر أبناء الحاكم الأول. وكان خرق قاعدة الأقدمية يضعف إلى حد ما مشروعية الأمير. وكانت الصراعات على الوراثة تعكس المواجهة بين أفراد الفئة الحاكمة الشباب والكبار. إذ كانت مشروعية الحاكم مستَمدَّة جزئياً من حكمته ووساطته الحميدة ومهاراته العسكرية وما إلى ذلك، وكلها صفات ترتبط بتقدم العمر. وكان الشباب مرادفاً للجهل وانعدام الخبرة والتمرد والمهارات القيادية غير الناضجة. ومن الجهة الأخرى، كان الشباب مرغوباً وموضع تثمين لارتباطه بالتفوق العسكري والشجاعة والبسالة.

وساهمت الزيجات المبكرة للذكور والاناث وممارسة تعدد الزوجات في طمس الحدود بين الأجيال. فعلى سبيل المثال، كان من الشائع جداً أن يوجد جيل من الاخوات والاخوة يزيد فيه الفارق بين أكبر الأبناء سناً وأصغرهم على ثلاثين عاماً. وكان من الشائع أيضاً أن يكون هناك أعمام أصغر سناً من أبناء اخوتهم، وأبناء عمومة من جيل واحد بفوارق هائلة في السن. ونتيجة لذلك لم تكن للخلافة الأفقية والعمودية أنماط ثابتة لأنها كانت في بعض الأحيان لا تتطابق مع مبدأ الأقدمية. وحينذاك كان الصراع بين مدَّعين متساوين يصبح محتوماً.

كان احتدام الصراعات على الخلافة بين أفراد آل الرشيد يرتبط بالحقيقة الماثلة في أن التنافس يجري على منصب نادر وغير قابل للقسمة. وكان النظام السياسي يفتقر إلى وجود الوسائل المتمأسسة التي يمكن بواسطتها تقاسم السلطة السياسية. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكي يثبت الأمراء الشباب مهاراتهم القيادية في الميدان العسكري. وكثيراً ما كان الأمير يطلب الخبرة العسكرية لفرد قريب من أفراد العائلة، يكون في العادة شقيقاً أو ابن عم أصغر سناً، للاستعانة به في قيادة الحملات العسكرية. ونتيجة لذلك أصبح القادة العسكريون الناجحون ذوي شعبية

ويشكلون خطراً على سلطة الحاكم، لأن القيادة العسكرية كانت في أحيان كثيرة مقدمة لزعامة سياسية دائمة.

ان تواتر الصراعات الداخلية على السلطة والنزاعات على الخلافة بين الفئة الحاكمة لآل الرشيد ليست ظاهرة خاصة بهم. ويعترف بيرلنغ Burling في بحثه عن المبادئ التي تحكم الخلافة عموماً، بأن مثل هذه الصراعات سمات متأصلة وتكاد تكون حتمية في انتقال المنصب (ر. بيرلنغ R. Burling ١٩٧٤: ٢٥٤). ويشير غودي أيضاً إلى أن الصراعات على الخلافة هي من سمات الامارات التشاركية حيث يميل نمط الوراثة إلى أن يكون نمطاً غير محدَّد، أي يفتقر إلى القواعد الصريحة أو الثابتة (ج. غودي ١٩٦٦: ٢٥). وتاريخ الشرق الأوسط السابق واللاحق زاخر بأمثلة الصراعات على الخلافة مدفوعة بغياب التحديد في نمط الخلافة.

في السياق الإسلامي، وبخاصة التراث السني، ليست هناك قواعد محدَّدة أو صريحة للخلافة. فالنبي نفسه مات دون أن يعيِّن خلفاً. وساهم هذا في صراعات مختلفة على السلطة هددت بشق المسلمين طيلة قرون، مزعزعة بذلك استقرار الأمة الإسلامية. وخلال الفترتين الأموية والعباسية كان مبدأ الأقدمية هو القاعدة الأساسية ولكن ما إذا كانت الأقدمية تنطبق على الأشقاء أو أبناء العمومة أو الأعمام فإن هذا ظل بلا حسم. غير أنه كان لدى الخلفاء الأقوياء ميل إلى تعيين أبنائهم أو إبداء تفضيلهم لأبنائهم محددين بذلك نمطاً للخلافة العمودية. وكان هذا يعني، بالتعريف، استبعاد أشقاء الخليفة الذين كانوا، من حين إلى آخر، يثورون وينصبون أنفسهم محله. ونتيجة لذلك كان توارث منصب الخليفة يسير في الاتجاهين العمودي والأفقي على السواء.

وخلال الأيام الأولى للامبراطورية العثمانية وحتى القرن الثامن عشر كانت القاعدة القائلة بخلافة الابن البكر هي المتَّبعة. وفيما بعد احتُرِم مبدأ الأقدمية رغم اقترانه بصراعات ضارية على الخلافة ومزاحمات بين الأشقاء، والتوجه إلى الاغتيال[٩].

وعلى الغرار نفسه، في الجزيرة العربية، لم يكن هناك نمط ثابت للخلافة بين السلالات المختلفة. وعلى سبيل المثال، كانت الأسرة الشريفية الهاشمية في الحجاز تنقل لقب «شريف مكة» من الأب إلى الابن» (و. اشزونوالد W. Ochsenwald

١٩٨٤). وفي سلالات قبلية أخرى في المنطقة، مثل اليمن وعُمان، كانت الخلافة للابن البكر (ف. هاليدي F. Halliday ١٩٧٤: ٦١، ٩٤ ٩٦ ـ ٢٨٠، ٢٩٩ ـ ٣٠٠). وفي بعض مشايخ الخليج كان الحاكم يرثه أشقاؤه إلى أن يبلغ ابن من أفراد الجيل التالي في ذرية الحاكم، يكون أكبر من التالي الأصغر سناً بين الأشقاء الأصليين، سن البلوغ فيصبح هو التالي في التسلسل. وهذا النظام القائم في الواقع de Facto (ليس هناك دليل على أنه يعتبر شرعياً de Jure) يُطبَّق أحياناً بصورة سلمية وأحياناً أخرى بانقلاب عسكري (أ. بْلِغ A. Bligh ١٩٨٤: ١٠). وكانت الخلافة بالاغتيال ترافق هذا النظام. وعلى سبيل المثال، في أبو ظبي، اغتيل الشيخ المحلي تهنون على يد شقيقه في عام ١٨٣٣ (ب. لينهاردت P. Lienhardt ١٩٧٥: ٦١). وفي الكويت كان قتل الأشقاء بين أسرة الصباح الحاكمة شائعاً جداً (ز. فريث Z. Freeth وهـ. ونستون H. Winstone ١٩٧٢: ٦٦). فالشيخ مبارك (١٨٩٦ ـ ١٩١٥) أصبح حاكم الكويت بعد اغتيال شقيقيه (أ. بوش A. Bush ١٩٨٧: ١٠١). يضاف إلى ذلك أن تاريخ قبيلة الروالة في الصحراء السورية في القرن العشرين يكشف عن حدوث قتل الأشقاء. ففي عام ١٩٠١، مات سطام بن شعلان، أمير الروالة. وخلفه ابن أخيه فهد بن هزاع الذي حاول زيادة الضرائب التي تُجبى من رجال قبيلته. ونتيجة لذلك فقد شعبيته وقُتل في عام ١٩٠٤ على يد شقيقه نوري الذي أصبح أميراً شرعياً وواقعياً على السواء. (و. لانكستر W. Lancaster ١٩٨١: ١٢٦).

وفي القرن التاسع عشر اتَّبعت الخلافة السعودية من حيث الأساس نظام الأقدمية ولكنها بدأت تبتعد عن هذا النمط حين عَيَّنَ الإمام فيصل (١٨٣٤ ـ ١٨٦٥) ابنه عبد الله لخلافته قبل موته في عام ١٨٦٥. وكان لدى الإمام فيصل ثلاثة أبناء آخرين تمردوا على شقيقهم المعيَّن مع عمهم عبد الله بن تركي. واتسم النصف الثاني من القرن بصراعات داخلية ضارية على السلطة بين الأشقاء السعوديين وفروع أخرى من العائلة. وقد أضعفتهم هذه الصراعات ومهدت الطريق لانحدار هيمنتهم في وسط الجزيرة العربية وخسارة أراضيهم لصالح آل الرشيد. وفي القرن العشرين، لم تعتمد المملكة السعودية مبدأ الخلافة الأفقية إلا بعد استبعاد أشقاء عبد العزيز بن سعود. وكان ابن سعود قد عَيَّنَ نجله سعوداً وريثاً في عام ١٩٣٣ مستبعداً بذلك شقيقه محمداً. ومنذ ذلك الحين كانت الخلافة المتعاقبة بين أشقاء، هم أبناء عبد العزيز بن سعود (أ. بْلِغ A. Bligh ١٩٨٤).

يمكن الخروج ببعض الاستنتاجات العامة من هذا العرض الموجز لانماط الخلافة في الجزيرة العربية. فمن الواضح أن الخلافة اتَّبعت نمطاً غير محدَّد، متذبذبة بين الخلافة الأفقية والخلافة العمودية. وحين كان النظام يميل إلى الخلافة العمودية، كان الاغتيال ينحو إلى إعادته إلى الاتجاه الأفقي لبعض الوقت، والعكس بالعكس. وكانت الصراعات على السلطة تُخاض في حلقة ضيقة جداً من الأقارب، إما تضم العائلة المباشرة، في حالة قتل الأشقاء، أو النَسَب، في حالة الصراعات بين الأعمام وأبناء الاخوة وأبناء العمومة.

وكانت الصراعات على الخلافة تسبب اختلالاً في التوازن الديموغرافي بين الفئة الحاكمة حين كان أفراد العائلة الصغار يتعرضون إلى الاغتيال وهم أطفال رضع. وقد ضيَّق هذا القاعدة الديموغرافية التي يُلتقط منها أمراء المستقبل. وفي بعض الحالات، بسبب عدم توفر وريث مناسب، كان يُنصب أمير صغير وغير متمرس تحت وصاية أخوال الأمير. وهذه كانت الحال خلال حكم سعود بن رشيد (١٩١٠ ـ ١٩٢٠).

ومع تواتر الاغتيالات والصراعات الداخلية لم يعد بالامكان الركون إلى ولاء وتأييد الأقارب المباشرين من جهة الأب كأمر مفروغ منه. وقد سعى الأمراء إلى تطبيق حلين: فأولاً، جرى تعزيز الصلة من جهة الأم لمعادلة اللايقين والعلاقة التنافسية عادة مع الأقارب من جهة الأب. وكان الأخوال يمثلون ملاذاً قرابياً لتحالفات سياسية يستخدمها الأمراء. وفي بعض الأحيان كان الأقارب من جهة الأم يقومون بدور الأوصياء على أمراء صغار غير قادرين على طرح دعاواهم بالسلطة بسبب صغر سنهم[١٠].

ثانياً، جرى البحث عن الولاء والتأييد من خارج النظام القرابي برمته. إذ كانت لدى الأمراء مجموعة من الحراس الموثوقين، عموماً من العبيد في أصولهم، لديهم أفضلية كونهم غرباء ذوي أواصر قرابية محلية محدودة. ولأن رزقهم بيدي الأمير تماماً فقد كانوا متفانين تفانياً صميمياً لأميرهم ولأمنه ورخائه. وكان موقعهم المتدني واعتمادهم الكامل على أسيادهم يمنعانهم من تولي سلطات أكبر في الامارة. ولكن في فترة لاحقة أخذ بعض العبيد يتدخلون في الصراعات على الخلافة التي كانت تجري بين أفراد الفئة الحاكمة. ففي عام ١٩٢٠، عندما قُتل سعود بن رشيد على يد ابن عمه عبد الله بن طلال، اغتيل هذا الأخير في الحال على أيدي عَبيد

سعود الذين شهدوا قتل سيدهم.

وكان الطابع غير المحدَّد لنمط الخلافة يعمل كآلية من آليات الرقابة على الزعامة. فلأنه لم تكن هناك قاعدة ثابتة لتوارث المنصب، كانت الدعاوى السياسية لسائر أفراد الفئة الحاكمة تعتبر دعاوى مشروعة. وبالتالي كان نجاح أحدهم واستقرار إمارته يعتمدان إلى حد ما على الحفاظ على توازن بين هذه الدعاوى واعتراف ضمني بمشروعيتها. وكان هذا كابحاً على إمكانية إساءة استخدام السلطة. والأمير الذي يمارس الاكراه مع أشقائه أو أبناء عمومته، باستخدام العنف ضدهم أو وضعهم في السجن، سيواجه بكل تأكيد خطر اطاحته أو اغتياله على أيدي أفراد آخرين من أفراد المجموعة. باختصار، كانت الخلافة غير المحدَّدة تقوم بدور الكابح على سلطات الأمير ازاء مجموعته.

وكانت الفئة الحاكمة من آل رشيد تمثل عالماً مصغراً لبنية شمّر القبلية التي كانت السلطة فيها مبثوثة داخل عشائر القبيلة المختلفة. وفي هذه البنية كانت السلطة موزَّعة وليست مركَّزة في أيدي أفراد. وبين شمّر كان البديل من الخلافة بالاغتيال هو الانشطار وبالتالي تكوين مجموعات صغيرة جديدة في اطار القبيلة العام. وكان انشطار المجموعات واندماجها هما الآلية التي تحول دون تكوين هياكل سلطة دائمة داخل الفئة الحاكمة بصفة عامة. ولكن محاولات الأمراء لتركيز سلطتهم باستبعاد الآخرين كانت تسفر عن أعمال عنف. وكانت صراعات آل الرشيد الداخلية تُفَض لا بالانشقاق عن المجموعة بنيّة تشكيل مراكز قوى أخرى وإنما بالعنف والتصفية الجسدية.

يجادل غلنر في مناقشته لشبه الدولة القبلية الشرق أوسطية قائلاً إن الخلافة تعتمد على ميزان القوى والسمعة وليس على التطبيق البسيط لقاعدة ما: «وبالتالي يمكن أن تحدَّد الخلافة إما بتصويت غير رسمي - قد يكون لصالح الرجل الذي تتبدى إمكاناته القيادية بالدعم الذي يلقاه من قطاعات أخرى - أو بصراع تتبدى امكانات القيادة في حالته بما يمكن أن يسمى ممارسة دموية» (إ. غلنر E. Gellner ١٩٩١).

يشير هذا إلى أن التصويت غير الرسمي والممارسة الدموية وسيلتان تُحسم بهما الصراعات على الخلافة. اذ يتعين على المرء، لكي ينجح، أن يحشد مؤيدين أو يحقق تفوقاً في المنافسة، حتى إذا انطوى ذلك على تصفية المنافس. وكلاهما

استراتيجيات مشروعة في الصراعات على الخلافة. ولكن في أي ظروف يكون الخيار الأول، خيار التصويت غير الرسمي، هو الخيار المعتمد عادة؟ وأي ظروف تحمل المدَّعين على اللجوء إلى الخيار الثاني، أي الممارسة الدموية، باستخدام لغة غلنر؟ يمكن الجدال بأنه إذا أخفق المدَّعي في تحشيد ما يكفي من المؤيدين بين الأقسام فإنه يمكن أن يعتمد الخيار الثاني. وعلى الغرار نفسه يمكن الزعم بأن المرء لا يتجاوز الخوف من العواقب المترتبة على التصفية الجسدية لمنافسه إلا حين يكون قد حشد عدداً ضخماً من المؤيدين. وهذه الاجابات لا تحل المشكلة. فبين آل رشيد لا تمكن الاجابة بهذا الشكل عن السؤال حول السبب في أن الخلافة بالاغتيال كانت لها أولية على «التصويت غير الرسمي». إذ كان لدى كل المدّعين بها أنصار وكانت الطريقة الوحيدة لتغيير الموازين هي باغتيال المنافسين. وبين أمراء حائل الاثني عشر أصبح أربعة منهم فقط أمراء نتيجة «تصويت غير رسمي» في حين أن الثمانية الباقين اغتالوا الأمير السابق. وكانت الخلافة بالاغتيال تتناسب طردياً مع مستوى المركزية السياسية التي جاء بها توطن الأمير في حائل. وقد تسببت هذه الظروف في تنحي التصويت غير الرسمي أو شبه الانتخاب جانباً ليخلي الطريق أمام الخلافة بالاغتيال.

أمير وشيخ

كان صعود أمراء آل الرشيد إلى السلطة إيذاناً ببدء حقبة جديدة في تاريخ شمّر السياسي لم تمثل بالضرورة قطيعة كاملة مع نمطها القبلي التقليدي. فحتى عام ١٨٣٦ لم تكن لدى شمّر زعامة أبعد من العشيرة التي لها شيخها. وبقيت عشائر شمّر الأربع مستقلة سياسياً واقتصادياً ولكنها كانت تدعي أصلاً مشتركاً وأرضاً مشتركة. وكانت تتفاعل مع بعضها بعضاً على المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وكان الشيوخ القبليون، بوصفهم رؤساء العشائر، يشاركون في الاتصال والتفاوض مع الرؤساء الآخرين وفي مناقشة القضايا ذات الصلة بالقبيلة عموماً. مع ذلك لم يكن لدى شمّر مجلس قبلي كل العشائر ممثلة فيه. وكان الشيوخ يلتقون نظراءهم بصورة غير منتظمة في مكان غير محدَّد، وكانت اللقاءات عفوية وغير رسمية. وكان الشيوخ يتزاورون أحياناً في مضارب بعضهم البعض لبحث قضايا تتعلق بالدفاع والتوسط في النزاعات وتنظيم توزيع أراضي الرعي.

وكان لدى الأفخاذ التي تؤلف العشيرة رؤساؤها الذين كانوا يُنتقون من أحد

البيوت المرموقة في الحمولة. وكان رأس الحمولة هو الجد أو ابناً كبيراً مسؤولاً عن ادارة الشؤون الداخلية لحمولته. وفي اطار العشيرة كانت بعض الحمائل أعلى شأناً من البعض الآخر وتوفر شيوخاً للعشيرة كلها. وكانت الحمولة تصبح مرموقة بتضافر عوامل لا تنبع بالضرورة من الازدهار الاقتصادي ـ لأن كل الحمائل تميل إلى أن تكون متساوية بهذا القدر أو ذاك في الثروة وحجم القطيع. ورغم أن بعض الشيوخ كانوا يملكون بساتين نخيل في الواحات الواقعة ضمن أرض قبيلتهم فإنهم كانوا ملزمين بتقاسم المحصول مع بقية مجموعتهم. وكانت اعادة توزيع المحصول الزراعي تحول دون تراكم الثروة في أيدي الشيوخ. وكانت الحمولة تصبح مرموقة نتيجة ارتباط أفرادها بالدفاع عن الوحدة المخيِّمة في أوقات الخطر الخارجي والغزوات. وكانت سمعة أفراد الحمولة ببلاغتهم وحكمتهم ومعرفتهم تاريخ القبيلة ونَسَبها وعدالتهم وحسن تقديرهم في النزاعات الداخلية ووساطتهم الحميدة مع الغرباء، كلها تزيد شعبية الحمولة بين بقية العشيرة. بكلمات أخرى، كان من المرجح لرأس الحمولة الذي لديه رصيد غير مادي يتألف من منظومة من الصفات المحمودة أن يوضع في موقع أعلى من بقية مجموعته. وكانت لديه فرص أفضل من فرص الرؤساء الآخرين في أن يصبح رأس العشيرة بصفة عامة وكانت دائرة نفوذه تتوسع حينذاك أبعد من الحيز المحدود لحمولته. وسيكون رأس الحمولة الذي يصبح شيخاً، ممثل كل الحمائل أو متحدثاً باسمها ولكن لن تكون له سلطة على العشائر الأخرى التي لديها بدورها شيوخها.

وبعد موت شيخ من الشيوخ تكون لابنه أو شقيقه أو حتى لقريب بعيد من أقربائه الذكور فرصة متساوية لأن يصبح شيخاً. وفي بعض الأحيان كان الخلف يُختار من حمولة أخرى تماماً. فإن نظام الخلافة لم يكن يوفر مبادئ هادية واضحة. وكان رجال القبيلة لا يتسامحون مع شيوخ أو رؤساء حمائل من الأرجح أن يقودوا مجموعاتهم زمناً غير محدَّد. وفي الوقت نفسه لم تكن لدى الشيخ الوسائل الكفيلة ببقاء الخلافة داخل حمولته. وإذا عُرف شيخ من الشيوخ بإبدائه تفضيلات نحو ابقاء الزعامة داخل أقربائه المباشرين أو ذريته فإنه سيفقد احترام مجموعته أو حتى تنفضُّ عنه حمائل العشيرة المستاءة منه. ومن المرجح أن ترتبط هذه بعشائر أخرى من عشائر القبيلة. وكانت مطاطية النظام تنبع من الحقيقة الماثلة في أنه لم تكن لدى الشيخ قوة قسرية تحت امرته لتقوية موقعه وتعزيز سلطاته. والأكثر من ذلك أن تحديدات الاقتصاد الرعوي كانت تحول دون تراكم ثروة أو فائض يمكن أن

يُستخدم إما لكسب اتباع أو رشوتهم للقبول بسلطة الشيخ. يضاف إلى هذا ان الخطر المتمثل في أن الحمائل يمكن أن تنقسم نتيجة التذمر من سلطة الشيوخ المتسلطين، كان يقوم بدور الكابح على إمكانية ممارسة الإكراه مع رجال القبيلة. وكان انقسام الحمائل يهدد وحدة العشيرة لأن هذه العملية تؤدي إلى ابتلاع الحمائل الكبيرة للحمائل الصغيرة. وكان تشظي العشيرة يزيد انكشاف المجموعات خلال التهديدات الخارجية. وكان الخوف من فقدان الاستقلالية نتيجة التشظي يعبئ الحمائل حول الشيخ ويمنعه من التمادي في الحكم المتسلط.

على المستوى الاقتصادي كان الشيخ يتعامل مع القضايا المتعلقة بالهجرة الموسمية للوحدات المخيِّمة. ولأن عدداً كبيراً من أفراد شمّر ظلوا بدواً رُحّلاً فإن معيشتهم كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على النزوح إلى مناطق يكون الماء والكلأ وفيرين فيها. وكان الشيوخ يقومون بدور البؤرة في شبكة اعلامية حول توافر هذه الموارد الحيوية. والجدير بالملاحظة أن بعض شيوخ شمّر كانوا يستقرون في الواحات الواقعة في أرض قبيلتهم خلال موسم الجفاف. وكانوا أيضاً يملكون أراضي في الواحات كثيراً ما كانت تُزرع بعمل العبيد. وكان المحصول يتألف بالدرجة الرئيسية من التمور التي يوزعها الشيخ على الآخرين من أفراد مجموعته. وكان هذا يستكمل الاقتصاد الرعوي ويقلل من انكشافه وخاصة خلال فترات الجفاف الكثيرة التواتر. ولكن في القرن التاسع عشر لم يتوطن في الواحات بصورة دائمة إلا قليل من شيوخ شمّر.

وسياسياً، كان الشيخ رأس العشيرة الذي يمثل مجموعته ويتفاوض بشأن التحالفات. وكان ممثل وحدة مستقلة، وبالتالي لم يكن ملزماً بالمشاركة في أي غزوات تقوم بها شمّر أو بالانضمام إلى أي تحالف معها لا يخدم مصالح عشيرته.

وكان الشيوخ قادة حربيين، إن كانوا قادرين، أو إنهم يعيِّنون أفراداً شباباً وأقوياء من المجموعة لقيادة الحملات العسكرية. وعموماً كان الشيخ مسؤولاً عن توزيع الغنائم على المغيرين. وكان جميع أفراد العشيرة يحملون أسلحة ويشكلون كتلة من المحاربين المحتملين. ولم يكونوا متميزين عن بقية مجموعتهم، وبعد الغارات والصدامات العسكرية مع مجموعات أخرى كان جميع المشاركين يستأنفون حياتهم الاعتيادية.

كما كانت للشيخ وظائف قضائية لأنه كان الوسيط في النزاعات التي تقع

بين أفراد مجموعته. وكان يفض العداوات مع الغرباء أو مع عشائر أخرى من عشائر شمّر، وكان يعالج قضايا الثأر والسرقة والسطو. ولكن شيخ شمّر كان الأول بين أنداد ويفتقر إلى الوسائل اللازمة لتنفيذ قراراته. إذ لم تكن لديه سلطة على اتباعه سوى ما يتحلى به من بلاغة وحكمة وقوة اقناع (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٠). وكان الشيخ يعتمد على هيبته بين مجموعته وعلى مكانته بوصفه شخصاً واسع المعرفة، وكانت هذه الهيبة تضمن طاعة المتنازعين لتوصياته.

ان قيام امارة آل الرشيد في حائل لم تنتقص من دور شيوخ شمّر. فقد ظهرت زعامة تقوم على الواحة، أي زعامة أمراء كانت سلطاتهم أكثر تمركزاً من سلطات الشيوخ. كما كانت لدى الأمراء موارد اقتصادية أكبر وهيمنة عسكرية أقوى من الشيوخ. ولكن الأمراء كانوا يتعايشون مع الشيوخ، حيث لكل منهم دائرة سياسية منفصلة يمارسون فيها سلطتهم.

تشير تسمية الأمير (حاكم أو آمر) وتسمية الشيخ (رئيس عشيرة) إلى نوعين من الزعامة. وشيوخ عشائر شمّر الذين يقيمون في الصحراء لم يستخدموا قط لقب الأمير. وعلى النقيض من ذلك كانت شمّر كثيراً ما تشير إلى أمراء آل الرشيد بوصفهم شيوخاً. بكلمات أخرى، كان الأمير شيخاً ولكن العكس ليس صحيحاً. ويشير هذا إلى أن دور الشيخ كان محدَّداً تحديداً واضحاً بهذا القدر أو ذاك ولم يكن هناك التباس فيما يتعلق بموقعه كزعيم قبلي. ولأن شيوخ شمّر كانوا يعتبرون آل الرشيد أيضاً من الشيوخ فقد كانوا يعلنون موقفاً سياسياً. إذ إنهم كانوا يشددون على مساواتهم مع امارة حائل. ولم تكن شمّر وشيوخها ينظرون إلى زعامة الأمير بوصفها نوعاً متميزاً يتسم بممارسة السلطة عليهم، رغم أنه كان واضحاً أن الأمير يقوم بدور أكبر من شيوخها. وكان هذا يرتبط بالحقيقة الماثلة في أن تسميتي الأمير والشيخ لم تكونا في بداية امارة آل الرشيد إلا فوارق لغوية تصف مظهرين لزعامة واحدة. وكان المظهران يشتركان في ايديولوجيا مُشَرْعِنة أساسية واحدة. وفي الفترة الممتدة من ثلاثينات إلى أربعينات القرن التاسع عشر كان الأمراء وشيوخ شمّر على السواء يستمدون مشروعيتهم من مصدرين: الاصل الأبوي من نَسَب نبيل والصفات المتحققة.

ورغم أن أساس مشروعية الأمير كان مماثلاً إلى حد بعيد لأساس مشروعية الشيخ فإن توطن الأول في حائل أفضى إلى ابتعاد هذه الزعامة عن النمط القبلي

التقليدي وبداية الحكم السلالي. وكان مؤسس امارة آل الرشيد يعتبر في البداية شيخاً بدوياً، زعيماً أمضى زمناً طويلاً بين حمولته من آل جعفر. وعندما توطن في حائل أصبح حاكم واحة[١١]. وكانت هذه خطوة هامة أشَّرت ظهور اختلافات بين الأمير والشيخ. وتجلت هذه الاختلافات على مستوى دائرة نفوذهما، والقوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، والعلاقات مع الحكم الخارجي.

فيما يتعلق بدائرة نفوذهما فإنه في الوقت الذي كانت زعامة الشيخ الشمري تقتصر على عشيرته، كانت للأمير قاعدة أوسع تشمل القبيلة وسكان الواحات الحضر في جبل شمّر، والمجموعات البدوية المقهورة. واعترف الشمّر بزعامة الأمير المتعايشة مع زعامة شيوخ عشائرهم. ولاحظ مونتان كيف قبلت شمّر بالأمراء زعماء لها: وهذا القول لم يضعف دور شيوخهم الذين عبر الشمّريون عن هذا الاعتراف من خلالهم. وكان الشيوخ يمثلون مجموعاتهم أمام الأمير وكانت لديهم إمكانية حضور مجلسه. وخلال زيارات الشيوخ المنتظمة إلى حائل كانوا يحلُّون ضيوفاً على الأمير. وكانوا يقومون بالزيارة لتجديد البيعة والولاء وللاستفسار عن قضايا تتعلق بالمشاريع العسكرية والسياسية اللاحقة. وعلى سبيل المثال، كثيراً ما كان الشيوخ يُبلَّغون عن الحملات العسكرية القادمة فيما كان الأمير يستطلع ما إذا كانوا مستعدين للمشاركة. وكانت عشائر شمّر وشيوخها أحراراً من الناحية النظرية في الانضمام إلى حملة الأمير أو الامتناع عن المشاركة. وفي غالبية الحالات كانوا يفضلون المشاركة لأن هذه كانت تضمن لهم حصة من أي غنائم. يضاف إلى ذلك أن شمّر، إذ لم تتمكن من الاعتماد اعتماداً كاملاً على حيواناتها، كانت تستكمل اقتصادها الرعوي بشراء محاصيل زراعية. وكانت هذه المعاملات الاقتصادية تجري في البداية في العراق. ومع تنامي سلطة آل الرشيد، أخذت تجارة القوافل، فيما بعد، تجلب صنوفاً شتى من المنتجات إلى سوق حائل التي كانت أنسب للشمريين. وكانت معاملات الشمّر التجارية تعتمد على امكانية دخولهم إلى السوق الواقعة تحت سيطرة الأمراء. ومقابل امكانية الدخول كان مطلوباً من أبناء شمّر أن يضعوا مهاراتهم العسكرية ومواردهم البشرية تحت تصرف الأمير. وكانت لهذا أهمية في تأمين انسياب التجارة وحماية القوافل والحفاظ على السلام والنظام في السوق. ولم تكن لدى الأمير سيطرة تذكر على القاعدة الاقتصادية للانتاج الرعوي ولكنه كان يمارس سيطرة قوية على التجارة بحكم تفوقه السياسي والعسكري.

وبدأ الأساس الاقتصادي الذي ترتكز عليه زعامة الأمير يختلف عنه لدى الشيخ الشمري الاعتيادي الذي كانت عائداته تتحقق من الجمع بين الرعوية والزراعة المحدودة والتجارة. ولم يكن هذا الاقتصاد المختلط قابلاً لتوليد ثروة ومراكمة فائض. ونتيجة لذلك لم يكن التمايز الاجتماعي سمة من سمات الشيخ الذي ظل غير متميز اقتصادياً عن بقية عشيرته. ولكن عائدات أمير حائل كانت تعتمد اعتماداً كاملاً على هذا الاقتصاد المختلط، وكانت تتحقق من مصادر متنوعة مثل ملكية الأرض في الواحات والدعم المالي من الحكومة العثمانية والضريبة المستحصلة من القوافل التجارية وقوافل الحج والاتاوة المفروضة على المقهورين من السكان الحضر والبدو الرحل. وقد ساهمت عائدات الأمير في التمايز الاجتماعي المتزايد بينه وبين رعاياه، وأصبح من أفراد فئة اقتصادية ـ اجتماعية متميزة ذات سمات سلالية وأرستقراطية. وحتى عندما كان الأمير يقيم بخيامه في الصحراء، وهو تقليد تم الحفاظ عليه طيلة تاريخ الامارة، فقد كانت خيمته متميزة عن الخيام الأخرى لأنه كانت لها تسعة أوتاد. وعلق مونتان على ذلك:

«ان شيوخ آل الرشيد الذين لهم سطوة كاملة على كل شمّر في نجد، كانت لديهم، حين كانت هيبتهم محفوظة بين قبائلهم، خيمة بتسعة أوتاد. . . . وكان العدد، على أية حال، يتناسب تناسباً تقريبياً مع جاههم». (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢ : ٦٥).

كانت سلطة الأمير السياسية تختلف اختلافاً نوعياً عن سلطة الشيخ الشمري الذي يمكن أن يوصف بأنه زعيم بلا سلطة فعلية للتأثير في قرارات الأفراد أو فرض قراراته هو، في حين أن سلطة الأمير السياسية كانت متداخلة مع تفوقه العسكري. وقد علق والن على هذه الاختلافات عندما زار حائل: «ليس لدى الأخيرين (شيوخ شمّر) أي نفوذ آخر على أصغر القبائل، ولا أي وسائل لفرض طاعة القرارات سوى ما يتحلون به من بلاغة وقوة اقناع وما حققته صفاتهم ومناقبهم الشخصية لهم من هيبة ورصيد بين ناسهم». (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٠). وعلى النقيض من ذلك كانت تحت امرة الأمير كتلة من المسلحين والخدم والأنصار المستعدين لفرض حكمه: «من خلال ما لديه من خدم يشكلون، إذا جاز القول، فريق حماية له، ومن خلال نفوذه الشخصي، كانت لدى عبد الله سلطة تنفيذ ارادته وفرض الطاعة لما يصدره من أحكام، وفي حالة العصيان

والعناد، معاقبة العاصي». (المصدر السابق).

هذه القدرة على فرض الأوامر وإنزال العقاب هي التي تميز زعامة الأمير عن زعامة الشيخ. وفي حين أن كل رجال العشيرة كانوا يحملون أسلحة فإنهم لم يكونوا حرس الشيخ الشخصي. ولم يكونوا يخدمون مصالحه الشخصية أو ينفذون أوامره. ولم تكن هذه القوة العشائرية مدفوعة الأجر من الشيخ لتنفيذ مهمات محدَّدة. فإن مشاركتهم الطوعية في الغزوات وفي الدفاع عن عشيرتهم كانت واجباً أخلاقياً والتزاماً يحترمه الجميع. وكان الامتناع عن المشاركة لأسباب غير الشيخوخة والمرض، يجلب العار والسخرية وحتى الرفض الاجتماعي. وكان يعني فقدان الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقانونية، أي تعليق حقوق العضوية في الجماعة. ولكن رجال القبيلة كانوا بمشاركتهم في الحملات العسكرية، ينفذون واجباتهم نحو الجماعة وليس واجباتهم للشيخ. وعلى الضد من ذلك كان رجال الأمير المسلحون يشكلون كتلة متميزة تؤلف قوة محترفة، موظفة على أساس دائم. وكانت تضم عبيداً ومتطوعين من القرى والواحات، بالاضافة إلى المجندين الذين ينخرطون في قوة الأمير العسكرية نتيجة فرض الخدمة العسكرية. وكان يُدفع لهؤلاء نقداً أو عيناً مقابل خدمتهم. ونتيجة لذلك كانت سلطة الأمير تقوم على امتلاك وسائل الإكراه الفعلية التي يفتقر إليها شيخ العشيرة، وكان من شأن هذا أن يسهل العملية التي فُرضت بها مركزية الزعامة المقيمة في الواحة.

بدأت زعامة الأمراء تتخطى المستوى المحلي حين أخذوا يشاركون في السياسة الدولية. فلقد أقاموا علاقات سياسية خارجية مع الحكومة العثمانية التي كانت تدَّعي سيادة اسمية على شبه الجزيرة العربية. وكان الأمراء يرسلون مبعوثيهم للتفاوض حول اقامة تحالفات مع المسؤولين العثمانيين في البصرة وبغداد ودمشق والمدينة. وكانت هذه العلاقات تضمن تدفق أموال الدعم الخارجي مقابل ولائهم وولاء السكان الواقعين تحت نفوذهم. وفي أوائل القرن العشرين توثقت هذه العلاقات بتأثير الضغوط التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى. وفي محاولة يائسة لكسب ولاء مراكز القوى المحلية في المنطقة وتعاونها، عمدت الحكومة العثمانية إلى زيادة أموال الدعم المقدمة إلى أمراء حائل مرتين تقريباً. وعلى النقيض من ذلك، كانت لدى شيوخ العشائر اتصالات محدودة مع الهيئات الخارجية ولم يتلقوا أموال دعم من الخارج مباشرة. وقد عمل أمراء آل الرشيد وسطاء بين شمّر والحكومة العثمانية، التي كانت تتوقع من الأمراء أن يتصرفوا وكأنهم «حكام

دولة». وكان العثمانيون يعتقدون أن هذه الآمال ستترجم إلى واقع بدفق متواصل من السلاح والعتاد سيؤمن سيطرة الأمراء على شمّر ويكفل ولاء هذه الأخيرة. وهكذا أصبحت زعامتهم مشفوعة بقوى عسكرية فعلية منحتهم سيطرة وليس مجرد نفوذ. ولم تكن هذه السيطرة موجهة بالدرجة الرئيسية نحو شمّر بل كانت ناجحة في عملية توسع الأمراء توسعاً سلالياً بدأ معه مُلكُهم يشمل مجموعات غير شمّرية.

وساهم وجود نوعين من الزعامة في شمّر يختلفان على مستوى القاعدة والسلطات، في ظهور توترات سياسية كانت كامنة. وقد انبثقت هذه من تعايش عامل مُمَرْكز (الأمير) وأيديولوجيا بنية سياسية لا مركزية كانت غير ملائمة لبلورة السلطة في يد أمير واحد.

وكانت ميول اللامركزية المتأصلة في النظام القبلي الشمري تكبح باستمرار الاتجاه المتعاظم نحو قدر أكبر من المركزية وإقامة أشكال حكم أكثر استتباباً. ولم يكن هذا النظام ملائماً لاقامة علاقات وتحالفات سياسية دائمة. إذ كان يقوم على مبدأ استقلال الجماعة المحلية على المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية. وكان على سلطة الأمير السياسية المركزية أن تتعايش مع استقلال القبيلة، الأمر الذي يعني أن السيادة كانت مبثوثة في القبيلة وبين عشائرها المختلفة. وكان التوتر بين الاتجاهين يُشَتَّت ويُحتوى، وجزئياً يُذلل من خلال أشكال الدعم التي تقدم لشيوخ العشائر. وقد حافظ الأمراء على التقليد المتمثل في دعم هؤلاء الشيوخ من خلال توزيع النقود وهِبات من الرز والبن والسكر والابل والأسلحة. وكانت هذه الهدايا تعمل بوصفها رشاوى للحفاظ على ولاء الشيوخ الذين ظلوا مستقلين إلى حد بعيد. وكانت أشكال الدعم ترسخ وتعزز وتقوي ما كان سيكون، لولا ذلك، علاقة سياسية رخوة وهشة وضعيفة بين امارة حائل وشمّر. واستمر النظام عاملاً طالما كان الأمراء قادرين على توفير أشكال الدعم هذه وطالما كانت مصالحهم متطابقة مع مصالح شمّر.

وعموماً ظلت العلاقة وثيقة إلى حد لا يستهان به من حيث الولاء السياسي إلى أن واجه الأمراء تهديد مراكز قوى منافسة خارجية، أي تهديد السعوديين في بداية القرن العشرين. وقد اعترف الأمراء والشيوخ على السواء بدائرة نفوذ بعضهم بعضاً ولم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يتجاوزوا على المجال السياسي لبعضهم بعضاً.

كثيراً ما قلل انثروبولوجيون عاملون بين قبائل بدوية شرق أوسطية من أهمية الفوارق على مستوى الزعامة بالتشديد على وجود «تقليد مساواتي متأصل» بين هؤلاء البدو[١٢]. فإن لانكستر، في دراسته قبيلة الروالة شمال الجزيرة العربية، لا يرى اختلافاً بين الزعامتين، وهو يجادل قائلاً إن الأمير والشيخ على السواء وسيطان باسم القبيلة لدى القبائل الأخرى أو لدى الحكومات الوطنية. ويؤكد لانكستر على أنه «ما من فرد لديه سلطة سياسية وما من مجموعة لديها سلطة سياسية وما من أسرة لديها سلطة سياسية. فإن السلطة مقصورة على عمل الرأي العام» (و. لانكستر W. Lancaster ١٩٨١ : ٨١).

تُستخدم تسمية «الشيخ» بين قبيلة الروالة لقباً ينم عن الاحترام لأفراد آل الشعلان الأكثر نفوذاً، للفئة الحاكمة المرموقة، في حين أن الحكومة العثمانية خلعت لقب «الأمير» على نوري بن شعلان وأكدته فيما بعد سلطات الانتداب الفرنسي. ولا يرى لانكستر إلا اختلافات لغوية بين نوعي الزعامة رغم أن لورنس وغلوب، وهما مصدران من المصادر التي استخدمها في دراسته، شخَّصا اختلافات أخرى. فلورنس وصف نوري بن شعلان بأنه شخص نال رئاسته بالقوة الخالصة وكان مرهوباً ومُطاعاً من الجميع، فيما أضاف غلوب قائلاً إن سلطة نوري ربما كانت فريدة بين البدو (المصدر السابق: ٨٤). ويرفض لانكستر هذه التعليقات ولا يقر بالحقيقة الماثلة في أن ابن شعلان لم يعد شيخاً قبلياً تقليدياً. فلقد تغير أساس سلطته عندما أنجرّ على نحو أقرب إلى معمعات السياسة الدولية ودول مركزية تريد اخضاع قبيلته واحتواءها. وكانت سلطته ترتكز الآن على عَبيده والضرائب التي يجبيها نيابة عن الحكومة المركزية وصلاته مع نخبة سياسية أوسع. ونتيجة لذلك افترقت زعامته عن زعامة الشيخ البدوي[١٣].

وشطي Chatty في دراستها لقبائل الحسَّانة والفضل شبه البدوية في سوريا وسهل البقاع، تشخص نوعين متميزين من الزعامة ظهرا خلال الفترة الاستعمارية وداما حتى ستينات وسبعينات القرن العشرين. فإن شيوخ الحسانة يمثلون سلطة تختلف عن سلطة أمراء الفضل. وتجادل شطي قائلة إن قاعدة سلطة الأمير لا تقوم على مكانة بيته المرموقة في القبيلة بقدر ما تقوم على مكانة بيته في منظومة القبائل البدوية برمتها. يضاف إلى ذلك أن الأمير أقام علاقات «شبه اقطاعية» مع بقية قبيلته عندما أصبح ملاك أرض سجلتها السلطات الاستعمارية باسمه، وأخذ

يطالب بريع من الذين يستخدمون هذه الأرض. وكان ملاكاً غائباً يعيش في المدينة، وانسلخ عن جماعته، وأصبحت أسرته جزءاً ثرياً وراقياً من النخبة الوطنية. وعلى النقيض من ذلك كانت مكانة الشيخ المرموقة لا تقوم إلا في عشيرته (د. شطي D. Chatty ١٩٧٧ : ٣٩٣). ولم يطلب الشيخ قط بدلات ايجار من رجال عشيرته الذين كانوا يقدمون له هدايا سنوية ـ تبرعات طوعية كانت أحياناً تُحوَّل إلى ولائم.

ولكن شطي لا تشير إلى أساس السلطة العسكري في حالة الأمير والشيخ. ولا يُجاب عن السؤال حول ما إذا كان الأمير يتمتع بقدرة عسكرية أكبر أو يمتلك قوة منفصلة غير القوة المؤلفة من رجال قبيلته. يضاف إلى ذلك أنه لا يرد ذكر للتوتر أو السخط الناجم عن ازدياد ما يمارسه الأمير من سطوة اقتصادية على اتباعه. وكما أشير إليه سابقاً فإن التقليد السياسي اللامركزي القوي الذي يشترك به عدد كبير من القبائل البدوية في المنطقة كان يقوم بدور الكابح على الميول المركزية التي تمثلها زعامة الأمراء.

في جبل شمّر أطلق تبلور دور الأمير من آل رشيد عملية حكم سلالي. ولا يبدو أن هذه كانت هي الحال بين القبائل البدوية في الشمال. ولعل هذا يرتبط بالحقيقة الماثلة في أن القبائل الشمالية كتلك التي درستها شطي في سوريا، كانت قريبة من مراكز حكم مدينية متوطدة تمكنت في مرحلة أبكر من احتواء وتقييد نشوء حكم قبلي أكثر تطوراً. ولكن الضوابط على زعامة الأمير في وسط الجزيرة العربية كانت تأتي من داخل النظام، أي من التقليد السياسي اللامركزي الذي كان استقلال العشائر استقلالاً محلياً هو السائد فيه. وكان التحدي الآخر يأتي من نوع آخر من أنواع الزعامة له، إلى جانب كونه زعامة سياسية، بُعد ديني هام. وهذه الزعامة كان يوفرها الأئمة السعوديون في القرن التاسع عشر.

الأمير والإمام

في عام ١٨٢٤ أقيمت امارة سعودية ـ وهابية ثانية في الرياض، كان مؤسسها تركي بن عبد الله[١٥]. وكما رأينا في الفصل الثاني، كان قد قُتل وخلفه ابنه فيصل. وكان فيصل معروفاً بالإمام، وهي تسمية كانت تعني، في السياق السعودي ـ الوهابي، قائد الصلاة والزعيم السياسي للأمة الإسلامية، أي أن

التسمية كانت تفيد بما معناه الزعامة السياسية والدينية لأنه لم يكن هناك فارق بين الاثنتين.

بعد عدد من الاشتباكات مع القوات المصرية هُزم فيصل وحل محله ابن عمه خالد الذي رباه المصريون في القاهرة. وبعد انسحاب القوات المصرية في عام ١٨٤١ استولى عبد الله بن ثنيان، وهو أيضاً من أفراد العائلة السعودية، على الرياض من حاكمها المعيَّن مصرياً الذي هرب إلى الحجاز. ولم تدم زعامة ابن ثنيان طويلاً لأن فيصلاً هرب من سجنه في القاهرة ونجح في تثبيت نفسه مرة ثانية في الرياض.

وبسبب سياسة الإمام فيصل في تفادي الصدامات مع العثمانيين فقد حاول التوسع باتجاه الجنوب الشرقي وخاصة على امتداد ساحل الخليج حيث كانت المجابهات مع القوات العثمانية والمسؤولين العثمانيين أقل احتمالاً. واتضح أن عهده عهد استقرار لأن الوهابية كفت عن كونها قوة دافعة كبيرة نحو حرب خارجية منفلتة. وفي المناطق المقهورة أصبح قبول الوهابية يعني مجرد الاستعداد لاستقبال قضاة ومعلمين دينيين وهابيين كان الإمام فيصل يعينهم ويرسلهم إلى واحات المنطقة وبلداتها. (ن. سفران N. Safran ١٩٨٥ : ١٦). وقد أُعفيت القبائل البدوية التي قبلت بسلطة فيصل حتى من هذا الشرط. إذ كان الإمام فيصل يدرك أهمية بناء تحالفات سياسية مع هذه القبائل في محاولته نيل التأييد لسياساته ولجم المعارضة بين هذه القبائل. ولتعزيز هذه التحالفات شجع أبناءه على الزواج ببنات شيوخ قبليين أقوياء. وتناسب هو وابنه سعود مع قبيلة عجمان القوية بالزواج منها فيما تزوج ابنه عبد الله ابنة عبد الله بن رشيد، مؤسس امارة آل الرشيد.

وعين الإمام فيصل قبل وفاته في عام ١٨٦٥، ابنه عبد الله لخلافته بعد أن ضمن تأييد علماء الرياض. ولكن هذا لم يضمن السلام لخلافة ابنه الذي تحداه شقيقه سعود. وسعى عبد الله إلى تركيز سلطاته وممارسة سيطرة أكبر على الأقاليم الخاضعة للهيمنة السعودية والقبائل البدوية التي قبلت أصلاً بحكم والده. نتيجة لذلك استعدى عبد الله هذه الجماعات التي رفضت التفريط باستقلالها. واستغل شقيقه سعود، الذي كان هو نفسه يطمع بالخلافة ولديه مصادر تأييده الخاصة، لا سيما في قبيلة عجمان القوية، أخطاء شقيقه فتحداه وهزمه. وتمكن من الاستيلاء على الرياض في عام ١٨٧١ (المصدر السابق: ١٧). وغادر عبد الله الرياض في

محاولة لتحشيد أنصار له فلجأ إلى جبل شمّر الذي كان أميره محمد بن رشيد. وإذ كان عبد الله متزوجاً شقيقة محمد فقد عوَّل على ايجاد بعض الدعم والتعاطف مع قضيته في حائل. ولكن محمد بن رشيد لم يكن مستعداً لاعادة الإمام السعودي إلى موقعه بل كانت خططه تشتمل على اخضاع الامارة السعودية ـ الوهابية الجنوبية وضم اراضيها إلى مُلْكِه.

دامت زعامة سعود حتى وفاته في عام ١٨٧٥. وبعد ذلك بفترة وجيزة أصبح شقيقه عبد الرحمن إماماً في الرياض ولكنه واجه تحدياً من أبناء سعود الذين اعتقدوا أنهم أجدر بوراثة منصب أبيهم الراحل. وقام أبناء أخي عبد الرحمن بطرده من الرياض.

وتمكن عبد الله، رغم خيبة أمله في حائل، من العودة إلى الرياض بدعم من بعض القبائل البدوية. ونصَّب نفسه إماماً بعد التوصل إلى اتفاق مع أبناء سعود. ولكن السلام لم يدم لعبد الله طويلاً حيث أسره أبناء سعود وألقوه في السجن. واستغل محمد بن رشيد هذه الأحداث بالزحف على الرياض وتحرير عبد الله ـ الذي أُخذ إلى حائل «ضيفاً دائماً» للحيلولة دون عودته إلى السلطة. وعُيِّنَ محمد بن رشيد حاكماً على الرياض التي أصبحت جزءاً من دائرة نفوذ ابن رشيد. (ر. وايندر R. Winder ١٩٦٥ : ٢٦٤ ـ ٢٦٥). وبسبب تقدم عبد الله بن فيصل في السن ومرضه سُمح له بالعودة إلى الرياض مع الاحتفاظ بلقب الإمام حتى وفاته في عام ١٨٨٩.

بعد وفاة عبد الله أصبح شقيقه عبد الرحمن هو الإمام. وحاول عبد الرحمن أن يحرر نفسه من سيطرة آل الرشيد على عاصمته. فنظم ثورة ضد ابن رشيد في عام ١٨٩٠ بدعم من سكان وسط نجد، وخاصة القصيميين الذين كانوا يقطنون الأراضي الواقعة بين حائل والرياض. وقد استجاب حكام المدن الكبيرة في القصيم إلى دعوة عبد الرحمن للانضمام إليه في الثورة ولكن ابن رشيد هزم هذا التحالف المشترك في معركة مليدة في عام ١٨٩١. وبعد هزيمة حلفاء الإمام عبد الرحمن سارع الإمام إلى مغادرة الرياض مع كل أفراد عائلته ولجأ أولاً عند قبيلة المرَّة في الربع الخالي، ثم توجه فيما بعد إلى الكويت حيث احتضنه حاكمها ابن صباح. وتسبب هروب الإمام السعودي الأخير إلى الكويت في انهيار الإمارة السعودية ـ الوهابية الثانية. وكان هذا من صنع مركز قوى محلي هو آل الرشيد

وليس على يد عامل خارجي.

كانت جوانب عديدة من جوانب الزعامة في الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية استمراراً لما وجد في القرن الثامن عشر. فقد استمرت هذه الزعامة في الاسترشاد بتطبيق قوانين الشريعة والمبادئ الإسلامية كما فسرها محمد بن عبد الوهاب، مؤسس الحركة الوهابية. وانعكس الأساس الديني لهذه الزعامة في اعتماد لقب الإمام. ففي عموم الجزيرة العربية كان الحكام السعوديون معروفين بوصفهم أئمة وأقاموا نظاماً يرتكز على قاعدة الابن البكر فيما يتعلق بالخلافة. وكان هذا ابتعاداً واضحاً عن مبادئ التعاقب على زعامة القبيلة التي كان يجري اختيار الشيخ بموجبها من نَسَب الحاكم السابق ولكن من دون أي قاعدة ثابتة. وفي الحالة السعودية كان دور الإمام ينتقل من الأب إلى الابن رغم أن هذا النمط كان أحياناً ينقطع خلال صراع الأشقاء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وإذ وسع الأئمة السعوديون دائرة سيطرتهم إلى أقاليم أخرى في الجزيرة العربية، عينوا ممثلين كان دورهم الرئيسي الحفاظ على النظام والسلام والتوثق من تطبيق قوانين الشريعة. كما كان الممثلون يجبون الزكاة التي كانت منظمة على النحو الآتي: ١٠ في المئة من المحصول الزراعي في الأراضي غير المروية و٥ في المئة من المحصول في الحقول المروية وضريبة قدرها ٢,٥ في المئة على رأس المال المحفوظ فضة وذهباً وضريبة قدرها ٢,٥ في المئة على رأس المال المستخدم للتجارة، وأخيراً زكاة الماشية والإبل والأغنام. وكانت هذه الضرائب تشكل عائداً كبيراً يُرسل إلى بيت المال. وكانت العائدات الأخرى تشمل الغنائم التي تجمع من المناطق المقهورة وتوزع على المحاربين حسب قانون الغنيمة الإسلامي. وكان خمس الغنائم يُرسل إلى بيت المال فيما يوزع الباقي على الجنود والقواد. كما عيَّن الأئمة السعوديون قضاة في الأقاليم المقهورة. وكان القضاة يفضُّون النزاعات حول الإرث ويبتون في قضايا الزواج والطلاق والسرقات والقتل وما إلى ذلك، بموجب أحكام الشريعة، وكان يُدفع لهم سنوياً من بيت المال (أبو حكيمة ١٩٦٧: ٥٠).

لقد وفرت زعامة الأئمة السعوديين بديلاً من القيادة القبلية لأنها كانت تستمد أساسها الايديولوجي من الإسلام. وكان هدف الائمة اقامة حكم اسلامي وليس حكماً قبلياً. وفي هذا السياق يجدر عقد مقارنة بين الزعامتين، أي الزعامة القبلية ممثلة بأمراء آل الرشيد في حائل والزعامة الإسلامية ممثلة بالأئمة السعوديين

في القرن التاسع عشر. إذ كان دور الأمير يختلف من نواحٍ عديدة عن دور الإمام السعودي. وقد علق هوغارث على هذه الاختلافات:

يختلف المجتمع في حائل عنه في أراضي الواحات الأخرى وسط الجزيرة العربية. ويكمن هذا في حقيقة أن مكوِّنه الرئيسي، الحضري المتوطن الآن وله حياة فلاحية جزئياً، لم يفقد روح عرْف السكان البدو التي انبثق منها. وإذا أخذنا العائلة الحاكمة على سبيل المثال فإن زعماء آل الرشيد ليسوا مثل زعماء آل سعود في الرياض، حكام جماعات متوطنة منسجمين معاً، وقبائل محيطة من البدو، تختلف عنهم، بل هم، في المقام الأول، زعماء قبيلة بدوية سائدة كبيرة، وهم، في المقام الثاني، زعماء مستوطنات تخدم تلك القبيلة بأسواق ونقاط تجمع. (د. غ. هوغارث D.G. Hogarth، ١٩٠٥: ١٦٦).

لقد أكدت تعليقات هوغارث على الوحدة والتلاحم بين أمراء حائل وقبيلتهم شمّر. ورغم أن الأمراء كانوا منفصلين مادياً عن أبناء جلدتهم الشمريين فقد كانت هناك رابطة نَسَبية قوية بينهم. ولكن الزعامة السعودية كانت تفتقر إلى عمق آل الرشيد القبلي لأنها استقرت في بيئة متوطنة زمناً طويلاً بما فيه الكفاية لأن تفقد صلاتها القبلية ـ على سبيل المثال، كان السعوديون متوطنين في الدرعية منذ القرن الخامس عشر. وكانوا منذ ذلك الحين حكام واحات. كما أن الوهابية، المظلة الايديولوجية للزعامة السعودية، لم تنشأ بين البدو رغم أن بعضهم اعتمدها بحماسة. فقد كانت جذورها في ثقافة الواحة في جنوب نجد. وكان التوسع السعودي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يمثل الهيمنة السياسية والايديولوجية للعالم الحضري، كما كان موجوداً في جنوب اليمن وقتذاك، على أراضي العمق، أي مجال القبائل البدوية. وهذه الحقائق قادت الزعامة السعودية إلى اعتماد واستحضار مصادر مشروعية تختلف عن مصادرها الكامنة وراء امارة آل الرشيد.

وقد جادل فيبر Weber بأن شرعنة السلطة أو الهيمنة أو الزعامة شرط لازم لقيام علاقة متناغمة بين الحاكم والمحكوم. وأن قبول الهيمنة، في حالة ممارسة السلطة حيث يطيع فاعل أمراً محدَّداً يصدره فاعل آخر، يمكن أن يقوم على امتثال تلقائي أو توجه إلى مصلحة ذاتية. وتتطلب الاستمرارية في الزعامة وجود مشروعية يميز فيبر ثلاثة أنواع مثالية منها هي المشروعية التقليدية والمشروعية

الكاريزماتية والمشروعية القانونية (م. فيبر M. Weber ١٩٤٧ : ٢٢٦ الجزء الأول). ولكن النوع الأول وحده هو الذي له صلة بالموضوع هنا. فإن الشيوخ النَسَبيين والمشيخية والوراثية المحصورة بالذكور أنواع من زعامة تقوم على شرعنة تقليدية. ويمكن اعتبار أمراء حائل أحد أنواع السلطة التقليدية. إذ كانت امارتهم تُشَرعَن بالاحالة إلى قيم تقليدية في النُبل والأصل الأبوي المتحدر من نَسَب مرموق.

ولكن هذه كانت متراكبة مع مصادر شرعنة «شخصية». فإن صفات قوية مثل المهارات العسكرية والحكمة والشجاعة والبسالة والضيافة والكرم كانت بحد ذاتها مصادر للشرعنة. والصحيح أن شخصية الحاكم تشكل مصدر شرعنة في الزعامة التقليدية وغير التقليدية (د. ايستن D. Easton ١٩٦٥ : ٣٠٢ ـ ٣٠٣). فإن على الزعيم أن يثبت كفاءته الشخصية إذا أراد أن يكسب يمين الولاء التقليدي. وأن صفاته الشخصية تحدد بدرجة كبيرة علو مقامه. وقد كان هذا عاملاً وثيق الصلة بتأسيس امارة عبد الله بن رشيد في حائل. وعلى النقيض من ذلك فإن الزعامة السعودية إذ كانت تفتقر إلى الرابطة القبلية، استمدت مشروعيتها من ايديولوجيا اسلامية، وعلى وجه التحديد صيغتها الوهابية. وباحتضان السعوديين للحركة أصبحت الوهابية «ديناً سياسياً» باستخدام لغة ايستن. فقد وظّف المقدس لاقامة نظام مشروعية سياسية والمساعدة في تعبئة الجماعة لغايات علمانية. وفي هذه الحالة كانت الغايات سياسية.

ان مؤسس إمارة آل الرشيد، عبد الله بن رشيد، لم يضع الزعامة الدينية للإمام فيصل، إمام الرياض، موضع تساؤل. فإن امارة الأول لم تكن قائمة على شرعنة دينية. وفيما يتعلق بشمر كان أمراء آل الرشيد فوق كل شيوخها. وعلى الضد من ذلك كانت سلطة الأئمة السعوديين تقوم على التزامهم بايديولوجيا اسلامية مهمتها اقامة دولة اسلامية تسودها الشريعة الإسلامية. ولم يكن الأئمة السعوديون في البداية شيوخ قبيلة قوية في الجزيرة العربية، ولا كانوا من أصل شريفي مثل حكام الحجاز الهاشميين. لقد كانوا حكام سكان الدرعية الحضر منذ عام ١٤٤٦ (أ. عبد الرحيم ١٩٧٦ : ٧٣). وكما في غالبية الأجزاء الحضرية من جنوب نجد كان سكان الدرعية يتألفون من مزارعين (يزرعون النخيل بالدرجة الرئيسية) وحرفيين وتجار وكوادر دينية (قضاة وأئمة) وعبيد. وقبل صعود الوهابية وتبني السعوديين لها في عام ١٧٤٤ كانت سلطة الحكام السعوديين تقوم على

قدرتهم على جباية الضريبة من السكان الحضر مقابلة حمايتهم. وقد وفرت الوهابية الآلية الايديولوجية التي توسعت بها الهيمنة السعودية خارج الدرعية عندما فرض السعوديون زعامتهم الدينية والسياسية على القسم الأعظم من الجزيرة العربية.

لقد كانت لأمراء آل الرشيد والأئمة السعوديين على السواء مكانة رفيعة بنظر اتباعهم. وكان أمراء حائل يستمدون مكانتهم من أصلهم الممتاز الذي كان يضمن لهم الاحترام ليس بين شمّر فحسب بل وفي المجتمع البدوي للجزيرة العربية بصفة عامة. وعلى النقيض من ذلك كان الأئمة السعوديون يستمدون مكانتهم من دورهم كأوصياء على الشريعة الإسلامية. وأن معرفتهم بالشريعة واستعدادهم لفرضها وتدينهم رفعت مقامهم.

وكان الأمراء والأئمة يضطلعون بأدوار عسكرية وسياسية. إذ كانوا يشاركون في الحملات العسكرية ويساهمون في توسيع مُلْكِهم، وكان الأمراء يفرضون هيمنتهم وهيمنة قبيلة شمّر على المدن والواحات المقهورة في حين كان الأئمة يعتبرون توسعهم جهاداً لنشر «معتقدات الإسلام الصحيحة». وكان الأمراء يستخدمون قوى بشرية قبلية وعبيداً ومرتزقة ومجندين لحملاتهم العسكرية في حين كان الأئمة يعتمدون اعتماداً كبيراً على معتنقي الوهابية الذين كانوا مستعدين لنشر تعاليمها. وكان أمراء آل الرشيد يبررون الحرب بالإشارة إلى ايديولوجيا تفوُّق قبلي، وكان الأئمة السعوديون يسلطون الضوء على مفهوم الجهاد.

وفيما يتعلق بالوظائف القضائية كان أمراء آل الرشيد وسطاء في النزاعات فيما كان الأئمة قضاة تحت تصرفهم قانون الشريعة السماوي. وكان أمراء آل الرشيد يستخدمون الشريعة الإسلامية ويطلبون حكم قضاة حائل في مناسبات مختلفة ولكنهم لم يستبعدوا العرف الذي كانت تُفض به نزاعات كثيرة، وخاصة المتعلقة بالقتل.

وكان هؤلاء وأولئك الحكام على السواء يعتمدون على عائدات تتحقق من الغزوات وضرائب تفرض على الأراضي المقهورة. وكان الأمراء يجبون ضريبة حماية «خوَّة» حسب العرف القبلي فيما كان الأئمة يكدسون ضريبة الزكاة (الإسلامية). وكان أمراء آل الرشيد يتبعون العرف القبلي لدى توزيع الغنائم فيما كان الأئمة يستخدمون الشريعة الإسلامية (انظر الجدول رقم ٢).

الجدول رقم (٢)

الزعامة القبلية والزعامة الإسلامية

الخصائص	الزعامة القبلية	الزعامة الإسلامية
اللقب:	أمير	إمام
الشرعنة:	التقليد والشخصية	الدين السياسي
المكانة:	رفيعة مستمدة من الأصل والصفات الشخصية والمهارات	رفيعة مستمدة من التدين ومعرفة الإسلام
الأدوار:	أدوار سياسية وعسكرية ووسيط في النزاعات	ادوار سياسية وعسكرية وقاضٍ في النزاعات
القوة العسكرية:	قوة قبلية مجندة حسب العرف، عبيد، مجندون	مسلمون مستعدون للقتال من أجل نشر الإسلام، عبيد
هدف الحرب:	التوسع والدفاع عن تفوق شمّر	التوسع ونشر الحكم الإسلامي
العائدات:	اتاوة، غنائم وضريبة تجبى حسب العرف	زكاة وغنائم تجمع حسب الشريعة الإسلامية
الخلافة:	غير محدَّدة	شورى نظرياً ولكن حسب قاعدة الابن البكر في الممارسة.

فيما يتعلق بوراثة منصب الأمير، ذُكر سابقاً أن هذا كان ينتقل إلى الأشقاء والأبناء وحتى إلى أبناء العمومة. وعلى النقيض من ذلك كان التعاقب على منصب الإمام يقوم نظرياً على مفهوم الشورى الإسلامي الذي كان سائداً على الأقل في التراث السني. ولكن، في الممارسة، كان الأئمة السعوديون يحاولون نيل تأييد العلماء الوهابيين لوريث بعينه قبل وفاة الإمام، مثلاً عندما عيَّن الإمام فيصل ابنه عبد الله لخلافته. وعموماً تمسك السعوديون بنظام الوراثة للابن البكر الذي لم يكن ممارسة شائعة للزعامة القبلية، على الأقل بين قبائل وسط الجزيرة العربية وشمالها. وقد كان هذا النظام من خصائص الخلافة في اليمن وعُمان في القرن التاسع عشر (أ. بلغ A. Bligh ١٩٨٤: ٩ ـ ١٠). وبين السعوديين لم يكن هذا النظام يعمل من دون قتل أشقاء ومنافسات داخلية وصراعات على الخلافة.

ورغم أن أمراء آل الرشيد لم يستدعوا ايديولوجيا مُشرْعِنة دينية، سيكون من المضلّل الخلوص إلى أن امارتهم كانت «علمانية» بالكامل وأن الدين لم تكن له أي أهمية. ففي بداية حكم آل الرشيد في حائل، كانوا قد تأثروا مع قبيلة شمّر بالوهابية التي كانت موجودة في الجزيرة العربية منذ حوالي قرن. وعلق رحالة زاروا حائل في القرن التاسع عشر على تديّن السكان الحضر، وهي سمة شائعة في

مدن وواحات وسط الجزيرة العربية كلها تقريباً في ذلك الوقت. وكتب والن:

ان مبدأي المذهب الوهابي الأساسيين اللذين ما زال الشمّريون يتمسكون بهما تمسكاً لا محيد عنه هما رفض كل القديسين، حتى النبي نفسه، بوصفه وسيطاً بين الله والإنسان، وثانياً، ضرورة اداء الصلاة علناً في مسجد بالاشتراك مع جماعة وليس وحده في البيت... ويراقب الأمراء الوهابيون عن كثب تجميع الناس لصلاة الجمعة، وكانت في حائل حالات عديدة عاقب فيها عبد الله بشدة عدة رجال لتخلفهم عن الحضور لأداء هذه الصلاة (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤: ١٨٥).

يضاف إلى ذلك أن عُبيداً، شقيق عبد الله بن رشيد، وُصف في أحيان كثيرة بأنه «وهابي متعصب». وقد وصفه دوتي بأنه «قائد القوة العسكرية لجبل شمّر، في أيام عبد الله شقيقه، وفي أيام ابن أخيه طلال. لقد كان رجل حرب، ووهابياً...» (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٢٧ الجزء الثاني).

كانت صلاة الجمعة تقام بحضور الأمراء الذين كانوا يعينون إمام المسجد. وكان الإمام، عادة، شخصاً تلقى تعليماً دينياً في المدينة المنورة أو القاهرة أو الرياض (المصدر السابق). وفي حائل كان هناك أيضاً عدد من الخطباء الذين يعلّمون الناس المعتقدات الأساسية للوهابية. وكان الأمير يعين قاضياً درس الفقه الإسلامي. وتشير بعض السجلات التاريخية إلى وجود قاض وهابي في حائل في بداية حكم عبد الله بن رشيد. وكثيراً ما كان القاضي يُرسل من الرياض إلى حائل لتسوية نزاعات وجمع الصدقة والزكاة ممن كانوا يدفعونها طواعية. وكان هذا يجري عادة في وقت الربيع حين يكون المزارعون متهيئين لجني المحصول الزراعي، من التمور بالدرجة الرئيسية. وبعد انجاز هذه المهمات كان القاضي يعود إلى الرياض. وخلال حكم عبد الله بن رشيد أُرسل أربعة قضاة إلى حائل - عبد الله بن سليمان ابن عبيد وشقيقه أحمد وعبد العزيز بن عبد الجبار ومحمد بن سيف (أ. الهندي ١٣٨٠ هجرية: ٨٠).

كما كان لحائل قضاتها الذين يعينهم الأمراء، وكانوا هناك على أساس دائم. ويبدو أن الكلمة الأخيرة كانت للأمير حول قرارات القضاة. وكانت هذه القرارات تُتخذ بالتشاور وليس بطاعة المرجعية الدينية. وقد وصف بالغريف قاضي حائل بأنه شخص أكثر تسامحاً من القضاة في العاصمة السعودية: «إلى جانب كونه ممثلاً متسامحاً لما يمكن هنا أن يسمى الفريق المعتدل، غير مشارك في تعصب الوهابي،

ولكنه، شأن غالبية الزعماء المحليين، غير معادٍ لدين محمد، فإنه يتَّبع اتجاه المحكمة، ويتمتع بشعبية لدى الأطراف كافة بسبب عدم انتمائه، كما هو لائق، إلى أي طرف» (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٥٨ الجزء الأول).

يؤكد تقرير بالغريف أن الأمير وشيوخ العشائر كانوا معادين لتطبيق الشريعة الإسلامية[١٦]. ومع ذلك كان وجود قاضٍ وظيفته الرئيسية تسوية النزاعات وفق الشريعة، مؤشراً إلى أنه كان يفعل ذلك، على الأقل في بعض الأحيان. ويبدو أنه في حائل كانت تسوية النزاعات تتبع الشريعة الإسلامية والعرف الشمري على السواء. وكان القاضي يتعامل مع نزاعات تتعلق بالتجارة والزواج والطلاق والميراث. ولعل التعامل مع قضايا أخرى، لا سيما تلك المتعلقة بالسكان البدو مثل القتل والسرقة ونزاعات ناجمة عن تخصيص موارد اقتصادية كالآبار والمراعي، والسطو، كان يجري حسب العرف. وزعمت الليدي بلنت التي زارت حائل في الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما كان النفوذ الوهابي في الجزيرة العربية بصفة عامة آخذاً في الانحسار، أن غالبية النزاعات في حائل كانت تُفَض حسب العرف وليس بموجب الشريعة:

«ولكن حيث لا تسوى النزاعات بتدخل الأصدقاء يضع أطراف النزاع قضاياهم أمام الأمير الذي يفضها في اجتماع مفتوح، هو المجلس، وتكون كلمته نهائية. وأحسب أن قانون القرآن، رغم الاشارة إليه في احيان كثيرة، ليس هو القاعدة الرئيسية لقرار الأمير، بل العرف العربي، وهو مرجعية أقدم بكثير من الشرع الإسلامي. وأشك في أن يكون من الضروري في أحيان كثيرة أن يسند الجنود قرارات كهذه بالقوة». (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨ : ٢٦٦ الجزء الأول).

كانت تسوية النزاعات تجري في مجلس الأمير الذي يلتئم يومياً في الميدان العام ويكون مفتوحاً للجمهور. وكان بين مَنْ يحضرون الاجتماعات أمراء آل الرشيد وشيوخ شمّر الذين يصادف وجودهم في حائل، وشيوخ آخرون غير شمّريين ووجهاء الواحات. وكان الأمير رئيس المجلس وكان هذا ينعكس في ترتيب الجلوس. فلقد كان الأمير مع أبناء عمومته وأشقائه وأعمامه يجلسون على منصة مرفوعة قليلاً يشغل هو نفسه الجزء الأوسط منها. ولم يكن حضور المجلس منظَّماً بأي قاعدة. فكل من لديه قضية أو التماس أو استفهام يحضر الاجتماعات. وكان الأمير يقوم بدور الوسيط بين أطراف النزاع. وقد حضر يوتنغ المجلس

خلال زيارته لحائل. ولذا كان قادراً على وصف هذه الاجتماعات:

«يتقدم أحدهم ويعلن أن فلاناً سرق منه رأسين من الأغنام. ويعده الأمير بأنه سيعتني بأن تعادا إليه أو يُعوض عنهما، وأن يُبلِّغ شيخ القبيلة التي ينتمي إليها السارق بذلك مع ملاحظة بأن عليه أن يجلي القضية. ويعني هذا الاعلان البسيط تهديداً ضمنياً بأنه في حالة التأخير فإن الشيخ صاحب العلاقة، ومعه قبيلته، يمكن، لدى توزيع أراضي الرعي في العام المقبل، أن تخصص لهما منطقة أدنى نوعية من منطقتهما السابقة». (ج. يوتنغ في ب. وورد P. Ward، ١٩٨٣: ٤٦٧).

من الواضح أن الأمير كان يطلب تعاون شيوخ أطراف النزاع. فلقد كانت لدى الشيوخ، عادة، صلات أوثق مع أتباعهم ومعرفة قاعدية بسلوكهم. وكان شيوخ العشائر، في مجلس الأمير، يُحملون المسؤولية عن اعادة الممتلكات المسروقة وترتيب دفع الدية في حالات القتل. وكان تخلف الشيخ عن القيام بذلك يسفر عن عقاب وعنف ضد المجموعة كلها. وكان تهديد الأمير بتخصيص مراع أدنى نوعية للمجموعة احدى الوسائل التي تُستخدم لتشجيع المجموعات على الالتزام بالقرارات التي تتخذ في المجلس.

خلال العقود الأولى من حكم الأمراء (١٨٤٠ إلى ستينات القرن) لم يضعوا الدور الديني للأئمة السعوديين موضع تساؤل. وكانت حماسة الأئمة الدينية المعتدلة نوعاً ما خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، محتَمَلَة ومقبولة بوصفها زعامة روحية. وجاء اعتدال الأئمة في أعقاب الغزو المصري الأول والثاني اللذين نجحا في تدمير قاعدة سلطتهم الأولى في الدرعية. ولم يكن الأئمة قادرين على استعادة قوتهم الأولى وحماستهم غير المحدودة وتأييد سكان وسط الجزيرة العربية الذين عانوا قرابة قرن من التعصب الوهابي الذي أعقبه تدمير البلاد على أيدي المصريين. وأحجم هؤلاء السكان عن حمل الراية السعودية ـ الوهابية مرة أخرى في عملية جهاد يُعلن على الكفار. وكانت العواقب متوقعة تقريباً الآن بسبب السابقة التاريخية ووجود القوات المصرية في الحجاز. وهذه الخلفية تفسر العلاقة بين أمراء حائل والأئمة السعوديين. فلقد كانت هناك درجة كبيرة من التسامح في حائل مع التعاليم الوهابية ومعرفة القضايا الدينية. وكانت الزعامة السعودية موضع احترام طالما أنها لا تشكل تهديداً سياسياً. بكلمات أخرى، أن زعامة الأئمة كانت موضع

احترام وتسامح ولكن هيمنتهم السياسية كانت مستنكَرة ومرفوضة. وعلى امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر حافظ أمراء آل الرشيد على ادارتهم الذاتية واستقلالهم المحلي. وتُرجم تسامحهم مع الزعامة الدينية للأئمة إلى عمليات عسكرية فعلية في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر متكللة بمعركة مُليدة وطرد آخر الأئمة السعوديين، وهو عبد الرحمن، مع عائلته إلى الكويت.

الفصل الرابع

اقتصاد القوافل
التجارة والحجاج والاتاوة

التجارة

كانت هيمنة أمراء آل الرشيد تقوم على سيطرتهم على شبكة القوافل التجارية بين العراق وبلاد فارس في الشرق، والحجاز في الغرب. وأصبحت حائل محطة كبيرة لمرور القوافل مجتذبة التجار والحجاج الأجانب. كما بدأت تمتلك قوافلها التجارية الخاصة التي جلبت إلى المنطقة أصنافاً متنوعة من البضائع. وكانت هذه ذات أهمية حيوية لسكان الواحة المحليين ولشمّر على السواء.

وكانت الرعوية في جبل شمّر مكشوفة لعوادي الزمن بسبب تقلب الأمطار الذي يجعل من المتعذر التنبؤ بسقوطها وطول موسم الصيف حين يتعين على البدو البقاء قرب آبارهم الصحراوية أو الآبار الدائمة في الواحات. ولكن شمّر كان يسيطر على الوسائل الأساسية لانتاجهم الرعوي، أي المراعي والآبار في أرض قبيلته. وكانت لدى شمّر حقوق ملكية جماعية في هذه الموارد في حين كانت لدى العشائر المختلفة حقوق في استخدامها. ولم تكن لدى أمراء حائل السلطة ولا الوسائل لتغيير هذا الترتيب التقليدي. وكان توزيع الموارد الرعوية متروكاً للعشائر وشيوخها الذين يتعاونون في تنظيم الهجرة الموسمية لمجموعاتهم واستخدام الآبار والمراعي بصورة منتظمة.

ان انكشاف الاقتصاد الرعوي دفع الشمريين إلى تنويع مواردهم. وكانت المنتجات الزراعية والبضائع المصنعة على السواء ضرورية. كما أنهم كانوا بحاجة

للوصول إلى ينابيع دائمة لا تجف خلال موسم الحر. وغالباً ما كانت هذه توجد في قرى وواحات جبل شمّر التي كانت تنتج أنواعاً من الفواكه والخضار والقمح والشعير، وتنتج في المقام الأول التمور التي كانت الجزء الأهم في غذاء البدو. والشمر الذين لا يمتلكون مزارع نخيل في الواحات كانوا مجبرين على مقايضة منتجاتهم الرعوية مثل الصوف والزبدة والحيوانات بتمور. ولكن بعض العوائل الشمّرية كانت تمتلك حقولها الخاصة من النخيل التي كانت تقع عادة قرب بئر دائم. (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٩).

كانت الأيدي العاملة الزراعية تتألف من مزارعين حضر وعبيد. وكان شيوخ شمّر الذين يملكون عدداً كبيراً من العبيد قادرين على الاستفادة من عملهم أيضاً في حين كانت لدى آخرين ترتيبات مع عوائل حضرية محلية للعناية بمزارعهم من النخيل. وكان مسموحاً للمزارعين بالاحتفاظ بخمس المحصول الزراعي فيما يأخذ الملاك أربعة أخماسه، وهو ترتيب شائع في غالبية واحات وسط الجزيرة العربية. وكانت عوائل شمّرية أخرى تُبقي بعضاً من أفراد مجموعتها للتوطن قرب المزرعة من أجل العناية بها فيما كان المتبقون من أفراد المجموعة يرعون القطيع في الصحراء. وكان هذا شائعاً في احدى مزارع عقدة، وهي قرية صحراوية صغيرة في جبل أجا قرب حائل (المصدر السابق).

وكان الملاك يزورون المزرعة على الأقل مرتين أو ثلاث مرات كل عام لجمع التمور الناضجة، وإذا أخفقت المزرعة في انتاج ما يكفي من التمور بسبب شحة الماء، كانوا يبحثون عن موارد أخرى لاستكمال الاقتصاد المختلط. وكانت لدى الشمريين حقوق في محصول مزارع النخيل العائدة إلى أقاربهم في قرى أخرى. وإذا فشلت هذه أيضاً، كانوا يحاولون ابتياع كميات من التمور من أسواق المنطقة.

لم يكن اعتماد شمّر على المحصول الزراعي في الواحات عملية ذات اتجاه واحد. فقد كان سكان الواحات أيضاً يحتاجون إلى منتجات لم يكونوا قادرين على انتاجها بأنفسهم ـ الجمال لنقل الماء من آبارهم ولحراثة الحقول، واللحوم (ابل وغنم وماعز) والصوف والزبدة وغيرها من منتجات الألبان الأخرى. كما كانت الواحات تعتمد على استيراد طائفة متنوعة من المنتجات الزراعية (التمور، الحبوب، القمح، الشعير، الرز، البن، السكر) والبضائع المصنّعة (الملابس، الأحذية، الأسلحة، العطور والسروج). وكانت هذه تُستورد إلى جبل شمّر من مناطق

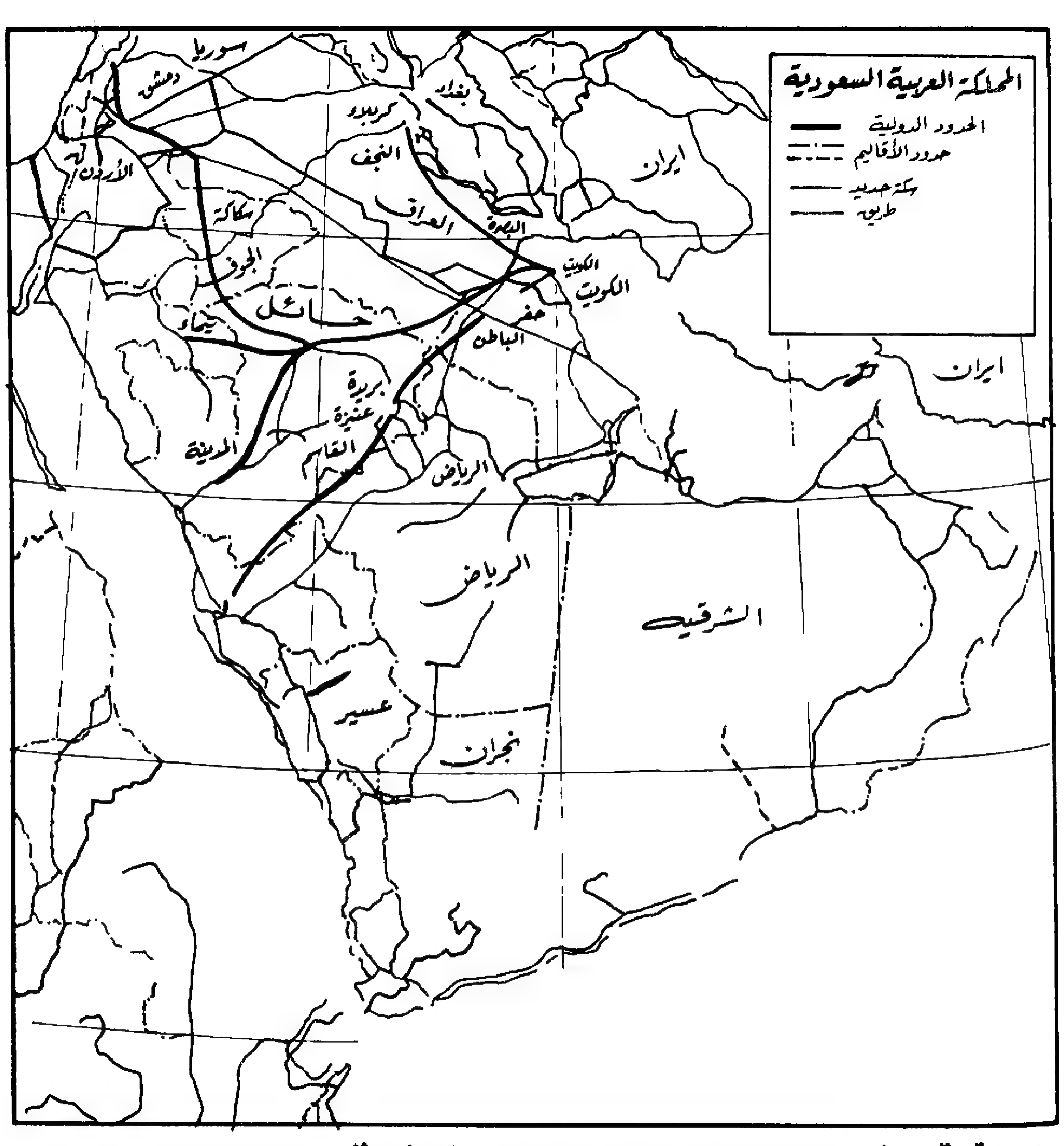
العراق الأكثر خصوبة، ومن ميناء البصرة والكويت على ساحل الخليج وكانت العلاقة التكافلية بين البدو والحضر تتعزز باعتمادهم على تجارة القوافل.

وكانت الفئتان على السواء تشاركان في هذه التجارة ولهما مصلحة في استمراريتها. وكان الشمّريون يوفرون وسائل النقل للقوافل التجارية ويقومون بدور الأدلاء والمرافقين، وكانوا أيضاً مستهلكين للمنتجات ـ مثلما كان سكان الواحات. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحولت حائل من واحة صغيرة لا تجري فيها إلا مبادلات محلية بين الصحراء والواحة، إلى محطة تجارية كبيرة تكاد تضاهي في أهميتها مراكز الحجاز التجارية القديمة مثل مكة والمدينة.

لقد كانت طرق التجارة من العراق وبلاد فارس دائماً مهمة لا للتجارة فحسب بل وللحجاج أيضاً الذين كانوا يقومون برحلة الحج كل عام. ولأنه لم تكن هناك طرق مُعلَّمة في المنطقة الصحراوية الشاسعة بين العراق والحجاز، كان من الضروري ضرورة مطلقة للمسافرين والتجار والحجاج أن يسلكوا طرقاً تفضي في النهاية إلى آبار صحراوية أو إلى قرى وواحات توجد فيها مصادر ماء دائمة. وكانت لجبل شمّر أفضلية وقوعه على امتداد الطريق الذي يبدأ من كربلاء في العراق ويواصل مساره في اتجاه جنوبي غربي للوصول إلى حائل في وسط شمال الجزيرة العربية. ومن حائل كان الطريق يستمر إلى وجهته النهائية في منطقة الحجاز. وكان هذا الطريق يسمى «درب زبيدة» (طريق زبيدة، زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد). فقد أصدرت زبيدة في عهد زوجها أوامر بإعادة بناء سلسلة الآبار على امتداد الطريق وإقامة محطات للقوافل يستطيع المسافرون والحجاج المكوث فيها والاستراحة من عناء السفر. وكان قرب الآبار من بعضها بعضاً ومحطات التبديل المناسبة الموجودة على امتداد هذا الطريق، تسهل الرحلة وتجعل من الممكن قطع المسافة في تسعة إلى أحد عشر يوماً. (س. الرشيد ١٩٨١: ٦٣ وغ. والن G. Wallin ١٨٥٤: ٣٣٦). وحتى أواخر القرن الثامن عشر كان المسافرون من بلاد فارس والعراق ما زالوا يستخدمون درب زبيدة الذي يبدأ من بغداد ثم ينعطف شرقاً حيث كانت قرية لينة لتفادي عبور صحراء النفود الكبرى. ومن لينة كان الطريق يخترق الصحراء إلى حائل ثم يستمر إلى المدينة المنورة (طريق منزل الحج، من العراق إلى مكة، مخطوطة، المتحف البريطاني، ملحق ١٦، ٧٤١).

وفي القرن التاسع عشر ظلت حائل تلعب دوراً هاماً بوصفها مرحلة للقوافل

على هذا الطريق رغم ظهور محطات وطرق أخرى. وكانت بعض القوافل التجارية تبدأ رحلتها من الكويت ومنطقة الاحساء، والزبير والنجف في العراق، وسوريا إلى حائل وبُريدة والحجاز (انظر الخريطة رقم ٤). ويبين الجدول التالي طرق التجارة والحج المتنوعة. فقد كانت محطات انطلاق القوافل مراكز حضرية مزدهرة في شبه الجزيرة العربية وخارجها. وكان بعضها مدناً ساحلية ذات شبكة تجارية راسخة مع أوروبا والهند. وعلى سبيل المثال، كانت لميناء الكويت علاقات تجارية مع المدن الساحلية الفارسية وبومباي. وكانت لمنطقة الاحساء على الشاطئ العربي من الخليج الفارسي أيضاً علاقات تجارية مع الهند.



خريطة رقم «٤» الطـرق التجاريـة

الجدول رقم (٣)
تجارة المسافات الطويلة

المحطة الأولى	المدن الواقعة على الطريق	الوجهة النهائية
الكويت	بُريدة (قاسم)	مكة
الاحساء	الرياض	مكة
النجف (العراق)	الزبير ـ الكويت	حائل
الزبير (العراق)		بريدة (القصيم)
سوريا	الجوف	حائل

الجدول رقم (٤)
المسافة بين حائل والمدن الكبيرة

من	إلى	المسافة بالأميال
حائل	تيماء	٢٣٥
	الجوف	٢٧٠
	خيبر	٢٣٠
	المدينة المنورة	٢٧٥
	بريدة	١٦٠

المصــــــــــدر: Western Arabia and the Red Sea, Naval Intelligence Division, Geographical Handbook Series, 1949: 567.

غرب الجزيرة العربية والبحر الأحمر، قسم المخابرات البحرية، سلسلة الدليل الجغرافي، ١٩٤٩، ٥٦٧.

كانت المنتجات الهندية والأوروبية تصل مدن العراق من الهند وبلاد فارس. وكانت هذه المنتجات تجد طريقها إلى وسط الجزيرة العربية وجبل شمّر حين تُنقل على طريق الحج القديم.

وكان والن من أول الرحالة الأوروبيين الذين لاحظوا أفضليات الموقع الجغرافي لجبل شمّر: «إذ يقع في مركز شمال الجزيرة الغربية ووسطها، على حدود الاثنين تماماً، على مسافة متساوية تقريباً من دمشق وبغداد ومكة، في منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج، فإنه أنسب مكان تُمارس منه السطوة والسيطرة

على البلدان المجاورة». (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٩٨). ولكن حائل لكي تسيطر على تجارة القوافل وتوجه الحركة التجارية لصالحها، كانت تحتاج إلى زعامة سياسية وعسكرية قوية من دونها كانت حماية القوافل التجارية ستكون صعبة ان لم تكن متعذرة. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر قام بتوفير هذه الزعامة أمراء آل الرشيد الذين تمكنوا من إحلال السلام والنظام في الواحات الواقعة تحت سيطرتهم وعلى الطرق التجارية المؤدية إلى حائل.

واستحدث الأمراء قوة من الشرطة كان دورها الرئيسي فرض النظام وحماية الممتلكات في سوق حائل. وكان الأمن في أرض آل الرشيد، متضافراً مع أفضليات موقعها الجغرافي، يؤهل حائل للتنافس مع مدن أخرى في وسط الجزيرة العربية مثل عنيزة وبريدة والرياض، من أجل السيطرة على تجارة القوافل. وكانت غالبية هذه المدن غير مكتفية ذاتياً، وبالتالي كان سكانها وسكان الصحارى المحيطة يعتمدون في معيشتهم على تجارة القوافل. ومع صعود الهيمنة السعودية ـ الوهابية في القرن الثامن عشر، بدأت الدرعية تلعب دور محطة المرور للقوافل. وأتاح التوسع السعودي ـ الوهابي وهيمنتهم العسكرية إمكانية أن يجبروا الحجاج والقوافل التجارية على عبور أرضهم ودفع إتاوة لهم. ولكن صعود الدرعية كان يرتبط بالهيمنة العسكرية والسياسية لزعامتها. وفي القرن التاسع عشر كان الأئمة الذين اعتراهم الضعف غير قادرين على ممارسة أي سيطرة بعد ذلك على تجارة القوافل الوافدة من بلاد النهرين. ولم تبرز عاصمتهم الجديدة، الرياض، بوصفها مركزاً تجارياً هاماً، وأعقب انحدارهم انسحابُ القوات التركية ـ المصرية من وسط الجزيرة العربية مخلفة وراءها فراغ سلطة في وسط الجزيرة العربية. وحين دخلت مدن المنطقة وواحاتها الكبيرة في منافسة مع بعضها بعضاً على حركة التجارة، كانت حائل قادرة على الفوز لأن أمراءها مدوا هيمنتهم إلى أراضٍ تقع خارج جبل شمّر وأخذوا يرسلون قوافلهم التجارية الخاصة من حائل إلى بلاد النهرين. وأتاحت لهم العائدات المتحققة من التجارة إمكانية الحفاظ على زعامتهم السياسية لأنها كانت تدرُّ عليهم مداخيل كبيرة عن طريق الاتاوة التي يجبونها من التجار والمنخرطين في تعاطي التجارة. وكان جزء من هذه الاتاوة يوظف في تدعيم قوتهم العسكرية، الأمر الذي عزز بدوره سيطرتهم على الحركة التجارية.

لقد أُشير في الفصل الثالث إلى وجود موقف منفتح نسبياً من التجارة والتجار الأجانب بين أمراء آل رشيد. والرحالة الأوروبيون الذين زاروا حائل في

القرن التاسع عشر وصفوا الواحة بأنها مكان استتب فيه أمن الغريب وغير المسلم. ووصف بالغريف حائل بزعامة طلال بن رشيد مؤكداً أن طلالاً «مارس قدرته لاقناع يهود ومسيحيين من الشمال بالاقامة في عاصمته حيث وعدهم بأمن كامل وممارسة الدين بحرية». (و. بالغريف ١٨٦٥ : ١٣٠). وزعم دوتي أيضاً أنه مكث في بيت صغير في حائل كان يسكنه يهودي من بغداد اعتنق الإسلام وتزوج بامرأة في المدينة (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٥٩٦). وعلى أثر ذلك «أجاز له الأمير أن يعيش في حائل حيث البيع والشراء. . . . وهو الآن تاجر ناجح». (المصدر السابق ٦٠٢).

كما أبدى الأمراء تسامحهم مع المعتقدات الدينية للتجار الشيعة الذين كانوا بحاجة إلى الحماية والاطمئنان على حياتهم وسلامة ممتلكاتهم. وحين كان دوتي في حائل ذكر أنه التقى تاجراً أجنبياً ثرياً هو سيد محمود، «زعيم المشاهدة [التجار الشيعة من مشهد علي]، وزهاء ٣٥ عائلة كانت مقيمة في حائل. وان سلع البازار [بضائع من بلاد النهرين] في غالبيتها بأيديهم». (المصدر السابق). ويؤكد بالغريف أيضاً «ان تجاراً من البصرة ومن مشهد علي وواسط وأصحاب متاجر من المدينة وحتى من اليمن، كانوا يُدْعَون بعروض سخية للمجيء ومزاولة أعمالهم في سوق حائل الجديدة» (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٣٠).

كما سمح الأمراء للتجار المحليين ـ وخاصة من منطقة القصيم ـ بالنزوح إلى حائل لفتح متاجرهم وأعمالهم. وكان تجار القصيم مشهورين في وسط الجزيرة العربية بمهاراتهم في التجارة ومجال الأعمال (س. التركي S. Altorki ود. كول D. Cole ١٩٨٩). وقد رفضوا طيلة سنوات التعصب الوهابي في أرضهم، الذي أدان بيع واستهلاك عدد من السلع الكمالية مثل البن والتبغ والحرير. وفي جنوب نجد فرض الأئمة السعوديون ـ الوهابيون على أنفسهم وعلى الجماعات التي وقعت تحت هيمنتهم قواعد أخلاقية متزمتة وكانوا معادين للتجار المحليين والأجانب الذين يجلبون بضائع كهذه من بلاد النهرين وبلاد فارس، والذين كان غالبيتهم من الشيعة. وقد لاحظ والن هذا العداء:

«في أيام الوهابيين الأولى حُرِّم التبغ، مثلاً، بلا أي تحفظ. . . . وحُظر استخدام الحرير. . . . وأدينت الموسيقى والشعر والملاهي الأخرى. وفُرض قيد على الرز بوصفه غذاء لم يكن مستعملاً بين العرب في زمن الرسول. . . واعتبر

الاتصال الودي مع كل طائفة أخرى من المسلمين عملاً غير مشروع، مع الدعوة إلى الحرب ضدهم بوصفها واجباً مقدساً». (غ. والن ١٨٥٤ : ١٨٣).

كانت الوهابية تعتبر المذهب الشيعي بدعة أسوأ من الكفر. وإذ كان الحجاج والتجار الشيعة على السواء يتعرضون إلى مضايقات جسدية في الأراضي السعودية ـ الوهابية فقد كانوا يتجنبونها. وعلى النقيض من ذلك كان أمراء حائل متسامحين مع الاختلافات الدينية، وكانوا يشجعون التجارة بالسلع الترفية ـ بل أن بعضهم كانوا أنفسهم مستهلكين لهذه السلع. وعلى سبيل المثال يذكر بالغريف أن طلال بن رشيد كان «يشاع عنه الانغماس في ملذات التبغ الهرطيقية وارتداء الحرير» (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٣١). ويؤكد والن أيضاً أن سكان حائل كانوا أكثر تسامحاً مع طرق معينة في الملبس: «على سبيل المثال، يجوز للرجل أن يؤدي ابتهالاته بلباس ممزوج، نصفه من حرير. ويجوز له في أحيان أخرى أن يكون لباسه كاملاً من الحرير. وثمة تسامح مع التبغ، ويبدو أنه أخذ يصبح أكثر شيوعاً من جديد». (غ. والن ١٨٥٤ : ١٨٣). ووصف يوتنغ التدخين في شوارع حائل دون أن يثير عداء: «بدأت أدخن في الشوارع. يبدو أن هذا كان مقبولاً بسلاسة حتى أن الناس في البازار والمتاجر والبيوت كانوا يقدمون لي ناراً كلما احتجت إليها». (ج. يوتنغ في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣ : ٦٢٥).

وهكذا أصبحت حائل محطة مرور هامة على الطرق التجارية التي تربط أسواق العراق وبلاد فارس والخليج بوسط الجزيرة العربية والحجاز. وكانت السلع الرئيسية لهذه الشبكة التجارية ذات المسافات الطويلة هي الأسلحة والسجاد والمجوهرات والأحذية والرز والذرة والتبغ والبن والتوابل والعطور. وكانت هذه البضائع تُنتج أو تُصنع في العراق أو بلاد فارس أو الهند أو أوروبا. ورغم أن حائل لم تكن المنتج الرئيسي لهذه السلع، أو مستهلكها، فقد نجحت زعامتها في اجتذاب تجارة القوافل واجبارها على المرور عبر أرضها ـ فضلاً عن الانخراط بنشاط في هذه التجارة. وكانت قوافل حائل تخرج من الواحة أربع مرات كل عام. وكانت تنطلق إلى العراق بحيواناتها، من الجمال والخيول بالدرجة الرئيسية، وأصوافها وزبدتها المصفاة. وكانت هذا السلع أساساً من انتاج شمّر.

وكان من المألوف أن يرافق قوافل حائل زعيم ومجموعة من المسلحين المسؤولين عن الأمن. إذ ما ان تغادر القوافل أرض شمّر حتى تصبح مكشوفة

للهجمات عندما تدخل الأراضي التقليدية للقبائل الأخرى. وكانت مسؤولية قائد القافلة والمسلحين الذين بإمرته أن يضمنوا سلامة مرور القافلة والتجار الذين وضعوا أنفسهم تحت حمايتهم. وفي غالبية الحالات كان قائد القافلة يُعيَّن من قبل الأمير الذي يتوقع منه أن يجبي رسماً من القافلة بعد الاحتفاظ بمبلغ لنفسه. وكان هذا الرسم يدفعه التجار الذين تنقل القافلة بضاعتهم. وقد وصف موسيل هذا الترتيب:

«يحسب القائد عدد الجمال قبل دخول العراق ويفرض رسماً للأمير قدره ربع مجيدي (٢٣ سنتاً) على كل جمل من البدو، ونصف مجيدي على كل جمل من التجار وكذلك مبلغاً غير محدد لنفسه. ولأن القافلة كثيراً ما يزيد عدد جمالها على ألف جمل ويُطلب رسم عن رحلة العودة فإن القائد أيضاً يكسب مبلغاً كبيراً». (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٤١).

كان بعض أفراد آل الرشيد أنفسهم قادة قوافل. فإن طلال بن رشيد، على سبيل المثال، كان يوفر فرقة حماية تعدادها ٦٠٠ رجل بإمرة شقيقه متعب، لقافلة بلاد النهرين التي كانت تنطلق كل عام من بغداد إلى مكة. (غرماني C. Guarmani ١٩٣٨ : ٩٢). كما كان محمد بن رشيد نصيراً نشيطاً لتجارة المسافات الطويلة لأنه كان قائد قوافل مشهوراً قبل أن يصبح أمير حائل في عام ١٨٦٩. وكان الأمير يشمل قوافل حائل بحمايته مقابل رسم يدفعه المشاركون في التجارة.

لقد شجعت الصلات التجارية بين حائل وبلاد النهرين ازدهار سوق الواحة التي أصبحت المركز التجاري لشمر وسكان الواحات المجاورة الحضر. وأصبحت حائل مركز المبادلات بين الواحات والصحراء لأنها كانت في قلب أراض قبيلة شمّر ولأن أمانها شجع شمّر على القيام بمبادلاتهم هناك بدلاً من قطع الرحلة الطويلة إلى العراق. وكانت شمّر وسكان الواحات الحضر، يؤمّون سوق حائل التي توفر عدداً من الخدمات للصفقات التجارية. وعلى سبيل المثال كانت هناك مسلخة (مجزرة) متاحة في السوق فكان هذا يشجع تنظيم بيع الحيوانات.

يضاف إلى ذلك أن حائل كانت لديها فئة صغيرة من الصناع والحرفيين. ويزعم لوريمر:

«ان الحرفيين ليسوا كثيرين، وهم ينتمون إلى صنف الحدادين، وأدواتهم قليلة

وثقيلة. ومع ذلك تصنع منتجات نحاسية ورؤوس حربات وحدوات. وتُنتج أوانٍ خشبية وتصنع سروج للجمال... وتتعاطى النساء اللواتي يشتغلن في تطريز الحرير والخيوط المعدنية، تجارة صغيرة. ولعل أكبر رأس مال تجاري في حائل لا يزيد على ٣٠٠ جنيه استرليني» (ج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٨: ٦٠١ الجزء ٢أ).

هذه الصناعة المحدودة، مرتبطةً بتجارة القوافل المزدهرة، كانت توفر طائفة متنوعة من السلع الضرورية والكمالية. ولم تعد السوق فضاء مفتوحاً صغيراً يجري فيه البدو وسكان الواحات مبادلات محلية تكاد تكون امتداداً لاقتصاد كفافهم. إذ كانت السوق متميزة عن أسواق الواحات الصغيرة الأخرى بحقيقة أن تجارتها كانت نشاطاً متخصصاً تمارسه فئة من التجار تقيم في حائل وتملك متاجر دائمة في الواحة.

كانت السوق المسماة «المبيع» تتألف من زهاء ١٤٠ متجراً تُعرض فيها بضائع مختلفة على أساس دائم. وكان الأمير قد بنى هذه المتاجر في ستينات القرن التاسع عشر، وأُجِّرت إلى تجار الواحة (المصدر السابق: ٦٠١ الجزء ٢أ). كما كان هناك حيز منفصل لصاحبات الاكشاك اللواتي كن يبعنَ أنواعاً مختلفة من المنتجات كالحلي والعطور والملابس النسائية والتمور والخضروات. ويزعم لوريمر بأنه حتى أطعمة مطهية كانت تُعرض للبيع في السوق المفتوحة وكانت هناك عدة دكاكين مطبخية غالبية أصحابها من الفرس في حائل (المصدر السابق). ولعل هذه كانت تقوم على خدمة المسافرين والحجاج الذين يصلون إلى حائل خلال موسم الحج ويمكثون في الواحة لبعض الوقت.

بالاضافة إلى التجارة بين الواحات والصحراء كانت حائل تخدم أيضاً تجارة الواحة المحلية بين سكان الواحة نفسها، من التجار والمزارعين والحرفيين والعبيد. اذ كان المزارعون يبيعون منتوجهم ـ الذي يتألف بالدرجة الرئيسية من التمور، وإلى حد أقل، من القمح والخضروات والفواكه والذرة ـ للمستهلكين إما مباشرة أو عن طريق سمسار يقوم بدور حلقة الوصل بين الطرفين. وكان أسلوبا الدفع الآني والمؤجَّل يمارسان على السواء. وكان الدفع المؤجل يقتضي من المشتري أن يسدد مبلغاً من المال إلى المنتج في بداية الموسم الزارعي. وحين يكون المحصول جاهزاً، في نهاية موسم الصيف عادة في حالة التمور، يتعين على المزارع أن يوفر كمية من التمور مقابل النقود التي تسلمها في وقت سابق من العام. وكان الدفع المؤجل

يعمل كنظام اعتماد يساعد المزارعين في بداية الدورة الزراعية حين لا يكون لديهم شيء يبيعونه ويعوزهم النقد لشراء ما يحتاجونه.

كانت العملات المستخدمة في هذه المعاملات التجارية عملات متباينة. وفي حائل وغالبية أجزاء الجزيرة العربية كثيراً ما كانت تُستعمل الليرة والمجيدي العثمانيان. يضاف إلى ذلك، كان من المألوف تداول عملات محلية مثل الأحمر والطويلة والقرش والبارة (انظر الجدول رقم ٥). وذكر دوتي أن المعاملات التجارية في حائل كانت تُجرى بنقود أجنبية: «كل معاملاتهم بنقود أجنبية، من ريالات اسبانيا ودولارات ماريا تيريزا وتيجان مجيدي تركية. والنقود الذهبية معروفة أكثر منها مرئية بينهم. وهم يسمون القطعة النقدية من فئة ٥ ليرات تركية «دبلون» والنقود الانكليزية جنيهات أو بنتو والقطعة النقدية من فئة ٢٠ فرنكاً ليرة فرنساوي». (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٩). ولم تكن النقود الورقية مستعملة في امارة آل رشيد.

الجدول رقم (٥)
العملات في وسط الجزيرة العربية

العملة	ما يعادلها بالعملة الأجنبية	الصنع
احمر	½ ليرة عثمانية	ذهب
محمدية	—	—
قرش	⅓ ريال فرنسي	٥ غم فضة
طويلة	-	فضة أو نحاس
بارة	عملة تركية	
مجيدي	عملة تركية	

وقد وصف يوتنغ أمير حائل وهو يستفسر عن وجود نقود كهذه في أوروبا. فشرح له أن هذا صحيح وأرى الأمير ورقة نقدية من فئة ١٠٠ مارك. (ج. يوتنغ في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣: ٥٥٩ ـ ٥٦٠). والجدير بالملاحظة أن أمراء حائل لم يحاولوا إصدار أي عملات أو قطع نقدية لتداولها داخل أرضهم. إذ كان من المحتم أن تعتبر الحكومة العثمانية التي كانت لم تزل تدّعي السيادة على المنطقة، أن ذلك تجاوز على سلطتها وهيمنتها.

باختصار، ازدهرت سوق حائل نتيجة أنواع ثلاثة من التجارة المترابطة فيما بينها: تجارة القوافل ذات المسافات الطويلة والتجارة بين الواحات والصحراء وتجارة الواحة المحلية. ولولا تجارة القوافل والصلة التجارية مع بلاد النهرين والخليج لغابت عن السوق طائفة كاملة من البضائع. كما كانت تجارة القوافل متشابكة مع توفر وسائل نقل كثيرة، وكانت جمال شمّر توفر مثل هذه الوسائل. وكانت التجارة بين الواحات والصحراء تأتي بهذه الحيوانات إلى السوق حيث يستأجرها أو يبتاعها التجار لاستخدامها في تجارة القوافل ذات المسافات الطويلة. وكان الانتاج المحلي المحدود وعجز السكان عن تحقيق الاكتفاء الذاتي المستديم يجعلان الصلات التجارية مع المناطق الأكثر انتاجاً وخصوبة أمراً ضرورياً.

وكانت للعلاقات التجارية، بالاضافة إلى منافعها الاقتصادية، فائدة غير مالية. فقد ساهمت تجارة القوافل والتجارة بين الواحات والصحراء في ايجاد شبكات اعلامية بين الجماعات المختلفة. وكانت هذه الشبكات تغطي قضايا متنوعة تمتد من ظروف المراعي إلى توفر الماء في مناطق نائية. وكانت هذه المعلومات ضرورية للسكان البدو الذين يعتمدون على مثل هذه الأخبار لترحالهم. وكان التجار الأجانب الذين يسافرون بين مناطق لا يصلها البدو، قادرين على نقل أخبار تتعلق بالظروف المناخية في مناطق بعيدة. كما كانت القوافل التجارية مفيدة للسكان الحضر في حائل ولكل الذين لا يستطيعون السفر خارج الواحة. وقللت القوافل من العزلة الاجتماعية لسكان الواحة حيث أصبحوا مطلعين على الظروف الاجتماعية والسياسية في العراق وسوريا والحجاز والخليج. وغيَّرت أنواع التوابل المستوردة واستهلاك الرز والبن والتبغ أنماط الحياة وعادات الأكل لدى سكان حائل.

كما أفاد أمراء حائل من القوافل التجارية بطريقة غير مالية. فإن مبعوثيهم إلى المسؤولين والولاة العثمانيين في سوريا والعراق كانوا يسافرون على الطرق نفسها التي يسافر عليها التجار ويتفاوضون مع المسؤولين العثمانيين باسمهم. وفي طريق عودتهم إلى حائل كانوا يجلبون أشكالاً مختلفة من الدعم النقدي والعيني كهدايا من الرز والحبوب والسلاح والعتاد. كما كان الأمراء يرسلون مخبرين لجمع المعلومات عن القوة العسكرية لخصومهم وأخبار عن التحالفات المبرمة بين القبائل المختلفة في المناطق المجاورة، وتحضيرات المجموعات المعادية لشن غارات، وكان

ينقل مثل هذه المعلومات مبعوثوهم أو يلفت انتباههم إليها المسافرون والتجار.

وكان من السمات الهامة لسوق حائل أنها أصبحت سوقاً للقبائل. فإن شمّر وسكان الواحات الذين كانوا في غالبيتهم ينتمون إلى بني تميم، لم يكونوا المشاركين الوحيدين في التجارة. بل كان يجري تشجيع مجموعات أخرى غير شمّرية، مشمولة بحماية أمراء آل رشيد، على زيارة حائل بضمان سلامتها وحمايتها من الهجوم. وقد وضع توسع الأمراء تحت سيطرتهم سكاناً غير متجانسين قبلياً كانوا يقيمون في واحات مجاورة أو ظلوا بدواً يتنقلون في الصحارى المحيطة. وعلى سبيل المثال أن سكان جُبَّة، وهي واحة معزولة جداً في صحراء النفود الكبرى، كانوا خليطاً من شمّريين وغير شمّريين. وكان سكانها من الشمّر ينتمون إلى عشيرة الرُمال فيما كان الآخرون يدَّعون أصلهم من عشائر الروالة والبشر والتكارى المتفرعة عن قبيلة عنزة. يضاف إلى ذلك أن آخرين كانوا من أفراد الشرارات والحوازم الذين كانوا أصلاً متحالفين مع شمّر. وكانت عزلة الواحة في وسط الصحراء تجعلها أقل جاذبية لأن يزورها التجار أو يقودوا قوافلهم قرب حدودها. ولذا كان سكانها المختَلطون قبلياً يحصلون على ملابسهم والإمدادات الصغيرة من الرز التي يريدونها، من حائل (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٦٣).

أصبحت حائل مكاناً يستطيع السكان المختَلَطون قبلياً أن يلتقوا ويتمازجوا فيه بسلام. وكان هذا التفاعل في السوق يتحقق بشكل يختلف عن الشكل الذي لاحظه انثروبولوجيون يعملون على الأسواق القبلية في شمال أفريقيا أو اليمن. (أ. غلنر E. Gellner ١٩٦٩، ف. بينيت F. Benet ١٩٧٠، ايكلمان D. Eickelman ١٩٧٦، هـ. غيرتز H. Geertz، سي. غيرتز وروزن C. Geertz and Rosen ١٩٧٩، ر دان R. Dunn ١٩٧٧، وب. دريش P. Dresch ١٩٨٩). وعلى سبيل المثال يجادل دان بأنه في كل مكان في المغرب كانت قاعدتان أساسيتان تحكمان عمل الأسواق لضمان السلام وتدفق التجارة بحرية. فأولاً، يتعين أن تكون السوق أرضاً محايدة محمية من الانفجارات العنيفة التي كانت تتسم بها العلاقات القبلية. وثانياً، كان على سلطة مقبولة لكل المجموعات التي تستخدم السوق أن تفرض السلام بتطبيق عقوبات من هذا النوع أو ذاك (ر. دان R. Dunn ١٩٧٧ : ١٢١). وكان الحل الأكثر شيوعاً وفاعلية اناطة السلطة بولي مشهور ووضع السوق قرب ضريحه. ومن شأن بركة الولي أن تخلع إهاباً وقائياً على السوق يردع كل من تسول له نفسه بأن ينتهك السوق من

خلال «التهديد بغضب السماء» (المصدر السابق: ١٢٢).

وعلى الغرار نفسه وصف وولف هذا النمط في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، في دراسته حول مكة. إذ كان ملاذ الكعبة العربي القديم محاطاً بمنطقة مقدسة هي الحَرَم، لا يمكن سفك الدماء فيها. وعملت قبيلة قريش المكية الشهيرة بوعي على توسيع نطاق الحرم كوسيلة لزيادة استقرار العلاقات الاجتماعية في منطقتهم التجارية (إي. وولف W. Wolf ١٩٥١). وقد حولت قدسية المنطقة مكة إلى مكان آمن للتجارة، وبالتالي كانت سوقها تجتذب سكاناً غير متجانسين قبلياً. وجادل كيستر Kister أيضاً بأن مكة، وهي مركز صغير لتوزيع السلع على القبائل البدوية قرب المدينة، ارتقت إلى موقع المركز الهام لتجارة المرور (ترانزيت). وكان تجار مكة هم الذين يحملون البضائع إلى سوريا والحبشة والعراق واليمن:

كانت التجارة القائمة على اتفاقات ايلاف مشروعاً مشتركاً بين عوائل قريش بقيادة عائلة عبد مناف. وكانت الاتفاقات المبرمة مع القبائل تقوم على مبدأ لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين هو مبدأ المصلحة التجارية... وقد أرسيت اتفاقات ايلاف على قاعدة تقاسم الأرباح بين رؤساء القبائل، وعلى ما يبدو استخدام رجال القبائل مرافقين يحرسون القافلة... وكان هذا يحقق للقبائل ربحاً ثابتاً... اذ كانت موضع ترحيب في مكة وتستطيع الدخول بلا خوف. (م. كيستر M. Kister ١٩٦٥: ١٢٠ - ١٢١).

واستناداً إلى كيستر، يمكن أن يفترض المرء أن اتفاق ايلاف كان يشير إلى الالتزام بالأشهر الحُرُم، أي الحفاظ على السلام خلال هذه الأشهر واحترام قدسية (أو حرمة) مكة. ويبدو أن تجار قريش المكيين اخترعوا نظام ايلاف كضمانة اضافية لسلامة القوافل، لأنه كانت بقرب المدينة بعض القبائل البدوية التي لم تحترم قدسية الحرم. لذا أوجدوا هذه الرابطة الاقتصادية لتعزيز الصلات مع البدو الذين أصبحوا متشابكين مع حركة القوافل.

ان السلام في سوق حائل الذي مكّن رجال القبائل غير الشمريين من إجراء مبادلاتهم بعيداً عن خطر اندلاع عنف منفلت، أُشيع دون استحضار مرجعية ذات طبيعة دينية أو مقدسة. ويجب أن نتذكر أن الوهابية أدانت عبادة الأولياء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وسعت إلى تدمير قبور القديسين، بما فيها قبر الرسول محمد وقبور الخلفاء الراشدين. وحدث ذلك لإلغاء الوساطة (الشفاعة) بين

الإنسان والله لأن هذه المواقع كانت التمثيل المادي لمثل هذه الممارسات. ولكن رغم أن القوة الوهابية الفعلية كانت في انحسار خلال القرن التاسع عشر فإن نفوذها وتعاليمها ظلت محترمة ومحسوسة في وسط الجزيرة العربية، بما في ذلك جبل شمّر. وكان مبدأ الوهابية الأساسي الذي التزم به الشمّريون «رفض كل القديسين، حتى النبي نفسه كوسيط بين الله والإنسان» (غ. والن ١٨٥٤ : ١٨٤). ورفض عبادة القديسين جعل من المحال تطبيق البديل الشمال أفريقي المتعلق بحرمة أرض القديسين ومراقدهم التي ساهمت في الحفاظ على السلام. وبالتالي فقد أشيع السلام في السوق نتيجة آليتين: أولاً، أوجد الأمراء قوة مسلحة دائمة واجبها فرض السلام والنظام وحماية الممتلكات ومعاقبة المجرمين واللصوص وقطاع الطرق[١]. وارتبط هذا بصيغة تقليدية هامة هي نظام «الخوّة» (ضريبة أخوية أو إتاوة تُجبى مقابل الحماية)[٢]. وكان الحفاظ على السلام والنظام من الشروط اللازمة لتشجيع تجارة القوافل، وكانا هامين أيضاً في اجتذاب قوافل الحجاج.

الحجاج

ترسخت حائل أيضاً بوصفها محطة حج كبيرة في وسط الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. وكما ورد ذكره سابقاً فإن طرق الحج من العراق وبلاد فارس إلى الحجاز كانت تتطابق مع طرق القوافل التجارية. وإن هيمنة أمراء آل الرشيد وأمن أراضيهم مكّناهم من الحفاظ على سلامة مرور قوافل الحج السنوية عبر عاصمتهم وعلى الطرق المؤدية إلى العاصمة.

وكان غالبية الحجاج من بلاد النهرين وبلاد فارس من الشيعة. وفي نهاية القرن الثامن عشر، أدت النشاطات السعودية ـ الوهابية العسكرية في جنوب العراق إلى سلب الحجاج الفرس المسافرين بين الحلة ومشهد علي (س. الرشيد ١٩٨١ : ٦٤). لذا كان هؤلاء الحجاج يشعرون بعدم الأمان لدى السفر في الأراضي السعودية، وحاولوا في سنوات لاحقة تفادي الطريق المؤدي إلى الدرعية. وكان الحجاج يفضلون الطريق القديم، درب زبيدة، الذي يخترق حائل وجبل شمّر. وحاول حكام السلالة السعودية ـ الوهابية الأولى، بدأب، أن يغيّروا اتجاه قوافل الحج من حائل إلى الدرعية وأجزاء أخرى من أراضيهم. وذكر بركهاردت Burckhardt أن قوافل الحجاج من العراق وبلاد فارس كانت مرغمةً على السفر عبر أراضي الوهابيين في عام ١٨١٥ (بركهاردت Burckhardt ١٨٣١ : ٢٥١).

وخلال الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية أراد الأئمة السعوديون أيضاً أن يجعلوا من عاصمتهم الجديدة، الرياض، محطة حج كبيرة وبديلة من حائل. ولكن تعصب أتباع الوهابية وعداءهم في القرن الثامن عشر ظلا يثنيان الحجاج الشيعة[٣]. وقد وصف بالغريف كيف كان هؤلاء الحجاج ما زالوا يُعاملون معاملة سيئة في جنوب نجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر:

«ان فيصلاً، بعد فرض المبلغ الباهظ الذي تطالب به الأصولية الوهابية من الهراطقة الشيعة ثمن السماح لهم بزيارة المدينة المقدسة وقبر النبي، عيَّن لهم دليلاً وقائداً يدعى عبد العزيز أبو بُطين الذي كان يقودهم وينهبهم باسم الله والعقيدة الحق مقابل كل ما تبقى من الطريق إلى مكة ومرة أخرى في الإياب. . . . وحدد ٤٠ توماناً هي مطلب الخزينة الوهابية من كل حاج فارسي لقاء مروره عبر الرياض و٤٠ أخرى مقابل سلامة المرور عبر ما تبقى من الأمبراطورية». (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٦٠ الجزء الأول).

مثل هذه المعاملة بحق الحجاج الفرس خدمت ترويج الطريق الذي يمر عبر حائل. وكان الموقف الليبرالي على نحو محسوس في حائل يشجع الحجاج على استخدام الواحة، وأخذ أمراء آل الرشيد على عاتقهم مسؤولية حماية الحجاج الفرس في أراضيهم. ويقول بالغريف إن طلال بن رشيد أجرى مفاوضات مع شاه بلاد فارس لكي تمر قوافل الحج السنوية عبر أرضه. كما يزعم بالغريف أن الحجاج الفرس أعربوا عن امتنانهم لحسن معاملة ابن رشيد وشقيقه متعب الذي كان مسؤولاً عن شؤون الحج حينذاك. (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٩٦ ـ ١٩٧ الجزء الأول). ويؤكد غرماني أن طلال بن رشيد وفر ٦٠٠ مسلح لمرافقة الحجاج الفرس بإمرة شقيقه متعب. (غرماني C. Guarmani ١٩٣٨ : ٤٣). ولكن المفاوضات لم تكن الوسيلة الوحيدة التي سمحت للحجاج بالسفر عبر حائل في طريقهم إلى الحجاز. ويقول موسيل عن محمد بن رشيد «انه بالهدايا والتهديدات حمل جميع قادة القوافل على تسيير قوافلهم عن طريق عاصمته حائل. وهكذا لم تعد قافلة الحج تسافر على طريق الاحساء والرياض وإنما عن طريق أبو عر وتكيجك وحائل». (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٩).

كان موسم الحج يعود بفوائد على الشمريين الذين يعرضون جمالهم ليستأجرها الحجاج وسيلة نقل. وكانت معرفتهم بالطرق الصحراوية ومواضع الآبار

تعني أن الحجاج الأجانب كانوا يسعون إليهم ليكونوا مرافقين وأدلاء لهم. وكان الشمّريون يسافرون مع قوافل الحج العائدة إلى العراق لشراء الرز والقمح. وعلقت بلنت بقولها «انهم يواصلون بعد ذلك مع قوافل الحج حتى مشهد علي أو ربما إلى السماوة على نهر الفرات لشراء الرز (التِّمّن) والقمح. فإن قبائل جبل شمّر لا تستطيع الاتصال مع العالم الخارجي إلا مرتين في العام، بمناسبة رحلتي الحج». (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨: ٤٠ الجزء الثاني). وكانت مشاركة شمّر في قوافل الحج تستكمل اقتصادها الرعوي وتساهم في تنويع مواردها الاقتصادية.

وعلى الغرار نفسه أفاد سكان حائل الحضر، وخاصة التجار، من تحول قوافل الحج إلى حائل. إذ كان الحجاج يجلبون معهم بضائع مختلفة كانوا مستعدين لبيعها أو مقايضتها بخدمات يحتاجونها لرحلتهم إلى الحجاز.

وإذ كانوا يخيمون بضعة أيام قرب حائل، كانوا يرتادون السوق ويجرون مبادلاتهم الاقتصادية ويستأجرون الجمال ويبتاعون الأغذية. وكان أمراء آل الرشيد يؤخرون رحيل القوافل ليمضي الحجاج وقتاً أطول في بيع وشراء منتجات مختلفة. وبما أن الحجاج لم يكن مسموحاً لهم السفر دون موافقة الأمير التي تضمن سلامتهم وحمايتهم، لم يكن لديهم من خيار سوى الانتظار في حائل.

كان الأمراء يشرفون على قوافل الحج بتعيين قائد لكل قافلة. وكان بيرقهم يُرفع مع القافلة، في اشارة إلى أن القافلة تحت حمايتهم. كما كان الأمراء يعينون قوة من الشرطة يركب أفرادها على الجمال لحماية الحجاج والتدخل في حالة وقوع أعمال عنف. وكانت المهمة الرئيسية لهذه القوة حماية الحجاج من هجمات القبائل المخيِّمة على امتداد طريق الحج. إذ كانت الغارات على القوافل ونهب ممتلكاتها مصدر دخل هاماً لمجموعات مثل قبيلة حرب التي كانت أرضها تقع بين حائل والمدينة المنورة. وكان الأمراء يجبون مقابل الحماية رسماً من الحجاج. ويزعم موسيل:

«كان على كل واحد من الحجاج الذين يبلغ عددهم أحياناً عشرة آلاف حاج، أن يدفع عن الماء وعن جماله ثلاثين مجيدية (٢٥ دولاراً) في الذهاب وخمس عشرة مجيدية في رحلة الأياب. يضاف إلى ذلك أن قسماً من كل البضائع التي يستوردها أو ينقلها الحجاج كان يُؤخذ كرسم. وبهذه الطريقة كان محمد لا يزيد ازدهار العائلة الحاكمة فحسب بل وازدهار الحضر الذين يعملون تجاراً والبدو الذين اعتادوا تأجير إبلهم للقوافل».

(أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨: ٢٣٩).

كانت الضريبة المفروضة على القوافل تتغير من عام إلى آخر حسب أمن الطرق وحاجات الأمير وعدد الحجاج المسافرين. ويذكر ليشمان Leachman أنه خلال زيارته مضارب ابن رشيد في عام ١٩٠٩ كان ابن رشيد لا يأخذ إلا ٢½ ليرة (٤٥ شلناً) من كل حاج و١٧ ريالاً (٥١ شلناً) عن تأجير كل جمل (غ. أ. ليشمان G.E. Leachman، ١٩١٠: ٢٦٥ ـ ٢٧٤ الجزء ٣٧). وكان هذا الرسم المستحصل من الحجاج، مع الضريبة المجْبية من التجارة، يحقق دخلاً كبيراً للأمراء. وكانوا قادرين على زيادة عائداتهم أكثر من خلال نظام «الخوة».

الإتاوة: نظام الخوة

تسمية «الخوَّة» مشتقة من جذر كلمة «أخ». وفي هذا السياق تُترجم بوصفها إتاوة للاشارة إلى جزيات تُؤخذ أحياناً أو بصورة منتظمة من قبائل مقهورة. وتُعرف الإتاوة بأنها ضريبة تُفرض لا على جماعة الجابي بل على جماعة غريبة مقهورة تبقى مستقلة بهذا القدر أو ذاك (أ. بيرشيتس A. Pershits ١٩٧٩: ١٤٩ ـ ١٥٦ و١٩٦٦). وتقليدياً كانت قبائل قوية من قبائل رعي الابل في الجزيرة العربية مثل شمّر وروالة تفرض على المجموعات الأضعف، وهي عادة من رعاة الغنم والماعز ومن رعاة إبل اعتراهم الضعف، إتاوة تُدفع نقداً أو عيناً كأن تكون أغناماً ومنتجات ألبان وزبدة مصفاة. وكانت هذه الاتاوة صيغة اقتصادية ذات مغزى اجتماعي وسياسي. إذ كان دفع «الخوَّة» يرمز إلى صيغة بين طرفين غير متكافئين تربطهما علاقة أخوية. ومقابل التسديد يُكفَل للدافعين عدد من الحقوق. **فأولاً**، حين يكون الدافعون رعاة غنم أو ماعز يحق لهم نصب خيامهم في أراضي قبيلة المتلقين. ويكتسبون حقوقاً للمشاركة في استخدام مراعي وآبار متلقي «الخوة»، ومن هنا وظيفة النظام الاقتصادية.

ثانياً، كانت الصفقة الاقتصادية التي تُعقد لدى التسديد، تمتد إلى تغطية الالتزام بحماية الطرف الأضعف في العلاقة والدفاع عنه. ويُنْتَظر من المتلقين أن يقوموا بدور الحماة الذين يقع على عاتقهم التزام بالسهر على مصلحة دافعي الخوة. وهكذا كان النظام يغذي نشوء التزامات وحقوق توجد عادة نتيجة قرابة وأصل قبلي. وبالتالي كانت «الخوَّة» تقيم علاقات اجتماعية وسياسية كانت خلاف ذلك

تنبثق من تنظيم اجتماعي تقليدي.

يضاف إلى ذلك أن «الخوَّة» كانت شكلاً من أشكال الشراكة يربط بين السكان البدو وسكان الواحات والمدن الحضر. وفي جبل شمّر كانت الواحات محاطة بالمنطقة الصحراوية المأهولة ببدو كانوا، بسبب حراكهم وتفوقهم العسكري، قادرين على السيطرة على كل الطرق المؤدية إلى الواحات والقرى. وكان السكان الحضر يدفعون «الخوَّة» إلى رعاة الإبل مقابل حماية أسواقهم وممتلكاتهم وحقولهم. وكان هذا يؤمن أيضاً بقاء طرق التجارة والقوافل المؤدية إلى الواحات آمنة ومفتوحة ومحصنة ضد هجمات البدو المحيطين. وكان سكان الواحات يعطون إلى البدو حصة من محصولهم الزراعي، تكون تموراً بالدرجة الرئيسية، مقابل الحماية ضد هجمات كثيراً ما يشنها المتلقون أنفسهم أو مجموعات بدوية أخرى. ونتيجة لذلك كان هذا يضمن ارتباط البدو وسكان الواحات في نظام تبادل عضوي على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. إذ كان البدو بحاجة إلى منتوج الواحات الزراعي وإلى البضائع الموجودة في أسواقها. وبالقدر نفسه كان سكان الواحات يعتمدون على البدو في إمدادهم باللحوم والأصواف وغير ذلك من المنتجات الحيوانية. وفي المقام الأول كان على سكان الواحات أن يقيموا علاقات طيبة مع البدو القادرين على قطع كل خطوط الإمداد والطرق التجارية المؤدية إلى الواحات، ونهب الواحات وتخريب مزارع نخيلهم وتدمير مصادر رزقهم. لذا كانت «الخوَّة» عربون تأمين يُدفع لتعزيز التعايش السلمي بين السكان البدو والحضر[٤].

وحين بسط أمراء آل الرشيد سيطرتهم على حائل في عام ١٨٣٦، ظل هذا النظام ساري المفعول. وأخضع توسعهم أبعد من حائل وجبل شمّر في القرن التاسع عشر تحت سيطرتهم سكاناً من البدو والحضر ذوي الأصل القبلي غير الشمري. وسواء وضعت هذه المجموعات نفسها طواعية تحت حماية الأمراء أو أُجبرت على الوقوع تحت هيمنتهم، فإنها أصبحت ترفد الأمراء بما تدفعه من «خوَّة». وكانت غالبية الجماعة البدوية الدافعة للخوَّة تتألف من رعاة غنم أو ماعز ورعاة إبل مستضعفين طُرِدوا من خيرة المناطق المنتجة لتربية الإبل إلى مناطق أدنى نوعية أو مناطق هامشية (هـ. روزنفيلد H. Rosenfield ١٩٦٥ : ٧٦ وغلوب ١٩٣٥ : ١٤). وكان مَنْ يدفعون «الخوة» يُسمح لهم باستخدام مراعي شمّر. وفي

القرن التاسع عشر كان البدو الذين يدفعون «الخوة» يتألفون من بني وهّاب والفجير وبشر وأولاد علي بالاضافة إلى عشائر من قبيلتي هتيم وشرارات. (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٣٥ الجزء الثاني). وكان هؤلاء يتمتعون بالحماية ضد هجمات قبائل قوية أخرى في المنطقة. وكان الأمراء ملزمين بإعادة ما يُسرق من ممتلكاتهم وإبلهم إذا تعرضوا إلى هجوم.

بالاضافة إلى القبائل البدوية أصبح سكان الواحات أيضاً ـ من تجار وحرفيين ومزارعين ـ دافعي «خوّة» إلى أمراء حائل. وكان دفع هذه «الخوّة» يضمن أمن السوق وطرق التجارة والأراضي الزراعية. ومقابل «الخوة» كان الأمراء يقومون بدور الشرطة لأنهم كانوا يردعون أعمال السرقة والسطو. وقد امتدت حماية الأمراء إلى واحات الجوف وخيبر وتيماء. وخلال حكم محمد بن رشيد أصبحت حتى تدمر في الصحراء السورية تدفع «الخوة».

كان دفع «الخوة» يُنظَّم نقداً أو بمنتوج زراعي أو بحيوانات. وحرص الأمراء على تحديد مقدار الاتاوة على النحو الآتي: ¼ دولار من دولارات ماريا تيريزا عن كل جمل والاعفاء عن الدفع إذا كان العدد يقل عن عشرة جمال، و¼ ليرة عثمانية عن كل ٤٠ رأساً من رؤوس الغنم والاعفاء عن الدفع إذا كان العدد يقل عن أربعين رأساً. وفيما يتعلق بمَنْ يدفعون الاتاوة من المزارعين فقد كانت تبلغ ٥ في المئة من المحصول الزراعي، بما فيه التمور (سجلات مكتب الهند IOR, R/15/ 15/25). وكانت الاتاوة التي تُجبى من الواحات تزيد على الاتاوة التي تجبى من البدو. ويزعم دوتي «أن عبء المساهمة العامة للأمير يُفرض في المستوطنات على محاصيل الفاكهة والتمور. . . . حوالي جنيه استرليني من كل رأس، وبين البدو. . . . حوالي جنيه استرليني عن ثمانية أو عشرة أشخاص». (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٣٤ ـ ٣٥ الجزء الثاني).

وقُدِّر دخل الأمير من الاتاوة بأربعين ألف جنيه استرليني في عام ١٨٧٦ وستين ألف جنيه استرليني في عام ١٨٨٨ (المصدر السابق وآ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨: ٢٦٧). والجدير بالملاحظة أن المجموعات التي تدفع الاتاوة لم تكن ثابتة على مر الزمن. فإن قبائل بدوية مختلفة وسكان واحات مختلفين أُجبروا على الدخول في علاقات «خوة» مع حائل فيما خُسر آخرون لمراكز قوى منافسة مجاورة. وكانت جباية الاتاوة تعتمد على قدرة الأمراء العسكرية. ومع انحسار هيمنتهم في القرن

العشرين، فقدوا سيطرتهم على واحة الجوف التي حوَّلت ولاءها إلى آل الشعلان، أمراء قبيلة الروالة. (عن الشعلان انظر أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨، وو. لانكستر ١٩٨١ و I0R R/15/15/25). ويصف روزنفيلد هذه الصلة المتبادلة بين نظام «الخوة» والهيمنة العسكرية: «أن القوة الأكبر تعني إتاوات أكثر وازدياد المجموعات التي تدفع الاتاوة وشرفاً أعظم، والقوة الأقل تعني قدرة أضعف على قبض الاتاوة واعترافاً أدنى، وإذ تصبح المجموعة نفسها دافعة إتاوة، فإنها تعني تراجعاً تدريجياً على سُلَّم الشرف» (هـ. روزنفيلد H. Rosenfeld ١٩٦٥ : ٧٩).

ويجادل روزنفيلد قائلاً إن امارة آل الرشيد دولة تجارية في جوهرها، دولة إتاوية في العلاقة مع محيطها. وهو يزعم أن دافعي الاتاوة تُرِكوا دون مساس بهياكلهم الاجتماعية ـ هياكل كانت في احيان كثيرة لا تختلف عن الهيكل الاجتماعي للمتسيدين عليهم (المصدر السابق ١٨٣ ـ ١٨٤). بكلمات أخرى، في الوقت الذي كانت الفئة الحاكمة تصون مصالحها الاقتصادية، كان رعاياها يبقون إما بدواً أو زراعيين في الواحات. ولم تُبذل محاولة لتحقيق التكامل الاقتصادي.

يمكن توجيه ثلاثة انتقادات وتنقيحات لمحاجّات روزنفيلد. **الأول** يتعلق بطرحه القائل إن زيادة ما يدفع من اتاوات يتناسب طردياً مع الزيادة في القوة. وكان هذا صحيحاً جداً في حائل ولكن ما له أبلغ الأهمية أن الزيادة في القوة كانت تؤدي إلى تغيير في معنى «الخوة». ومع توطيد سلطة آل الرشيد فَقَدت علاقات «الخوَّة» تدريجياً دلالتها «الأخوية». وحال توسع مُلك آل الرشيد دون الحفاظ على التفاعل وجهاً لوجه بين دافع «الخوة» ومتلقيها، لا سيما العلاقة بين «الأخ» الذي يشمل الأول بحمايته ويدافع عن مصالحه[٦]. إذ كان «الأخ» يلعب دور المحامي عن الطرف الضعيف بين مجموعته القبلية. وكان ملزماً بأن يعيد إلى دافعي «الخوة» أي ممتلكات سرقها رجال قبيلته منهم. (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٦٠). ومع صعود هيمنة آل الرشيد بدأت «الخوة» تعني صفقة اقتصادية ترمز إلى علاقات تسيد سياسي بدلاً من علاقات ذات طبيعة أخوية. إذ لم يكن الأمراء ينتظرون من المجموعات الأضعف أن تضع نفسها طواعية تحت حمايتهم، بل كانوا يفرضون «الخوة» على المجموعات الأخرى، بما فيها السكان البدو والحضر.

ثانياً، ان مزاعم روزنفيلد بأنه لم يكن هناك تكامل اجتماعي واقتصادي بين الأمراء ورعاياهم البدو والحضر تحتاج إلى اشتراط. إذ كان يجري الحفاظ على

التكامل الاجتماعي، كما سنبين في الفصل السابع، من خلال ممارسات الأمراء في الزواج. فحين كان هؤلاء الأخيرون يتصاهرون مع العوائل الرئاسية الشمّرية البدوية، كانوا يقيمون صلات قرابية واجتماعية وسياسية مع أراضي العمق. وفيما يتعلق بالتكامل الاقتصادي، فإن الجماعات الحضرية والبدوية كانت لها، كما جرى بحثه سابقاً، مصلحة في الحفاظ على هيكل السلطة في حائل لأنها كانت مشاركة في اقتصاد القوافل.

ثالثاً، ان جزءاً من الاتاوة التي يجبيها الأمراء كان يعاد توزيعه على رعاياهم بشكل دعومات لشيوخ العشائر وهدايا وولائم يومية لضيوفهم. وكان الأمراء ورعاياهم على السواء يتقيدون تقيداً شديداً بالتزام تقاسم عائدات «الخوة». وكانت أهمية صيت الحاكم بالكرم والعطف تقوم بدور الكابح على مراكمة ثروة. وكان على الأمراء، لكي يحافظوا على مركزهم حكاماً شرعيين، أن يجزلوا العطاء لاتباعهم ويرفهوا عنهم في حائل ويقدموا لهم خدمات مختلفة. وكانت اعادة توزيع الثروة تجري من خلال مأسَسة الكرم. وقد واصل الأمراء تقليد الوجبات اليومية التي تقدم لمن يحضرون مجلسهم ويعبرون عن ولائهم. (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨: ٢٦٨ الجزء الأول، وش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٣٥ الجزء الثاني). وكان هذا يزيد شعبيتهم بنظر رعاياهم. وكانت هذه السياسية تنسجم مع توقعات الشمريين التي تنعكس في قولهم «الأمير سيف ومنسف». بكلمات أخرى، أن الأمير الحقيقي هو القوي عسكرياً والقادر على العطاء بكرم.

وكانت أشكال الدعم من الأمراء إلى عشائر شمّر وغيرها من العشائر غير الشمرية، وسيلة أخرى يعاد بها توزيع الثروة. وكانت هذه الدعومات تتألف من هبات نقدية إلى أفراد من رجال القبائل وشيوخهم فضلاً عن التمور والرز والحبوب والأسلحة وما إلى ذلك. وكان الشيوخ يزورون حائل بنيّة طلب المعونة، في غالب الأحيان خلال فترات الجفاف والكوارث الطبيعية والغارات التي كانت تستنزف بشدة قطعان البدو. وبغية الحفاظ على معيشتها كانت شمّر تعتمد على هبات من الأمراء. وكان الأمراء يدركون أن التخلف عن توفير أشكال الدعم هذه سيهدد مشروعيتهم. فلقد كانت الدعومات تضمن ولاء شمّر والمجموعات غير الشمّرية الأخرى غير المستعدة لتقديم ولائها بلا مقابل.

كان نظام الدعم يعمل كآلية لتداول الثروة بما يؤمن ولاء الرعايا. ونتيجة

لذلك لم يكن الأمراء وحدهم الذين يفيدون من العائدات المتحققة من الاقتصاد التجاري بل ومعهم رعاياهم البدو أيضاً. لذلك ليس من الصحيح الحديث عن غياب التكامل الاقتصادي بين الفئتين.

ولكن البدو إذ بقوا أقوياء عسكرياً، كانوا يتحدون سلطة الأمراء من حين إلى آخر. وعلى سبيل المثال، أن قبيلة حرب دافعة الاتاوة التي كانت أرضها تقع بين حائل والمدينة، استمرت في الاغارة على قوافل التجارة والحجاج التي وضعت نفسها تحت حماية الأمراء. فرغم التكامل الاقتصادي والاجتماعي بين مركز حائل وأطرافها البدوية، لم يكن هناك تكامل عسكري حقيقي. ولم يكن الأمراء يحتكرون وسائل الإكراه لأنه كان من الصعب تحطيم القوة العسكرية للعشائر البدوية(٧). وكانت سطوة القبائل العسكرية تُحيَّد أحياناً من خلال أشكال من الدعم والغارات التي كان الأمراء يشنونها في أحيان كثيرة على القبائل العاصية وغير الموالية.

خلاصة القول، أن صعود أمراء آل رشيد إلى السلطة وتوسعهم ساهما في سيطرتهم على قوافل التجارة والحجاج، وأتاحا لهم إمكانية السيطرة على قاعدة أوسع تتألف من سكان حضر وبدو يدفعون الاتاوة. وكان هذا يحقق لهم عائدات كبيرة يوظفونها في دعم المجموعات القبلية وزيادة ما لديهم من وسائل إكراه. وكانت العلاقة المتبادلة بين القوة العسكرية والقوة الاقتصادية عملية دورية. فقد كان العاملان، القوة والاتاوة، يعتمدان اعتماداً متبادلاً أحدهما على الآخر. وكان تغير عامل يؤثر تلقائياً في العامل الآخر. وكلما زادت قوة الأمراء، زادت قدرتهم على جباية الاتاوات. وبالقدر نفسه، كانت زيادة الاتاوات تعني قوى أكبر. وكان معكوس الدورة ممكناً كذلك. فإن نقص القوة العسكرية يعني غياب السيطرة الفعالة على التجارة والحجاج والرعايا، وبالتالي اتاوات أقل. وأي تناقص في الاتاوات يعني دعومات أقل وولاء أقل، وقدرة أضعف على الاستثمار في وسائل الإكراه. ونتيجة لذلك كان من المحتم أن تتأثر سلطة الأمير وأن تميل إلى التناقص.

كان اقتصاد القوافل عاملاً هاماً في تعزيز زعامة الأمراء ومواصلة تمركز سلطاتهم. وحالة آل رشيد ليست فريدة من هذه الناحية. فقد لاحظ لاكوست Lacoste، في تعليقه على عمل ابن خلدون، دور الطرق التجارية، وخاصة «طريق الذهب»، في اقامة سلطة مركزية في المغرب. (لاكوست Lacoste ١٩٦٦). يضاف إلى ذلك أن المنطقة الواقعة بين دمشق والرياض شهدت ظهور السلالات القوية

الثلاث في الجزيرة العربية، وهي الروالة (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٧، وو. لانكستر ١٩٨١) وآل الرشيد وآل سعود (ر. وايندر R. Winder ١٩٦٥). اذ كانت التجارة توفر فائضاً يضمن التحكم بغارات القبائل وإيجاد بديل من هذه الغارات. ونتيجة لذلك ظهرت زعامة سياسية وطيدة على محور دمشق ـ الرياض، ووفرت الوسائل لضمان سلامة الطرق التجارية بممارسة سيطرة مباشرة على القبائل ورؤسائها أو برشوة شيوخ العشائر لاحتواء سطوتهم العسكرية في الصحراء.

الفئات ذات المكانة والتقسيم المراتبي

كان من السمات البارزة لجبل شمّر، باستثناء حائل، تجانس السكان الاثني واللغوي. فإن طابع الفئات ذات المكانة لم يكن يتحدد على أساس الاثنية أو اللغة. بل كان الفارق المتمثل في «البدو في مواجهة الحضر» دائماً المحور الذي يقسم السكان إلى فئتين متميزتين ولكن ليس بالضرورة منعزلتين. وجرى سابقاً في هذا الكتاب تبيان أن سكان المنطقة الحضر والبدو كانوا دائماً منخرطين في تفاعل اجتماعي واقتصادي وسياسي مكثف.

مع ذلك كوّن البدو والحضر على السواء هوياتهم وصورهم الذاتية المتميزة. ودراسة التصورات الذاتية المحلية في القرن التاسع عشر والطريقة التي حافظت بها الفئتان على انفصالهما تتطلب مصادر معلومات متنوعة. ولهذا الغرض أستخدمُ أدب الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر الذين أتيحت لهم فرصة الاحتكاك بالفئتين وتوثيق بعض القيم والخصائص والصور الذاتية والتصورات المحلية لأفراد الفئتين عن أنفسهم وعن الآخرين[٨]. وأعتمد، بالاضافة إلى ذلك، على شعر شمّر وأمرائها النبطي الذي ما زال يُحفظ ويغنى والذي يصفون فيه أنفسهم ويصورون قيمهم وشمائلهم. وهذان المصدران ينبغي أن يجليا معنى أن يكون الأفراد بدواً أو حضراً ولماذا يستحضرون هويات كهذه ومدى الوجاهة في التشديد على أي فئة ينتمي إليها المرء خلال فترة المركزية السياسية التي تحققها مجموعة حاكمة مقيمة في بيئة حضرية لكنها تدعي أصولاً بدوية. بكلمات أخرى أن التمييز يعتبر عنصراً مكوناً من عناصر الاطار التاريخي الذي يُستحضر فيه. وقد كان هذا التمييز كامناً في علاقات اللامساواة ذات الصلة بالموقع والأصل والصفات والقوة. ونتيجة لذلك لم يكن مجرد آلية للتقسيم الفئوي الذي يستخدمه السكان المحليون للحفاظ على انفصالهم وخصوصيتهم. كما أنه ذو صلة بفهمنا الانثروبولوجي للعلاقة

المتبادلة بين الهوية والصورة الذاتية من جهة، والتاريخ والسلطة والهيمنة العسكرية من الجهة الأخرى. وحين يؤكد الأفراد هويتهم البدوية وأصلهم البدوي فإنهم يطلقون ادعاءات سياسية تضعهم في موقع متفوق على موقع الحضر. ومن دون هذه الدعاوى بالتفوق سيكون التمييز لاغياً ولا صلة له بدراسة العلاقات الاجتماعية والسياسية.

البدو

من التبسيط ترجمة مصطلح «بدو» على أنهم رحل رعويون لأن الكلمة تنطوي على شيء أكثر من رعي الحيوانات والترحال والتنقل. ورغم أن الترحال عنصر أساسي من العناصر المكونة لمفهوم «البدو» فإنه لم يكن العامل المحدِّد الذي يجيز تصنيف فئة من الفئات. ويمكن الجدال بأنه في سياق الجزيرة العربية كان جميع رعاة الحيوانات من البدو ولكن ليس جميع البدو من الرحل الرعويين. وكان هذا يصح على القرن التاسع عشر وما زال يصح في القرن العشرين (أُ. فابييتي U. Fabietti ١٩٨٤، ور. فيرني R. Fernea ١٩٨٥ وو. لانكستر W. Lancaster ١٩٨١). وبالإمكان تصنيف جماعات على أنها بدو حتى وان لم تعد رعاة حيوانات. وفي القرن التاسع عشر كانت العشائر الشمّرية التي أقامت في حائل والقرى الأخرى في جبل شمّر فيما تركت قطعانها مع أقاربها في الصحراء، تعتبر نفسها ويعتبرها الآخرون من البدو. وقد وصف والن تلك العشائر الشمّرية التي سكنت جُبَّة، الواحة الواقعة في صحراء النفود الكبرى: «ان نمط المعيشة هو نمط معيشة البدو الرحل نفسه تماماً سوى أنهم يسكنون في منازل وبيوت ثابتة. فغالبيتهم يملكون قطعاناً كبيرة من الإبل التي ينيطون مسؤوليتها بأشقائهم البدو أو يرسلونها مع رعاتهم في أراضي الرعي بجوار قريتهم». (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤: ١٦٣).

أن يكون المرء حضرياً لا يعني بالضرورة فقدان الهوية والقيم البدوية. وفي الحقيقة أن بعض «البدو المتوطنين» كانوا مشهورين بتفوقهم العسكري الذي يفوق قوة أشقائهم في الصحراء: «على النقيض من سكان قرى صحراوية أخرى، يعتبر أهل المدن الشمّريون متفوقين على أشقائهم البدو في الشجاعة وفن استخدام السلاح. ولا ريب في أن عائلة ابن الرشيد الرئاسية تدين لهم أكثر مما تدين للبدو الرحل بالانتصارات التي حققتها على كل جيرانها» (المصدر السابق: ١٧٨). ورغم أن هذه العشائر المتوطنة لم تعد تمارس رعي الإبل فقد استمرت في امتلاك جمال

واعتماد قيم البدو وطرق حياتهم. وأضاف والن «اننا نجد القرويين ما زالوا متمسكين، لدرجة معينة، بعادات وأساليب الحياة البدوية في حين أن البدو، من الجهة الأخرى، يمارسون أعمالاً تعتبر على العموم أعمالاً غير لائقة». (المصدر السابق: ١٩٨).

كانت تسمية «البدو» تشير إلى فئة ثقافية تضم البدو الرعويين والمتوطنين على السواء. وكان هؤلاء وأولئك على السواء يشتركون في منظومة من الصور عن أنفسهم فيما يتعلق بأصلهم القبلي وقيمهم وخصائصهم وصفاتهم. وكثيراً ما تكون للبدو أنساب مفصَّلة تحدد أسلافهم وأصولهم التي يُودِعونها في ماض بعيد. وكانت هذه الأنساب ايديولوجيات أصل تُستحضر لتبرير مكانتهم الرفيعة نتيجة صلاتهم بقبائل عربية قديمة. فقد كانوا يشددون على أصلهم ونقاء نَسَبهم غير الملوث باحتكاكات ومصاهرات مع غرباء. ولديهم في شعرهم النبطي صور عن أنفسهم كعرب أقحاح ذوي أصول ممكنة الاقتفاء وغير مختَلَطة، وهو رصيد يضمن التفوق ازاء الفئات الأخرى، وخاصة الحضر ـ الذين كانوا يعدُّون بأنهم فقدوا نقاء الأصل أو ليس لهم أصل نبيل بالمرة. يضاف إلى ذلك أن البدو يتمسكون بمجموعة من القيم فيما يتعلق بنمط الحياة المثالي. إذ أنهم يحتقرون التخصص المهني ويعتبرون أي نشاطات غير رعي الحيوانات والغزوات نشاطات مهينة ومعيبة. وكانوا ينظرون إلى المزارعين والحرفيين على أنهم وضيعون وخانعون وضعفاء. وكان البدو يزعمون أن هذه النشاطات تجلب العار والذل والاستكانة لمن يزاولها. ولكن البدوي الحقيقي شخص قادر على رفع مكانته المنسوبة، أي أصله النبيل، من خلال التحلي بطائفة من الصفات الحميدة. وامتلاك الأصل من دون هذه الصفات المتحققة سيضع الأفراد والجماعات، في الحال، خارج فئة البدو.

كان البدو يعتزون باستقلالهم ويكرهون الخضوع لسلطة أعلى. ورغم اعترافهم بسلطة شيوخهم فإنهم لا يعتبرونها سلطة ظالمة أو مُلزِمة أو تقتضي اذعاناً كاملاً. وكان يُعتقد أن هذه الشروط تصف العلاقة بين الحضر وزعامتهم، حيث يُعتقد أن الحضر فقدوا استقلالهم نتيجة قرون من الهيمنة.

وتشمل جوانب أخرى من قيم البداوة تلك المتعلقة بالضيافة والدفاع عن الضعيف، والبلاغة. فالبدو يعتبرون أنفسهم كرماء وقادرين على الضيافة ـ إلى حد التضحية بدوابهم الوحيدة لتكريم الضيف. كما أنهم يذهبون إلى أن البدوي الكريم

يمكن أن يُعرف بالدخان المتصاعد من خيمته نتيجة تحضيرات الطعام المتواصلة لضيوفه. وأنه دائماً يساعد الفقراء ويؤويهم ويقدم حمايته إلى كل مَنْ يطلبها. ولن يتردد في القتال نيابة عن ضيوفه وأصحابه إذا تعرض هؤلاء إلى الهجوم في «حِماه» (المنطقة الواقعة ضمن دائرة نفوذه). ويعتقد البدو أنهم ينطقون بلغة نقية لم يلوثها الاحتكاك بالغرباء وغير العرب، وهي صفة فقدها الحضر. وهم يعتقدون أن البلاغة تنعكس في قدرتهم على نظم القصائد التي تُحفظ فيها ذكرياتهم ومآثرهم ومعاركهم[٩]. هذه هي الصور التي يحملها البدو عن أنفسهم.

وفي اطار فئة «البدو» يمكن ملاحظة فوارق داخلية أخرى. فهناك البدو الأصيلون، وهم فئة تتألف من رعاة الإبل مثل رجال قبائل شمّر وعنزة والضفير وحرب. وكان أصلهم النبيل، مرتبطاً بالتفوق العسكري الذي تضمنه جمالهم في الغارات والمعارك القبلية، يمنحهم أعلى مكانة في تراتبية المواقع. ورعاة الغنم والماعز أيضاً بدو ولكن من فئة أدنى من فئة البدو الأصيلين لأنهم يفتقرون إلى وسائل اثبات تفوقهم العسكري في الصحراء. وكثيراً ما يضع رعاة الغنم والماعز أنفسهم تحت حماية رعاة الإبل الأقوياء، وهي اشارة تعكس الافتقار إلى القوة وفقدان الاستقلال. ونتيجة لذلك كانوا عاجزين عن ابداء صفات معينة مثل الشهامة والبسالة والشجاعة.

وكان الاختلاف داخل الفئات البدوية يعتمد اعتماداً قليلاً على الثروة المادية واعتماداً كبيراً على أرصدة وصفات غير مادية. وكان هذا واضحاً في أنماط الزواج لدى البدو الأصيلين. فإن من المشرِّف دائماً أن تُزوَّج البنت إلى بدوي فقير لكنه أصيل على أن تُعطى البنت زوجةً لراعي أغنام ثري أو لتاجر ناجح أو مزارع من المدن والواحات. وكان من المفضَّل أيضاً أن يتزوج الابن امرأة بدوية من المجموعة نفسها أو من مجموعات مكافئة يمكن أن تُضمن معها مساواة الأصل والمكانة. وقد تحدث مونتان عن آراء شمّر حول رفض الزيجات مع قبائل مثل الشرارات أو الحويطات تعتبرها شمّر غير متساوية:

«كان يستحيل لامرأة من شمّر أن تتزوج رجلاً من هذه القبائل ينتمي إلى عامة الناس، المعروفين بـ «عوج الدخان»، لأننا لن نرى دخاناً من خيمهم يعبر عن تحضيرات كبيرة لاستقبال ضيف مكرم». (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢: ٧٤).

وكان في قعر المجتمع البدوي «الصلب» ـ وهم غالباً ما يكونون صيادي غزلان ونعامات ويُعتقد أنهم ليسوا ذوي أصل قبلي معروف. وهم لا يشاركون أبداً في الغزوات والحروب القبلية. ولا تعتبر القبائل القوية التي ترعى الإبل أن ممتلكاتهم وأمتعتهم تستحق النهب لأن هذا لن يشكل نشاطاً يشرِّف مَنْ يمارسونه. وبالاضافة إلى الصيد كان «الصلب» يصنعون السلال والأدوات المنزلية. وكانوا أيضاً أدلاء ومرافقي سفر (هـ.ر.ب. دكسن H.R.P. Dickson، ١٩٥١). وكانوا معروفين بدماثتهم ونساؤهم مشهورات بكونهن أحلى النساء في كل الصحراء. وعلق هوبر قائلاً إن العرب يعتبرونهم عِرقاً متدنياً: «ليس هناك تزاوج بينهم وبين القبائل العربية الأخرى. وهم بلا دين ولغتهم تفتقر إلى الصيغ المقدسة التي تستخدمها العربية بغزارة.... وهم يعانون من السمعة المقيتة بكونهم يأكلون دم الحيوانات مع اللحم الميت، ويأكلون الكلاب». (ش. هوبر في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣ : ٤٣٤). وكانت هذه الآراء الخرافية أو الحقيقية تؤكد موقع الصلب المتدني.

كانت شمّر تعتبر بدواً أصيلين مثل عنزة وضفير وقحطان وغيرهم أنداداً لها. وكان هؤلاء إما حلفاء مع شمّر ويتمتعون بعلاقات طيبة معها، أو أعداء كان اندلاع أعمال العنف والمناوشات كثير الحدوث معهم. وكانت شمّر تدخل في علاقات تحالف مع قبائل بدوية متساوية أخرى مشكِّلة قبائل «الحلف» ـ مجموعة كانت أحياناً تضم قبائل حرب والمنتفق وضفير. ولكن قبائل «الحلف» لم تكن تؤلف فئة ثابتة لأن الطبيعة المتقلبة للعلاقات السياسية بين القبائل كانت تبيح للقبائل أن تدخل في علاقات تحالف مع قبائل أخرى متى ما كان هذا يناسبها وتختار الانسحاب من هذه الاتفاقات الملزِمة حين تتناقض مع مصالحها.

وكان أمراء حائل من آل الرشيد، بوصفهم متحدرين من حمولة جعفر الشمرية، يتبوأون مكانة رفيعة بنظر قبيلتهم وتعترف بهم مجموعات أخرى غير شمّرية كجزء من نبلاء البدو. وقد منحهم هذا صدقية بين القبائل. ورغم توطن الأمراء في حائل فقد كانوا يمثلون نخبة بدوية حضرية تمكنت من الحفاظ على صلاتها الثقافية مع أبناء عمومتها الصحراويين. وسبقت توطنهم أعمال غزو والقدرة على اثبات تسيدهم العسكري وشهامتهم، الأمر الذي عزز صدقيتهم ورفع مكانتهم. وقد استمروا في ارتداء اللباس البدوي ومصاهرة عوائل بدوية واعتماد

القيم البدوية في البسالة والضيافة والشجاعة والبلاغة. وكانوا أحياناً يغادرون محل اقامتهم في حائل ويخيمون بين رجال قبيلتهم البدو في الصحراء حيث كانوا يعدون العدة لشن غزوات ويناقشون تحالفات المستقبل ويثبتون تفوقهم العسكري. فعلى مستوى الصورة الذاتية كان أمراء آل رشيد يعتبرون أنفسهم من زعماء البدو.

ولكن فوارق في الثروة بدأت تظهر بينهم وبين زعماء البدو الاعتياديين. فإن دخلهم لم يكن يعتمد حصراً على موارد محلية وكانت عائداتهم تتحقق من ملكية الأرض (مزارع النخيل وبساتين الفاكهة) ملكية خاصة في حائل وواحات أخرى مثل الجوف، ومن التجارة والاتاوة المستحصلة من سكان بدو وحضر وأشكال دعم من الحكومات المركزية (الأمبراطورية العثمانية بالدرجة الرئيسية). وعلى النقيض من ذلك، نادراً ما كانت لرجال قبيلة شمّر الاعتياديين حقوق فردية في الأرض، ولم يكن يملك أرضاً ومزارع نخيل في الواحات إلا قلة من الشيوخ. وكانت عائدات شمّر تعتمد اعتماداً كبيراً على الانتاج الرعوي مستكمَلاً بدعومات من الأمراء وعلاقات تجارية مع المدن والقوافل.

كانت عائدات الأمراء تخضع لسيطرتهم الكاملة من خلال «وزراء» ماليتهم. وكانت الثروة المتراكمة في قصر برزان تتبدى بطرق مختلفة. وقد علق يوتنغ على ثروة الأمير:

«كان كنز ابن رشيد يُحفظ في قلعته ويتألف بالدرجة الرئيسية من قطع ذهبية تركية وإنكليزية تساوي بين $1\frac{1}{2}$ ـ ٢ مليون جنيه استرليني، وهو مبلغ كبير جداً، وخاصة حين يكون نقداً، في الجزيرة العربية. ولستُ متأكداً، بالطبع، ما إذا كان هذا صحيحاً ولكنه ممكن تماماً لأن ابن رشيد على جانب كبير من الثراء ويمكن أن يقدر المرء أنه بعد اقتطاع مصروفاته يكون هناك دخل سنوي فائض قدره زهاء ٦٠ ألف إلى ٧٥ ألف جنيه استرليني». (ج. يوتنغ في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣: ٦١٧).

كانت هذه الثروة تُنفق على الحملات العسكرية والمحاربين والعبيد ووجبات يومية لأكثر من ٣٠٠ شخص وعلى الخيل وأشكال الدعم التي تقدم لشيوخ العشائر. وقدر دوتي مصروفات الأمير:

«ان نفقات الحكم الاعتيادية على خدمة القلعة وإدامة الفرق المسلحة وسائسي اسطبله من العبيد ورعاة ثروته الحية في الفلاة والوكلاء والمتسلمين والمقيمين لديه

في بلدات نائية مثل تيماء والجوف، والضيافة العامة في حائل وتغيير الملابس، قد تكون زهاء ١٢٠٠ جنيه استرليني. وتبلغ مصروفاته الاستثنائية حوالي ١٠٠٠ جنيه استرليني على البارود وتموين عمليات الغزو العامة والهدايا السنوية». (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٣٥ الجزء الثاني)

وقد ساهمت ثروتهم وأصلهم البدوي الذي كان موضع اعتزاز بالغ، في تحول هذه الفئة الحاكمة إلى ارستقراطية بدوية حضرية بدأت تكون لديها مصالح ليست منسجمة بالضرورة مع مصالح رجال قبيلتهم الآخرين. وبانتهاء القرن التاسع عشر كان حكام حائل منخرطين في اقتصاد القوافل منذ حوالي نصف قرن. وكانت مصالحهم التجارية متطابقة مع مصالح التجار. وكانت التجارة تعتمد اعتماداً كبيراً على اشاعة السلام والنظام، وما كان لهذا أن يتحقق من دون تحييد القبائل البدوية وتهدئتها. كما كانت لأمراء حائل مصلحة في الحفاظ على تدفق الاتاوات من المناطق الطرفية الواقعة تحت سيطرتهم. وكانت هذه المناطق تضم جماعات حضرية وبدوية كانت ترفض فرض الاتاوة وتحاول باستمرار تحرير نفسها من هذا العبء. ونتيجة لذلك كان الأمراء ينظمون غارات على تلك الجماعات المتمردة وعلى مَنْ يتحدون سلطتهم برفض دفع الاتاوة أو مهاجمة القوافل المشمولة بحمايتهم.

يضاف إلى ذلك أن الأمراء كانوا يقيمون علاقات مع الحكومة العثمانية وممثليها في سوريا وبلاد النهرين والحجاز منذ الغزو المصري لوسط الجزيرة العربية[١٠]. وكان تعاون ابن رشيد مع خورشيد باشا قد مكَّنه من تلقي مخصصات شهرية من الحكومة المصرية والاحتفاظ لنفسه بثلث الزكاة المستحصلة من جبل شمّر. ومع انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية في عام ١٨٤١، حاولت الحكومة العثمانية أن تقوم بدور أنشط في المنطقة. وأصبح ممثلوها في الحجاز والعراق وسوريا قنوات تربط زعماء القبائل المحليين بالسلطان العثماني. واتسم النصف الثاني من القرن التاسع عشر بانبعاث المصالح التركية وازدياد الدور التركي في وسط الجزيرة العربية. وحافظ أمراء آل الرشيد، وخاصة عبد الله بن رشيد، على التقليد المتمثل بإرسال هدايا (خيول بالدرجة الرئيسية) إلى الولاة العثمانيين في المنطقة. وقد تطرق والن إلى هذا التقليد: «يُرسل زوج من هذه الحيوانات سنوياً إلى المدينة مع قافلة الحج كهدية للباشا التركي، وزوج آخر إلى مكة لوالي المدينة

وأحياناً زوج ثالث لباشا بغداد». (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٨).

كما توصل محمد بن رشيد عن طريق المفاوضات مع والي دمشق العثماني إلى أن يدفع له ١٥٠٠ مجيدي سنوياً مقابل اخضاع الجوف. يضاف إلى ذلك أنه كان يرتبط بالتزام نحو شريف مكة: «كان يدفع مبلغاً صغيراً سنوياً من باب التكريم لشريف مكة، كنِذر ديني من ناحية ومن الناحية الأخرى لضمان حصانة ممتلكاته النائية، خيبر وكاف، والبقية الباقية ضد العدوان التركي». (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨ : ٢٦٧ ـ ٢٦٨ الجزء الأول). وكان أمراء حائل يرسلون الهدايا إلى المسؤولين العثمانيين في محاولة لرشوتهم كي يقبلوا بموقعهم في وسط الجزيرة العربية. وكانت هذه الهدايا ترمز إلى خضوعهم الاسمي للحكومة العثمانية.

ولكن بانتهاء القرن التاسع عشر عمدت الحكومة العثمانية إلى قلب سياساتها في وسط الجزيرة العربية. وبدلاً من تسلم الهدايا أخذت تقدم أموال دعم للأمراء من أجل ضمان ولائهم في وقت كسبت بريطانيا إلى جانبها عدداً من القوى القبلية في المنطقة. وخلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى حاولت الحكومة العثمانية أن تكسب تعاون زعماء القبائل. وكان أمراء آل الرشيد يتسلمون مخصصات شهرية من المسؤولين العثمانيين بالاضافة إلى أسلحة وأربع كتائب مشاة تركية ملاك كل كتيبة منها ٦٠٠ رجل، و٤٠٠٠ ليرة و٨٠٠ طلقة «مارتيني» من العتاد. وقد أرسلت هذه إلى حائل من بغداد في عام ١٩٠٤ (10R, R/15/5/25). وازدادت أشكال الدعم هذه عندما أصبحت الحرب وشيكة: «يحظى ابن رشيد بدعم حكومة سائر الولايات العثمانية المجاورة وهو موضع احترام بالغ من البرلمان العثماني ولجنة الاتحاد والترقي...... ورُفعت المخصصات التي تدفعها الحكومة التركية إلى أمير جبل شمّر الشاب سعود بن عبد العزيز، مؤخراً، من ١٥٠ إلى ٢٠٠ جنيه استرليني في الشهر» (المصدر السابق).

لقد ساهم الانخراط في اقتصاد القوافل، بالارتباط مع علاقات الأمراء مع الحكومة العثمانية، في ايجاد فجوة بين الأمراء وأتباعهم الشمريين الاعتياديين. ورغم أن الأمراء كانوا يشددون باستمرار على أصلهم البدوي وهويتهم البدوية فإن جماعة الحضر بدأت في نهاية القرن التاسع عشر، تبسط هيمنتها على بدو جبل شمّر.

الحضر

أ ـ المزارعون

كانت تسمية «الحضر» تشير إلى سكان المدن والواحات والقرى. وفي حائل كان الحضر هم المزارعين والحرفيين والتجار الذين يعتبرهم البدو أدنى مكانة. وكانوا يعزون هذه الدونية إلى حقيقة أن الحضر كثيراً ما كانوا ذوي أصول قبلية مختَلَطة أو بلا أصل على الاطلاق. وكان الحضر يُعدُّون بأنهم فقدوا نقاء أصلهم نتيجة المصاهرة مع مجموعات غريبة. وكانت مهن السكان الحضر تزيد في دونيتهم بنظر البدو. وكانت هذه المعتقدات تعود في أساسها إلى حقيقة أن الواحات والمدن اجتذبت عدداً من البدو الذين أُبعدوا عن الصحراء نتيجة ما اعتراهم من فقر وضعف. فأصبحت بعض قرى جبل شمّر وواحاته ملاذاً:

«عندئذ تصبح مثل هذه الأماكن ملاذات عديدة للبدو الفقراء والمعدمين الذين لا يستطيعون مواصلة حياتهم الرعوية بعد أن فقدوا قطعانهم وماشيتهم بشكل أو آخر، أو الذين أُجبروا، لكونهم مطلوبين دماً، على الرحيل عن قبيلتهم وديارهم للهرب من ثأر أقارب القتيل». (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٩٩).

وفي حين أن الهجرة إلى الواحات كانت تحمل وصمة الدونية فإن التوطن هناك نتيجة غزوها كان يعتبر خطوة ايجابية تنم عن قوة وتفوق عسكري. كما كانت المدن والواحات تجتذب المنبوذين من جماعتهم بسبب ارتكاب أعمال شنيعة مثل القتل أو السرقة، والذين يجدون من الأسهل أن يعيشوا في المدن حيث يضيعون بين السكان ذوي الأصناف المتنوعة. وبعض هؤلاء البدو المحرومين كانوا لا يزاولون الزراعة إلا إذا أجبرتهم الحاجة لأنهم كانوا يُبدون نفوراً من الزراعة.

وفي حائل كان غالبية مزارعي الواحة ينتمون إلى قبيلة عربية متوطنة قديمة هي بني تميم التي استقرت عشائر من عشائرها في واحات جبل شمّر، مثل روضة ومستجدة وفيض، وفي واحات أخرى في وسط الجزيرة العربية. واستناداً إلى والن فإن بني تميم احتفظوا ببعض الخصوصيات في لغتهم وعاداتهم فضلاً عن سحنة خاصة في قَسَماتهم تميزهم بسهولة عن شمّر: «رغم أن أجدادهم كانوا أساساً وأصلاً من البدو فإن السكان الحاليين زراعيون حصراً قلما يمارسون الترحال أو يشاركون في حملات حرب وسلب مع شمّر. ولا يوجد، على ما أظن، أي فرد

من أفرادهم بين البدو الذين يعيشون هنا حياة بدوية». (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ٢٠١ ـ ٢٠٢). وقد احتفظ بنو تميم الحضر بأصولهم القبلية في أنسابهم. ولكنهم لم يعودوا قبيلة مستقلة حين اعترفوا بسلطة أمراء آل الرشيد على واحاتهم وقراهم في جبل شمّر (ادميرالتي Admiralty ١٩٢٠ : ٨١).

وحقيقة أن المزارعين لم يشاركوا في حملات البدو العسكرية وضعتهم في الحال خارج نظام القيم البدوية. اذ ليس لدى الحضر مرويات يفتخرون فيها بشجاعتهم خلال الغزوات وبشيمهم وتسيدهم العسكري. ولكن لديهم ذكريات عن تفشي أوبئة مثل الكوليرا كانت تحصد قطاعات واسعة من السكان الحضر، وتحطم معنوياتهم. وهم يتذكرون مستوطنات مهجورة وحقولاً ومزارع نخيل محروقة نتيجة غارات البدو. وكانوا يسجلون عجزهم في مواجهة العنف من بدو الصحراء.

ب ـ الحرفيون

بالاضافة إلى المزارعين اجتذبت واحات جبل شمّر عدداً من الحرفيين والصناع. وقد عدَّد هوبر العوائل الحرفية التالية في حائل: العمامة والجْبارة والعبيد والقظم والجري والجزي. وكان «أكثر البدو إملاقاً» يعتبرون هذه العائلات متدنية (ش. هوبر في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣ : ٤٣٠). وكان الحرفيون يحتلون موقعاً أدنى في هرم الواحة التراتبي بسبب مهنتهم. ففي الجزيرة العربية عموماً كان الأفراد ذوو الأصل الوضيع وحدهم الذين يعملون في صناعة منتجات مثل الأسلحة والسكاكين والسروج والأحذية والأدوات المطبخية. وكان حرفيو حائل إما من البدو المستضعفين أو أفراداً ذوي أصل غريب هاجروا إلى الواحة بعد فشلهم في ايجاد عمل في مدنهم (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٩٩). وقد وصف لوريمر الصناعة في حائل: «ان الحرفيين ليسوا كثيرين: وهم ينتمون إلى صنف الحدادين وأدواتهم قليلة وثقيلة. ومع ذلك تصنع منتجات نحاسية ورؤوس حراب وحدوات، وتنتج أوانٍ خشبية وتصنع سروج للجمال. وهناك قلة من البنائين وعمال التجصيص». (ج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٩ : ٦٠٢).

ورغم أن الصناع كانوا عموماً يقيمون في الواحات فإن بعضهم كانوا يعيشون ويتنقلون مع البدو. وقد لاحظ مونتان:

«كان يعيش بين بدو شمّر حرفيون هم حدادون في أغلبيتهم (صانع - صناع)، موزعين في كتل تتألف الواحدة منها بين ثلاثة وأربعة. ومع أنهم يتنقلون بصحبة ربّ عملهم فإنهم يبقون غرباء تماماً عن عالم البدو. وما من زواج يمكن عقده مع أحدهم. فإن أصلهم من الواحات». (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢: ٧٤).

وكان موقع الصناع المتدني في الواحات وبين بدو الصحراء على السواء ينعكس في حقيقة أنهم كانوا محرومين من حقوق الزواج بين مضيفيهم. كما كان الصناع غير قادرين على تنظيم أنفسهم في جمعيات أو طوائف حرفية بسبب ضعفهم وتشظيهم كجماعة.

ج - التجار

كما رأينا سابقاً، كان عدد كبير من تجار حائل ذوي أصل غريب فيما كان آخرون من عوائل حائلية ومن منطقة القصيم في وسط الجزيرة العربية. وقد جعلتهم مشاركتهم في اقتصاد القوافل فئة هامة لها مكانتها، كانت تمثل حلقة الوصل بين السكان المحليين، بمن فيهم سكان الواحات، والبدو، والمناطق البعيدة التي لا يصلها السكان المحليون. وإذ أصبحت بعض عوائل حائل التجارية على قدر كبير من الثراء، كانت لديها مصلحة خاصة في الحفاظ على السلام والأمن على الطرق التجارية. إذ كان الانقطاع الناجم في أحيان كثيرة عن غارات القبائل يهدد تدفق التجارة ويعطل حركة القوافل، إن لم يكن يجمدها، مؤثراً بذلك في آفاق عمل التجار. وكانت لدى التجار إمكانية حضور مجلس الأمير حيث يبحثون قضاياهم (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٦٠٤ الجزء الأول). وكانوا قادرين على نيل تأييد ودعم وثقة الأمراء الذين لديهم مصالح مماثلة. وتُساق لنا شخصيات مثل عبد الله المسلماني الذي كان:

«تاجراً لا يُضاهى ومتمرساً في أمور التجارة، فكان موضع تكريم بالغ من العُبيد، المحارب - والد حمود: كان يدير ممتلكاته وزادها بنجاح، ولم يكن يتمنى شيئاً لنفسه، وكان يحظى بثقة الذئب. . . . وبإدارة أعماله بمثابرة ومعاملاته في القروض والأرباح مع البدو المقيمين، زاد ثروته إلى حد يستطيع معه أن يمتلك تدريجياً بساتينه وبيوته الكبيرة في غفار وعقدة». (ج. يوتنغ في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣: ٤٥٨).

مثل هذه الشخصيات كانت معفيّة من المشاركة في حملات الأمير العسكرية بسبب انهماكها في الأعمال التجارية أو افتقارها إلى المهارات العسكرية. ولكن التجار الأثرياء «يجب أن يدفعوا، عوض ذلك، مبلغاً معيناً من المال، أو يدفعوا عيناً، ويُحسم هذا التعويض مقدماً عن كل رجل وعن كل غزوة حسب الدور». وعلى سبيل المثال، أن عبد الله، التاجر الثري، «يجب أن يمنح قرض بندقية وأن يدفع بين ريالين وثلاثة ريالات. وفي عام ١٨٨٣، قبل الغارة على مجمعة، كان على عبد الله أن يوفر ثلاث بنادق أعيدت له كلها بعد انتهاء الغزوة». (ش. هوبر في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣ : ٤٢٩). كما كان التجار خاضعين لضريبة خاصة كانوا أحياناً يدفعونها ببضائع. ولاحظ يوتنغ خلال حضوره مجلس الأمير أن أحد التجار الفرس «المشهدي، عمران.... زار الأمير وعرض أمامه بضائع حملتها القافلة مؤخراً من مكة. وقد انتقى ـ دون مقابل بالطبع (بلا شيء) ـ بضعة مصابيح. وهذه طريقة مناسبة لكي يجبي العاهل ضريبة من التجار الفرس الذين يثرون هنا». (ج. يوتنغ في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣ : ٥٥٧).

كانت لدى الأمراء والتجار مصالح مشتركة فيما يتعلق بتدفق التجارة. فالأولون كانوا يفيدون بإرسال قوافلهم وفرض الاتاوة على كل المشاركين في تجارة القوافل. وكانت عائداتهم من الاتاوات من الأهمية بحيث إنهم لم يكونوا قادرين على استعداء التجار الذين سيحولون تجارتهم نحو طرق أخرى إذا لم تُضمن لهم الحماية. وفي أواخر القرن التاسع عشر صعَّد الأمراء غاراتهم التأديبية ضد القبائل البدوية التي أبدت عدم احترامها لسلطتهم بمهاجمة ونهب القوافل والتجار المشمولين بحمايتهم. وكانت هذه المحاولات الرامية إلى تهدئة البدو تعكس تغيراً في سياسات الأمراء التي كانت في الماضي تخدم مصالح البدو. فعندما أعلن عبد الله بن رشيد نفسه أمير حائل، كان مستعداً لخدمة مصالح أبناء جلدته من البدو الذين وقفوا معه طيلة الصراع على السلطة بينه وبين ابن عمه ابن علي. ولكن في ظل زعامة ابنه طلال تقدمت المصالح الخاصة بأمن الطرق التجارية لتعلو على مصالح البدو. واشتد تضارب المصالح بين الأمراء والتجار من جهة والبدو من الجهة الثانية خلال حكم محمد بن رشيد الذي كان، كل عام تقريباً، ينظم حملات عسكرية هدفها تهدئة البدو قرب حائل. (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨ : ٢٦٧ ـ ٢٦٨)، فارضاً النظام والأمن على امتداد الطرق التجارية، ومؤكداً من جديد سلطته وتسيده العسكري بين البدو. وعلى الضد من الآراء كثيرة التكرار التي تشدد على هيمنة البدو على الحضر، كانت

امارة آل الرشيد في أواخر القرن الماضي تمثل هيمنة الحضر على البدو ـ رغم تحقيق ذلك من خلال ارستقراطية قبلية ذات أصل بدوي.

ورغم أن التجار كانوا يمثلون فئة مالية هامة فإن من الصعب الزعم بأن ثروتهم المادية كانت تدانيها مكانة اجتماعية مماثلة. ولأن غالبية التجار كانوا من أصل أجنبي فقد كانوا يعتبرون تلقائياً غرباء طارئين على السكان الأصليين من البدو وأبناء الواحات. وكان بعض التجار يعتبرون «أحراراً» ذوي أصل محترم نِسْبياً رغم أن التاجر مهما بلغت ثروته لم يكن مندمجاً بشكل كامل في المجتمع البدوي. وكانت الزيجات بين البدو والتجار مستحيلة، والأرجح أن الأخيرين كانوا يختارون زوجاتهم من عوائل حضرية مثل المزارعين.

د ـ العبيد

كان غالبية العبيد في جبل شمّر يوجدون بين سكان الواحات. وكان عدد صغير فقط يملكه شيوخ شمَر البدو وعوائل بدوية أخرى قادرة على شراء عبيد في الأسواق الكبيرة للجزيرة العربية مثل مكة وجدة، وأسواق العبيد الأصغر في حائل وعنيزة وبريدة. وكان غالبية عبيد حائل ذوي أصل أفريقي رغم أن التقارير تحدثت عن عبيد بيض، ربما من أصل قفقاسي، كانوا يعيشون هناك. وكان واحد من مثل هؤلاء العبيد، مبارك، كبير عبيد الأمير. وعلقت بلنت أن مباركاً وإن كان عبداً لم يكن في مظهره أي أثر لدم زنجي. (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨ : ٢٣٠). وذكر دوتي أيضاً «أن قائد الحرس ومرافق الأمير في البيت كان مبارك، وهو رجل قوي لطيف لكنه متعصب. لقد كان غريباً من العروث». (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٣٣).

كان من العبيد البيض نساء قفقاسيات في قلعة الأمير. وقد التقت بيل واحدة من هؤلاء العبدات عندما زارت حائل في عام ١٩١٤. ووصف هوغارت اللقاء بينهما: «من بين هؤلاء شركسية مفعمة بالحيوية أرسلها ذات يوم السلطان عبد الحميد جارية لمحمد بن رشيد وتزوجت الآن فتولعت، ولا ريب في أن مهمة هذه المرأة كانت تشتمل على التجسس. ولكن تقاريرها، في النهاية، قدمت خدمة إلى مس بيل، ويبدو أنها بادلت الأخيرة مودتها». (هوغارت في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣ : ٦٨٤).

كان موقع العبيد يعتمد اعتماداً كبيراً على ما إذا كانوا يؤدون واجبات منزلية

أو يشكلون جزءاً من الجهاز العسكري للإمارة. وكان عبيد المنازل يوجدون في قلعة الأمير وفي بيوت التجار والمزارعين الأثرياء. وكان عبيد الأمير المنزليون طهاة ومنظفين و«قهوجية» وسقائين. كما كانوا يعتنون بإسطبلات الأمير ومزارع نخيله وبساتين فاكهته. وكان المزارعون يستخدمون عبيداً زراعيين أيضاً. وبخلاف الحرفيين الذين كان يُعتقد أنهم ذوو أصل غير معروف، كان يُعتقد، حسبما زعم مونتان، أن «العبيد متحدرون من نوح، وأن أباهم حام». (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢ : ٧٧). مع ذلك ليس من الواضح ما إذا كانت لهذه المزاعم صلة تذكر بموقعهم كفئة متدنية. فإن الفارق الوحيد بين العبيد والحرفيين، على سبيل المثال، أن النساء من العبيد كنَّ مقبولات كزوجات للأمراء أكثر من نظيراتهن من العوائل الحرفية. وقيل إن متعب بن عبد العزيز، أمير حائل السابع، تزوج عبدة اسمها وسمية، أم عبد الله، الأمير الحادي عشر. وكان معروفاً أن آخرين من أفراد عوائل مرموقة في حائل مثل السبهان، كانت أمهاتهم من العبيد مثل سعود بن سبهان، وزير الأمير في العشرينات.

كان عدد كبير من حراس الأمير يتألف من عبيد يحملون السلاح وكثيراً ما يُرون على بوابات القلعة في حائل. وكان الأمراء حتى يرسلون بعض العبيد الموثوقين لتمثيلهم في الواحات المقهورة. وقام هؤلاء العبيد بدور هام في توطيد سلطة عبد الله بن رشيد الذي ساعدوه على اطاحة ابن عمه ابن علي. وذكر والن أن حرس عبد الله كان يتألف حينذاك من ٢٠٠ شخص، «كان القسم الأكبر منهم زنوجاً معتوقين ومصريين خلفهم جيش إبراهيم باشا وراءه» (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٠). ومع توسع سلطات الأمراء ازداد عدد عبيدهم ـ زعم موسيل أنهم كانوا ٤٠٠ عبد يعيشون في مجموعات تضم المجموعة الواحدة منها ٢٠ عبداً (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٣٠٣). وأصبح هؤلاء الفئة الأشد ولاء في الامارة لأنه «إذ لم يكن لديهم أقارب بين السكان الحضر، كانوا قادرين على تنفيد كل أمر من سيدهم وعلى حمايته ضد كل الأعداء، بمن فيهم أقاربه». (المصدر السابق). وكان حرس الأمراء، رغم كونهم عبيداً في أصلهم، يشكلون فئة قوية. وأشار دوتي إلى شخصيات مثل عنيبر الذي كان يتحكم بإمكانية الدخول على الأمير وكان موضع ثقته:

«كان عنيبر حبشياً من غالة Galla ولد في بيت عبد الله بن رشيد وبالتالي يعتبر أخاً ـ عبداً لكل من طلال ومتعب ومحمد. كما أن اسمه من كنية الأمير، ابن رشيد. وكان هذا المعتوق شخصية أساسية في حائل، في ادارة شؤون الامارة وفي ظل الأمراء

منذ زمن طلال». (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٦٥٥ الجزء الأول).

لقد تربى عنيبر والكثير من العبيد الآخرين في كنف الأمير. وكان من المألوف أن يكون لدى الأمير الصغير أخ عبد يُخصص له، كثيراً ما يكون بعمر الأمير. وتبدأ مهمة الأخ العبد في الطفولة ويُنتظر منها أن تستمر في الحياة البالغة. إذ كان يرافق الأمير ويسهر على راحته ويتخذ جانبه في النزاعات ويدافع عن سيده في المعركة. وكان بعض العبيد أوفياء لأسيادهم حتى أنهم كانوا قادرين على التدخل في صراعات آل الرشيد الداخلية على السلطة ـ كما حدث عندما قُتل سعود بن رشيد على يد ابن عمه عبد الله بن طلال الذي قتله بعد ذلك عبد من عبيد سعود، كان على الأرجح أخاً عبداً. وقد أوجدت صيغة القرابة الوهمية آصرة قوية بين العبد وسيده وكانت تشجع على ايجاد التزامات وولاءات. اذ كان العبد يحمل اسم الأمير لِصق اسمه ويفيد من رعاية الأمير ومكارمه. وبالمقابل كان يُنتظر من العبد أن يبدي ولاء لا يمارى فيه نحو سيده.

كان حجر الزاوية في نظام القرابة الوهمية هذا يقوم على ممارسة الرضاعة حيث كانت النساء من العبيد يرضعن الأمراء الصغار من أثدائهن سوية مع أطفالهن. ويعترف الإسلام بالرابطة المتكونة بالرضاعة كأساس مشروع لايجاد علاقات قرابية مساوية للعلاقات التي تقام نتيجة النَسَب والمصاهرة. (س. التُركي S. Altorki ١٩٨٠ : ٢٣٣). وتنشأ القرابة بالرضاعة حين تُرضع امرأة (عبدة أو غير عبدة) طفلاً من ثديها مع أطفالها هي.

وكانت القرابة بالرضاعة تجيز للأمراء أن يشيروا إلى مرضعتهم على أنها «أم» وإلى العبيد الذين شاركوهم الحليب بصفة «أخ». وكانت الصراعات الداخلية على السلطة بين أفراد آل الرشيد حيث يدخل الأعمام وأبناء العمومة وحتى الأشقاء في تنافس شديد مع بعضهم بعضاً، تُضعف الرابطة الطبيعية بينهم. وكان نظام القرابة الوهمية يشجع على ايجاد نظام مؤازرة بديل يكون فيه العبيد خارج علاقات القرابة بالنَسَب ولكنهم ليسوا تماماً خارجه. وحين يدعم العبيد دعاوى سيدهم بالمُلك كانوا يعرفون أن مصيرهم مرتبط بمصيره وأن نجاحه أو فشله لا بد أن يؤثر في حظوظهم. وكان صعود سيدهم إلى منصب الأمير يعود عليهم بمنافع وامتيازات. ولكن بعض الاخوة العبيد كانوا في الواقع يُقتلون مع اغتيال سيدهم على يد أحد أفراد الفئة الحاكمة. وعلى سبيل المثال، عندما ارتكب محمد بن رشيد المجزرة التي ارتكبها ضد أبناء شقيقه في عام ١٨٦٩، قُتل الأمراء الصغار مع اخوتهم العبيد.

الفصل الخامس

الجهاز العسكري

اقترن صعود الأمراء في حائل وانخراطهم في اقتصاد تجارة القوافل بنشوء جهاز عسكري يضم قوة اكراه كانت تتألف في البداية من الموارد البشرية الشمّرية ولكنها أصبحت فيما بعد مستقلة عنها[1]. فقد فتح الأمراء حائل بدعم عسكري من أقاربهم البدو وأفراد حمولة جعفر وعبيدهم الشخصيين ولكن بات واضحاً في أواخر القرن أن أقاربهم البدو لم يعودوا نواة الجهاز العسكري. وكانت قوة الأمراء المسلحة تتألف بالدرجة الرئيسية من رجال المدن والعبيد. وكان هذا الانعطاف في تركيب القوات العسكرية نحو الحضر يعكس تزايد بروز حائل وارستقراطيتها البدوية الحضرية، وهو انعطاف يتسم بأهمية حيوية لفهمنا النظام السياسي الذي كان قيد البناء. فإن تجنيد قوة عسكرية ثابتة ودائمة، مستقلة عن العلاقات السياسية والتحالفات العسكرية القبلية المتغيرة ولا تدين بالولاء إلا للأمراء، كان خطوة حاسمة نحو تكوين الحكم السلالي.

وكانت هذه القوة المسلحة الدائمة تختلف عن القوة المتاحة لشيوخ عشائر شمّر الذين كانوا يعتمدون على الموارد البشرية لعشيرتهم ضد الخطر الخارجي أو في القيام بغزوة. وبعد الصدامات العسكرية كان رجال القبيلة يعودون إلى استئناف حياتهم اليومية. وعلى النقيض من ذلك، أصبحت قوة الأمراء المسلحة هيئة متخصصة تُستخدم على أساس دائم لأغراض التوسع والدفاع. ولأنها كانت تحت قيادة الأمراء فقد كان بمقدورهم ممارسة الحكم وإخماد التمردات ومعاقبة المجرمين وفرض النظام والسلام وجباية الاتاوات من خلال استخدام القوة استخداماً مباشراً أو التهديد بالعنف.

تركيب قوة الإكراه

لا تمكن ملاحظة التغير في تركيب قوة الأمراء المسلحة والتحول إلى مجموعة عسكرية تستمد قاعدتها من الواحات، إلا بمرور الزمن. فحين أصبح عبد الله بن رشيد حاكم حائل في عام ١٨٣٦، كان قد أمضى فترة من الاغتراب معبئاً بدو شمّر وخاصة عشيرته، عبدة. واعتمد على دعم عبدة التي كانت مضاربها أصلاً على مقربة من حائل. وبنى عبد الله لنفسه سمعة بالشجاعة والكفاءة العسكرية خلال فترة الاغتراب هذه، ودفعت هذه الانجازات رجال شمّر إلى الالتفاف حوله ومحضه دعمهم وولاءهم. بكلمات أخرى، انهم أصبحوا مستعدين لوضع مواردهم البشرية تحت تصرفه. وكانت حمولة جعفر بصفة خاصة تشكل قوته العسكرية القرابية، ويزعم بالغريف أن مؤازرتها كانت حاسمة في فتح حائل. فقد كان من مصلحة آل جعفر أن يروا فرداً من نَسَب مجموعتهم يبسط سيطرته على الواحة (و. بالغريف W. Palgrave ١٨٦٥ : ١٣٠ الجزء الأول). ومونتان أيضاً يشاطره هذه الآراء مجادلاً بأن قوة عبد الله كانت تتألف بالدرجة الرئيسية من شمّر عبدة، عشيرة آل جعفر (ر. مونتان R. Montagne ١٩٤٧ : ١٥٤). وعمل عبد الله على كسب تأييد حمولته وثقتها بإثبات قدراته القيادية، وخاصة في ميدان النزاعات المسلحة. وكان نجاحه يعني أن آل جعفر يستطيعون أن يضمنوا ارتقاءهم سياسياً واقتصادياً على سكان الواحة الحضر وعلى مجموعات جبل شمّر البدوية معاً. وكانت بعض حمائل عبدة مقيمة أصلاً في حائل حيث تمتلك مزارع نخيل، وبالتالي، كانت لديها مصلحة خاصة في السيطرة على موقع الزعامة في الواحة. وقد وفرت هذه الجماعات الحضرية جزئياً من شمّر عبدة عدداً كبيراً من رجال عبد الله المسلحين. واستناداً إلى والن، كان أفراد عبدة الحضر يعتبرون متفوقين على أشقائهم البدو في الشجاعة وفي فن استخدام السلاح (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٧٨). ولم يتحقق غزو حائل بجمع ومشاركة قوة قبلية تتألف من عشائر شمّرية مبعثرة شتى وإنما بمشاركة حمولة واحدة هي حمولة آل جعفر. ومن الواضح أن نجاحهم في فرض دعاوى ابن رشيد بالزعامة وضعتهم في علاقة هرمية ذات أساس عسكري قوي ازاء عشائر شمّر الأخرى.

لذا من الصعب الافتراض بأن العشائر الشمّرية المختلفة (عبدة والأسلم وسنجاره والتومان) وحمائلها كانت تشكل أقساماً أو قطاعات متساوية من كل. فأولاً، كانت عبدة، حسب التقديرات المتاحة، تفوق العشائر الثلاث الأخرى عدداً

حيث قُدّر أن لديها ١٥٠٠ خيمة[٢]. وثانياً، انها أثبتت تفوقها العسكري بفتح حائل على يد ابن رشيد، وهو ابن حمولة من حمائل العشيرة. وثالثاً، أن هذا الفتح أفرز زعامة كانت قادرة على الحكم في حائل زهاء تسعين عاماً لا بوصفها من قيادات عبدة فحسب بل وممثلة للقبيلة برمتها. وقد أرست هذه الأبعاد الثلاثة أساس علاقات غير متكافئة بين عبدة والعشائر الأخرى.

ان اللامساواة العسكرية الناشئة تضع موضع تساؤل جوانب من النموذج النَسَبي التقسيمي الذي يعمل على الافتراض القائل بأنه، أولاً، تتعايش الأقسام القبلية المتساوية في تضاد متوازن، وثانياً، أن زعامة القبيلة زعامة محدودة لأن النظام لا يتيح مجالاً لتعزيز السلطة في أيدي عائلة رئاسية مستَمدة من احدى الحمائل. وتسيد عبدة في اطار قبيلة شمّر، وزعامة الأمراء يمكناننا من اعادة تقييم هذه الافتراضات التي أصلاً طعنت بها مادة جديدة من أجزاء أخرى من الشرق الأوسط[٣]. وعلى سبيل المثال، تدارس دريش العمليات نفسها في بحثه حول قبائل يمنية شمالية الذي ذكر فيه ظهور عوائل رئاسية والحفاظ على سلطاتها فترات طويلة من الزمن. (ب. دريش P. Dresch ١٩٨٩ و١٩٨٤). وجادل بأن «العائلة الرئاسية المحدَّدة تُماهى أولاً مع عشيرة محدَّدة لكنها تصبح حينذاك متماهية أيضاً مع وحدة أكبر. وفي أحيان كثيرة تفقد سطوتها، كما كانت الحال فعلاً، وتعود إلى مماهاتها مع العشيرة التي تأتي منها. وتبقى البنية القبلية بلا تغيير من حيث الأساس، وتصعد عوائل رئاسية وتسقط في اطارها». (ب. دريش P. Dresch ١٩٨٤ : ٣٨). ويجري توسيع دائرة نفوذ الشيخ في اليمن بتوقيع وثيقة يعترف فيها شيوخ العشائر الصغيرة على اختلافهم بسلطة رجل يصبح «شيخ المشايخ». ولا تكون دائرة سلطة الشيخ والكيان القبلي الذي هو شيخه، متطابقين. فإن العامل الحاسم، كما يجادل دريش، يرتبط بحقيقة أن لعوائل رئاسية كبيرة سلطاتها الخاصة. وتوصف هذه السلطات بدورها وتُحدَّد بأفكار هي جزء أساسي من القبليّة شأنها شأن أفكار الأخوّة (المصدر السابق: ٦).

وتبين مواد من مناطق أخرى من الشرق الأوسط أن الزعامة العسكرية القوية كثيراً ما تكون مقدمة لتثبيت حمائل وعوائل رئاسية في مواقع السلطة. فإن «القايد» في المغرب (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٠) وأمراء الشعلان من بدو الروالة (و. لانكستر W. Lancaster ١٩٨١) والخاني بدو بختيار الايرانيين (غ. غارثويت G. Garthwaite ١٩٨٣) والخاني قشقاي (ل. بيك L. Beck ١٩٨٦) كلهم كانت

لديهم زعامة عسكرية قوية إلى جانب بنى نَسَبية تقسيمية ولا مساواة بين الأنساب تقوم على النجاح العسكري. وتثير هذه الأمثلة أسئلة عديدة: كيف يجري الإبقاء على اللامساواة أو تكريسها في بيئة ذات توجه قوي نحو التقسيم؟ كيف يصبح قائد عسكري يُماهى مع قسم، متماهياً مع وحدة قبلية أكبر؟ وفي وجود تشظٍ عسكري قوي كيف يأخذ قائد كهذا مقاليد السلطة ويحافظ على موقعه؟ في حالة شمّر كان التغيير في تركيب قوات الأمراء العسكرية حاسماً.

ورغم أن عبد الله بن رشيد فتح حائل بدعم حمولته من آل جعفر فقد جرى في الفصل السابق تبيان اعتماده على العبيد وقوات أجنبية أيضاً. إذ يشير والن إلى وجود ٢٠٠ «زنجي» وجنود «أتراك ـ مصريين» كانوا «رجالاً أشداء، ماهرين في استخدام السلاح، متمرسين في الحرب ومستعدين لطاعة أوامر سيدهم طاعة عمياء» (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ : ١٨٠). ويؤكد موسيل هذا التقرير رغم أن هناك، على ما يبدو، بعض الاختلافات المتعلقة بعدد العبيد والمصريين: «كان الأمير الجديد، عبد الله، مسنوداً بزهاء ٢٥٠ جندياً تركياً ـ مصرياً هربوا إليه مع أسلحتهم وشكلوا حرسه. وبمساعدة شقيقه الجسور عُبيد ما لبث أن أشاع السلام في كل المستوطنات حول هضبتي أجأ وسلمى وسعى إلى كسب شيوخ شمّر على اختلافهم بالكرم والسخاء». (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٨).

كان الجنود المصريون جزءاً من الجيش الذي أُرسل إلى الجزيرة العربية خلال الغزو المصري الأول. وقد ترك بعضهم وحداتهم بسبب المرض وانخفاض الرواتب، وانضم حوالي ٢٠٠ جندي إلى ابن رشيد مقابل إيوائهم وحمايتهم من هجمات القبائل المحلية المعادية. وأكسبهم أصلهم الأجنبي ثقة ابن رشيد، وهناك أدلة على أن هؤلاء الهاربين الأتراك ـ المصريين بقوا معه وشكلوا نواة حرسه الشخصي. وخلال حكم محمد بن رشيد ذُكر أن بعض «الرجال الأجانب» كانوا يخدمون في قوة الأمير المسلحة: «بين الغرباء في حائل الذين كانوا، في زمني، يعيشون على أجور ابن رشيد، كان بعض المغربيين. . . . وقد نُقل المغربيون، وهم خمسة عشر شخصاً، إلى حائل حيث أصبحوا يخدمون في قوة الأمير المسلحة. وعُيِّنَ أحدهم (نما فكان أثقل من أن يمارس الركوب) حاجباً على بوابة قلعته، ولا أحد يستطيع المرور بدون موافقة هذا المغربي». (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩ : ٣٣).

وإذ لم تكن لديهم علاقة قرابية أو قبلية، أصبحوا عبيد الأمير الشخصيين،

يعتمدون عليه اعتماداً كاملاً من أجل البقاء. وكان العبيد والأجانب يشكلون قوة عسكرية لم يكن اخلاصها مستمداً من ولاءات قرابية تقليدية. ويجادل موسيل قائلاً إن ولاء العبيد للأمير كان أقوى من ولاء أقاربه لأنه «اذ لم يكن عندهم أقارب بين السكان الحضر، كانوا قادرين على تنفيذ كل أمر من أوامر سيدهم وحمايته ضد كل الأعداء، بمن فيهم أبناء جلدته». (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٣٠٣). يضاف إلى ذلك أن بعض العبيد كانوا يرتبطون بالأمير من خلال نظام القرابة الكاذبة، الموصوف في الفصل السابق.

كان العبيد، ومعهم القوات الأجنبية، يشكلون دعامة قوى الإكراه عند الأمراء، وكانوا النواة الدائمة بعد غزو حائل. وكانت حمولة جعفر وحمائل عبدة الأخرى مشتتة لأنها لم تكن «مجموعة عسكرية متخصصة». وكانت مشاركتها في اقامة حكم آل الرشيد مشاركة ظرفية: بكلمات أخرى، أنها وضعت مواردها البشرية مؤقتاً تحت تصرف الأمير لتحقيق غاية محدَّدة. وحين أدت واجباتها، لم تر سبباً يدعوها إلى مواصلة خدماتها العسكرية، وهو موقف معهود من التحالفات العسكرية في مثل هذا السياق القبلي. ففي أربعينات القرن التاسع عشر كانت قد نصَّبت أمير آل الرشيد في موقع السلطة وبالتالي لم تر جدوى في تعليق نشاطاتها اليومية والبقاء في خدمة الأمراء.

مع ذلك من الصعب الافتراض أن الحمائل كفت عن القيام بأي دور في توطيد سلطات الأمراء ـ وهو رأي يميل إليه روزنفيلد: «كانت، على ما أعتقد، عناصر غير قرابية، من العبيد (المعتوقين جزئياً) والمرتزقة، هي النواة الأولى والقوة العسكرية الابتدائية التي استخدمت في بسط هيمنة العائلة الحاكمة وحماية استمراريتها». (هـ. روزنفيلد H. Rosenfeld ١٩٦٥ : ١٧٧). وأنا أميل إلى الاتفاق مع رأي روزنفيلد بأن العبيد والهاربين الأتراك ـ المصريين، الذين يسميهم مرتزقة، كانوا يشكلون نواة قوات الأمراء المسلحة ولكن من الصعب قبول افتراضه الثاني القائل ان حمولة جعفر أصبحت هامشية. فرغم أنها لربما علَّقت خدمتها العسكرية لكنها كانت تمثل مصدر المشروعية المطلوبة لتعزيز حكم الأمير وظلت مستودعاً لتحالفات وقوة محتملة. وما كان دعم العبيد والمرتزقة ليمنح الأمراء المشروعية المطلوبة. لذا من الخطأ الافتراض أن عائلة آل الرشيد الحاكمة سرعان ما انسلخت عن «أندادها في النَسَب»، كما يذهب روزنفيلد (المصدر السابق ١٧٦).

وقد أخذ الأمراء يميلون إلى امتلاك مصالح تجارية منفصلة في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ولكن لم يكن في وسعهم استعداء مَنْ جاؤوا بهم إلى السلطة في عام ١٨٣٦. ولعل من الأنسب القول انه في أواخر القرن الماضي لم تكن قوة الأمراء تعتمد اعتماداً كلياً على أقاربهم البدو لأنهم كانوا قادرين على استحداث قوة عسكرية دائمة كانت في البداية تتألف من عبيد ومرتزقة لكنها استُكمِلت لاحقاً برجال من أهل المدن.

بالاضافة إلى القوة الدائمة كان هناك تشكيل من المسلحين يُعرفون بأنهم «رجاجيل الشيوخ». وقد شوهد هؤلاء في القلعة في فترة لاحقة وخلال حكم محمد بن رشيد. وقدرت بلنت عدد هؤلاء الرجال بـ «٨٠٠ أو ١٠٠٠ رجل يرتدون زياً من نوع ما، بعباءات بنية وكوفيات حمراء أو زرقاء ومسلحين بسيوف ذات مقابض فضية». (آ. بلنت A. Blunt ١٩٦٨: ٢٦٥ الجزء الأول). وكان «رجاجيل الشيوخ» يُجنَّدون بتسجيل متطوعين من واحات وقرى جبل شمّر. وكانت واجباتهم تشمل القيام بعمل الشرطة في الواحات والحفاظ على السلام في الأسواق بالاضافة إلى حماية القوافل التجارية: «كان هؤلاء يُجندون من بين شباب المدن والقرى بتسجيل المتطوعين حيث يمضي الراغبون في الخدمة بأسمائهم في القلعة ويُستَدْعَون حسبما تقتضي الحاجة». (المصدر السابق ٢٦٥ ـ ٢٦٦).

من الواضح أن «رجاجيل الشيوخ» كانوا نوعاً من الجيش الاحتياطي الذي يُستدعى عند الحاجة. وإذ كانوا متطوعين فقد كانوا يعيشون مع أسرهم ولا يتلقون راتباً من القلعة إلا حين يُستخدمون بعيداً عن الديار. لذا لم تكن كلفتهم على الأمير تزيد كثيراً على كلفة ملبسهم ومأكلهم وأسلحتهم. ولم يكونوا بديلاً من مجموعة الأمراء القرابية العسكرية ولكنهم كانوا يُجندون لأداء وظيفة جديدة ومختلفة. فقد أصبح احلال السلام والنظام في الواحات أمراً هاماً مع نمو حائل إلى مركز تجاري. وأي مشاركة عسكرية من جانب البدو كان يتعين أن تُستمد من الأدوار التي يتصورون أنفسهم قادرين على الاضطلاع بها. إذ أنهم كانوا يستطيعون الاغارة على مجموعات أخرى ولكنهم لم يكونوا قادرين على اشاعة النظام في مستوطنة ما على أساس يومي. والجدير بالملاحظة أن الأمراء استمروا في الاعتماد على دعم بدو شمّر خلال غزواتهم ولكنهم كانوا يدركون أن من المتعذر على البدو أن يقوموا بدور الشرطة في حائل.

ومع توسع مُلك الأمراء أصبح تجنيد السكان الحضر للخدمة العسكرية

متمأسِساً لأن التطوع لم يعد كافياً. ويقدم هوبر عرضاً مفصلاً لعدد رجال المدن الذين طلبهم الأمير للانضمام إلى قواته: «تُعطى المساهمة من أجل الحرب لأمير جبل شمّر على النحو الآتي: ٣٠ إلى ٤٠ رجلاً من حائل، و٤ إلى ٥ من روالة و٤ من موقّق وغُفار وقصر و٣ من كل من مستجدة وسبعان و٢ أو ٣ من غزالة. ولا تعطي أي من قرى الجبل الأخرى مالاً أو رجالاً». (سي. هوبر في ب. وورد P. Ward ١٩٨٣: ٤٣٥).

خلال امارة محمد بن رشيد فُرضت الخدمة العسكرية على نطاق واسع. وقد وصف دوتي تركيب مجموعة الأمير المسلحة من السكان الحضر. فبالاضافة إلى «رجاجيل الشيوخ» المتطوعين كانت هناك قوة عسكرية تتألف من رجال حائل بصفة خاصة: «في غزوات الأمير العامة يركب رجاجيله ورجال مدينة حائل ورجال القرى المجاورة، حوالي أربعمئة رجل، ومثلهم تقريباً من البدو المساهمين الذين هم رهن اشارة الأمير للركوب معه على أمل الفوز». (ش. دوتي C. Doughty ١٩٧٩: ٢١).

لقد حاول الأمير أن ينوع مصادر قوته المسلحة. فكان رجال القبائل البدو يُجنَّدون ويُستكملون بنواة دائمة من رجال المدن. ويذكر دوتي بأنه حتى تجار حائل كانوا مشمولين: «حوالي نصف رجال حائل كانوا الآن في الميدان مع ابن رشيد. فإلى جانب رجاجيله العاملين برواتب يكون حتى الباعة في السوق من خدم الأمير، للوقوف إلى جانبه». (المصدر السابق: ٢٧٢). ولكن سيكون من الصعب أن نتخيل أن كل أفراد الوسط التجاري كانوا يشاركون فعلاً في الحملات العسكرية. وكان يُطلب من الذين ليس لديهم مهارات عسكرية أو المتقدمين في السن أن يقدموا مساهمة تكون نقداً أو عيناً.

كان هذا التحول التدريجي في قوى الإكراه لدى الأمراء يعكس اتجاهين: ايجاد قوة عسكرية دائمة ومتخصصة ومحاولة الاستئثار باستخدام العنف استخداماً مشروعاً. وكانت هاتان هما السمتين الهامتين اللتين اقترنتا بعملية الحكم السلالي في غياب بيروقراطية مكتملة النمو. وكان يراد للجهاز العسكري الدائم أن يؤمّن فرض مشيئة الأمير لأنه يدين بالولاء له وحده. ولم يعد تجميع هذه القوة وتوزيعها يعتمدان على مفاوضات وتحالفات قبلية كانت عشيرتان أو أكثر تتحد فيها لأغراض الدفاع أو الهجوم. فإن جهازاً عسكرياً بإمرة الأمير وحده هو الذي يمكّنه من

ممارسة احتكار نسبي لاستخدام القوة استخداماً مشروعاً. وكانت احدى وظائف هذه القوة اضعاف الهيمنة العسكرية لكل من لديهم القدرة والموارد البشرية لبسط سيطرتهم العسكرية الخاصة على الآخرين أو تهديد هيمنة الأمراء.

ثانياً، كانت القوة العسكرية مؤشراً إلى الميل المتزايد نحو تهميش البدو تهميشاً جزئياً. بكلمات أخرى، كان هذا التحول يعكس هيمنة حائل وفئتها الحاكمة الحضرية هيمنة عسكرية متزايدة على البدو والريف ـ رغم أن هذا التسيد لم يكن ناجحاً بالكامل. وعلى حد تعبير رادكلف ـ براون Radcliffe-Brown، فإن التنظيم العسكري يؤثر في البنية الاجتماعية أساساً بتحديد توزيع القوة السافرة، أو بعبارة أخرى، القدرة على استخدام العنف (مقدمة في س. اندريسكي S. Andreski ١٩٦٨ : ١). كما يعكس التنظيم العسكري التغيرات التي تحدث على المستويين السياسي والاقتصادي. والتغيرات السياسية الكبرى في حائل كانت تتعلق بتكوين الفئة الحاكمة من آل الرشيد ونمو مصالحها التجارية التي لم تعد منسجمة مع البدو. وقد حدث تهميش البدو كقوة عسكرية نتيجة لتهميشهم السياسي والاقتصادي. فهم إذ لم يعودوا يشكلون نواة قوة الأمير، كان واضحاً أن هيمنتهم السياسية تتعرض إلى التقويض. ولكن انهيار هيمنتهم العسكرية انهياراً كاملاً لم يكن وارداً. فقد احتفظوا بتلاحمهم وسيطرتهم على مواردهم البشرية التي يستطيعون تعبئتها لأغراض عسكرية. يضاف إلى ذلك أن الأمراء كانوا حريصين على عدم استعداء حلفائهم البدو لأن هذا كان من المحتم أن يضعف مشروعيتهم.

هذه الملاحظات تضع موضع تساؤل الرأي المترسخ لابن خلدون الذي شدد في «المقدمة» على التناحر بين البدو والحضر، على طابع البدو الحربي وطبيعتهم الهمجية وعدائهم للعمران، للحياة الحضرية المتمدنة (ابن خلدون ١٩٨٧). وكرر هذه الآراء فيما بعد رحالة أوروبيون في القرن التاسع عشر. فإن كثرة النزاعات المسلحة والغزوات بين البدو أنفسهم وبين البدو والحضر في الجزيرة العربية استحوذت دائماً على خيال الرحالة الأوروبيين. كما كانت تسحرهم تلك المرويات والسرديات التي يحتفي فيها البدو بصولاتهم العسكرية. وغالباً ما كانت تقارير الرحالة زاخرة بالتعليقات ذات الطابع الرومانسي حول شجاعة البدو وشهامتهم، أو بالأوصاف التحقيرية لهمجية البدو وغريزة النهب المتأصلة فيهم، أي تعليقات من النمط الخلدوني. وهذا الأدب تناوله مؤخراً بالتمحيص والتقييم النقدي

متخصصون في هذا المضمار، ولن يجري تكراره هنا[٤]. وقد تأثر انثروبولوجيون حول الشرق الأوسط، لا سيما المعنيون بقضية العنف والنزاعات المسلحة في القرن التاسع عشر، بتقارير الرحالة الوصفية وإن كانت دراساتهم تحليلية أكثر. ولعل عمل روزنفيلد أكثر المحاولات منهجية لدراسة هيمنة البدو المزعومة على الحضر. وكتب روزنفيلد: «تبدو هذه عملية قديمة. فإن البدو العسكريين 'يحمون' المستوطنة من المغيرين واللصوص والسلاّب. وهم أساساً 'يحمون' الحضر من القبيلة التي تقدم الحماية ومن مغيرين آخرين أيضاً». (هـ. روزنفيلد H. Rosenfeld ١٩٦٥: ٧٨).

ورغم فهم روزنفيلد للآليات والعلاقات الاقتصادية وراء هذه العملية فقد تعرض إلى النقد لاخفاقه في متابعة دلالات بياناته نفسها. ويجادل أسد Asad بأن روزنفيلد يصور العلاقات بين رعويين وزراعيين على أنها علاقات تناحرية بشكل متأصل ويشدد تشديداً قوياً على الأفضلية العسكرية المزعومة التي يتمتع بها البدو على الحضر (ت. أسد T. Asad ١٩٧٣: ٦١). ويجادل أسد بأنه على النقيض من ذلك تكون للمركز الزراعي ـ التجاري المزدهر موارد أكبر للسيطرة على القبائل البدوية منها في الحالة المعكوسة (المصدر السابق: ١٠٢). وإذ يستخدم أسد منظوراً تاريخياً ويستقي أمثلة من الحيرة ومكة، يصحح هذه الآراء في ضوء أدلة من القرن السادس. ويذهب إلى أن الرعويين قد يساعدون في غزو أراضٍ جديدة ولكنهم لا يمكن أن يشكلوا جيش دولة نظامياً ويبقون رعويين (المصدر السابق: ٦٦). وهو يؤكد أن الرعويين كانوا في الماضي أكثر نجاحاً في مقاومة هياكل الهيمنة منه في فرضها.

صحيح أن حائل تمكنت من ايجاد قوتها العسكرية الخاصة التي نجحت إلى حد بعيد في فرض السلام والنظام في الأسواق، وإلى حد أقل في تهدئة البدو قرب الواحة. ومن الواضح أن هذا يطعن في الافتراض القائل إن لدى البدو ميلاً إلى الهيمنة على الحضر. ولكن ليس من السهل القول انه بسبب هيمنة حائل على المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية، كان السكان الحضر قادرين على الهيمنة على البدو. فإن قلب علاقات الهيمنة ليس هيناً وبسيطاً كما قد يبدو. ورغم أن الامارة في حائل وقوتها العسكرية كانت قادرة على تهدئة البدو والحد من تفوقهم العسكري في الصحراء بين حين وآخر عن طريق الرشاوى وأشكال من

الدعم والحملات التأديبية فإنها أخفقت في ايجاد وضع يتسم بإخضاع البدو واحتوائهم على نحو كامل. ويثير هذا السؤالَ عن سبب ذلك في وقت كانت حائل تمتلك فيه الوسائل اللازمة للقيام بذلك.

تكمن الاجابات عن هذا السؤال في طبيعة زعامة الأمراء ومصادر مشروعيتهم. فإن أصلهم البدوي وعلاقتهم القبلية مع شمّر ظلت طيلة حكمهم في حائل ايديولوجيا مُشَرْعِنة هامة. وقد وقع الأمراء في مأزق. فهم، من جهة، حاولوا الحفاظ على حكمهم وسيطرتهم على الريف لتأمين مصالحهم التجارية ومصالح سكان حائل. وكانوا، من الجهة الثانية، لا يريدون استعداء السكان البدو. وطالما أنهم كانوا قادرين على ادامة توازن قلق بين هذين الهدفين، كانوا يضمنون ولاء البدو دون اللجوء إلى اجراءات تأديبية. وكان العامل الحاسم قدرتهم على ابقاء تدفق أشكال الدعم إلى شيوخ القبائل على اختلافهم، الأمر الذي كان بدوره يضمن لهم ولاءهم. وكانت أشكال الدعم هذه تمثل بديلاً من الهيمنة المباشرة والمجابهة المكشوفة بين حائل وإمارتها من جهة والسكان القبليين المستقلين من الجهة الثانية. والجدير بالملاحظة أن هذا النمط ليس خاصاً بشمر. فإن فالينسي Valensi في دراستها للقبائل الجنوبية في تونس تذهب إلى أن ولاء رجال الخيم لا يقوم على موقعهم كرعايا وإنما على وفاقهم الطوعي مع الامارة. ويمكن وصف العلاقات بين السلطة المركزية وأراضي العمق بأنها علاقات تحالف أو عداء وليس علاقات خضوع وإخضاع. (ل. فالينسي L. Valensi ١٩٧٧ : ٣٤).

لقد كان الأمراء، حتى بقوتهم العسكرية الدائمة المنظمة، غير قادرين على تفكيك التكامل العسكري للعشائر البدوية التي ظلت تسيطر على فائضها الوحيد، أي مواردها البشرية. وكان رجال القبائل المسلحون يشكلون قوة مساعدة مستقلة تستجيب أحياناً لدعوة الأمراء إلى محضهم دعماً عسكرياً. ويمكن العثور على أدلة تؤكد ذلك في المرويات والسرديات التي يفخر فيها الأمراء وشمر على السواء بمؤازرة بعضهم بعضاً خلال الأزمات السياسية والعسكرية[٥]. ولكن هذا التعاضد كان ظرفياً ويعتمد اعتماداً كبيراً على قرب مضارب شمّر مكانياً من حائل ومصالحها في ذلك الوقت والغرض من العمل العسكري المطلوب دعمه. وكان غياب التكامل العسكري المنهجي بين امارة حائل وأطرافها البدوية أحد الأسباب وراء انحدار زعامة الأمراء خلال العقدين الأولين من القرن العشرين. فقد ظل

البدو قادرين على تغيير ولائهم ونقل مواردهم البشرية إلى مراكز قوة صاعدة أخرى في وسط الجزيرة العربية. وكان هذا على وجه التحديد ما حدث عندما أضعف ابن سعود سلطة آل الرشيد باستمالته بعض عشائر شمّر. إذ كانت حملاته العسكرية الناجحة وتحالفه مع بريطانيا، تعد بدعومات أكبر دفعت بعض المفقّرين والمهمشين إلى الالتحاق بقواته العسكرية والانقلاب على زعامتهم في حائل(٦).

بدلاً من التركيز على المسألة العامة المتعلقة بالهيمنة بين البدو والحضر، شدد بركهاردت على السياق الفعلي للعنف، على الغزو. وقد وصف غزوات شمّر التي كان غرضها، برأيه، الحصول على غنائم. ولكن الغزو لم يكن فورة منفلتة من أعمال العنف والقتل بل كانت له استراتيجيات وقواعد محدَّدة:

«كانت لدى عرب شمّر عادة غريبة في الهجوم ليلاً على مخيم العدو حين يصادف وجوده قرب مضاربهم. وإذا تمكنوا من الوصول إليه دون أن يُكتشف أمرهم يطوحون على حين غرة بأوتاد الخيمة الرئيسية. وفيما يحاول مَنْ بوغتوا تخليص أنفسهم من أغطية الخيمة التي هوت عليهم، يقوم المهاجمون بسوق الماشية». (ج. بركهاردت J. Burckhardt ١٨٣١: ١٤١ ـ ١٤٢).

وفي جوانب أخرى من الغزو قيل ان شمّر كانت تلتزم بالقواعد العامة. ويمكن تلخيص هذا على النحو الآتي: أولاً، أن هدف العملية ليس ابادة العدو بل الاستيلاء على غنائم. ثانياً، كانت النساء والعبيد والرعاة بمنأى من الهجوم. ثالثاً، كان يُبقى على حياة المدافع الذي يستسلم، وكان من المعيب خرق هذه القاعدة. ورابعاً، كانت الفرق المهاجمة تتجنب قتل الدخيل، أي مَنْ وضعوا أنفسهم تحت حماية العشيرة. وبالتالي إذا جرى الاستيلاء على ممتلكاتهم بطريق الخطأ، فإنهم يستطيعون المطالبة باستردادها من المجموعة المغيرة. ومن هذه القواعد كلها ربما كان اجتناب قتل العدو هو القاعدة التي تُحتَرَم أكثر من سواها لصعوبة السيطرة على العواقب الناجمة عن ذلك. إذ كانت أهمية الالتزام بالثأر تقوم بدور الرادع الذي يمنع تصاعد العمليات العسكرية إلى نزاعات دائمة(٧).

لقد استخدم انثروبولوجيون يعملون على السياق الفعلي للعنف أطروحة بركهاردت وآخرين لاعادة تمثيل غزوات القبائل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وعلى سبيل المثال تناقش سويت Sweet الغارات على الجِمال بين قبائل شمال الجزيرة العربية ذاهبة إلى أن هذه الغارات المتبادلة آليات لتداول الجِمال

بين مجموعات قبلية مختلفة. وقادتها محاجَّتها الثقافية ـ البيئية إلى القول بأن الغزو لم يكن رداً بسيطاً على أزمة محدَّدة في المتاح من الابل بل آلية لادامة النظام تعمل في عالم البدو بأسره «ان الاغارة على الجمال بصورة متبادلة، كممارسة متواصلة تعمل على المسافات الطويلة والقصيرة معاً، بين مناطق تربيتها القبلية، تحافظ على وجود تداول في الجمال وتربيتها على رقعة أرض قصوى للجمال والمجتمعات التي تتخصص في تربيتها وتعتمد عليها». (ل. سويت L. Sweet ١٩٦٥: ١١٣٢).

يمكن تطبيق تحليل سويت للغزوات على حالات يشن فيها أفراد لا يزيد عددهم على خمسين فرداً، هجوماً على مجموعات أخرى، كثيراً ما يسفر عن الاستيلاء على جمال. ولكن كانت هناك صدامات عسكرية واسعة أخرى بين مجموعات متزاحمة ومتعادية، لا يمكن أن توصف بأنها وسيلة لتداول الجمال. وسأجادل لاحقاً بأن بعض الحملات العسكرية التي نظمها أمراء آل الرشيد كانت معروفة كغزوات ولكنها تهدف إلى القهر والتوسع والدفاع. وأصبح الغزو بين أمراء حائل والمجموعات الأخرى، بما فيها قبائل ومراكز قوى أخرى في المنطقة، أكثر من نشاط عسكري يؤمِّن تداول فائض من الجمال. فقد كانت الغزوات هي الوسيلة التي جعلت الهيمنة السياسية والاقتصادية ممكنة. وكانت بعض الغزوات المحدودة النطاق بين أنساب بدوية صغيرة مدفوعة حتماً بإمكانية الاستيلاء على جمال، ولكن هذه الغزوات، حين تشنها مجموعات قوى قائمة، كانت تصبح متداخلة مع مَرْكَزة الزعامة السياسية وطموحات سلالية وتوسع اقليمي.

لقد أدت الثغرات الموجودة في محاجَّة سويت مؤخراً إلى ظهور نوع جديد من الأدب الانثروبولوجي. وكان ميكر من أوائل الذين نظروا إلى الغزوات القبلية من زاوية جديدة. فهو يرى أن العنف السياسي والبداوة الراكبة، التي تمارس رعي الإبل، كانا يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بين قبائل شمال الجزيرة العربية: «كان هناك ضغط متواصل بين البدو الرعويين في كل المنطقة القاحلة للاستثمار في أدوات عدوان شخصية. وبمرور الزمن أخذ هذا الاستثمار يزج الأفراد بصورة متزايدة في استراتيجيات سياسية وصراعٍ سياسي». (م. ميكر M. Meeker ١٩٧٩: ٩). وكان انكشاف الابل كثروة يعدّ البدو سلفاً إلى الاستثمار في أدوات عدوان للدفاع عن هذه الثروة. ولكن الجمل نفسه كان اداة عدوان. ويجادل ميكر بأن الثقافة البدوية ثقافة سياسية بدرجة كبيرة. «كان انكشاف ممتلكات محلية (الجمال) بفعل

الإمكان العدواني لمورد سياسي (الجمال) يحمل الرجال بعيداً عن العيش حياة محلية منتجة مادياً نحو نزعة مغامرة سياسية، لا أدرية، مجهولة الآفاق». (المصدر السابق: ١٨). وكانت في جوهر هذه الثقافة السياسية ممارسة العنف السياسي، وهي ممارسة كانت أحياناً تعتبر لعباً حياتياً ممتعاً ومسلياً وأحياناً أخرى نضالاً جاداً ضد الموت.

وينقل ميكر بؤرة تركيز التحليل من الغزوات الفعلية إلى شعر البدو ومروياتهم التي توثق غزواتهم. وهو يعتبر الغزوات لوناً من المغامرة السياسية. ولأن رعي الإبل لم يكن نشاطاً يتسم بكثافة العمل، كان لدى البدو ما يسميه ميكر «وقت فراغ بدوياً»: «كما لم يكن هناك شيء يُملأ به هذا العالم من وقت الفراغ سوى الحديث. وكانت كلمات هذه الأحاديث (القصائد والمرويات) مركز مجهود هدفه حل امكانات واستحالات علاقات سياسية غير محدَّدة». (المصدر السابق: ٢٧). بكلمات أخرى، أن الصوت الأدبي يتبلور بوصفه مركزاً لحياة شكلانية في غياب علاقات محدَّدة. وعلى النقيض من ذلك فإن سكان الواحات، بحسب ميكر، يشاطرون البدو ثقافة المغامرة السياسية، ولكنهم يميلون إلى التعامل معها بإيجاد قواعد والتزامات قرابية مستفيضة. فإن السكان الحضر يُوجِدون منظومة من المعايير الاجتماعية المتميزة تدور حول حرمة الحياة العائلية. وعلى سبيل المثال، كان تفضيل الزواج بابن العم أو بنت العم تعبيراً عن محاولة سكان الواحات لضمان «داخل» منزلي آمن ضد «خارج» سياسي محفوف بالمجاهيل.

هذه المحاجّات يمكن أن تُنقد على أسس متعددة. فأولاً، يتجاهل ميكر آليات أخرى كان البدو وسكان الواحات في الجزيرة العربية على السواء يستخدمونها للتعامل مع مشكلة الفوضى. وعلى سبيل المثال، شهد وسط الجزيرة العربية صعود امارات قبلية (في حالة شمّر) وحركات اصلاحية دينية (الوهابية) تهدف إلى اشاعة الاستقرار في العلاقات السياسية والعسكرية. وكانت هذه ردود أفعال ضد الميول الفوضوية المتأصلة في المنطقة. ثانياً، أن الافتراض القائل بأن القبائل ردت على الوضع الذي ينعدم فيه الوضوح السياسي بإيجاد قواعد مستفيضة تنظم الحياة العائلية، لا يصح على البدو وحدهم. فلدى كل المجتمعات تقريباً نوع من القواعد القرابية بدرجات متفاوتة من التعقيد. يضاف إلى ذلك أن العلاقة السببيّة بين اللايقين السياسي وظهور قواعد قرابية تحتاج، في رأيي، إلى مزيد من

التبرير والأدلة من مضامير ثقافية أخرى. ثالثاً، أن محاجّة ميكر القائلة إن سكان الواحات تعاملوا مع مشكلة الفوضى بتطبيق قواعد قرابية، يمكن أن تُطوَّر في الاتجاه المعاكس. فالجماعات الحضرية يمكن أن تعرِّف نفسها اقليمياً وبلغة هياكل اقتصادية وسياسية ثابتة في حين أن البدو ربما كانوا بحاجة إلى قواعد كهذه في غياب الإحساس القوي بالأرض الإقليمية.

معالجة ميكر لقصائد البدو ومروياتهم أيضاً تثير أسئلة. فهو، على سبيل المثال، يستخدم بلا تساؤل اقتباساً من دوتي يبين تأثير أفكار الرحالة من القرن التاسع عشر (المصدر السابق: ٢٨). وقاده انشغاله بقوة الشعر إلى اعتماد رأي دوتي القائل إن «الحس» (الصوت) يبدو في الصحراء منتوجاً انسانياً لافتاً يستحوذ على الانتباه (المصدر السابق). كما أن اهتمام ميكر، حسبما جادلت ل. أبو لُغد، بالعلاقة بين الشعر والسياسة قاده إلى استبعاد جوانب أخرى في الحياة الاجتماعية يقوم الأفراد بدور هام فيها. وتجادل ل. أبو لغد بأن المطابقة الحاذقة بين آراء رجال قبائل عرب ورجال أوروبيين قادت كلاً منهما إلى تعزيز مصلحة الآخر والاستهانة بجوانب أخرى من جوانب الخبرة والاهتمام. فالنساء في المجتمع البدوي يهتممن بالقضايا السياسية وبالقبيلة والنزاعات. ومن الجهة الثانية، لدى الرجال البدو اهتمامات أخرى غير سياسية نابعة من حقيقة أنهم ذوو عوائل، يُحبون وتتملكهم رغبات وتنزل بهم مآسٍ شخصية. وهي تقترح أن نوسع رؤيتنا للمجتمعات القبلية الشرق أوسطية كي تشمل هذه الأبعاد من الخبرة في تحليل الحياة الاجتماعية. (ل. أبو لغد L. Abu-Lughod ١٩٨٦: ٣٠).

ان تحليل غزو القبائل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يتعين، بالتعريف، ان يُجرى بمنظور تاريخي. ويمكن بناء معرفتنا للغزوات القبلية من سجلات تاريخية (أولية وثانوية على السواء) ومن قصائد ومرويات بدوية باقية ما زالت تُحفظ وتُروى. ويمكن أن تؤدي هذه المصادر إلى نتيجتين مختلفتين ولكنهما ليستا بالضرورة متعارضتين. فإن تفسير الغزوات تفسيراً يقوم على معطيات تاريخية يمكن أن يركز الاهتمام على عواقب هذه الغزوات وصلتها بتكوين هياكل سياسية. وعلى النقيض من ذلك فإن التحليل القائم على الموروث المتراكم من الشعر البدوي يُدخل الباحث في عالم الأدب والرمزية والثقافة المعيارية، أي أنه يمكّننا من دراسة الشعر لا كتعبير عن الحياة الاجتماعية والسياسية فحسب بل وبوصفه انعكاساً فنياً

لقيم ومعايير واهتمامات بدوية تتعلق بحياة البدو عموماً. وفي القسم التالي سأتناول الغزو من منظور أهدافه ونتائجه مبنيّةً من مصادر تاريخية، وفي الفصل القادم ستُعالَج شعريات الغزو.

الفتح والتوسع والدفاع

مع التغير الذي حدث بمرور الزمن في تركيب قوات الأمراء العسكرية، تغيرت أيضاً أهداف حملاتهم العسكرية. وخلال حكم الأمراء في حائل، يمكن تشخيص ثلاث مراحل: مرحلة مبكرة من الفتح (قبل عام ١٨٣٦) ومرحلة متوسطة من التوسع الاقليمي (١٨٣٦ ـ ١٩٠٠) ومرحلة أخيرة من الدفاع (١٩٠٠ ـ ١٩٢١). وعلى الرغم من اعطاء تواريخ محدَّدة هنا، فإنها ينبغي أن تُفهم كتقدير تقريبي للزمن الذي حدثت فيه هذه التغيرات. وقد كان الانتقال من الفتح إلى التوسع والدفاع عملية تدريجية مدفوعة بعدد من العوامل والظروف مثل النزاعات السياسية ومدى هيمنة الأمراء العسكرية والسياسية وصعود مراكز قوى جديدة في المنطقة.

الفتح

في الحقبة السابقة على عام ١٨٣٦ كانت جهود عبد الله بن رشيد العسكرية منصبَّة على حل الصراع على السلطة بينه وبين ابن عمه، ابن علي، حاكم حائل وقتذاك. وتزامنت طموحات ابن رشيد السياسية مع تصاعد الاستياء بين شمّر، وخاصة آل جعفر. وفي الفصل الثاني وصفتُ كيف وقعت منطقة جبل شمّر وحائل ضمن دائرة النفوذ السعودي ـ الوهابي، مهدداً ادارة شمّر الذاتية وناجحاً في اضعاف استقلالها. فقد رفضت شمّر علاقات ابن علي الودية مع حكام الامارة السعودية ـ الوهابية الأولى، وهجمات القوات المصرية التي جاءت إلى وسط الجزيرة العربية بنيَّة إنهاء الهيمنة السعودية.

هذه العوامل مهدت الطريق لنجاح ابن رشيد في نيل دعم شمّر العسكري وتوجيهه لاطاحة ابن عمه. وخلال فترة اغتراب ابن رشيد حاول ان يعبىء شمّر ويكسب ولاءها من خلال المشاركة في حملاتها العسكرية ضد القبائل الأخرى في المنطقة. وكانت مثل هذه الحملات ممارسة مألوفة، لا سيما في فترة الفوضى التي أعقبت الاجتياحات المصرية وانسحاب قواتها من وسط الجزيرة العربية. فاشتدت

الغزوات والغزوات المضادة نتيجة فراغ السلطة الذي أوجده انفراط الامارة السعودية ـ الوهابية الأولى والسلطة الهشة للامارة الثانية. وكثيراً ما كان التنافس بين القبائل المحلية المختلفة على توزيع موارد المنطقة الطبيعية يؤدي إلى اندلاع أعمال العنف والعدوان. وكانت شمّر تكافح في ذلك الوقت لايجاد مجال آمن لنفسها وسط البلبلة والفوضى. وكانت تتزاحم دائماً مع قبيلة عنزة المجاورة لها على الاستئثار باستخدام المراعي والماء ـ لا في وسط الجزيرة العربية فحسب بل وفي الصحراء السورية التي نزحت إليها وتوطنت فيها بعض العشائر الشمرية. وقاد اندلاع العنف باستمرار بين القبيلتين، بركهاردت إلى الاعتقاد أن شمّر كانت العدو اللدود لقبيلة عنزة (بركهاردت Burckhardt ١٨٣١ : ٣٠). وما زال النزاع المسلح بينهما يُذكر في المنطقة حيث تحكى مرويات وتُنشد قصائد تذكيراً بالفترة المديدة من العداء بين القبيلتين.

ويصف أحد مرويات شمّر بالتفصيل كيف وصلت عنزة بقيادة عقاب وحجاب، وَلَدَي شيخها سعدون العواجي، إلى منطقة تبعد ست ساعات ركوباً عن حائل بنية الاغارة على شمّر. وما إن وصلت عنزة إلى المنطقة حتى ضربت حصاراً على بدو شمّر المخيمين هناك. ويزعم الشمّريون أن عنزة أغارت عليهم واستولت على إبلهم. وكانت هذه الغزوة معروفة باسم «المناخ»، وهي تسمية تشير إلى فشل شمّر في مواصلة نشاطها الرعوي نتيجة الحصار الذي شلَّ إبلها. ويكشف السرد أن الشمريين المحاصرين أنقذهم عبد الله بن رشيد الذي تمكن من قتل وَلَدَي سعدون العواجي. وكانت هذه واقعة مشهورة في تاريخ العنف بين شمّر وعنزة. وكانت لدى القبيلتين على السواء روايات مستفيضة عنها وما زالتا حتى اليوم الحاضر تنشدان القصائد التي نُظمت في ذلك الوقت استجابة للحدث (س. صوايان S. Sowayan ١٩٨٥).

وكان من مشاغل شمّر الكبيرة حينذاك تنظيم وحدات عسكرية لمواجهة الأخطار والغزوات الخارجية. وكانت تعبئة وحدات قبلية كبيرة لأغراض الفتح والحفاظ على الاستقلال تعمل لصالح تبلور قيادة مركزية. إذ كان النجاح في تنظيم اجتياحات قاهرة وغزوات وغزوات مضادة تشنها شمّر المشتتة، يعتمد إلى حد بعيد على وجود قيادة كهذه، يشتمل دورها على تنسيق حملات عسكرية مختلفة. وتزامن هذا مع رغبة ابن رشيد في فتح حائل وإقامة قاعدة سلطته هناك. وكان ابن رشيد

يوجه النشاطات العسكرية المنسقة نحو تحقيق هذا الهدف. فلقد كان فتح حائل يتسم بأهمية حاسمة لتعزيز منصب الأمير. ولكن ينبغي التأكيد هنا على أن الحرب أو الصراع المسلح بحد ذاته ليس هو الذي كان يدفع نحو مركزة القيادة بين شمّر. فالغزوات والغزوات المضادة كانت دائماً شائعة بين القبائل البدوية في المنطقة وسواها من الأماكن الأخرى، ولكنها لم تكن تؤدي بالضرورة إلى تكوين أنظمة سياسية مركزية. فإن بعضاً من أشد القبائل المحاربة مثل النوير والمساي في شرق افريقيا تعاملت مع أوضاع من النزاع المسلح والعدوان دون أن تستحث هذه نشوء منصب قيادي مركزي[٨]. وفي حالة شمّر كان يبدو أن فتح حائل وتنصيب الأمراء عززا الاتجاه نحو المرْكَزة السياسية.

لعل اندريسكي كان من أوائل الذين لفتوا انتباهنا إلى الأخطار الكامنة في طرح آراء حتمية حول العلاقة السببية بين الصراع المسلح ونشوء زعامة مركزية. فهو يجادل أن الحرب بحد ذاتها ليست هي التي تشكل حاضنة الحكم الاستبدادي بل القهر الذي يمكن أن تفضي إليه (س. اندريسكي S. Andreski ١٩٦٨ : ٩٤). لذلك من المهم تشخيص سياق الحرب ونتائجها والفاعلين المنخرطين فيها قبل الخلوص إلى تعميمات حول وجود علاقة سببية بين الصراع المسلح والهيكل والتنظيم السياسيين.

في حالة شمّر يمكن القول إن صداماتها العسكرية مع عنزة وغيرها من القبائل ما كانت لتتمخض بالضرورة عن استحداث منصب الأمير. فلو لم يعقب هذا النزاع فتح حائل وما أمّنه ذلك من منافع اقتصادية لكان من المرجح أن تتفكك زعامة الأمراء بعد انتهاء الغارات ومخاطر العنف. لذا سيكون من المضلل طرح افتراضات حتمية مثل افتراضات آيرنز Irons (١٩٧١ و١٩٧٩) وكارنيرو Carneiro (١٩٧٨) اللذين يؤكدان أن الحاجة إلى تنسيق الصراع وحسمه تؤدي حتماً إلى ظهور زعامة مركزية. ويجادل آيرنز أن هذه هي الشروط اللازمة لنشوء منصب قيادي له سلطة فرض الحل السلمي للصراع، في حين يشدد كارنيرو على أن الحرب هي الآلية لكي تنشأ وتتكون سياسياً وحدات سياسية فوق الجماعة. (ر. كارنيرو R. Carneiro ١٩٧٨ : ٢١٠). ويناقش هذه القضايا أيضاً أ. ماركس E. Marx الذي يستخدم لغة أقل حتمية عندما يشير بصواب إلى أنه في حالة البدو العرب لا يسفر التزاحم على موارد اقتصادية مثل الماء والمرتع،

بالضرورة، عن قيام زعامة قبلية قوية، وأنه بكل تأكيد لا يفضي إلى تكوين دول بدوية. فإن البدو لا يضطرون إلى طلب الحماية من حاكم أو إقامة رابطة سياسية لأنفسهم تضاهي رابطة أعدائهم، إلا تحت ضغط جيران معادين (أ. ماركس E. Marx ١٩٧٧ : ٣٤٣ ـ ٣٦٣). ولكن من الضروري أن يضاف أن العداء بين قبائل متجاورة، على الأقل في الجزيرة العربية، لم يكن دائماً يُنمِّي نشوء الحماية. إذ كان من الأرجح أن تنشأ علاقات الحماية عندما تنجح الزعامة البدوية في اخضاع واحة ذات موارد اقتصادية هامة لا تتوفر بالضرورة من الواحة نفسها. وفي حالة أمراء حائل، كانت عائداتهم من السيطرة على التجارة والاتاوات تتيح لهم ليس فقط تقديم أشكال من الدعم لشيوخ عشائر شمّر بل وشن حملات عسكرية بهدف التوسع الإقليمي.

التوسع

بعد فتح حائل أخذت حملات الأمراء العسكرية تدور حول التوسع الاقليمي. وأسفرت المحاولة الأولى عن اخضاع واحة الجوف التي وقعت في وقت مبكر من القرن التاسع عشر تحت الهيمنة السعودية ـ الوهابية. ولكن حين وضع الغزو المصري نهاية لهذه الهيمنة بدا أن الجوف تحررت من السيطرة السعودية. واستناداً إلى بعض التقارير، كانت تعاني من صراعات داخلية على السلطة:

«ولكن حين سقطت سلطة الوهابيين أمام الباشا المصري الذي احتلت قواته كل إقليم من أقاليم نجد وشمال الجزيرة العربية باستثناء الجوف وحدها، عادت المدينة إلى حالتها السابقة من البلبلة والشقاق، التي دامت إلى أن أرسل عبد الله بن رشيد، بعد توطيد سلطته في جبل شمّر، أخاه عبيد الله إلى الجوف لإنهاء التناحر المذكور أعلاه». (غ. والن G. Wallin ١٨٥٤ ١٤٦).

يبدو أن الصراعات الداخلية بين الدوائر المختلفة في الجوف كانت تجري بين حي الدلهمية وحي شعارى من جهة وحي خُثمة وحي القروي من الجهة الثانية. ورغم أن أسباب النزاع ظلت غير واضحة، بدا أن اندلاع العنف بين الجانبين أدى إلى تدمير حي القروي الذي كانت تسكن جزءاً منه عشيرة الرمال الشمرية. وكانت هذه قد نزحت إلى الجوف من واحة أخرى في صحراء النفود الكبرى، هي واحة جُبَّة. ولعل اخضاع عبد الله للجوف كان محاولة ترمي إلى ضمان أمن عشيرة الرمال الشمرية.

أرسل ابن رشيد شقيقه عبيداً ومعه ٣٠٠٠ راكب جمل ضد الواحة المنقسمة على نفسها التي أصبحت فيما بعد تدفع له الاتاوة. ويقول والن وموسيل على السواء إن ابن رشيد لم يعين حاكماً للواحة على الفور لأنه كان لكل حي شيخه. وكان هؤلاء يصرفون الشؤون الداخلية لأحيائهم ويحيلون القضايا الأكثر أهمية إلى الأمير في حائل. وكان يجمع الاتاوة من الجوف خمسة رجال عينهم الأمير من بين سكان الجوف.

في عام ١٨٥٣ جرد طلال، خلف عبد الله، حملة أخرى ضد الواحة التي رفض سكانها دفع الاتاوة بعد موت عبد الله بن رشيد. وكانت حملة طلال لا تهدف إلى إعادة العلاقات الاتاوية فحسب بل كانت أيضاً استراتيجية لتعزيز سلطته ونفوذه:

سنحت فرصة في عام ١٨٥٣ عندما دخلت مستوطنة الجوف التي كانت تدفع الاتاوة فقط إلى سيدها في حائل، حرباً جديدة بين سكانها ضد بعضهم البعض، ورفض الطرف الأقوى دفع الاتاوة. وما ان بلغ هذا النبأ حائل حتى أرسل طلال قوة كبيرة بقيادة عمه عبيد وشقيقه متعب اللذين سرعان ما استسلمت لهما مستوطنة الجوف. (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٣٩).

هذه المجابهة الأخيرة في الجوف وضعت الواحة في دائرة نفوذ أمراء آل الرشيد الذي أصبح يمتد إلى شمال جبل شمّر.

وأدى توسع الأمراء جنوباً إلى اندلاع أعمال العنف في منطقة القصيم حيث جرت معركة بقعا في عام ١٨٤٢. وكانت بقعا قرية صغيرة تقع على بعد ٩٥ ميلاً من حائل. وفي هذه المعركة قاتل ابن رشيد وأنصاره الشمّريون من جهة ضد أمير بريدة في القصيم وأنصاره من بين قبيلة عنزة من الجهة الثانية. وكانت أعمال العداء بين جبل شمّر والقصيم تتأجج بالمنافسة بين المنطقتين حول سيطرتهما على تجارة القوافل. وكانت شمّر وأمراء آل الرشيد قد بسطوا سيطرتهم على جبل شمّر وواحاته فيما كانت القاسم ضمن دائرة نفوذ قبيلة عنزة.

وعُزي اندلاع العمليات القتالية إلى غارة شنها غازي بن ذبيان، شيخ عشيرة الدهامشة العنزية، على عشيرة الأسلم الشمرية. وحدثت الغارة بتشجيع من أمير بريدة. وألحق الدهامشة هزيمة بأسلم واستولوا على بعض إبلها. وكان رد فعل ابن

رشيد الثأر لهذه الهزيمة بالإغارة على الدهامشة والاستيلاء على غنائم منهم. وكان تصعيد العمليات الحربية سيتوقف عند هذا الحد لو لم يستنفر أمير عُنيزة (عُنيزة واحة في منطقة القاسم وينبغي عدم الخلط بينها وبين قبيلة عنزة) عشيرتي الصقور والسلاطين من قبيلته ضد شمّر وزعامتها.

وقام ابن رشيد بتعبئة اتباعه من شمّر للدفاع عن أرضهم، وإذا أمكن للهجوم على منطقة القصيم (ف. المارك ١٣٨٦ هـ: ١٣٠ ـ ١٣٢). والتقى الطرفان في بقعا وخرجت شمّر منتصرة من المعركة. ويذكر المؤرخ النجدي المحلي ابن بشر أن ٨٠ شخصاً من قبيلة عنزة و٧٠ شخصاً من أهل مدينة بريدة و٣٠٠ شخص من منطقة القصيم لاقوا مصرعهم (ابن بشر ١٩٣٠: ١١٧ ـ ١١٨ الجزء الثاني). ولكن المناوشات العسكرية بين المنطقتين استمرت حتى بعد انتهاء المعركة.

خلال حكم محمد بن رشيد (١٨٦٩ ـ ١٨٩٧) ظلت أهداف الحملات العسكرية تدور حول التوسع الإقليمي والاستيلاء على واحات جديدة. وشمل توسع ابن رشيد، في هذه المرحلة، إخضاع أراض تعود إلى مراكز قوى أخرى في وسط الجزيرة العربية، بما فيها القصيم والرياض. وأصبح سكان المدن الكبيرة في القصم أي عُنيزة وبريدة، يدفعون الاتاوة إلى أمير حائل. يضاف إلى ذلك أن حملات الأمير تسببت في انهيار سلطة الأئمة السعوديين الهشة نوعاً ما. فإن سقوط الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية كان على أيدي أمراء آل الرشيد وليس نتيجة تدخل خارجي كما كانت الحال مع الامارة الأولى.

لا يمكن النظر إلى قدرة ابن رشيد على توسيع دائرة نفوذه إلى مجال السلطة السعودية ـ الوهابية إلا بالاشارة إلى الانقسام الداخلي الذي حدث بين أبناء الإمام فيصل الأربعة في عام ١٨٦٥. فبعد موت فيصل أصبح ابنه الأكبر عبد الله إماماً. ورفض شقيقه سعود استبعاده من السلطة وبدأ سلسلة من الاتصالات مع حكام عسير، العايض، في محاولة لكسب تأييدهم. وتوصل عن طريق المفاوضات إلى إقامة تحالف مع قبيلة المرّة في الربع الخالي، والعجمان والدواسر. وكانت هذه الأخيرة تحاول الحفاظ على ادارتها الذاتية واستقلالها السياسي بالتحالف مع غريم عبد الله. وتكللت هذه التحالفات بمعركة جربا في عام ١٨٧٠. واستناداً إلى أبو علية، فإن الصراع الداخلي بين الأشقاء السعوديين كانت تذكيه رغبة مجموعات بدوية مختلفة في التحرر من الهيمنة السعودية. وبعد هزيمة عبد الله في جربا

هرب من الرياض إلى حائل في محاولة فاشلة لكسب دعم محمد بن رشيد (أبو علية ١٩٦٩ : ١٥٦ ـ ١٩٧). وكما رأينا في الفصل الثالث فإن ابن رشيد استغل هذا النزاع الداخلي وراح يخطط لإخضاع عاصمتهم الرياض.

أسفر الصدام العسكري بين محمد بن رشيد والسعوديين عن معركة مليدة، حين بدأت تتبلور تحالفات قبلية. فقد حارب ابن رشيد ضد تحالف قبائل كانت لديها في حينه مصلحة في وقف توسعه الاقليمي جنوباً. وكان توسع أمراء آل رشيد قد أضعف استقلال المدينتين الرئيسيتين في منطقة القصيم، وهما عُنيزة وبريدة. وأدرك حاكما هاتين المدينتين في مرحلة مبكرة أن مصالحهما تنسجم مع مصالح السعوديين الذين وضعهم أمير حائل تحت ضغط متزايد. يضاف إلى ذلك أن قبيلتي عنزة ومطير كانتا ضد هيمنة شمّر المتنامية. وحدث التقاء مصالح ومعارضة مشتركة بين هذه المجموعات المختلفة. (ر. وايندر R. Winder ١٩٦٥ : ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

في أواخر تسعينات القرن التاسع عشر شُكِّل اتحاد هش ضد آل الرشيد. إذ كان سكان عنيزة بقيادة زامل وسكان بريدة بقيادة حسن بن مهنا والحاكم السعودي مصممين على وقف توسع ابن رشيد. ولمواجهة هذا التحالف أقام ابن رشيد حلفه الخاص من القبائل. واستناداً إلى موسيل، أرسل ابن رشيد أربعين مبعوثاً على أربعين ناقة مبرقعة بقماش الخيام الأسود إلى عشائر شمّرية مختلفة كانت مضاربها حينذاك بين كربلاء والبصرة في العراق. وكان يراد بالأغطية السوداء أن يُنقل إليها بوضوح أن العار سوف يسوِّد وجوهها وشرفها إذا لم تهرع لنجدة زعامتها. (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٧٩). كما سعى ابن رشيد إلى نيل دعم قبائل حرب والمنتفق وضفير. والتحم معسكرا آل الرشيد والسعوديين في مليدة، على بعد عشرين ميلاً غرب بريدة في منطقة القصيم. (ض. ابن رشيد ١٩٦٦ : ١٣ وأ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٧٩ ـ ٢٨٠ وج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٨ : ١١٧٧ الجزء الأول وج. فيلبي J. Philby ١٩٥٥ : ٢٧٠ ـ ٢٧٣).

دحر ابن رشيد أعداءه وتمكن من توسيع دائرة نفوذه إلى أرضهم. وقُتل زامل، أمير عُنيزة في المعركة فيما أُخذ أمير بريدة، حسن بن مهنا، إلى حائل رهينة. وهُزم جيش القصيم وتكبد خسائر في الأرواح بين ٦٠٠ و١٢٠٠ رجل. وهرب آخر الأئمة السعوديين، عبد الرحمن، مع أسرته إلى الكويت[١٠]. ولتوطيد

سلطته في المناطق المقهورة قرر ابن رشيد تعيين سالم بن سبهان حاكم بريدة، وأحد أفراد عائلة زامل لتبوّؤ المنصب المقابل في عُنيزة. كما ضُمت العاصمة السعودية الرياض إلى مُلك ابن رشيد وعيَّن ممثليه في المدينة (ر. وايندر R. Winder ١٩٦٥ : ٢٧٧ وأ. أبو علية ١٩٦٩ : ١٨٥ وأ. الريحاني ١٩٧٣ : ١٠٤).

اعتمد ابن رشيد في معركة مليدة على أربع مجموعات. أولاً، قام بتعبئة أبناء شمّر من الحضر والبدو مصوراً خصومه بأنهم أعداء شمّر المشتركون. وعملت المناوشات ضد أراضي شمّر لصالح ابن رشيد الذي نال تأييداً لحملاته العسكرية. ثانياً، تحالفت «قبائل الحلف» مع ابن رشيد لأنها كانت مدفوعة بإمكانية الاستيلاء على غنائم من الطرف المهزوم. ثالثاً، أدى عَبيد الأمير وحرسه واجبهم نحو سيدهم وشاركوا في حملاته العسكرية. ورابعاً، وفر المجندون من مدن جبل شمّر وواحاته قوة عسكرية موثوقة استخدمها ابن رشيد بانتظام في توسعه. ويُعتقد أن مشاركتهم ضمنت هيمنة حائل، اقتصادياً وسياسياً.

في نهاية القرن التاسع عشر كان توسع ابن رشيد توسعاً اقليمياً، وتحقيق أهدافه في تأسيس إمارة واتساع دائرة نفوذه، هي الأهداف الرئيسية لحملاته العسكرية. وعندما توفي محمد بن رشيد في عام ١٨٩٧ كانت هيمنة آل الرشيد تمتد من حدود حلب ودمشق إلى البصرة وعُمان وعسير (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ : ٢٤٨). وواجه خلفه عبد العزيز المشكلة المتمثلة في الدفاع عن هذه الممتلكات لأنه، رغم تعيين ممثلين وحكام في المناطق المقهورة، لم تُبسط سيطرة وطيدة. وعملت شحة الموارد في المنطقة، مرتبطة بضعف البنية الارتكازية لوسائل النقل، ضد دمج هذه المناطق دمجاً كاملاً في وحدة واحدة. لذا من الأصوب وصف هذا التوسع بأنه نشر نفوذ وليس سيطرة مباشرة على الأراضي المقهورة.

الدفاع

حدث الانتقال من التوسع إلى الدفاع بتأثير اعادة بناء السلطة السعودية في الرياض في عام ١٩٠٢. فإن عبد العزيز بن سعود، المعروف باسم ابن سعود، نجل آخر الأئمة السعوديين، عبد الرحمن، عقد العزم على استرداد عاصمة أجداده من أمراء آل الرشيد، ومهد هذا الطريق لوقوع مجابهات لاحقة.

حاول السعوديون خلال منفاهم في الكويت، أن يكسبوا دعم أمير الكويت، مبارك بن صباح. والأكثر من ذلك أنهم أقاموا اتصالات مع قبائل مطير والمنتفق والعجمان البدوية في محاولة لإقامة تحالف موجّه بالأساس ضد ابن رشيد. وأصبحت الكويت قاعدة أنطلق منها ابن سعود في مفاوضاته مع شيوخ القبائل لغرض الهجوم على حكام حائل. وعندما واجه أمير حائل، عبد العزيز بن رشيد، انبعاث القوة السعودية من جديد طلب دعم والي البصرة العثماني. وتمكن من كسبه إلى جانبه لأنه كانت لدى الوالي مصلحة خاصة في مهاجمة الكويت التي بدا في ذلك الوقت أنها أخذت تقع بصورة متزايدة في دائرة النفوذ البريطاني (أ. فاسيليف ١٩٨٦ : ٢٥٠)[11]. وأرسل ابن رشيد برقية إلى الوزير الأكبر في اسطنبول مكرراً طلبه تخويل الحكومة الأمبراطورية «للهجوم على الشيخ مبارك بن صباح، شيخ الكويت، على أساس أن هذا الأخير هاجم أراضي شمّر ونهبها». IOR,R/15/5/ (24، اوكونر O'Conor إلى مركيز لانزداون Marquess of Lansdowne، ١٥ شباط/فبراير ١٩٠٤). وجرت أول حملة عسكرية بين أمير حائل من جهة وأمير الكويت وابن سعود والقبائل المتحالفة معهما من الجهة الثانية. ودحر ابن رشيد معسكراتهم في موقع يسمى الصريف في عام ١٩٠١.

أقدم ابن صباح على احاطة ابن سعود برعايته، وتراجعا معاً إلى الكويت. وتعقَّبهما ابن رشيد بهدف الانقضاض عليهما في أرضهما. فقد كان يتطلع إلى توسيع دائرة نفوذه لتشمل الكويت من أجل تقليل الأخطار التي تمثلها بإقامة ابن سعود هناك. كما كان ابن رشيد يسعى إلى كسر عزلة حائل الجغرافية عن البحر وبسط سيطرته على ميناء الكويت الذي يمكن ضمان تدفق السلاح والعتاد إلى حائل عن طريقه.

لم يتكلل الهجوم على الكويت بالنجاح بسبب تدخل القوات البحرية البريطانية التي فتحت النار على رجال شمّر وأجبرتهم على الانكفاء إلى وسط الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه رفع القنصل البريطاني في اسطنبول شكوى إلى الحكومة العثمانية حول حملات ابن رشيد العسكرية ضد الكويت. وتم التوصل إلى اتفاق بين الحكومتين البريطانية والعثمانية حول الإبقاء على الوضع القائم في المنطقة. وشجع هذا الاتفاق على الحفاظ على ميزان القوى بين مراكز القوى المحلية، أي بين ابن صباح وابن رشيد وابن سعود. (ر. بدويل R. Bidwell،

المطبوعات السرية لوزارة الخارجية، شؤون الجزيرة العربية، ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦، الجـزء الأول، ص ١٣ FO Confidential Print, Affairs of Arabia, 1905-6, vol I, p. XIII).

في هذه المرحلة كانت حملات ابن رشيد العسكرية دفاعاً عن ممتلكاته التي كسبها خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر. وكان التحدي الرئيسي في مواجهة أمراء حائل صعود قوة ابن سعود الذي كان عازماً على اعادة سيطرته على الرياض ـ وأعادها بالفعل في عام ١٩٠٢. وبمساعدة أمير الكويت وقبائل العجمان والسبيع والسهول والمرّة استرد ابن سعود الرياض من ابن رشيد بعد قتل ممثله، عجلان بن محمد (ابن هذلول ١٩٦١: ٥٧ ـ ٦٠، وف. حمزة ١٩٣٣: ١٣٢ وأ. الريحاني ١٩٧٣: ١٠٨ ـ ١١٣ وج. فيلبي J. Philby ١٩٥٥: ٢٣١).

وما ان استتب الوضع لابن سعود حتى شرع في توسيع هيمنته على نجد. ونتيجة لذلك أصبحت الصدامات مع ابن رشيد على منطقة القصيم محتومة. وفي عام ١٩٠٤ زحف ابن رشيد على المنطقة وتمكن من الاستيلاء على مدينة عنيزة وتنصيب عبد العزيز بن سالم حاكماً في المدينة (ابن هذلول ١٩٦١: ٢٤٥ وج. فيلبي J. Philby ١٩٥٥: ٢٤٥). وفيما بعد ضُمت بريدة، المدينة الكبيرة الثانية في القصيم، إلى مُلك ابن سعود، وسُمح لقوات شمّر (١٥٠ رجلاً) في المنطقة بالعودة إلى حائل. وكان يتابع هذه الأحداث المسؤولون العثمانيون الذين قرروا في نهاية المطاف دعم ابن رشيد في محاولة لاعادة ميزان القوى إلى ما كان عليه في المنطقة. فقد اعتبرت الحكومة العثمانية حملات ابن سعود العسكرية في منطقة القصيم تحدياً لسلطتها في نجد، وخاصة حين كان واضحاً أن الحكومة البريطانية وممثليها في الخليج أعطوا موافقتهم على نشاطات ابن سعود. (أ. فاسيليف ١٩٨٦: ٢٥٧). وبلغت الاشتباكات بين ابن رشيد وحلفائه الأتراك من جهة وابن سعود من الجهة الثانية، ذروتها في معركة البكيرية في عام ١٩٠٦. وخسر العثمانيون ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ رجل فيما فقد ابن رشيد ٣٠٠ ـ ٥٠٠ رجل (المصدر السابق: ٢٥٨). وقُدرت خسائر ابن سعود بأكثر من ١٠٠٠ رجل. ولكن القوات التركية هُزمت وعبد العزيز بن رشيد لقي مصرعه في المعركة التي وقعت في روضة مهنا في عام ١٩٠٦.

أعقبت هزيمة ابن رشيد سلسلة من الاشتباكات الصغيرة بين خلفائه وابن

سعود. ولعل أشهر معركة كانت معركة جراب في عام ١٩١٥ عندما قُتل النقيب و. شكسبير Captain W. Shakespear الذي كان يرافق ابن سعود. وخلال هذه المعركة استحضرت قوات شمّر صرخة حربها القبلية التي كان يراد بها شحذ هممها وتعزيز تضامنها كوحدة قبلية فيما رددت القوات السعودية صرختها الحربية التي تشدد على طابع المواجهة الديني ورؤيتها لهذه المواجهة بوصفها «جهاداً».

بالاضافة إلى الخسائر التي تكبدها ابن رشيد في منطقتي نجد والقصيم الجنوبيتين، فَقَد سيطرته على مدينة الجوف الشمالية التي غيرت ولاءها إلى أمير الروالة، ابن شعلان. وعموماً لم تكن أحداث العقدين الأول والثاني من القرن العشرين لصالح أمراء آل الرشيد. فقد أصبح حكمهم يقتصر على منطقة جبل شمّر وحائل. وخسروا عاصمتهم بالكامل إلى ابن سعود في عام ١٩٢١ لينتهي بذلك حكمهم في موطنهم ذاته[١٣].

وختاماً، كانت السمة البارزة للصدامات العسكرية في هذه المرحلة الأخيرة، زيادة تدخل القوى الأجنبية من عثمانيين وبريطانيين في المنطقة. وتجسد هذا التدخل في ارسال مزيد من أشكال الدعم والأسلحة إلى مراكز القوى المحلية في المنطقة، وهي ممارسة ساهمت في تسعير أعمال العنف والصراع في وسط الجزيرة العربية. وفي بداية القرن العشرين اشتمل التدخل العثماني على زيادة أشكال الدعم المقدمة لابن رشيد الذي كان يُنتَظر منه تنفيذ الخطط العثمانية: «رُفعت المخصصات التي تدفعها الحكومة التركية إلى أمير جبل شمّر الشاب، سعود بن عبد العزيز، مؤخراً، من ١٥٠ إلى ٢٠٠ جنيه استرليني في الشهر. ونال لقب أمير العمارة في عام ١٩١٠». (IOR,R/15/5/25).

بالاضافة إلى هذا الدعم المالي مد العثمانيون ابن رشيد بالبنادق والعتاد وحتى شاركوا في القتال، لا سيما في منطقتي القصيم والاحساء. وقدر لوريمر عدد القوات العثمانية التي أرسلت في الفترة الواقعة بين ١٩٠٤ و١٩٠٥ بـ ٤٥٠٠ رجل (ج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٨: ١١٥٥ ـ ١١٥٦). وعلى الغرار نفسه أخذت الحكومة البريطانية تبدي اهتماماً أكبر بوسط الجزيرة العربية في مطلع القرن العشرين. وكان المسؤولون البريطانيون في منطقة الخليج يقدمون دعماً مالياً للأصدقاء من الأمراء والشيوخ مثل ابن سعود وابن صباح. والأكثر من ذلك أنهم حاولوا زيادة اعتماد مجموعات محلية على مواردهم من خلال سلسلة من اتفاقيات

الحماية. وعلى سبيل المثال، وقع أمير الكويت معاهدة سرية مع بريطانيا في عام ١٨٩٩. ومقابل الحماية كان على الكويت أن تقدم امتيازات محدَّدة إلى بريطانيا مثل حرية الحركة والتمتع بموقع ممتاز ازاء القوى الأجنبية الأخرى (المصدر السابق: ١٠٤٩ ـ ١٠٥٠). كما وقع ابن سعود معاهدة مماثلة مع بريطانيا في عام ١٩١٥، منعته من اقامة أي اتصالات مع القوى الأجنبية الأخرى من دون التشاور سلفاً مع الحكومة البريطانية وممثليها في المنطقة. وبالمقابل، أقرت بريطانيا بسيطرة ابن سعود على نجد والاحساء وقطيف وجبيل وكل المدن والموانئ الواقعة في هذه المناطق. كما كان يحق له تسلم معونة شهرية قدرها ٥٠٠٠ جنيه استرليني بالاضافة إلى أسلحة وذخائر (أ. فاسيليف ١٩٨٦: ٢٨٢ ـ ٢٨٤ وسي. في. ايتشيسن C.V. Aitchison ١٩٣٣: ٢٠٦).

وأخيراً تسبب ادخال أسلحة حديثة مثل البنادق وغيرها من الأسلحة النارية في تفاقم الآثار الناجمة عن النزاع العسكري في المنطقة. فلم تعد الغزوات والغزوات المعاكسة حملات عسكرية قصيرة الأمد تؤدي إلى الاستيلاء على جمال. ورغم أن الفرقاء المشاركين ربما اعتبروها غزوات تقليدية فإن النزاع العسكري بدأ يتطور إلى حرب حقيقية بمشاركة وكلاء أجانب واستخدام أسلحة حديثة. ففي القرن التاسع عشر كانت الأسلحة الرئيسية المستخدمة في الغزوات القبلية تتألف من الرماح والهراوات والصولجانات والسيوف وبنادق البارود (ج. بركهاردت J. Burckhardt ١٩٣١: ٥٢). وتقليدياً كانت أسلحة الغزو وتقنياته تشتمل على الاشتباك مع العدو وجهاً لوجه. وكانت امكانية التعرف على المغيرين والعواقب المريعة المترتبة على الثأر تحول دون تطور هذه الغزوات إلى حمامات دم. ولم يكن هدف الحملة العسكرية ابادة العدو بل الحصول على غنائم منه. وعلى النقيض من ذلك، فإن الأسلحة الحديثة وخاصة الأسلحة النارية جعلت القتل مجهول الهوية لأنه كان من الممكن قتل العدو من مسافة بعيدة. ونتيجة لذلك كان بمقدور المغيرين أن يتجاهلوا قواعد الغزو وأعرافه التي كانت تُحترم لا بسبب نيات المغيرين الطيبة وإنما بسبب الخوف من تطور غزوة صغيرة إلى عداء دائم(١٤).

الفصل السادس

صنع التاريخ

قوة الشعر

اليوم، كلما يناقش أفراد من آل الرشيد وقائع في تاريخهم أو صعودهم إلى السلطة أو صراعاتهم الداخلية أو انحسار نفوذهم، فإن هذه النقاشات دائماً تتخذ شكل حكايات ومرويات وطرائف. وكثيراً ما تتخلل هذه إلقاء قصائد طويلة أو أبيات من الشعر نظمها أحد أجدادهم الشعراء أو شعراء آخرون من شمّر. وتشكل المرويات والقصائد مواضيع حديث مشتركة بين أفراد آل الرشيد. ويُنفق وقت طويل في رواية حكايات وإلقاء شعر أجدادهم النبطي. ويحدث هذا لإغناء معرفة بعضهم بعضاً بالماضي وتبادل نتف وقطع من المعلومات عن أحداث القرن التاسع عشر. كما يُمارس هذا لأغراض التسلية مدفوعة بحنين إلى ماض تليد ومرارة على إمارة ضائعة. كما أن هذه الممارسة جزء من عملية تواصل اجتماعي يُعرِّف بها أفراد العائلة الشباب على تاريخ لا يمكن العثور عليه في الكتب المدرسية المقررة.

ورغم أن ستة أجيال تفصل أفراد آل الرشيد الحاليين عن مؤسسي الامارة، ما زالت تحفظ المرويات والقصائد. فهي تعود إلى مستودع موروث محكي يُستحضر كلما تحين المناسبة. وقد اعتمدتُ اعتماداً كبيراً خلال عملي في هذا البحث على معلومات وفرها أفراد من آل الرشيد أجريت معهم مقابلات[١]. وطرحتُ أسئلة تتعلق بأسباب النزاعات الأصلية بين المتحدرين من ابن علي وابن رشيد وإبعاد الأخوين رشيد من حائل في ثلاثينات القرن التاسع عشر، وتوسع دائرة نفوذهم في وسط الجزيرة العربية وحروبهم مع المجموعات القبلية الأخرى ومراكز القوى الكبيرة في المنطقة. وأتاحت هذه الأسئلة وغيرها مماثلة لأفراد العائلة فرصة

الانغمار في ممارسة من الإنشاء التاريخي. فكانوا يروون حكايات ويشيرون إلى احداث هم أنفسهم لم يشهدوها ولا شاركوا فيها. بل نقل هذه الحكايات إليهم أفراد من الجيل السابق تسلموا بدورهم هذا الموروث من الجيل الأسبق.

ذهب آل الرشيد إلى أن صدق الحكايات يعتمد اعتماداً كبيراً على مكانة الراوي وسنه وسمعته بامتلاك ذاكرة قوية وعلاقته بما يُروى. فالنقل عنصر أساسي في الحكم على صدق المرويات والقصائد المحكية. وحين تحكى المرويات يكون المستمعون دائماً في لهفة على معرفة تسلسل النقل قبل الاستماع إلى المتكلم. وحين يُثبّت هذا يرتقي السرد بالقاء قصائد أوسع تداولاً من المروي. ويكون الراوي الذكي قادراً على إلقاء القصيدة المناسبة في اللحظة المناسبة. وهو بعمله هذا يعزز صدق حكايته.

في هذا الجنس من التراث المحكي يُصور الفاعلون على أنهم أجداد حكماء أو آباء شجعان أو أعمام فصيحون أو أبناء أخوة منشقون أو أبناء عمومة غدارون. وفي هذا التاريخ المحكي يجد المرء أمثلة على فاعلين كانوا «سياسيين حقيقيين» و«محاربين شجعان» و«خونة» فرطوا بالنَسَب واستسلموا لأعدائه. وتوصف شخصيات «خيِّرة» و«شريرة». فهم ينتمون إلى الأجداد الذين لا تُنسى أفعالهم وأقوالهم. وهناك دائماً حكاية تروى عن أمير من الأمراء الذين حكموا في حائل وذويهم. ويصبح أمراء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أحياء من جديد كأفراد يعيشون مجداً على المجد ولوعة على الهزيمة. وتروى حياتهم على شكل سرد. وإذ كان بعض هؤلاء الأمراء شعراء معروفين فإن قصائدهم تُنشد لتخلَّد بذلك كلماتهم. ويترك الراوي دائماً الأمراء يتكلمون عن أنفسهم بإنشاد قصائدهم.

ويبدو أن المرويات والقصائد التي جمعتُها لأغراض هذا البحث واسعة الانتشار بين الشمريين. ورغم أنها تناقش حياة أفراد حمولة حاكمة فهي جزء من التراث المحكي للقبيلة برمتها. لذا ليس من المستغرب أن بعض هذه السرديات (تسمى «سالفة» باللهجة الشمرية) رُويت إلى ر. مونتان في الثلاثينات خلال بحثه بين شمّر الشمالية في الجزيرة السورية. وكانت الحكايات التي جمعها مونتان تشير إلى أحداث وقعت في وسط الجزيرة العربية خلال القرن السابق (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢). فإن شمّر الشمالية حملت ذكرياتها معها عندما هاجرت، وهذه الحكايات

نفسها يحفظها آل الرشيد اليوم. وأسوق المثال التالي لإيضاح هذه النقطة.

ورد أحد المرويات التي سجلها مونتان على لسان راوٍ من عبدة شرح صعود عشيرته إلى السلطة في جبل شمّر بعد هزيمة حاكم تلك المنطقة، وهو رجل يدعى «بهيج». وتذهب الحكاية إلى أن شمّر عبدة وصلت جبل شمّر وهاجمت بهيجاً الذي لجأ إلى حصن عقْدة. فأمره رجال عبدة بالخروج ولكن بهيجاً رفض ما لم يُمنح حماية. فَعَرضت عليه عبدة حماية المحيسن والعفريت والجدي، التي كانت حمائل مختلفة من عبدة. بقي بهيج داخل الحصن ورفض قبول هذه العروض. وفي النهاية خرج عندما ذكر رجال عبدة أن المردان الذين كانوا مشهورين بالوفاء بوعودهم وافقوا على شموله بحمايتهم. وفيما بعد سُمح لبهيج بمغادرة جبل شمّر فهاجر إلى الشمال ليترك عبدة زعماء بلا منازع في المنطقة. وفيما يلي ترجمة مونتان لهذه «السالفة»: «قصة بهيج في عقدة:

«كان بهيج يسكن عقدة. وكان من الزبيديين. وقد طردهم الشمّر من عقدة. بهيج مكث في عقدة واعتصم في الحصن لا يبارحه. قالوا له ’اخرج!‘. قال ’لن أخرج! أريد حامياً‘. قالوا له اخرج وأنت في عهدة آل محيسن ـ ذوي العيون الصغيرة التي تنقل التعاسات كأنها أخبار سارة ـ اخرج بحماية العفريت ـ لماذا؟ فغَضَبُهم يستمر حتى الظهيرة ثم يخمد ـ. اخرج بحماية الجدي. فلم يخرج. ’لماذا لا تريد أن تخرج؟‘. ’هذا الحمار إذا ركبته لن يتعب، وإذا ركب على ظهري لن ينزل. لن أخرج بحمايته‘. اخرج بعهدة آل زقروط. لن أخرج. لماذا؟ لأنهم يتناكحون مع الجارة ويجفلون من تبديل الفرسان. اخرج! من يضعني في عهدته؟ ـ في عهدة المردان! ـ نعم، أخرج. لماذا؟ لأنهم لا يتخلّون أبداً عمن يأخذونه في عهدتهم!. وخرج بهيج وهاجر إلى الجزيرة. وبعد ذاك تولى ابن علي زعامة نجد». (ر. مونتان R. Montagne ١٩٣٢ : ٧٦ ـ ٧٧).

والحكاية نفسها رواها لي أحد أفراد آل الرشيد في عام ١٩٨٧ :

هاجرت عبدة إلى جبل شمّر من اليمن قبل أربعة قرون. وحين وصلت كان الحاكم المحلي بهيجاً، وهو أحد شيوخ الزبيد. خاضت عبدة حرباً معه فهرب إلى حصن عقدة وبقي هناك بعض الوقت. هزمته عبدة فغادر الحصن ولاذ بالفرار. كان رجال عبدة رجالاً شجعان. فقد طردوا بهيجاً وحكموا في جبل شمّر الذي أصبح ديرتهم. وأشار عبيد بن رشيد إلى هذه الأحداث في احدى قصائده. إذ قال عبيد:

گـبـلـك بهـيـج حـذُروه الـسـنـاعـيـس
(قبلك) مـن عـگـده الـلي مـا يحـدِّر گـنـاهـا
(عقدة) (قناها)

يُلاحظ التشديد على بعض التفاصيل حول الحمائل المختلفة التي كانت تشكل عبدة في نص مونتان، وإسقاطها في النص الأحدث عهداً. ورغم هذه الاختلافات يجري الحفاظ على موضوعة الوصول إلى جبل شمّر وطرد الحاكم المحلي، بوصفها موضوعة السرد المركزية. فإن هذه الموضوعة موضوعة مهمة كتبرير لوجود المجموعة في جبل شمّر.

وإذ يمكن ايجاد أوجه شبه بين مرويات شمّر الشمالية التي جمعها مونتان قبل حوالي خمسين عاماً ومرويات أمراء آل الرشيد حديثة العهد، يكون واضحاً أن هذه المرويات تمثل تراثاً محكياً هو مُلك القبيلة بأكملها. فإن صعود الأمراء وسقوطهم يعنيان صعود القبيلة بصفة عامة وسقوطها. ولا تكشف المرويات عن تاريخ «نخبوي»، بل انها، على العكس من ذلك، زاخرة بالاشارات إلى شمّر وعلاقاتها مع أمرائها ومؤازرتها لهم أو اختلافها معهم، وفرح الموالين بانتصار الأمراء أو نقمة المناوئين. وتخبرنا المرويات عن الأمراء ورجال قبيلتهم، ويبدو هذا سمة هامة من سمات التراث المحكي. ويذهب غودي إلى أن احدى سمات التواصل في المجتمعات ما قبل المتعلمة تكمن في قدرتها على ابتلاع الانجاز الفردي وتمثله في جسم العرف المنقول الذي يمكن اعتباره المكافئ التقريبي لما سماه تيلور Tylor «ثقافة» وما سماه دوركهايم Durkheim «مجتمع» (أو بالأحرى «العامل الاجتماعي»)، والذي اعتبره الكاتبان «خصوصياً» Sui generis (ج. غودي J. Goody ١٩٧٧ : ٢٧).

موضوعات في مرويات آل الرشيد وشعرهم النبطي

يشير ما نسميه التراث المحكي إلى اجمالي الرسائل التي هي أقوال منقولة شفاهاً من الماضي الأبعد عن الجيل الحالي (ج. فانسينا J. Vansina ١٩٨٥ : ٢٧). ويمكن أن تتخذ هذه الرسائل المحكية أشكالاً مختلفة حسب نمط النقل. ويقدم فانسينا قائمة بما يمكن أن يُصنف على أنه تراث محكي: الكلام المحفوظ

(قصائد) والمرويات (أقاويل تاريخية وموروث شخصي وسرديات جماعية عن الأصل والتكوين، ومرويات تراكمية)، والملاحم والحكايات والأقوال المأثورة والأمثال (المصدر السابق: ١٤ ـ ٢٧). وقد يكون للمجتمعات تراث محكي يتألف من هذه الأشكال كلها أو من شكل واحد أو شكلين سائدين فقط.

ويبدو أن تراث شمّر وآل الرشيد المحكي يتألف بالدرجة الرئيسية من مرويات (سالفة) وقصائد تأتي، عادة، معاً في عملية تفسير الماضي. وكثيراً ما يجري الحفاظ على موضوعة «السالفة» خلال الاداءات المختلفة للمروي الواحد، فيما تكون بعض الصيغ أكثر تفصيلاً من البعض الآخر. وغالباً ما يُدرِج الراوي حوارات بين شخصين أو أكثر. وتتكرر كلمات الحوار بدقة أكبر من سرد الأحداث الذي له طابع تراكمي وغالباً ما يفضي إلى ذروة يوفرها القاء قصيدة.

والقصيدة شعر محكي محفوظ لشاعر معروف أو مجهول انفعل بأحداث تاريخية أو شارك فيها وسجلها في قصيدة ذات ايقاع ووزن خاصين. وهناك دقة أكبر في إلقاء القصائد منها في رواية «السالفة». ويزعم آل الرشيد أن صوت القصيدة الموسيقي يجعلها أسهل على الحفظ. كما أن الجمهور يلتقط بسهولة أي خروج شفهي عن النص الأصلي ـ خاصة إذا كان هذا الخروج يخل بالايقاع. وحين تُلقى قصيدة يكرر الشخص الأبيات الاستهلالية مرتين أو ثلاث مرات لاستذكار الايقاع أو الصوت الموسيقي فيما ينتظر استرجاع الأبيات الباقية من مستودع ذاكرته.

ولا تكون «السالفة» كاملة إلا إذا اقترنت بقصيدة لا تقوم هي الأخرى بمفردها. ويمثل السرد عادة تعليقاً أو مقدمة تفسيرية للقصيدة تضعها في سياقها التاريخي أو تخبرنا مَنْ نظم القصيدة إذا كان معروفاً.

ولاحظ باحثون في التراث البدوي المحكي العلاقة المتبادلة بين السرد والقصيدة وقاموا بتحليلهما معاً (ب. انغهام B. Ingham ١٩٨٦ وس. صوايان S. Sowayan ١٩٨٥) فيما عالج آخرون العنصرين المكونين كلاً على حدة. وعلى سبيل المثال، أن ميكر في دراسته أدب رواية المحكي ناقش المرويات والقصائد في قسمين منفصلين من كتابه. والجدير بالملاحظة أنه لم يجمع هذا الأدب المحكي بنفسه بل اعتمد على النصوص المنقولة في عمل موسيل (١٩٢٨). ونتيجة لذلك يميل ميكر إلى معاملتها كنصوص أدبية قابلة للتحليل. وينعطف تحليله تلقائياً في الفصل الثالث من كتابه نحو النقد الأدبي مؤكداً على موسيقية القصائد وبلاغتها

وسماتها الفنية كما تتبدى في اختيار الكلمات والقافية والوزن والصورية والاستعارات. يضاف إلى ذلك أنه يعلق على النواقص الموجودة في قصائد روالة في الغزو والحرب:

«لا نعرف ما إذا كانت الحرب التي تشير إليها القصيدة تتعلق بمعركة واحدة في يوم محدَّد أو معركة موصولة على امتداد عدة أيام أو معارك متعددة على امتداد فترة أشهر. والروالة، بالطبع، لا يشاركوننا جهلنا لأن تراثهم المروي يملأ التفاصيل المفقودة من القصيدة. ولكن هذه هي المسألة على وجه التحديد. فإن الحاجة إلى معرفة التراث المروي لوضع المشاهد في سياقها لا تؤكد إلا ما في القصيدة من انقطاع وتشظٍّ وابتعاد عن القص». (م. ميكر M. Meeker ١٩٧٩ : ١٢٠).

لماذا، اذن، تُقتلع القصيدة من السياق التاريخي الذي يوفره السرد وتُحلَّل كنص أدبي؟ أن الروالة لا يلقون القصائد لمجرد القائها. فإن شعرهم المحكي يكون بلا معنى من دون السياق الذي لا ينفصم عن القصيدة. ويبدو أن هذه خصيصة من خصائص الشعر النبطي بصفة عامة. وتجادل فنيغان Finnegan بأن الأدب المحكي يعتمد على سياقه الاجتماعي. وهي تؤكد أننا لا نستطيع أن نركز على النص وحده بل يجب أن نأخذ في الاعتبار طبيعة الجمهور والسياق (ر. فنيغان R. Finnegan ١٩٧٧ : ٢٩) ويؤكد باحثون آخرون في التراث البدوي المحكي، مثل كيتن Caton أن القصيدة ليست سرداً أو تسجيلاً لأحداث تاريخية حسب تسلسلها الزمني (س. كيتن S. Caton ١٩٨٤ : ٣٧١) بل لها مناسبة (سياق) ذات أهمية لنظمها. لذا يجادل كيتن قائلاً إن لنص القصيدة علاقة بحدث تاريخي حقيقي من دون معرفته لن يتمكن الجمهور من فهم القصيدة (المصدر السابق: ٤٢٣).

هدفي هنا ليس تحليل الجوانب الأدبية واللغوية لأدب شمّر المحكي بل أن أستقرئ من هذا التراث موضوعات مهمة كانت ذات صلة بهذا المجتمع ولا يمكن أن تُستخرج إلا من التراث المحكي. ولهذا الغرض أختار موضوعتين: المنفى، المعبر عنه في السرد الأول (مروي المنفى وقصائده) وثانياً، البطولة (السرد البطولي والقصائد البطولية).

ويسترشد اختيار هاتين الموضوعتين المحددتين من تراث محكي غني بهدفي في أن أُبين كيف تنعكس الخبرات والتجارب المختلفة في هذا التراث. ورغم أن للمرويات والقصائد التالية هاجساً سياسياً قوياً بمعنى أنها تشير إلى صراعات

وأحداث سياسية هامة فإن كل واحد منها يعبر عن خبرة نضال سياسي بطريقة مغايرة.

مرويات وقصائد المنفى

في الفصل الثاني أُعيد بناء صعود أمراء آل الرشيد إلى السلطة في حائل باستخدام معلومات من مصادر أولية وثانوية. وهنا ننتقل إلى مستوى مختلف من مستويات البناء التاريخي حين نتوقف عند تفسير أكثر شخصانية للصراع السياسي في حائل، يقوم على معلومات جُمعت من أفراد العائلة. وهذه المعلومات مستقاة من المرويات والقصائد التي تُروى فيها قصة نفي عبد الله بن رشيد وشقيقه وأمّهما من حائل. فعندما سألتُ لماذا تحدى عبد الله وعبيد سلطة ابن عمهما ابن علي أجاب الراوي بأن سرد لي هذه الحكاية:

كان عبد الله وعبيد شابين شجاعين. وكان أبوهما علي بن رشيد رجلاً بسيطاً لديه مزرعة في حائل يزرع فيها النخيل. وكان علي بن رشيد ابن عم حاكم حائل، صالح بن علي. وكان الشابان عبد الله وعبيد طموحين، ولم يطيقا القبول بسلطة ابن عمهما. عبد الله بصفة خاصة كان يريد السلطة. لقد كان رجل سلاح وقائد حرب. وكان عبد الله يريد الغزو مع شمّر لإشباع طموحه. وسنحت الفرصة عندما تعرضت عشيرة الأسلم الشمّرية إلى هجوم شنته عنزة التي استولت على إبل الأسلم. فركب عبد الله بعيره إلى الأسلم للدفاع عنهم والوقوف إلى جانبهم. وخاض معهم حرباً ضد عنزة ونجح في اعادة جمالهم المسلوبة. وبدأت شهرته تذيع أكثر فأكثر بين البدو والحضر. وقد استاء صالح بن علي من ذلك. وفكر أنه إذا تزوج عبد الله بابنته فإنه ربما سيكف عن اثارة المتاعب. ولم يحدث ذلك لأنه لم يكن هناك شيء يمكن أن يثني عبد الله. طلب صالح من عبد الله وشقيقه عبيد البقاء هادئين في حائل أو الرحيل. فآثر عبد الله الرحيل. وحاول أبوه أن يقنعه بالتخلي عن طموحه والكف عن اثارة المتاعب. فقال عبد الله لأبيه قبل أن يغادر حائل: لو طعت شورك ما تعديت ذنب ثورك. رحل عبد الله ولاذ في جبل أجا. وجاءت زوجته لزيارته والتأكيد له انه يحظى بمؤازرتها وثقتها. وقد جاءت مع صديق عبد الله، وهو رجل اسمه حسين. سرَّ عبد الله برؤية زوجته. وكان قلقاً عليها أيضاً. فخاطب عبد الله صديقه بقصيدة طلب منه فيها أن يسهر على زوجته في رحلة العودة إلى حائل. وقال عبد الله:

يا حسين والله ما لها سبت رجلين

يا حسين شيب بالضمير هكعانه

ارفق بها يا حسين واتبع بها اللين

وإلى مشت يا حسين فامش مشيانه

ارفق بمضمون سكن حجر العين

واشلق لها من راس ردنك ليانه

يا حسين مايشتك كود الرادّين

ولا ترى الطيب وازن ردانه

وان شلتها يا حسين ترى ما بها شين

ترى الخوي يا حسين مثل الأمانه.

استشاط ابن علي غضباً بالأنباء القائلة أن عبد الله وعبيداً يخططان لاغتياله. فقام حتى بإبعاد أمهما. وكانت امرأة عجوزاً تصدعت غماً بمنفاها. وخاطبت أبناءها بقصيدة قالت فيها:

يا نور عيني يا مودة فؤادي

ماكني الا من خمام الدراويش

جلُّوني بالقيظ الحمر عن بلادي

عسى يجي عدل وممشاه قادي

وتكثر عذار اللي يدور التحاويش

حين سمع عبد الله قصيدة أمه ازداد عزمه على العودة إلى حائل وإطاحة ابن عمه. وترك عبد الله شقيقه عبيداً في جبل أجا للعناية بأسرته. وذهب إلى الجعفر حمولته الذين محضوه دعمهم. وبعد سنوات قليلة قتل عبد الله وعبيد ابن عمهما. وحكم عبد الله في حائل محققاً السعادة والعدل.

لم تكن شمّر كلها موافقة على ما فعله عبد الله. فقد كان ابن طوالة، شيخ الأسلم، والتمياط، شيخ التومان يرتبطان بحلف مع ابن علي تعهدا فيه بالولاء له. ودافع عبيد عن عمل شقيقه وخاطب الأسلم والتومان في قصيدته:

يا شارخ اركب فوق ناب النسانيس

حر عريب من هذايب نداها

سيِّر على عدوان ونوخ على نعيس(٢)

وقل الدار دار اللي هذي خذاها

أبو طلال الشيخ ذيب الملابيس(٣)

كم هجمتن يقطع هله من رجاها

الدار لليتمان لو يزعل نعيس

لو تزعل التومان واللّي وراها.

دارٍ لنا من قبل طيّ إلى قيس(٤)

بالسيف صبيان الضياغم حماها

لو الزعل من شان حقك فلا بيس

بس تبي حقوق اللي بالسيف خذاها

يأخذنا الراوي في هذا السرد من المضمار العام للصراع السياسي إلى مستوى العواطف الشخصي ويروي قصة عن نزاع سياسي بين ذوي قربى. وهذا النوع المحدَّد من الصراع يدمج مستويي الخبرة العام والشخصي معاً. فيصوِّر عبد الله على أنه منشق شاب يتحدى سلطة قائمة، أي سلطة ابن عمه الذي لا يطيق أي تجاوز على دائرة سلطانه. وعبد الله لا يطعن في سلطة غريمه فحسب بل ويتحدى حكمة الأب. ورفضه الاستماع إلى نصيحة والده مؤشر إلى عدم استعداده لإخماد طموحه في الهيمنة السياسية. وفي هذا النضال يطلب عبد الله مؤازرة شقيقه الذي انجرَّ الآن إلى حلبة الصراع السياسي. وفي مرحلة لاحقة من السرد يزج النضال السياسي ضد ابن علي مجموعة أكبر من الشقيقين من آل رشيد. ويصبح الجعفر منخرطين في هذا النزاع عندما يؤون عبد الله عندهم.

بعد التركيز على النزاع السياسي ينتقل الراوي إلى شرح ما مر به عبد الله في هذا الصراع. فهو إلى جانب كونه شجاعاً وطموحاً، تتملكه عواطف أسى وقلق وغليان سببها الفراق عن زوجته وعائلته. وتصبح ممارسة العمل السياسي متداخلة مع عذاب الانفصال. ويخفف من وطأة القلق وجود صديق مخلص وموثوق يرافق زوجة عبد الله لزيارته في المنفى. وفي قصيدته يقر عبد الله القلِق والمتوتر، بذلك ويذكِّر صديقه برابطة الصداقة. ويختار عبد الله أن يفعل ذلك شعراً لتبقى كلماته

دليلاً يؤكد موافقته على سفر زوجته وحيدة مع صديقه. فطالما تُذكر كلماته لا يمكن للعار أن يلحق به أو بزوجته.

مرة أخرى تتسع دائرة هذا الصراع السياسي حين تطاول لعنة المنفى الأم العجوز التي تُجبر على الرحيل عن ديارها في ظروف قاسية. وتستثير التجربة توقاً إلى العدالة مع الأمل في أن يؤدي هذا إلى اشاعة السلام والوئام. وتردُّ الأم على هذه الأحداث المهينة بنظم قصيدة. وبعد الاستماع إلى مناشدة أمهما كيف يكون بمقدور الابنين أن لا يدافعا عن شرفهما؟ كيف يتسنى لهما أن لا يفعلا شيئاً ازاء اذلال أمهما، وخاصة بعد أن أورثت كلمات أبقت معاناتها حية في ذاكرة الجميع؟

يمثل سرد وقصائد المنفى جنساً من التراث المحكي يجد المرء فيه اشارات إلى عالم عام يتسم بالصراع السياسي والانشقاق والنزاعات. وفي هذا العالم يناضل الرجال من أجل الهيمنة السياسية. ونتيجة لذلك يُصوَّرون على أنهم فاعلون سياسيون لديهم دعاوى قوية بالسلطة. ولكن نضالهم يؤثر فيمن حولهم مثل أقاربهم وأفراد عائلتهم. وتوضع الطبيعة اللاشخصية للميدان الذي يحتدم فيه الصراع السياسي في مواجهة الدفء والمحبة والألفة التي تطبع العلاقات بين رجل وزوجته أو صديقه. فإن لـ «الرجل السياسي» الصِدامي جانباً مهماً آخر في شخصيته ـ لديه عواطف شأنه شأن كل واحد. وفي هذا الجنس من التراث المحكي لا يكون البطل «اسطورياً»، أو بكلمات أخرى شخصاً مؤَمْثَلاً. فكلماته ذاتها التي يعبر فيها عن التياعه وقلقه تهبط به إلى أرض الواقع.

اني بالتركيز على هذا النوع من التراث المحكي، أُبين أن مَنْ يسمى المغامر السياسي البدوي، بلغة ميكر، هو أيضاً انسان اجتماعي. وجادلت ل. ابو لُغد عن صواب بأن فهمنا للثقافة البدوية والتراث البدوي المحكي يكون محدوداً إذا ركزنا حصراً على الغزوات والحرب والصراع السياسي (ل. أبو لغد ١٩٨٦: ٣١). ويبين سرد وقصائد المنفى الشمّرية أن القيم السائدة في المجتمع، وخاصة القيم التي تمجد التسيد السياسي والشجاعة والبسالة بوصفها فضائل مرغوبة تمكِّن الأفراد من تبوُّؤ مواقع قيادية، تتيح مجالاً للتعبير عن عواطف ذات طبيعة أقل رجولة دونما سبب للحياء. وحقيقة أن عبد الله، الزعيم المحتمل، يبيح لنفسه ويباح له في السرد أن يعبر عن توجساته، وحبه وحنانه يثبتان هذه النقطة. ومن الجهة الأخرى، يعكس نداء أمه من أجل العدالة السياسية دوراً كان مسموحاً

للمرأة أن تقوم به. فإن الأم، من تجربتها الشخصية بالمنفى، تلج، مغامِرةً، عالم الرجال السياسي. وتكون قصيدتها بياناً سياسياً أو دعوة أو مناشدة للقيام بعمل لا تستطيع هي نفسها القيام به. ومع ذلك يبقى صوتها وكلماتها محفزات هامة على هذا العمل.

بعد احراز النجاح تأتي مشكلة التبرير. فإن عبد الله وعبيداً يقتلان ابن عم يحظى بدعم عشيرتين من عشائر شمّر. كيف يمكن لآل رشيد أن يحكموا في حائل من دون تفسيرات تهدف، في المقام الأول، إلى اقناع الجميع واستمالتهم وكسب تأييدهم؟ ان قصيدة عبيد تبرير لواقع قائم. وهي ادعاء بالمشروعية يصوِّر فيه حق الحكم في حائل على أنه حق تاريخي، وأنه قبل كل شيء، حق موروث. ويهدف عبيد إلى اقناع جمهوره بأن أعمال شقيقه ليست بدعة بل تنسجم مع تقليد عريق. ويستغرب عبيد من عدم موافقة الأسلم والتومان على نجاح عبد الله، وهو نجاح تحقق بإعمال السيف. ويعاد حق آل رشيد الوراثي من خلال عمل من أعمال الشجاعة لا يمكن أن يصنف على أنه جريمة قتل. ففي سياق صراع سياسي ضد مغتصب لا يكون القتل جريمة، بل يصبح عملاً بطولياً مبرراً يؤكد بحد ذاته حقاً في السلطة.

قصائد البطولة

مادة موضوع هذا النوع من السرد والشعر النبطي هو الاحتفاء بالحروب القبلية. وهو النوع الذي يستمد مادته من أحداث تاريخية تتعلق في غالبية الحالات بغزوات ومعارك. وتتيح هذه الأحداث للراوي والشاعر فرصة التغني بنصر من خلال استعراض أعمال بطولية وفي الوقت نفسه هجو العدو. وفيما يلي نقل سرد رواه أحد أفراد آل الرشيد، احتفاء بانتصار شمّر على أعدائها عنزة في معركة بقعا[٥]:

بعد أن نجح عبد الله بن رشيد في تنصيب نفسه حاكماً على حائل وجبل شمّر، خاض معركة مع عنزة وأهل القصيم. وبدأت العمليات العسكرية عندما غار غازي بن ذبيان، شيخ الدهامشة (عنزة) على الأسلم الشمّرية وشيخها ابن طوالة. هاجم الدهامشة شمّر واستولوا على إبلهم. عرف عبد الله بن رشيد بهذا الحادث وأراد تنظيم غزوة على الدهامشة بنية استرداد جمال شمّر وإعادتها إلى

الأسلم. إذ ما كان عبد الله ليستطيع أن يقبل بهزيمة أبناء عمومته الأسلم. فهزم عبد الله الدهامشة وقتل بعضاً من رجالهم. وأزعج هذا أمير بريدة الذي وعد بالثأر ومهاجمة عبد الله بن رشيد. وكان أمير بريدة يحظى بدعم أهل القصيم الذين استدعاهم للاغارة على ابن رشيد. كما أنه أقنع عشيرتي السلاطين والصقور من عنزة للمشاركة في الغارة على ابن رشيد. فقاد مجموعته وسار إلى بقعا حيث هاجم شمّر الذين نصبوا خيامهم في تلك المنطقة. عرف عبد الله بن رشيد بهذا العدوان. وسارع إلى إرسال شقيقه مع جيشه إلى بقعا. وقاتل عُبيد أهل القصيم وعنزة. وانضم إليه فيما بعد عبد الله الذي وصل بقعا ومعه أسلحة ورجال. استولى شمّر على كثير من الجمال في هذه المعركة. وهُزمت عنزة على يد ابن رشيد الذي قتل العديد من رجالها. واحتفى عبيد بن رشيد بانتصار شمّر في قصيدته:

يا من لقلب فيه خمس وعشرين

هجس وهاجوس وعدل ومايل

يدور في دولاب الأفكار تسعين

بالصدر ينشر دقهن والجلايل

أصبحت منهم خالٍ غير ثنتين

سعدي ومسقول يداوي الغلايل

وخماسي غمق صوابه وجوزين

اليا قربو شخص الأمهار الأصايل

يا دارنا من جاك جيناه عجلين

بالليل والصفر والقوايل.

فإن كان هم عنا بالانشاد مهفين

من الراس ما نحتاج دز الرسايل.

نأتي من أول بسربه فوق الالفين

كنا أشهر به ديدهان المسائل.

حضر الجبل والبدو نأتي صلبين

يتلننا جملات سود الجدايل.

جينا صباح وهم لنا مستكنين
وثار الدخن من حرّ صلو الفتايل.
من فضل وليّ العرش عدل الموازين
صارت على القصمان وأولاد وايل
عجاجة تجلي القلب يا حسين
دبلها ما هي بكل الدبايل
ربعي مروية السيوف المسانين
خلّو صفا بقعا من الدم سايل
اللّي ذبحت بشذرة اليف تسعين
منهم ولاني عن ردهم بسائل.
والليل وطينا ما يشوف المحبين
والكذب تنفاه العلوم الصمايل.
جونا يبغون ديارنا والبساتين
يبغون منزلهم غفار وحايل
واليوم يبغونا وحنى معيين
نسند بحد السيف من جاه عايل.

أثبت عبد الله وعبيد معاً شجاعتهما في المعركة وذاع صيتهما في عموم الجزيرة العربية. وقد وصف عبد الله شجاعته بكلماته هو:

لي ديرة ما بها حذا البرد والجوع
لولاي عفيته بضرب الهنادي
حميتها عن كل دوّار مطموع
حيّ نصبحهم وحيّ نهادي
أخو عبيد إلى هبا كل مسبوع
أسهر إلى نامت عيون السرادي
أحاول الدنيا بداخل ومطلوع

بالمال وإلاّ مرهفات الحدادي

كم خير عان لنا شاكي الجوع

حادية من لوعات الأيام حادي

لوما نعرفه راح منا مطموع

من راس ماله نجمعه للنفادي

توفي عبد الله بعد المعركة وترك الامارة لابنه طلال. وكان موته مبعث ارتياح لأعدائه الذين اعتقدوا أن الضعف سيعتري شمّر. وعمد عبيد إلى تذكير كل مَنْ فرحوا بنبأ موت عبد الله أن شيئاً لم يتغير. فإن تسيد شمّر محمي بأخلاف عبد الله:

قل للعدو اللي تبهج بالأخبار

وفرحه على أمرٍ نازلٍ من سماها

وقطع برأي أن طفت شعلة نار

حنّا شبت نار نوقد سناها

يشير هذا السرد البطولي إلى نزاع سياسي وعسكري بين شمّر من جهة وأهل القصيم وقبيلة عنزة من الجهة الثانية. ويمكن العثور على اشارة إلى هذا النزاع في مصادر مكتوبة[٨]. ويذكر الراوي في السرد أحداثاً تمتد جذورها في تاريخ شمّر، رغم عدم وجود اشارة إلى الزمن. اذ لا يجري التطرق إلى أسئلة من قبيل متى غارت عنزة أول مرة على شمّر، ومتى شن عبد الله بن رشيد هجومه المعاكس، ومتى وصل رجال عنزة وأهل القصيم إلى بقعا، وكم دامت المعركة، ومتى انتصرت شمّر، ومتى نظم عبيد قصائده. فالسمة البارزة للسرد هي غياب التأرخة الزمنية، الأمر الذي يحول دون اعتباره نصاً تاريخياً.

لكن السرد يصف علاقات اجتماعية وسياسية بنيوية بين شمّر ومجموعات أخرى في المنطقة، ويوثق، على الأخص، نزاعاً مستحكماً بين شمّر وعنزة. ولدى القبيلتين على السواء تراث سردي غني تدور موضوعاته حول النزاع القديم بينهما[٩]. ولا يكون التشديد على «الزمن التاريخي» بل تصبح بنية العلاقات القبلية هي محور القصة. ونتيجة لذلك، لا يكشف السرد عن «حقائق تاريخية» بل تكمن مساهمته في حقيقة أنه يطرح طبيعة هذه العلاقات القبلية والطريقة التي تُبنى بها

حول العداء والنزاع[١٠].

يقدم الراوي الفاعلين بوصفهم طرفين لديهما عداوات دفينة وقديمة. وتمثل شمّر وعنزة مجموعتين متعاديتين اشتبكتا سابقاً في مناوشات صغيرة. وتُجلي هذه المعلومة الخلفية وتضع أحداث الحاضر في سياقها. فالمجموعتان المتناحرتان لا تدخلان حرباً جديدة بل تكرسان بكل بساطة الوضع القائم.

ويظهر هذا العداء المديد على السطح من جديد نتيجة غارة تعدها عنزة وتوجهها ضد الأسلم الشمرية. وتصبح الغزوات القبلية المناسبة التي يتبدى فيها هذا العداء. وتكون الغزوات مدفوعة بعداوات سابقة، وتحدِّد بدورها العداء اللاحق. وإذ تقع الغارة على الأسلم وتؤخذ إبلهم فإن هذا يتطلب غارة معاكسة لإعادة جمال شمّر إلى أصحابها، وفي المقام الأول لاسترداد شرف شمّر. ولا يملك عبد الله بن رشيد، وهو أمير توطدت أركان إمارته، سوى الاستجابة إلى هذه الأحداث لأن الأسلم أقاربه القبليون الذين له معهم جد مشترك. فإن شمّر عبدة الذين ينتمي إليهم عبد الله هم أبناء عمومة الأسلم التصنيفيون ـ لدى الاثنين مصير مشترك. لذا يشن عبد الله غارته المضادة ويعيد إلى الأسلم كرامتهم.

ويتنامى النزاع بين شمّر وعنزة أكبر فأكبر عندما يصبح أمير بريدة طرفاً ويحشد للمعركة عشائر أخرى من عنزة ـ السلاطين والصقور. ولدينا هنا وضع حيث تتطور غارة صغيرة إلى حرب كبيرة تنخرط فيها مجموعات قبلية عديدة. ويدوم الصدام العسكري أياماً عديدة. وتصبح ساحة المعركة الحلبة التي يجري فيها اثبات المهارات العسكرية والشجاعة والاستبسال. ويشارك عبد الله وعبيد في القتال الفعلي وينظمان قصائد للتغني بانتصارهما وانتصار شمّر، وقبل كل شيء، لهجو العدو المهزوم. وينتهي السرد بثلاث قصائد من نظم عبد الله وعبيد.

تتغنى قصيدة عبيد الأولى بانتصار شمّر في معركة بقعا، وهي تنتمي إلى ذلك الجنس من القصيد الشائع بين البدو وجماعات أخرى في الشرق الأوسط، والذي يستوحي نظمه صدامات عسكرية ونزاعات قبلية[١١]. وقصيدة عبيد لا تصور وضعاً وهمياً بل تشير بصورة مباشرة إلى حدث حقيقي، إلى معركة شارك فيها الشاعر نفسه.

يشن عبيد في قصيدته حرباً كلامية على أعدائه بعد توقف القتال. وهو

يسجل هزيمة أعداء شمّر بكلمات يراد لها أن تبقى إلى الأبد. وتحدد أبيات عبيد الاستهلالية سياق الأحداث اللاحقة. فهو يبدأ بتصوير نفسه شخصاً مهموماً بكل الأفكار التي تعتمل في رأسه. وفي هذه الحالة من الاضطراب يلوذ بشيئين عزيزين: حصانه وسيفه. ولا يلبث عبيد أن يستحضر صورة جيش جرار بآلاف من المُهَر الأصلية. وهذه صورة يمكن أن تُترجم إلى واقع. فالجيش للدفاع عن ديرته، عن موطنه وأرضه. ويتنادى الحضر والبدو على السواء للذود عن هذه الأرض في مواجهة عدو مشترك، عدو خارجي يتقدم صوب جبل شمّر بنية الهجوم على الأرض، على الحقول، على الواحات، على غُفار وحائل. وإذ يحتشد البدو والحضر ويتوجهون إلى ساحة المعركة، تلاحقهم نساء شمّر اللواتي يمتدحن المقاتلين ويشجعنهم. وينقض هذا الجيش على العدو. وأخيراً تسنح الفرصة ليستخدم عبيد سيفه فيقتل تسعين رجلاً ويطارد فلول العدو. ويُعقد لواء النصر لشمر بعون الله. ويخاطب عبيد صديقه حسيناً في قصيدته: ذكريات هذا النصر تثلج القلب. نصر حققته قبيلة لا تدانيها قبيلة. وهذه القبيلة معروفة بشجاعة أبنائها الذين تركوا بقعا مخضبة بدم الأعداء.

كما يحتفى بانتصار شمّر في قصيدة عبد الله التي تشكل جنساً من المديح الذاتي. فإن عبد الله بنظمه قصيدة، يؤكد صفته الأولى ذائعة الصيت، وهي بلاغته. ولدينا هنا حالة حيث الأمير أيضاً شاعر قادر على تجاوز المستوى المحدود للكلام الاعتيادي. وهو يقوم بإيصال رسالته على شكل أبيات فنية قصيرة تتمتع بأفضلية كونها أدوات فعالة يمكن استذكارها وحفظها وترديدها بسهولة بين اتباعه وأعدائه على السواء. والقدرة على نقل رسائل كلامية بشكل شعري صفة حميدة، خاصة إذا امتلكها الأمير. وقدرة المرء على التعبير بوضوح وبلاغة في أبيات قصيرة نتيجة التحلي بمواهب شعرية إنما هي دليل سمعة عالية ليس للشاعر فحسب بل ولقبيلته أيضاً. وهي تعكس إتقان شكل شعري من أشكال الكلام، محفوظ من الماضي. كما تشير هذه القدرة إلى أن الشاعر حافظ على امتلاكه ناصية شكل صافٍ من أشكال الكلام غير ملوث بالاحتكاك مع غرباء. وتكشف المواهب الشعرية عن انتماء أصيل وأصل نقي ونسب نبيل. وهنا تكون اللغة الشعرية رمزاً للمكانة الرفيعة مصحوباً بسمعة عالية. ويثبت الأمير ـ الشاعر أصالته ومكانته الرفيعة بالاضافة إلى أصالة جماعته ومكانتها. وبلاغته ليست مقدرة شخصية حصراً بل مقدرة تغتني وترتقي من خلال عملية تفاعل اجتماعي يصبح بها الأمير مطلعاً على

لغة قبيلته وأجداده وتراثهم الشعري.

والأمير ـ الشاعر دعائي فعال يشيع شهرته ويعلن مناقبه ويرفع سمعته. ويعدد عبد الله في قصيدته صفاته الشخصية مثل الكرم والمهارات البطولية (الشجاعة والبسالة). وهذه الصفات سمة مميزة لزعماء القبيلة، شيوخاً وأمراء. وهي أرصدة ذات سمعة عالية تشكل في هذا المجتمع أساس الزعامة، ويجري التشديد عليها بانتظام في الشعر النبطي. ومن المهم مناقشة هذه الصفات لأنها تتبدى في القصيدة في محاولة لفك مغاليقها بما يكشف عن معناها وصلتها بعالم السياسة.

يؤكد عبد الله، الأمير ـ الشاعر، في قصيدته، على كرمه نحو الفقراء والجياع. ويذهب إلى أنه لا يرسل أحداً صفر اليدين أبداً. ويقترن وصف فعل الكرم بصورة البلد الذي ينتشر فيه الجوع والعوز. ويهدف الشاعر إلى أن يبين أن جزيل العطاء في بيئة تتسم بالشح فضيلة نهائية. وإذ يبدو الكرم موضوعة متكررة في الشعر النبطي فإن هذا يثير السؤال عن سبب تبديه في هذا النوع من الكلام، ودأب الأمير ـ الشاعر على تذكير جمهوره بهذا الذُخر على وجه التحديد. للاجابة عن هذه الأسئلة يتعين على المرء أن يتوقف، أولاً، عند أهمية الرسائل الشعرية في هذا المجتمع، وأن يقيِّم، ثانياً، دلالات الكلام الاجتماعية ـ السياسية. فإن الكرم بوصفه فضيلة وميزة مشرِّفة يُنقل إلى الجمهور من خلال الشعر النبطي. وحين ترتدي الرسائل شكلاً شعرياً يكون لها تأثير قوي وانتشار واسع. وفي الشعر النبطي تكتسب الرسائل قوى اضافية. وعندما تنظم القصيدة فإنها تُحفظ وتلقى على مر الأجيال.

يبرز كرم الأمير بوصفه قوة قسرية مقنِّعة على المتلقين. وعندما يحدث وأن يكون متلقو الكرم ذوي مكانة مساوية للرجل الكريم، يكون الكرم أداة قسرية كامنة. ويمكن توضيح هذه النقطة في المثال الآتي. حين كان أمراء آل رشيد يستقبلون شيوخ شمّر وسواهم من الوجهاء غير الشمريين في مجلسهم، كانت تُطهى للضيوف أطعمة وتنحر حيوانات وتقدم القهوة وتوزع هدايا من الرز والأسلحة والتمور. وكانت هذه أعمالاً من الكرم تحتفي بوجود ضيوف كبار. وبعد هذه الولائم كانت أمور سياسية تناقش عادة مع الضيوف وتحالفات تعقد من خلال المفاوضات ونزاعات تسوى. وكان الكرم في هذا السياق استراتيجية ذات

دلالات سياسية يراد بها التأثير في أنداد لا ريب في أنهم سيذيعون النبأ على مَنْ لم يكونوا حاضرين في المجلس وقتذاك. فالكرم يخلق هالة حول الأمير تجذب مناصرين وحلفاء سياسيين محتملين. وببساطة، حين يكون الأمير كريماً مع أنداده، فإنه يرفع مكانته السياسية ويزيد سمعته.

ومن الجهة الثانية، يكون الكرم مع الفئات الأضعف قوة قسرية بشكل سافر. فهو يخلق تبعية اقتصادية لموارد الأمير تؤدي في نهاية المطاف إلى اذعان سياسي. وفي هذه الحالة يقوم الكرم بدور الرشوة لنيل الولاء وقبول السلطة السياسية. والأكثر من ذلك أن الكرم يكون هنا آلية لتداول الثروة تنقل فيها فئات ثرية قسماً من ثروتها إلى الفقراء. وفي مجتمع تعوزه الوسائل النظامية أو المتمأسِسة لمثل هذا التداول يمكن للكرم، بالاضافة إلى الالتزامات القرابية، أن يلعب دوراً هاماً في ردم الفجوة بين مَنْ يملكون ومَنْ لا يملكون.

والأمير الذي يثبت كرمه بالأفعال (أعمال سخية) والأقوال (توصيل هذه الشيمة في الشعر النبطي) يتصرف حسب توقعات شمّر التي تتبدى لنا بأسطع شكل في قول مأثور. اذ تقول شمّر أن الأمير «سيف ومَنْسَف» (والمنسف أكلة من الرز ولحم الضأن). ويعني ذلك أن هناك قاعدتين لزعامته: قدرته على اثبات مهاراته البطولية وقدرته على توفير وجبات لاطعام أتباعه.

تتألف المهارات البطولية من الشجاعة والاستبسال في المعارك. والقدرة على الدفاع عن جماعة المرء وديارها عمل بطولي يُستحضر باستمرار في الشعر النبطي. ويمدح عبد الله نفسه لكونه قادراً على التحلي بيقظة تمكنه من اكتشاف المتعدين والمعتدين بسرعة. كما أنه يفخر باتقانه استخدام الأسلحة، وهي قيمة ثمينة في مجتمع كان العدوان فيه سمة شائعة من سمات الحياة اليومية. والدفاع عن ديار القبيلة ضد الغزاة يتيح فرصة للشعور بالفخر، واعلاء الشرف الشخصي. ويرتبط بالفخر إحساس قوي بالانتماء إلى أرض. وفي القصيدة يصبح من الواضح أن «الديرة» (الأرض) بحد ذاتها لا تشكل بؤرة الفخر أو الحب أو الاعتزاز. ما يجري التشديد عليه هو السيادة على أرض معطاة. ويذكر عبد الله فقر ديرته وشحة مواردها وقسوة بيئتها، وهي سمات لا تضفي عليها جاذبية. كما يعني هذا أنها ليست ذات قيمة متأصلة فيها لتبرير الدفاع عنها. ولكن عبد الله يستمتع بتوكيد سيادة هذه الأرض تحت زعامته.

والشاعر ـ الأمير داعية لا لفضائله ومناقبه الشخصية فحسب بل وللقبيلة كلها أيضاً. وهو، في القصيدة، يُسقط صفاته الشخصية على القبيلة. وشعراء آل رشيد لا يتفردون في ممارسة هذا الدور. فإن كيتن في دراسته الشعر النبطي اليمني يؤكد أن للأشكال الشعرية تأثيراً أشبه بالسحر في الجمهور. وان اتقان الأشكال الشعرية ضروري للدفاع عن شرف القبيلة لأنه يكافئ في فاعليته القوة النارية للبندقية أو الحد القاطع للنصل. ويؤكد كيتن أن الشيخ الشاعر موهوب بقوة الاقناع، وهي صفة تجعله وسيطاً ناجحاً في النزاعات لأنه يقنع زبائنه بقبول تسويات سلمية لنزاعهم من خلال القوة السحرية للفن الشعري (س. كيتن S. Caton ١٩٨٤ : ٤٢١). ويصبح الشعر المحكي، بحسب كيتن، خطابية سياسية يحددها بوصفها أعمال اقناع توصيلية تُمارَس رداً على نزاع في النظام الاجتماعي التقسيمي (المصدر السابق: ٤٠٥).

وبين شمّر فإن لعدد كبير من القصائد وظيفة كونها مندمجة بالخطاب السياسي. وهذا ما يتضح من قصيدة عبيد الثانية على سبيل المثال. إذ يستخدم عبيد كلاماً شعرياً لتوصيل رسالة سياسية ذات أهمية بالغة إلى أعدائه: ان من المستبعد أن تزول هيمنة شمّر بموت عبد الله بن رشيد. وهو يخاطب أعداء شمّر الذين عبروا عن فرحهم لدى سماعهم بنبأ موت عبد الله. ويستخدم عبيد الصورة القوية للنار المتوهجة كي يشير إلى التسيد والزعامة التي أمسك شقيقه مقاليدها على مر السنين. ثم يذهب إلى أنه إذا انطفأت شعلة من هذه النار فإن هناك مشاعل أخرى تُبقي النار نفسها ملتهبة. واستخدام صور كهذه في الشعر النبطي يجعله خطاباً سياسياً قوياً له طابعه المتميز. وتضيف الصور إلى الرسالة بعداً عاطفياً، أنها تضيف رنيناً. ويحدث هذا، بحسب فانسينا، عفوياً في الجمهور الذي يسمع الرسالة (ج. فانسينا J. Vansina ١٩٨٥ : ١٣٧ ـ ١٣٨).

وقصيدة عبيد لا تبلّغ رسالة إلى العدو فحسب بل لها أفضلية القيام بذلك على نحو يمجد الجماعة ويحطم معنويات أعدائها. وتمارس هذه القصيدة وقصائد أخرى مماثلة تأثيراً قوياً باستخدامها الكلمات والرموز والصور استخداماً ذكياً جداً، وهي قصائد أسهل على الاستذكار من النثر. ولأن هذه القصيدة نظمت بعد موت عبد الله، يمكن مقارنتها بالبيانات السياسية التي نسمعها اليوم من الاذاعة بعد موت ملوك أو رؤساء ـ إذ يراد من هذه وتلك على السواء إعادة الإيمان والثقة

والاطمئنان وتوكيد الاستمرارية بعد موت الزعيم. وهناك دائماً محاولة متعمدة لفك ارتباط النظام بالنفوذ الشخصي للحاكم الراحل وفي الوقت نفسه تأكيد دوره في تحقيق التسيد.

وفي مرويات المنفى ومرويات البطولة على السواء يبرز الشعر النبطي بوصفه دليلاً مقدساً تُنقل التجربة وتوثق من خلاله. ما هو الدور الذي لعبه الشعر النبطي في مجتمع شمّر في ذلك الوقت؟ أي أهمية كانت لهذا الشكل من التواصل في سياق إمارة آل الرشيد؟

قوة الشعر

طرح مختصون بدراسة الفولكلور ونقاد أدبيون عدداً من النظريات لتفسير الدور الهام الذي يلعبه الشعر العامي[١٢]. وما يهمنا هنا هو التفسيرات السوسيولوجية التي تعتبر الشعر العامي انعكاساً للمجتمع وتهدف إلى تحديد دوره في ذلك المجتمع. وعلى سبيل المثال، أن المقاربة الوظيفية ممثلة بمالينوفسكي Malinowski ورادكلف ـ براون ترى أن الشعر العامي يشيع التضامن والوعي الذاتي بين الجماعة شأنه شأن أي شكل آخر من أشكال التراث المحكي[١٣]. ومن الجهة الثانية تنظر المقاربة الماركسية إلى الشعر على أنه اداة أو تفويض ايديولوجي للطبقات الحاكمة بنشر أفكارها وتزكيتها[١٤].

وقد انتُقدت هاتان المقاربتان لكونهما وحدتين متراصتين وعلى قدر مفرط من التعميم. وترفض فنيغان، على سبيل المثال، أي نظرية كلية تُخصص فيها وظائف كونية للشعر العامي: «يمكن استخدام الشعر العامي للتصالح مع سلطة قائمة أو تقسيمها أو الحفاظ عليها أو تقويضها، للترويج، للتهدئة. وبغية البت في أي من هذه تكون عاملة، إذا كان هناك ما هو عامل منها، من الضروري عدم الانطلاق من تحليل مجرد لمبادئ أولى وإنما من مراعاة المناسبة، وفي المقام الأول مراعاة الجمهور وتلقيه وفهمه للأداء» (ر. فنيغان R. Finnegan ١٩٧٧ : ٢٤٣). كما أنها ترفض الرأي التبسيطي القائل إن الأدب المحكي يعكس المجتمع ومعاييره وأحواله. وتذهب إلى أن ما يدخل في الشعر قد يعكس جوانب معينة من المجتمع ويعبر عن أفكار وردود أفعال ذات اهتمام للناس في حينها، ولكن اعتبار الأشكال الأدبية انعكاساً مباشراً وكاملاً أو مصدراً مباشراً للتاريخ الاجتماعي ليس من شأنه

إلا أن يكون مضللاً. وهي تشير إلى أن: «كل أدب يجب أن يعكس، بطريقة غير مباشرة وحاذقة، المجتمع الذي يوجد فيه... وأن الشاعر هو نتاج ثقافته وليس العبقري الحر، غير المقيّد للنظرية الرومانسية». (المصدر السابق: ٢٦٣).

وتسوق فنيغان فهماً للشعر العامي يأخذ في اعتباره الشاعر ومجتمعه على السواء. وتجادل بأنه في الوقت الذي يجب أن يصر فيه السوسيولوجي على أهمية السياق الاجتماعي للأدب، ينبغي أن يتذكر أيضاً دور الأدب بوصفه وسطاً لخيال البشر الخلاق» (المصدر السابق: ٢٧١).

تناولت ثلاث دراسات حديثة العهد مسألة العلاقة بين الشعر العامي والمجتمع البدوي في الشرق الأوسط. ويؤكد ميكر أن الشعر العامي رد فعل على عدم الاطمئنان إلى العلاقات السياسية النظامية بين بدو شمال الجزيرة العربية (ميكر Meeker ١٩٧٩). ففي مجتمع تكون علاقات الأفراد مع بعضهم بعضاً موضع تساؤل فيه، يتبلور الصوت الأدبي بوصفه مركز الحياة النظامية والعامة. وعلى النقيض من ذلك يعتمد كيتن رأياً أكثر براغماتية، ويحدد الوظائف التي يؤديها الشعر العامي في مواقف سياسية محدَّدة مثل تسوية النزاعات والاقناع والتوسط. (س. كيتن S. Caton ١٩٨٤). ومن الجهة الأخرى تنتقد ل. أبو لُغد هاتين الدراستين لتشديدهما المفرط على مركزية السياسة والنزاع في المجتمع البدوي. وتحاول تصويب هذه الآراء المتحيزة التي هي، من حيث الأساس، نتاج اهتمامات أنثروبولوجيين وبدوٍ ذكور. وتركز على «الغنوة» (الأغنية) البدوية التي يمكن أن تعتبر شعر الحياة الشخصية. فإن الأفراد يغنون هذا اللون من الشعر في سياقات اجتماعية محدَّدة، خاصة في الغالب، حيث يمفصلون فيه احاسيس عن أوضاعهم الشخصية وعلاقاتهم الأشد حميمية. والجدير بالملاحظة أن «الغنوة» تبدو شائعة بين النساء والذكور الشباب من أفراد أولاد علي (ل. أبو لغد L. Abu-Lughod ١٩٨٦): ٣١).

في هذا الفصل انتقيت مثالين توضيحيين على مرويات شمّر وقصائدها. وأظهر هذان المثالان أنه حين يكون الصراع السياسي مركزياً في خبرة الأفراد فإن من الطبيعي أن يتبدى في أشكال شعرية هي إحدى وسائل التعبير في هذا المجتمع. ولكن الشعر النبطي المقتبس آنفاً يكشف عن درجة عالية من المرونة. وهو يمكن أن ينقل رسائل شاعرية وعاطفية شخصية بالاضافة إلى رسائل بطولة عامة وتمجيدية. وفي الوقت الذي اتفق فيه مع ميكر وكيتن على مركزية النزاع

السياسي في المجتمع البدوي فإني أؤكد على أن الشعر المحكي البدوي مرن بما فيه الكفاية لشمول تجارب إنسانية غير تجارب الصراع السياسي.

يرتبط شعر شمّر النبطي بأحداث اجتماعية ـ سياسية وتاريخية محدَّدة. وحين ينظم الشعراء، بمن فيهم شعراء الروالة وشمر والقبائل اليمنية، قصيدة أو يلقونها، فإنهم يصنعون تاريخاً. فالقصائد هي وسط البناء التاريخي. انها «الأرشيفات المحكية» المحلية ولكنها لا تروي لنا تاريخاً تبنى فيه الأحداث بناء زمنياً وتكون هناك علاقة سببية بينها. فالتاريخ الكامن في الشعر المحكي تاريخ بنيوي، يكشف عن علاقات اجتماعية وسياسية تقف فوق التاريخ الزمني وخارجه. والاشارة الوحيدة إلى الزمن توجد في أقوال عامة مثل «اليوم» أو «في قديم الزمان» أو «في سالف الأوان». وتبدو هذه خصيصة عامة من خصائص التاريخ القبلي بين مجموعات كثيرة في الشرق الأوسط. وعلى سبيل المثال، لاحظ ديفيز Davis الطريقة التي يصنع بها رجال القبائل التاريخ في ليبيا. فإن لدى الزوية نوعين من «المؤرخين». النوع الأول شيوخ يروون حكايات عن أحداث ماضية شهدوها بأنفسهم أو سمعوا عنها من أجدادهم. والشاعر بين قبيلة الزوية أيضاً مؤرخ. ويكون التاريخ في هذه الحالة نتاج مجموعة متخصصة وكانت الجدالات حول نوعية المنتوج تدور حول جماله ووزنه وطرافته وليس حول صدقه وأنموذجيته ومعناه (ج. ديفيز J. Davis ١٩٨٧ : ٢٠٧).

مع ظهور سلطة مركزية مثل سلطة أمراء آل الرشيد يصبح الحفاظ على أحداث تاريخية ماضية في ذاكرة جمعية أمراً ضرورياً. فالبناء التاريخي يرتبط بمرويات هزيمة وانتصار. وعندما يُحفظ تاريخ كهذا في تراث محكي، يتعلم المرء دروساً من الهزيمة ويستمد بهجة من الانتصار.

وما صُنْعُ التاريخ في سياق كيان سياسي مركزي إلا جانب آخر من ممارسة السلطة. فالشعر يصبح وسط التاريخ، والشاعر ـ الأمير مؤرخ نفسه، ليس مؤرخ سلام ونظام واستقرار ورخاء فحسب بل ومؤرخ صراعات وعداوات ومنافسات سياسية وعسكرية أيضاً. ويكشف التاريخ الذي يبنيه عن وقائع يتعرض فيه بقاءه وبقاء قبيلته إلى الخطر، ومواجهة هذا الخطر بفعل ليست كافية. ويعمد الشاعر ـ الأمير إلى توثيق التحديات من خلال الشعر. فهو يصنع التاريخ للأجيال القادمة.

في هذه المرحلة يتعين طرح الأسئلة التالية. هل لهذا التاريخ القبلي الذي

يتخذ في غالبية الحالات شكل مرويات وقصائد، صلة ببحثنا «التاريخي - الأنثروبولوجي»؟ وأي صنوف من «الحقائق التاريخية» يمكن أن نشتقها من هذا التاريخ الشعري[١٥]؟

قيمة التراث المحكي في البحث التاريخي

تنقل مرويات آل الرشيد وقصائدهم على السواء رسائل «حقيقة تاريخية» محدَّدة ثقافياً قد تتطابق أو لا تتطابق مع ما يسميه الانثروبولوجيون والمؤرخون «حقيقة تاريخية»[١٦]. وعند شمّر فإن تراثهم المحكي يحوي تاريخاً صادقاً عن أفراد وأحداث وهو غير معني بالكشف عن تاريخ زمني[١٧].

كما أنه تاريخ انتقائي بسبب عجز الذاكرة البشرية والعنعنات الشخصية والتغيرات في ما يعتبر مهماً بمرور الزمن. ونتيجة لذلك، يمكن أن يُفقد كمّ كبير من المعلومات ويمكن أن تساهم المعرفة المنتقاة في صنع تاريخ مشتق من اهتمامات حاضرة مُسقَطَة على الماضي. وهذا التحديد لا ينتقص بالضرورة من قيمته لأن استخدام مصادر أخرى يمكن أن يميط اللثام عن أحداث حُذفت عمداً أو عن غير قصد. ومن المحتم أن يقود هذا إلى النظر في سبب أن التراث المحكي يبقى صامتاً حول بعض الأحداث ويكون غنياً حين يتعلق الأمر بالبعض الآخر.

ان التراث المحكي يمكن أن يكون أيضاً ذا توجه نخبوي للغاية. وتراث شمّر المحكي يخبرنا عن حمائل متسيدة وانجازاتها وبطولتها وأدبها المحكي أكثر مما يحدثنا عن حيوات رجال القبيلة الاعتياديين. وهذا أمر له مغزاه لأنه يعكس تصورات شمّر عن ماضيهم. والأمر لا يتعلق بقوانين عامة أو قوى تاريخية أو مراحل متعاقبة وتقدم مطرد. فإن تاريخهم تاريخ حمائل وأمراء وشيوخ.

وطالما أن التراث المحكي يقدم تقارير عن الطريقة التي كان الأفراد في الماضي يفسرون بها خبراتهم، ينبغي أن يعتبر مصدراً مشروعاً ولا غنى عنه في بنائنا تاريخ البشر[١٨]. وقد جادل فانسينا «أن التراث المحكي ينبغي أن يعامل على أنه فرضيات وعلى أنه الفرضية الأولى التي يجب أن يختبرها الباحث قبل أن يفكر في الأُخريات. والتوقف عندها أولاً يعني عدم القبول بها حرفياً وقبولاً لا نقدياً. وهو يعني ايلاءها الاهتمام الذي تستحقه والحرص على اثباتها أو دحضها منهجياً، في كل حالة حسب استحقاقاتها». (ج. فانسينا J. Vansina ١٩٨٥ : ١٩٦).

والباحث اذ ينظر في التراث المحكي إنما يمنح الأفراد الذين يدرسهم فرصة الكلام على أنفسهم[١٩]. وهو يسمح لهم ببناء تاريخهم، ومهما يكن هذا التاريخ غير دقيق ومنحازاً ومشوهاً فإننا نتعلم بضمه إلى بحثنا. وحين يبني الأفراد تاريخهم فإنهم ينتجون فرضيات عن ماضيهم، وهي مهمة يشترك فيها المؤرخ المحترف. والمؤرخ المحترف والأفراد الذين يدرسهم على السواء يُخضِعون معطياتهم التاريخية باستمرار إلى اعادة التأويل. الأفراد يفعلون ذلك حسبما يستجد من ظروف اجتماعية، والمؤرخ يفعل الشيء نفسه في ضوء ما يستجد من أدلة تاريخية وتطورات نظرية في مجاله. لذا ليس هناك سبب لتصوير معرفتنا التاريخية على أنها معرفة مقدسة، ثابتة وعلمية ومعرفة الأفراد اسطورية، متغيرة وغير موثوقة. مهمتنا هي تحليل صيغ الأفراد التاريخية لماضيهم والنظر في الأسباب التي تكمن وراء سيادة صيغة واحدة من التاريخ على الصيغ الأخرى.

الفصل السابع

سياسة الزواج

كان الزواج بين أمراء آل الرشيد مؤسسة تنبع من ضرورات التناسل البشري والحياة السياسية على السواء. وكان تعقيد علاقاتهم السياسية ينعكس في تنوع استراتيجياتهم في الزواج، التي كانت تجمع بين الزيجات اللحمية والزيجات الأباعدية. وحين توضع هذه الاستراتيجيات في سياقها التاريخي والسياسي، يمكن أن يحدد المرء لماذا كانت بعض الزيجات أعمالاً ذات معنى سياسياً في حين أن بعضها الآخر لم يكن كذلك. ولكن المهم أن الممارسات الزواجية جزء من استراتيجية عامة يجري فيها الحفاظ على علاقات اجتماعية وسياسية، وإعادة خلقها وانتاجها. فكل زيجة تميل إلى اعادة انتاج الظروف التي جعلتها ممكنة. ويشير بورديو Bourdieu عن صواب إلى أن استراتيجيات الزواج تنتمي إلى منظومة استراتيجيات اعادة الانتاج، التي تُعرَّف بوصفها اجمالي الاستراتيجيات التي يميل الأفراد أو الجماعات موضوعياً من خلالها إلى اعادة انتاج علاقات الانتاج المرتبطة بنمط انتاج محدَّد وذلك بالسعي إلى اعادة انتاج موقعهم أو تحسينه في البنية الاجتماعية (ب. بورديو P. Bourdieu ١٩٧٧ : ٣٩ و٧٠).

في حائل كان نظام القرابة ذات النَسَب الأبوي على أساس الدم، مرناً بما فيه الكفاية لأن يبيح علاقات قرابية أخرى موازية في الأهمية، مثل رابطة الرضاعة بين الأمراء وأخوتهم العبيد. وهنا أركز على تلك العلاقات التي يخلقها الزواج.

كانت قرابة الدم تقوم على ايديولوجيا الأصل الأبوي مع طائفة متميزة من المصطلحات والمفاهيم المحلية الأصلية. وبين شمّر كان مصطلح «البيت» يشير إلى «الذات» ego (رب البيت) وزوجته أو زوجاته، وأطفاله. وكان أمراء آل الرشيد

يُعرفون بأنهم أفراد «بيت» الرشيد رغم أنهم يمثلون مجموعة أكبر من البيت. وتستخدم المصطلحات الآتية للاشارة إلى أفراد البيت: الجد، الجدة، الأب، الأم، الابن، البنت، العم، العمة، ابن العم، بنت العم، الأخ، الأخت.

تستخدم هذه المصطلحات للاشارة إلى الذكور والاناث المتحدرين من جد واحد من جهة الأب. ولا يتعين أن يكون الجد والد الأب، فهو يُستخدم أحياناً للاشارة إلى سلف بعيد. وعلى الغرار نفسه، يمكن استخدام مصطلح «ابن العم» بمعنى تصنيفي يتيح للشخص أن يُدخل عدداً كبيراً من الأقارب البعيدين من جهة الأب في علاقة قرابية وثيقة معه حين لا تكون هناك قرابة أو علاقة نَسَبية فعلية. وعلى سبيل المثال، أن الذكور من أفراد الفخذ الواحد يمكن أن يشيروا إلى أحدهم الآخر بوصفه «ابن عم» على أن تلتقي بيوت الفخذ المختلفة نَسَبياً على مستوى أعلى من التقسيم، أي على مستوى العشيرة والقبيلة.

وتُستخدم طائفة أخرى من المصطلحات القرابية للاشارة إلى أفراد بيت الأم: الجد، الجدة، الخال، الخالة، ابن الخال، بنت الخال، ابن الخالة، بنت الخالة.

ويشار إلى الأقارب من جهة الأم، عادة، بوصفهم الخوال، ويمتد هذا إلى سائر الأقارب من جهة الأم الذين ليسوا أشقاء الأم الفعليين. ومن هذه الناحية يكون مصطلح «الخوال» مشابهاً لمصطلح «ابن العم» بمعنى أن الاثنين يمكن أن يُستخدما بمعنى تصنيفي للاشارة إلى مجموعة من الأقارب من جهة الأم أو الأب دون وجود علاقة قرابية معروفة بوضوح. وحقيقة أن طائفتين مختلفتين من المصطلحات القرابية تُستخدمان للاشارة إلى القريب من جهة الأم والقريب من جهة الأب، حقيقة معهودة من الأنظمة النَسَبية. ويعني التميز الاصطلاحي أن العلاقة بين «الذات» وأقاربه برابطة الدم تختلف عن علاقته مع ذويه برباط الزوجية (أنسبائه).

إن السمة المميزة الأولى لعلاقة «الذات» مع أقاربه من جهة الأب تتعلق بالأصل. فإن «الذات» يستمد اسمه من أسلافه من ناحية الأب، وخاصة من جده لأبيه (والد الأب أو سلف بعيد). ويتجلى هذا في استخدام مصطلح «ابن رشيد» للاشارة إلى أمراء حائل كافة بصرف النظر عن أسمائهم الأولى. وعلى سبيل المثال، أن مؤسس الامارة، عبد الله بن علي بن رشيد، كان دائماً يشار إليه على أنه ببساطة «ابن رشيد». اذ يُضحّى بهوية الفرد المعبر عنها باستخدام اسمه الأول

لصالح هوية بيته.

وتصح القاعدة نفسها في الأصل الأبوي على الاناث من أفراد البيت. وعلى سبيل المثال أن الأنثى من أفراد بيت رشيد يشار إليها على أنها «بنت» وستحتفظ باسمها وحقوقها القانونية داخل البيت حتى إذا تزوجت من خارجه.

وتوصف العلاقة بين «الذات» وأقاربه من جهة الأب على أحسن وجه في استخدام مفهوم «العَصَب» المحلي. وحين يشير الأفراد إلى أقاربهم من ناحية الأب على أنهم «عَصَب» واحد، فإنهم يستخدمون صورة العظم، أي المادة الصلبة أو اللب الذي ينحدر منه النَسَب. وهذه الصورية تستحضر مركزية الأقارب من ناحية الأب في النظام القرابي. ويعكس مفهوم «العصب» الايديولوجيا القرابية الرسمية التي يكون التشديد فيها على الأصل الأبوي.

فيما يتعلق بالأقارب من ناحية الأم، أو الخوال، فإن مفهوم «اللحمة» يصف علاقة مختلفة بين الذات وأقاربه من جهة الأم - تربط الذات ربطاً ثانوياً بمجموعة قرابية لا يكون هو فرداً من أفرادها. وعلى النقيض من صورة العظم فإن اللحم غطاء ذو طبيعة ثانوية (مساعدة). ولكن سيادة الأصل الأبوي لا تقلل من أهمية ومتانة العلاقة القائمة بين الذات وخواله. ورغم أن الخوال لا يشاركون الذات «عَصَبهم»، فإنهم، على ما يُعتقد، يؤثرون في شخصيته. ومن الشائع وصف مَنْ يبدي بوادر شجاعة وشهامة وبسالة بأنه «جذبوه خواله»، وهي عبارة تؤكد أن صفات الذات موروثة من أقاربه من ناحية الأم من خلال عملية ينجذب فيها استعارياً في اتجاههم.

ويمكن للأقارب من ناحية الأم أن يوحدوا الأقارب من ناحية الأب ويقسموهم. إذ يتباين دورهم حسب الوضع ودرجة مشاركتهم في الشؤون الداخلية للأقارب من جهة الأب. وبين بدو سرنيقة، حين يسمح رجل لأقاربه من جهة الأم باستخدام أرض نَسَبه ومواردهم المائية، فإن أقاربه من جهة الأب يمكن أن يمنحوا موافقتهم عن طيب خاطر أو يمكن أن يختصموا حول الأمر. ولكن حين يتعلق الأمر بتنظيف بئر فمن المؤكد تقريباً أن تنشب نزاعات بين مَنْ يجادلون بأن أقاربهم من ناحية الأم ينبغي أن لا يُنتَظر منهم المساعدة في تنظيفها وبين من يصرون على عكس ذلك (ا. بيترز E. Peters ١٩٦٠: ٤٦). وفي هذه الحالة يقوم الأقارب من ناحية الأم بدور القوة الانقسامية بين الأقارب من ناحية الأب.

ومن الجهة الأخرى، عندما يسمح الأقارب من ناحية الأم لأحد ما باستخدام مراعيهم وآبارهم فإن هذا سيكون مبعث ارتياح لأقاربه من ناحية الأب لأنه يخفف الضغط على مواردهم. وفي هذا الوضع تقوم العلاقة من ناحية الأم بتقوية المجموعة التي من ناحية الأب (المصدر السابق).

خوال الأمراء لعبوا دوراً سياسياً حاسماً في أوقات معينة. وكما جرى تبيانه في الفصل الثالث فقد كانوا مشاركين في نزاعات على الخلافة. ولكنهم شاركوا أيضاً في أعمال قتل سلالية، وفي حياكة المؤامرات. وشجع بعض الأقارب من ناحية الأم على التمرد والانشقاق بين أشقاء شقيقتهم من أفراد آل الرشيد. وكانوا بمثابة مجموعة اسناد غير نظامية تدخلت وقامت بتقسيم الأقارب من جهة الأب. والمثالان التاليان يوضحان هذه النقطة.

كان والد عبد الله بن رشيد متزوجاً علية بنت عبد العزيز بن حميان الذي كان من بيت مرموق من شمّر الجعفر. وخلال نزاع عبد الله مع أبناء عمه لم يستطع طلب المؤازرة من أقاربه المباشرين من جهة الأب الذين لم يكونوا ذوي نفوذ كبير في حائل وقتذاك. وكان أحد الخيارات المتاحة له اللجوء إلى أقاربه من ناحية أمه الذين كانت لديهم مصلحة خاصة في نجاح عبد الله. والحال أن دعمهم ومشاركتهم المكشوفين في النزاع بين عبد الله وابن علي وسع الشقة التي أخذت تظهر أصلاً بين هذين القريبين من ناحية الأب.

كان السبهان، وهم بيت آخر من بيت شمّر الجعفر، يوفرون زوجات للأمراء منذ أجيال. ونتيجة لذلك كان أفراد مختلفون من هذه العائلة أخوالاً متنفذين أصبحوا مشاركين عن قرب في الشؤون السياسية للسلالة، متبوّئين في أحيان كثيرة منصب الوزير ومسؤول المالية. وأصبح بعض أفراد السبهان أولياء عهد خلال امارة سعود بن عبد العزيز (١٩١٠ ـ ١٩٢٠) الذي قام أخواله بدور نشيط في تنصيبه أميراً على حائل (انظر الفصل الثالث)، وتذكر بيل كيف أدى تدخلهم إلى وضع ابن احدى شقيقاتهم في منصب الأمير: «اغتيل سعود بن حمود على يد أحد أفراد عائلة السبهان، الوزراء الوراثيين لآل رشيد الذين نصبوا ابن أخيه، نجل عبد العزيز وموضي بنت سبهان، على العرش». (غ. بيل G. Bell ١٩١٤: ٧٦ ـ ٧٧). وهذا ما ذكره أيضاً القنصل البريطاني في جدة: «أراد السبهان، وزراء الامارة، أن يحكم الفتى بوصاية السبهان الذين منذ قديم الزمان

كانوا دائماً وزراء ابن رشيد ومن خيرة أنساب شمّر، متحالفين تحالفاً وثيقاً عن طريق الزواج مع ابن رشيد، رجال أصحاب جاه وثروة»[١].

تبين حالة السبهان كيف كان الأقرباء من ناحية الأم مشاركين مشاركة مباشرة في النزاعات السياسية بين الأقارب من ناحية الأب في آل الرشيد. ولأنه من الصعب ايجاد أمثلة تبين أن تدخل الخوال عمل فعلاً على توحيد مجموعة الأقارب من ناحية الأب فإن من الأرجح أن يعتبر المرء ذوي القربى من ناحية الأم قوة ذات امكانات انقسامية يمكن أن توظّف في أوقات الأزمات السياسية. فإن تدخلهم المباشر، لاسيما في مجازر وصراعات على الخلافة، تَسَبب في توسيع الشقة بين أقارب من ناحية الأب متنافسين مع بعضهم بعضاً، وفي الاخلال بميزان القوى بين الفروع المختلفة لعائلة آل الرشيد.

الجدول رقم (٦)

زيجات الأمراء

الأمير	اسم الزوجة	الأبناء	أصل الزوجة
١ ـ عبد الله بن رشيد (١٨٣٥ ـ ١٨٤٨)	أ ـ منيرة بنت عبد الرحمن الجبر	طلال ومتعب	بنت عم تصنيفية
	ب ـ سلمى بنت ابن علي	محمد	بنت عم تصنيفية
٢ ـ طلال بن عبد الله (١٨٤٨ ـ ١٩٦٨)	أ ـ الجوهرة بنت فيصل بن تركي		سعودية
	ب ـ نمشة بنت صحن بن علي	نايف*	بنت عم تصنيفية
٣ ـ متعب بن عبد الله (١٨٦٨ ـ ١٨٦٩)	أ ـ صيتة بنت جزاع بن عجيل	عبد العزيز	عبدة (شمر)
	ب ـ فاطمة بنت سبهان		جعفر (شمر)
٤ ـ بندر بن طلال (١٨٦٩)	أ ـ صيتة بنت جزاع بن عجيل		عبدة (شمر)
٥ ـ محمد بن عبد الله (١٨٦٩ ـ ١٨٩٧)	أ ـ موضي بنت سبهان		جعفر (شمر)
	ب ـ عموشة بنت عبيد		بنت عم حقيقية
	ج ـ تركية بنت جدعان بن مهيد		شمر، بريدة
	د ـ لولوة بنت مهنا		بريدة
٦ ـ عبد العزيز بن متعب (١٨٩٧ ـ ١٩٠٦)	أ ـ موضي بنت سبهان	سعود	جعفر (شمر)
	ب ـ موضي بنت حمود بن عبيد	محمد ـ متعب ومشعل	بنت عم حقيقية
	ج ـ حصة بنت صالح الدخيل		الدواسر
٧ ـ متعب بن عبد العزيز	أ ـ سكينة		غير معروف

(١٩٠٦ ـ ١٩٠٧)	ب ـ وسمية	عبد الله	أَمَة
٨ ـ سلطان بن حمود	أ ـ طُريفة بنت محيسن الجبر		بنت عم تصنيفية
(١٩٠٧ ـ ١٩٠٨)			
	ب ـ موضي بنت حمود بن سبهان		
	ج ـ لولوة بنت مهنا		بريدة
٩ ـ سعود بن حمود	غير مشخَّصة		
(١٩٠٨ ـ ١٩١٠)			
١٠ ـ سعود بن عبد العزيز	أ ـ فهدة الشريم	مشعل	عبدة (شمر)
(١٩١٠ ـ ١٩٢٠)	ب ـ لولوة بنت صالح السبهان	عبد العزيز	جعفر (شمر)
	ج ـ شاهة بنت الوجعان	محمد	الأسلم (شمر)
	د ـ عنود بنت سالم بن حمود بن عبيد	سعود	بنت عم حقيقية
١١ ـ عبد الله بن متعب	أ ـ عنود بنت سالم بن حمود بن عبيد	متعب ومشعل	بنت عم حقيقية
(١٩٢٠ ـ ١٩٢١)			
١٢ ـ محمد بن طلال	أ ـ لولوة بنت فيصل بن حمود بن عبيد		
	ب ـ نورة بنت حمود السبهان	بندر	جعفر (شمر)
	ج ـ عبطة بنت سلطان بن حمود بن عبيد	طلال ومتعب	بنت عم حقيقية

* من الأبناء الآخرين بندر وبدر ونهار ومُسْلط وزيد وسلطان وعبد الله.

استراتيجيات الزواج

تمكنتُ من جمع معلومات عن ٢٨ زيجة عقدت خلال فترة تمتد زهاء تسعين عاماً[٢]. وعُقدت عشر زيجات من بين ٢٨ زيجة مع بنات عم حقيقيات أو تصنيفيات (انظر الجدول رقم ٦: الأمراء: ١، ٢، ٥، ٦، ٨، ١٠، ١١، ١٢). وبالنظر إلى ذلك من زاوية أخرى يمكن القول انه كانت بين زوجات ثمانية أمراء من مجموع اثني عشر أميراً، بنت عم حقيقية و/أو تصنيفية. وبنت العم الحقيقية هي بنت شقيق الأب التي يمكن أن تُشخص وتحدَّد معها علاقة قرابية بدرجة الجد الأول والثاني والثالث والرابع والخامس. وتنتمي بنت العم الحقيقية إلى «البيت» نفسه الذي ينتمي إليه «الذات».

وعلى سبيل المثال أن الأمير الخامس، محمد بن عبد الله، تزوج عموشة بنت عبيد التي كانت ابنة شقيق أبيه، أي بنت عم من الجيل الأول. وتزوج الأمير السادس عبد العزيز بن متعب بموضي بنت حمود بن عبيد، ابنة شقيق جده، أي بنت عم من الجيل الثاني. ويلتقي عبد العزيز وموضي نَسَبياً على مستوى جديهما الأولَيْن.

كما أن بنت العم الحقيقية يمكن أن تكون أبعد عن الذات منها في الحالتين المذكورتين أعلاه. فإن الأمير الحادي عشر عبد الله بن متعب تزوج عنود بنت سالم ابن حمود بن عبيد التي كانت بنت عمه من الجيل الثالث. وتزوج آخر الأمراء، محمد بن طلال، من عبطة بنت سلطان بن حمود بن عبيد التي كانت بنت عم من الجيل الثالث ولكنه كان متزوجاً أيضاً بلولوة بنت فيصل بن حمود بن عبيد التي كانت بنت عم من الجيل الرابع.

من الجهة الأخرى، تنتمي بنت العم التصنيفية إلى بيت آخر من حمولة واحدة. وعادة تقام العلاقة القرابية على المستوى الأبعد من الجد الخامس. وعلى سبيل المثال، تزوج أمير حائل الثاني طلال بن عبد الله من نمشة بنت صحن بن علي التي كانت بنت عم تصنيفية تنتمي إلى آل علي الذين يشكلون مع آل الرشيد بيتين من حمولة جعفر.

والأكثر من ذلك، كانت الزوجات في احدى عشرة حالة من قبيلة شمّر، وفي غالبية هذه الزيجات كانت الزوجات من أفراد شمّر عبدة (انظر الجدول رقم ٦: الأمراء ٣، ٥، ٦، ٨، ١٠، ١٢). وفي هذه الزيجات كان الزوج والزوجة ينتميان إلى عشيرة واحدة.

وتمت أربع زيجات من مجموع ٢٨ زيجة بين الأمراء ونساء من خارج قبيلة شمّر (انظر الجدول رقم ٦: الأمراء ٢، ٥، ٦، ٨). وكانت احدى النساء بنت حاكم الرياض السعودي وأخرى من أفراد العائلة الحاكمة في بريدة. وقد تزوجت هذه المرأة مرتين من عائلة آل الرشيد. وكانت آخر زيجة من الخارج بامرأة من قبيلة الدواسر في وسط نجد.

ومن بين ٢٨ زيجة نُسبت أسماء ثلاث زوجات أو تعذر التعرف عليها. والجدول رقم (٧) تلخيص لأنواع الزيجات وأهميتها الاحصائية. وتبين الأرقام في الجدول رقم (٧) أن تعدد الزوجات كان يمارس على نطاق واسع بين الأمراء. والجدير بالذكر هنا أن الزيجات المسجلة لا تشمل الزيجات العقيمة أو القصيرة الأمد.

الجدول رقم (٧)
أنواع الزواج

عدد الأمراء	زواج لحمي		زواج من شمّر	زواج من الخارج	غير معروف
	بنت عم حقيقية	بنت عم تصنيفية			
	٦	٤			
١٢	١٠		١١	٤	٣
النسبة المئوية	٣٥,٧		٣٩,٢	١٤,٢	١٠,٧

السمة الثانية لممارسات الأمراء في الزواج هي الزواج اللحمي. وتشمل الزيجات اللحمية (٣٥,٧ في المئة) تلك الروابط الزوجية مع بنت عم حقيقية (٦) وبنت عم تصنيفية (٤). كما يمكن اعتبار الزيجات بنساء من شمّر (٣٩,٢ في المئة) زيجات لحمية. لذا شكلت الزيجات من داخل القبيلة ٧٤,٩ في المئة من الزيجات المسجلة.

وفيما يتعلق بزيجات الأمراء اللحمية يجدر التشديد على الزواج اللحمي من داخل «البيت» والزواج اللحمي من الحمولة. وتشير فئة «الزواج اللحمي من داخل البيت» إلى الزيجات التي تكون الزوجة فيها بنت عم حقيقية. ولكن الزواج اللحمي من الحمولة يشير إلى الزيجات التي تكون الزوجة فيها بنت عم تصنيفية. وفي هذه الحالة يكون الزوج والزوجة قريبين نَسَبياً على مستوى حمولتهما رغم الحقيقة الماثلة في أن كلاً منهما فرد من أفراد بيت مغاير.

ومن الجهة الثانية، يمكن تصنيف الزيجات بنساء من شمّر (انظر الجدول رقم ٧) ضمن فئة «الزواج القبلي»، حيث تنتمي الزوجة إلى القبيلة نفسها التي ينتمي إليها الزوج. وفي حالة زيجات الأمراء، تشمل فئة «الزواج القبلي» الزيجات التي كانت فيها الزوجة من احدى العشائر الشمّرية المختلفة. ويمكن اعتبار هذه الزيجات زيجات لحمية نظراً للحقيقة الماثلة في أن الزوج والزوجة يلتقيان نَسَبياً على مستوى أعلى من مستويات التقسيم ـ مثل الفخذ والعشيرة والقبيلة.

تفسير الزواج ببنت العم

ورد حدوث الزواج ببنت العم من مناطق عديدة في الشرق الأوسط وأُعطيت تفسيرات مختلفة له. ويُعتقد أن ممارسة الزواج اللحمي عموماً تعود إلى

أزمنة قديمة قبل الإسلام (غ. تيليون G. Tillion ١٩٦٦ : ٢٧ ـ ٣٠). ويعتبر الزواج ببنت العم ظاهرة خاصة بمعنى أنه يحدث في مجتمعات تقوم البنية القرابية فيها على أصل أبوي/أحادي النسب. والجماعات الشرق أوسطية ذات الأصل الأحادي النسب جماعات تمارس الزواج اللحمي[٣] بخلاف نظيراتها الافريقية. وتفضيل الزواج ببنت العم أو ابن العم يميزها عن تلك الجماعات ذات الأصل الأحادي النسب في افريقيا وأوقيانوس.

وقد أثار هذا «الاختلاف» أو الخروج عن قاعدة الزواج الأباعدي اهتمام العديد من الانثروبولوجيين[٤]. وحتى الآن أعطيت غالبية التفسيرات من زاوية الوظائف السياسية والاقتصادية والبنيوية والنفسية التي تؤديها هذه الممارسة في المجتمع. إذ يُعتقد أن الزواج ببنت العم يساهم في تعزيز الوحدة والاندماج في اطار النَسَب. ويعتبر الزواج اللحمي النَسَبي نوعاً من المقايضة المتأخرة التي ينال فيها الأب ولاء سياسياً في زمن حياته من ابن أخيه مقابل البنت التي يمنحها في الزواج. ويُوجِد أبو البنت التزاماً من جانب ابن أخيه بأن يمحضه دعماً سياسياً عن طريق اعفائه من دفع مهر العروس. ونتيجة لذلك يقوم الزواج ببنت العم بدور في تمتين النَسَب الأصغر كجماعة تشاركية في صراع عصبوي (ف. بارث F. Barth ١٩٥٤ : ١٦٨). ويشدد هذا الرأي على الوظائف السياسية الآنية والبعيدة المدى لاستراتيجية الزواج، وهو تشديد يُربَط أحياناً بإظهار أن الاستراتيجية تهدف إلى الاحتفاظ بالثروة الزوجية داخل النَسَب الواحد. وتركز مقاربة ثانية على الفوائد النفسية التي تُجنى من اعتماد هذه الممارسة. اذ يُعتقد أن الزواج ببنت العم لا يساهم في ايجاد أدوار متضاربة ولا يقيم علاقات زوجية متوترة كتلك التي ترتبط بالزواج من الخارج. فالرجل بتزوجه بنت عم لا يقيم صلات زوجية هامة ولا يغير العلاقات القرابية التي يتعلمها من الطفولة. (ف. خوري F. Khouri ١٩٧٠ : ٦٠٧).

انتقد المقاربة الوظيفية معارضو التفسير الذي يُعطى من زاوية الوظائف الآنية. وهكذا يركز مرفي Murphy وكاسدان Kasdan على وظيفة الممارسة البنيوية الأقل وضوحاً. فهما يجادلان بأن تعزيز الثروة أو القوة يمكن أن يشكل دافعاً لمن يرغبون في الزواج ببنت عمهم. ولكن واحدة من الوظائف البنيوية للمؤسسة هي تشجيع عملية التقسيم. فإن تفضيل بنت العم يُعمق الشقة بين فروع

قرابية بتحويل الروابط الزوجية نحو الداخل. ونتيجة لذلك تصبح كل وحدة صغيرة الحجم عملياً مستقلة بذاتها ومُتكيِّسة (ر. مرفي R. Murphy ول. كاسدان L. Kasdan ١٩٥٩ : ١٨).

ما زال اهتمام الانثروبولوجيين بالزواج ببنت العم مستديماً حتى بعد أن أعلن بورديو أن المخرج من الصعوبات التي تنشأ في صوغ تعميمات صالحة عبر الثقافات حول هذه الممارسة هو تحليلها بوصفها مقولة ذات معنى ينبغي تفسيرها (ب. بورديو P. Bourdieu). ورغم الادعاء القائل إن هذه الظاهرة عصية على التفسير سوسيولوجياً فإن هولي Holy، في دراسة حديثة العهد، ينقل بؤرة تركيز التحليل من الممارسة الفعلية للزواج ببنت العم ووظائفه البراغماتية إلى معناه وسياقه ومغزاه الرمزي. واستناداً إلى هولي فإن الزواج هو، في المقام الأول، فعل ذو معنى، ثقافياً: «من الممكن أن نبين كيف يستخدم فاعلون التفضيل القائم لحل مشاكل عملية. ولكن ليس من الممكن أن نجادل، على الضد من ذلك، بأن هذه المشاكل العملية هي التي تولِّد التفضيل، أي أن لدى الأفراد تفضيلات معينة لأنها تخدم وظائف عملية مفيدة». (ل. هولي L. Holy ١٩٨٩ : ٦٨).

ان تفضيل الزواج ببنت العم، كمفهوم ثقافي، يوجد بصورة مستقلة عن الوظائف العملية التي قد يؤديها في مجرى سلوك استراتيجي. وأن معناه لا ينفصل عن السياق الذي يحدث فيه. ويحلل هولي هذا التفضيل في سياق العلاقات بين الجنسين في الشرق الأوسط. فالتفضيل يرتبط بنظام العلاقات بين الجنسين الذي تُناط فيه بالرجل مسؤولية السيطرة على قوة المرأة غير المطوَّعة، مقترناً بالتقليل من قيمة العلاقات الزوجية لصالح العلاقات القرابية وبإضفاء طابع مفهومي على الأواصر من ناحية الأب بوصفها من أوثق الأواصر القرابية ـ وفي الحالات المتطرفة الأواصر القرابية الوحيدة (المصدر السابق: ١٢٦). ويكون التفضيل نتيجة مفاهيم جنسية تتعلق بالشرف، مساهماً في الوقت نفسه في انتاجها.

الأكثر صلة بهذه الدراسة هو عمل غارثويت على قبيلة بختيار في ايران لأن المناقشة المتعلقة بممارسات الخاني في الزواج تقتصر حصراً على زيجات الفئة الحاكمة (غ. غارثويت G. Garthwaite ١٩٨٣ : ٧٦). فهو يجادل بأن نمط الزواج السائد بالنسبة لبنات الخانات هو الزواج ببنت العم الذي يُستخدم وسيلة لنيل دعم متواصل من العائلة ـ التيافه (القبيلة) والاحتفاظ بقدر من السيطرة على الثروة التي

تصاحب هؤلاء العرائس وإبقاء الأبناء داخل العائلة. يضاف إلى ذلك أنه كان وسيلة للتخفيف من حدة التوتر بين العم وابن الأخ حول اللامساواة في الميراث (المصدر السابق: ٧٨). واستناداً إلى غارثويت، يمكن التعميم بأن زواج البنات كان يُرتَّب لاعادة تأكيد العلاقات الأُسَريّة والتخفيف من التوتر العائلي. وكثيراً ما كان الأبناء يضمون بنت عم إلى زوجاتهم ولكنهم كانوا يختارون عرائس من جملة قبائل (تيافه) كوسيلة لتوسيع قاعدتهم من التحالفات الخارجية والدعم الخارجي. غير أن الخانات لم يكونوا مُلزَمين بالقواعد نفسها التي تلزم رجال القبائل الآخرين. فهم كانوا يأخذون عرائس من خارج قبيلتهم ولكنهم كانوا عادة لا يتعاملون بالمثل من خلال تزويج شقيقاتهم وبناتهم، وهي استراتيجية شائعة جداً بين النخب السياسية (المصدر السابق). وتبين كثرة زيجات الخانات من الخارج رغبتهم في توسيع نفوذهم وتحالفاتهم السياسية مع أنساب وجماعات أخرى. ومع ذلك، فخلال القرن التاسع عشر حين كان الصراع العائلي على الزعامة السياسية بين الأعمام وأبناء الأخوة شديداً، كان الزواج ببنت العم يمارس في محاولة للتخفيف من حدة التوترات ومعالجات الانقسامات السياسية في العائلة.

هدفي في القسم التالي هو تفسير استراتيجيات أو ممارسات الزواج المختلفة بين أمراء آل الرشيد، بما في ذلك الزواج ببنت العم، بدلاً من التركيز على التفضيلات التي يُفترض انعكاسها في الممارسة.

زيجات الأمراء اللحمية

يمكن تفسير الدرجة العالية لتواتر الزيجات اللحمية بكثرة من خلال وضع هذه الاستراتيجيات الزوجية في سياقها السياسي والتاريخي الصحيح.

الزواج اللحمي من داخل البيت

كان الزواج ببنت عم حقيقية يهدف إلى تحييد العلاقة المشحونة بالنزاع بين الأعمام وأبناء الاخوة. والأكثر من ذلك أن مثل هذه الروابط كانت تميل إلى تقليل اللامساواة في الميراث السياسي لا الاقتصادي. فلقد كانت اللامساواة السياسية متأصلة في نظام الخلافة على منصب الأمير التي لم تكن هناك قاعدة ثابتة لها.

حين يتزوج الأمير بنت عمه فإنه في الحقيقة يتزوج بنت غريم سياسي وعدو محتَمل، وهو عمه الذي لديه حقوق متساوية في ادعاء المنصب الذي يتبوأه. وكان

هذا واضحاً في البيت الحاكم حيث يتنافس الذكور من أفراده على الزعامة. وهذا النوع من الزواج يضع ابنة غريم سياسي في بيت الأمير، ويساهم في تحويل العلاقة بين الأمير وعمه (أو الأمير وابن أخيه حين يكون العم أميراً). فيصبح العم حماً وجداً من ناحية الأم لأبناء الأمير الذين هم أمراء مُحتَملون. ويسفر الزواج ببنت عم عن دمج الأقرباء من ناحيتي الأب والأم.

جادلتُ في الفصل الثالث أن منصب الأمير يتبوأه المتحدرون في أصلهم من عبد الله الذي انتزع عهداً من شقيقه ليضمن استئثار أخلافه بمنصب الأمير. وظلت سلسلتا النَسَب متساويتين في المكانة والحقوق القانونية رغم وجود لا مساواة سياسية واضحة. فمن ناحية النَسَب كان عبد الله وعبيد شقيقين متساويين. ولكن عبد الله كان الابن الأكبر لعائلة آل رشيد وبالتالي أصبح أخلافه متقدمين في المكانة ازاء أخلاف عبيد. والأكثر من ذلك أن عبد الله كان الأمير، وإذ تمكن من ضمان تفوق أخلافه عن طريق العهد، فقد جرى الابقاء على اللامساواة. ولدينا هنا وضع اختلت فيه المساواة الأخوية بفعل عاملين: السن (أقدمية عبد الله) والسياسة (حقيقة أنه أصبح أمير حائل). ونتيجة لذلك أصبح أخلاف عبد الله نواة بيت آل الرشيد.

وفي محاولة للتعويض عن اللامساواة السياسية أخذ الأمراء المتحدرون في أصلهم من عبد الله زوجات من بنات عمهم عبيد. وبنات العم هؤلاء كن أفراد فرع متدنٍ سياسياً في العائلة. وكن ينتقلن إلى الأعلى لدى الزواج بأفراد من سلسلة نسب عبد الله، وكان الأبناء الذين يولدون نتيجة هذه الزيجات يصبحون أفراد الفرع المتقدم. يضاف إلى ذلك أن هذه الزيجات المفرطة التي كانت النساء يتحركن فيها إلى أعلى نحو الفرع المتقدم من العائلة، كانت تقلل من اللامساواة السياسية والصراع السياسي الناجمين عن انعدام المساواة في امكانية الوصول إلى منصب سياسي. كما أنها كانت تطمس الانقسام الموجود بين الأقارب من ناحية الأب والأقارب من ناحية الأم الذين هم أفراد مجموعة واحدة.

الزواج اللحمي من الحمولة

فيما يتعلق بالفئة الثانوية الثانية من زيجات الأمراء اللحمية، أي الزواج اللحمي من الحمولة، أو الزواج ببنت عم تصنيفية، فإن هذه الروابط كانت تغذي

قيام علاقات زوجية مع عوائل موسعة أخرى هي امتدادات لحمولة بيت ابن رشيد نفسها. وكانت هذه الزيجات تعقد لتحييد العداوات والصراعات التي تنشأ بين بيتين أو أكثر وليس داخل البيت الواحد.

عُقدت زيجتان من زيجات مؤسس الامارة عبد الله ببنت عم تصنيفية (انظر الجدول رقم ٦، العدد ١ أ و١ ب). فقد كانت زوجته الثانية سلمى من أفراد بيت ابن علي، الفئة الحاكمة المنافسة في حائل قبل تأسيس امارة آل الرشيد. وحين تسلم آل الرشيد مقاليد السلطة شرعوا يأخذون زوجات من بيت ابن علي. فكانت الزوجات ينتقلن من صفوف الفرع المتدني سياسياً إلى فرع أكثر تسيداً. وكان الفرع المتدني يصبح المجموعة مانحة الزوجات. وحافظ طلال، خَلَف عبد الله، على التقليد المتمثل في الزواج من بيت ابن علي (الجدول رقم ٦، العدد ٢ ب). وحتى بعد مرور عشر سنوات كان هناك احساس بأن الزواج بفرد من أفراد المجموعة الحاكمة السابقة في حائل أمر ذو أهمية حاسمة. وكانت هذه الزيجات تهدف إلى طمس الانقسامات السياسية الحادة بين المجموعتين بدمجهما من خلال سلسلة من الزيجات مع الابقاء في الوقت نفسه على التراتبية بينهما.

الزواج اللحمي القبلي

ذكرتُ في وقت سابق أن فئة «الزواج اللحمي القبلي» تشمل تلك الزيجات التي كانت الزوجة فيها فرداً من أفراد احدى عشائر شمّر الأربع. وأظهر التحليل الاحصائي أن ٣٩,٢ في المئة من زيجات الأمراء جرت مع نساء شمّريات. ويمكن تفسير هذه النسبة العالية بالاشارة إلى العلاقات السياسية القائمة بين الأمراء وعشائر شمّر المختلفة.

فلا الزواج اللحمي من داخل «البيت» ولا الزواج اللحمي من الحمولة يتيح اقامة شبكة واسعة من الأقارب، من العلاقات الاجتماعية والسياسية. وفي الحقيقة أن الاثنين يحصران الصلات السياسية بعدد محدود من الأفراد الذين توجد معهم أصلاً علاقة قرابية. ومن الجهة الأخرى، كان الزواج اللحمي القبلي يمنح الأمراء فرصة توسيع دائرة نفوذهم وصلاتهم السياسية نظراً للحقيقة الماثلة في أن غالبية زيجاتهم اللحمية القبلية كانت تعقد مع بنات شيوخ شمّريين. وكانت هذه الزيجات تغذي قيام تحالفات سياسية بين زعامة الأمراء المقيمة في الواحة والزعامة القبلية

لشيوخ شمّر. وكانت هذه التحالفات ضرورة لأن الشيوخ كانوا على اتصال مباشر مع أفراد قبيلة شمّر الذين كثيراً ما كان الأمراء في حائل ينشدون دعمهم ومشاركتهم في الحملات العسكرية ضد الغرباء. والأكثر من ذلك أن دعم شيوخ شمّر وعشائرهم كان يوفر شرعنة جغرافية وسياسية أوسع للزعامة المقيمة في الواحة. وكانت التحالفات بين شيوخ العشائر والأمراء تتعزز أكثر بالزواج اللحمي القبلي الذي يولّد منظومة من العلاقات الزوجية مع مجموعات شمّرية بدوية مبعثرة.

أدت زيجات الأمراء اللحمية القبلية إلى ظهور بعض العشائر الشمّرية بوصفها مانحة زوجات. وعموماً كان الزواج اللحمي القبلي يعمل لصالح مجموعات فرعية من قبيلة شمّر مثل عبدة والأسلم. فإن غالبية هذه الزيجات كانت مع بنات شيوخ عشائر، أي أفراد الحمائل الرئاسية للمجموعات الفرعية. ومن الجهة الأخرى، كانت الصراعات الداخلية وأعمال القتل السلالية بين المجموعة الحاكمة تهدد على الدوام بشق قبيلة شمّر التي كان أفراد منها أقارب هذا الأمير أو ذاك من ناحية الأم. ونتيجة لذلك كان الصراع داخل المجموعة الحاكمة ينتقل بسهولة إلى مستوى قاعدي، أي إلى مستوى قبيلة شمّر.

ويمكن الجدال على الغرار نفسه بأنه نظراً لتداخل العشائر الشمّرية المختلفة مع المجموعة الحاكمة من خلال الزواج فإنها كانت قادرة على طرح دعاواها من خلال دعم أمير من الأمراء ضد عمه أو ابن أخيه أو حتى أخيه غير الشقيق. وكانت عشائر شمّر وصراعاتها تصل إلى قمة الزعامة السياسية في الامارة، أي مستوى الأمراء الذين كانوا يستجيبون بالانخراط في أعمال قتل سلالية ضد بعضهم بعضاً.

زيجات الأمراء الأباعدية

أظهرت الاحصائيات في الجدول رقم (٧) أن أربع زيجات فقط من مجموع ٢٨ زيجة كانت مع نساء غريبات، أي أن ١٤,٢ في المئة من الروابط الزوجية كانت زيجات أباعدية. ورغم أن هذه الزيجات عديمة الأهمية احصائياً فقد كانت ذات أهمية سياسية بالغة.

عَقَد زيجة كهذه طلال بن عبد الله (١٨٤٨ ـ ١٨٦٨) الذي صاهر العائلة

السعودية. وحدثت هذه الزيجة في فترة مبكرة عندما كان الأمير ما زال منهمكاً في توطيد سلطته. وفي تلك الفترة كان الزواج من الخارج مُفَضلاً لأنه يَعِدُ بإقامة علاقات زوجية مع الامارة السعودية ـ الوهابية[٥]. ونتيجة لذلك، لم تُسجل أعمال عداء بين حائل والرياض في ذلك الوقت. ولم تظهر العداوة بين مركزي القوة في نجد الا في مرحلة لاحقة. وحدث التحول في العلاقة بين المجموعتين خلال زعامة الأمير الخامس محمد بن رشيد (١٨٦٩ ـ ١٨٩٧).

وكانت زيجتان من الزيجات الأباعدية مع طرف ينتمي في أصله إلى العائلة الحاكمة في بريدة، وهي مدينة تقع في منطقة القصيم. وجرت هاتان الزيجتان بعد هزيمة حاكم بريدة في معركة مليدة (١٨٩١). ويبدو أن الحاكم، إذ كان مهزوماً ومحبوساً، لم تكن له كلمة في مجريات هاتين الزيجتين اللتين عقدتا حسب القاعدة القائلة بمصاهرة المجموعة المنافسة.

كانت آخر زيجة أباعدية بامرأة من الدواسر، وهي احدى قبائل وسط نجد. فقد اعتبر التحالف مع قبيلة الدواسر مهماً بنظر الأمير عبد العزيز بن متعب (١٨٩٧ ـ ١٩٠٦) الذي أراد تمتين هذه العلاقة السياسية بالزواج.

كانت للسياق السياسي الذي جرت فيه زيجات الأمراء الأباعدية، صلة بتفسير هذه الروابط. ففي الحالات الأربع المبحوثة أعلاه، كانت علاقات المصاهرة التي أقيمت بالزواج تميل إلى تشجيع بناء تحالفات سياسية وتعزيز العلاقات السياسية القديمة وإقامة علاقات جديدة. ولكن رغم أن أمراء حائل كانوا يأخذون زوجات من خارج بيتهم وحمولتهم وحتى قبيلتهم فإنهم لم يتعاملوا بالمثل من خلال تزويج بناتهم وشقيقاتهم.

وكانت ممارسة تعدد الزوجات تتيح للأمراء أن ينوّعوا زوجاتهم لأنهم كانوا قادرين على الزواج ببنت عم وبامرأة من شمّر وبامرأة غريبة في الوقت نفسه. ولكن عائلة آل الرشيد لم تصبح مجموعة مانحة للزوجات. وفي حالة نسائهم، كان الميل نحو تداولهن داخل المجموعة. وكان هذا ينسجم مع تقليد كانت المجموعات الأكثر ارستقراطية فيه تحتفظ بنسائها ليتزوجهن أبناء عمومة قريبون. وكان الاستثناء الوحيد عن هذه القاعدة تزويج امرأة ارستقراطية إلى عائلة ارستقراطية أخرى تعتبر مساوية في المكانة لمن يُعطَون الزوجة. وكانت هذه الزيجات تعمل وفق نظام تبادل متساوٍ صارم حيث المجموعة التي تعطي امرأة تتسلم على الفور امرأة أخرى من

متلقي الزوجة. ويبدو أن نظام التبادل المتساوي هذا كان يمارس بين آل الرشيد. وقد ذكرتُ في وقت سابق أن أمير حائل الثاني طلال بن رشيد تزوج ابنة الحاكم السعودي، الجوهرة بنت فيصل بن تركي. ولإتمام المبادلة أُعطيت نورة، أخت طلال، إلى عبد الله بن فيصل بن تركي، حاكم الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية. فأعطى السعوديون إلى آل الرشيد امرأة وأخذوا منهم أخرى. وفي أحد المرويات المحكية لأحداثِ هذه الزيجات قيل لي إن نورة، شقيقة طلال بن رشيد، تركت زوجها السعودي وعادت إلى أهلها في حائل بعد صِدام معه. ولم يكن في الوسع تذكر الأسباب وراء هذا الانفصال. لكن المثير للاهتمام في هذه الحكاية هو الحقيقة الماثلة في أن الحاكم السعودي عبد الله بن فيصل سارع في الحال إلى طلب يد امرأة أخرى من آل الرشيد، هي طُريفة بنت عبيد، لتحل محل زوجته الأولى من آل الرشيد وإعادة التوازن إلى ما كان عليه.

بعد استيلاء ابن سعود على حائل في عام ١٩٢١، تغير هذا الوضع. وعُقد عدد من الزيجات مع العائلة السعودية. ولكن هذه الزيجات لم تعقد وفق القواعد المتبعة في نظام التبادل المتساوي. فقد تزوجت من العائلة السعودية نساء من آل الرشيد أكثر مما تزوج منها رجال من آل الرشيد. وأُخذت جواهر بنت محمد بن طلال، ابنة آخر أمير في امارة آل الرشيد، زوجة للملك عبد العزيز بن سعود فيما أخذ ابنه مساعد شقيقتها وطفاء. وكان هذا بداية اتجاه. فإنْ العديد من نساء آل الرشيد تزوجن من الفروع المختلفة للعائلة السعودية رغم عدم موازنة ذلك بزواج رجال آل الرشيد من هذه الفروع[٦].

تلقي هذه الملاحظات ضوءاً على التغير الذي حدث في علاقات القوى. ففي القرن التاسع عشر كان نظام التبادل المتساوي تمثيلاً رمزياً لعلاقات القوى المتساوية بين آل الرشيد وآل سعود. وعلى النقيض من ذلك، في القرن العشرين، عندما تغير ميزان القوى لصالح السعوديين بانهيار امارة آل الرشيد، تغيرت أيضاً الممارسات الرمزية في الزواج، وأصبح آل الرشيد مانحي زوجات ازاء العائلة السعودية.

يمكن وضع ممارسة الزيجات الأباعدية بين أمراء آل الرشيد في القرن التاسع عشر بمواجهة الممارسات الشمّرية في الزواج. فقد كان رجال شمّر يختارون زوجات كنَّ إما بنات عم حقيقيات أو بنات عم تصنيفيات أو شمّريات بعيدات.

ولم يكن الشمّريون يتزوجون بغريبات تماماً إلا في حالات نادرة. والأكثر من ذلك أن الزواج من السكان الحضر كان يُعد مهيناً. ولم تكن هذه هي الحال بين الأمراء الذين تزوجوا نساء من العائلة الحاكمة لسكان حضر، وتحديداً مجموعة المهنا الحاكمة في بريدة، معتقدين أن العلاقات السياسية التي ستقام من خلال هذا الزواج تفوق الوصمة التي تلصق بالزواج من جماعة حضرية. إذ كانت استراتيجيات الزواج لدى شمّر تعكس اهتماماتهم الآنية. وكان يُعتقد أن الزواج ببنت عم حقيقية يعزز وحدة «البيت» في حين أن الزواج اللحمي من الحمولة يساهم في تقوية الحمولة كلها بدمج البيوت المختلفة التي تكونها[٧]. ومن الجهة الثانية، كان يعتقد أن الزواج اللحمي القبلي يساهم في الحفاظ على تلاحم شمّر وتضامنها. وكانت قاعدة الزواج اللحمي حتى أشد صرامة حين يتعلق الأمر بزواج النساء الشمريات. إذ نادراً ما كان يُسمح لهن بالزواج من خارج المجموعة. وفي هذه الحالة كانت نساء شمّر ونساء آل الرشيد على السواء يتزوجن داخل المجموعة.

الفصل الثامن

الأمبراطورية والإمارة

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت منطقة جبل شمّر وحائل داخل الحدود الاقليمية المعلنة للأمبراطورية العثمانية، وحاول الباب العالي اقامة سيادة اسمية على أمراء حائل. واستمر هذا الوضع حتى هزيمة الحكومة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، التي أسفرت عن حلول بريطانيا محل العثمانيين في التعامل مع مراكز القوى المحلية في المنطقة.

كانت العلاقة بين الحكومة العثمانية وزعماء القبائل المحليين علاقة معقدة لأنها لم تكن ذات نمط ثابت. وكانت سياسة العثمانيين العامة ازاء القبائل تتذبذب مع الزمن. ولكن سياستهم، شأن غالبية مراكز القوى التي حاولت أن تحكم سكاناً غير متجانسين ذوي تراث عميق من الادارة الذاتية والاستقلال، كانت تهدف إلى ممارسة سيطرة مباشرة كلما أمكن ذلك وحكم غير مباشر حين يكون ذلك أجدى وأقل خطراً. وكان المبدأ الهادي وراء هذه السياسة اقامة سيطرة قصوى على السكان المحليين وزعمائهم بأقل ثمن. وكان هذا يتحقق من خلال استخدام القوة استخداماً مباشراً، والدبلوماسية. وفي كلا الحالتين كانت سياساتهم تؤثر في العمليات السياسية المحلية.

أكد خزانوف أن العلاقات مع العالم الخارجي عوامل هامة وراء ظهور المركزية السياسية والتمايز الاقتصادي بين البدو. ولاحظ أن التمايز الطبقي لم يبدأ في النشوء إلا عندما احتك المجتمع البدوي بالمجتمع الحضري وعندما أصبح بعض البدو حضراً وأضحت الارستقراطية البدوية هي الطبقة الحاكمة على السكان الحضر. (أ. خزانوف A. Khazanov ١٩٨٤ : ٢٧٧). وكثيراً ما عمل دخول

البدو في علاقات مع دولة مركزية، حتى في الحالات التي احتفظوا فيها بدرجة كبيرة من الاستقلال، على زيادة التمايز الاجتماعي. وفي الحقيقة أن العلاقات الخاصة التي أقامها أمراء حائل مع الحكومة العثمانية وتدفق أشكال الدعم من خارج الموارد الاقتصادية المحلية كانت هي العوامل الحاسمة التي أثرت في هذه العملية. وبقدر ما تشمل مقولة «العالم الخارجي»، باستخدام لغة خزانوف، دولاً مركزية خارجية، تكون محاجّته ذات صلة بتفسير المركزية والتمايز السياسيين ليس في حائل فحسب بل وفي مناطق أخرى في العالم أقامت فيها المجموعات البدوية المحلية صلات مع دول خارجية (ل. بيك L. Beck ١٩٨٦ وغ. غارثويت G. Garthwaite ١٩٨٣ وم. فان برونيسن M. Van Bruinessen ١٩٧٨ ور. تابر R. Tapper ١٩٨٣).

إلى الشمال من جبل شمّر، في سوريا والأردن، حدثت عمليات مماثلة نتيجة ارتباط شيوخ العشائر المحليين ارتباطاً متزايداً بالحكومة العثمانية وولاتها وممثليها. وعلى سبيل المثال، أقام بنو صخر، وهم احدى قبائل الأردن، اتصالات مع مسؤولين عثمانيين كانوا ينفذون سياسة تأليب شيوخ القبائل ضد بعضهم بعضاً. وكان يُعتقد أن هذا من شأنه أن يضمن احترام القبائل المختلفة في المنطقة للسلطة العثمانية. وكان الشيوخ المحليون الذين يشاركون في اللعبة يحصلون من العثمانيين على أراض زراعية تكون عادة قريبة من موارد الماء والمدن والقرى. وكان شيوخ القبائل يستخدمون هذه الأرض مقراً صيفياً لهم حين يكون من المهم الوجود قرب آبار ومصادر مائية دائمة. ويجادل لويس Lewis قائلاً إن هذا أطلق عملية لا رجعة فيها أصبح شيوخ بني صخر فيها ملاك أرض. وكان رؤساء العشائر يعتبرون هذه المقرات الصيفية ملكهم على نحو أشد تملكاً مما كانوا يعتبرون البادية والصحراء التي يتنقلون فيها على نطاق واسع خلال الشتاء. (ن. لويس N. Lewis ١٩٨٧: ١٢٧). كما كان العثمانيون يخلعون على الشيوخ ألقاباً مثل «شيخ المشايخ». وأدت هذه السياسة إلى نشوب صراعات بين رؤساء العشائر وتسريع عملية المَرْكَزة السياسية بين جماعة قبلية كانت لولا ذلك غير متمركزة سياسياً.

طُبّقت السياسة العثمانية ازاء قبائل سوريا والأردن، في جبل شمّر مع بعض التغييرات. فقد كان الباب العالي بعيداً جغرافياً عن وسط الجزيرة العربية لكنه مع ذلك أقام صلات مع زعماء القبائل المحليين. وكان هؤلاء الأخيرون لا يُعطَون

أراضي زراعية مقابل تعاونهم مع الحكومة. لكنهم كانوا يتلقون أشكالاً مختلفة من الدعم ومخصصات شهرية سمحت لهم بالابتعاد عن مجموعاتهم القبلية. ونتيجة لهذه الدعومات أصبح العديد من الشيوخ والأمراء المحليين جزءاً من فئة حاكمة قبلية حضرية. والأكثر من ذلك أن سياسات الباب العالي كانت، طيلة القرن التاسع عشر، تدور حول منع انبثاق قوة واحدة في وسط الجزيرة العربية يمكن أن تتحدى موقعهم في أقاليم الأمبراطورية الأكثر حيوية مثل الحجاز وسوريا وبلاد النهرين. وكانت مخاوف العثمانيين ناجمة عن عجزهم خلال القرن الثامن عشر حين هدد التوسع السعودي ـ الوهابي سلامة أمبراطوريتهم. وبغية استبعاد امكانية نشوء تهديدات مماثلة كانت السياسة العثمانية تقوم على مبدأ «فرق تسد» القديم. وفي القسم التالي أبحثُ كيف كان هذا المبدأ العام يعمل في وسط الجزيرة العربية وما هي الآثار المترتبة على هذه السياسة بالنسبة لتطور المركزية السياسية بين أمراء حائل.

السياسة العثمانية ازاء القبائل

بعد نجاح الغزو المصري الأول لوسط الجزيرة العربية في عام ١٨١٨، كان الاتصال بين الشيوخ المحليين والحكومة العثمانية يجري عن طريق مصر (انظر الفصل الثاني). فقد حافظ ضباط محمد علي على وجود عسكري في مدن نجد والحجاز الكبرى. وكانت السمة البارزة لخضوع نجد إلى مصر، دفع الزكاة إلى المسؤولين المصريين في المنطقة. ودام هذا الوضع حتى عام ١٨٤١ عندما اضطرت قوات محمد علي إلى الانسحاب من الجزيرة العربية برمتها بضغط دولي. إذ كان وجود القوات المصرية يعتبر تهديداً لسلامة الأمبراطورية العثمانية والمصالح البريطانية في الخليج. وفي الحقيقة أن محمد علي كان يعتزم الحلول محل الأمبراطورية العثمانية في الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين. وأدركت بريطانيا الأخطار التي يمثلها محمد علي منذ عام ١٨١٦، وذكرها القنصل الفرنسي في الاسكندرية:

«لا ريب في أن الانكليز لن تروقهم رؤية محمد علي وهو يحقق نجاحات تمنحه سيطرة على الخليج الفارسي والبحر الأحمر. وبالتالي فإن من الضروري أن يقتنعوا بأن هذه الحملة لن تتكلل بالنجاح»[١].

وبانسحاب القوات المصرية أصبحت ادارة وسط الجزيرة العربية مسؤولية والي البصرة. وغدت نجد متصرفية تابعة لهذه الولاية. وكانت حائل وجبل شمّر جزءاً من هذه الوحدة الادارية. ولم تُستكمل هذه الصيغة بأي اجراءات عملية لضم نجد إلى الأمبراطورية العثمانية أو ضمان خضوعها للحكم العثماني. وخلال خمسينات وستينات القرن التاسع عشر ظلت السيادة العثمانية على نجد سيادة اسمية، وكان المسؤولون وضباط الجيش العثمانيون غائبين تماماً في وسط الجزيرة العربية:

«ان هذه السيطرة ـ وهي في الغالب سيطرة اسمية ـ لا تمارس أبعد من المدينة وتنتهي عند حدود نجد التي يكتنفها الابهام»[٢].

وفيما يتعلق بحائل، فقد تبدى الاعتراف المبهم بالسيادة العثمانية الاسمية خلال امارة طلال بن رشيد (١٨٤٨ ـ ١٨٦٨) في ذكر اسم السلطان خلال صلاة الجمعة: «كان على طلال أن يحافظ على المظاهر مع السلطان الذي يبرز اسمه كبيراً خلال صلاة الجمعة ولكنه لا يجني أي فائدة أخرى من الإقليم»[٣].

ولكن الحكومة العثمانية لم تتخذ اجراءات لفرض سيطرتها على حائل. ويصف فيلبي الوضع في جبل شمّر فيما يتعلق بالحكم العثماني: «أقر جبل شمّر بالسيادة المبهمة والمربحة للأمبراطورية العثمانية بوصفها من بديهيات الوجود واعتبرت الأمبراطورية العثمانية جبل شمّر جزءاً محايداً من ارثها الثقيل المترامي الأطراف».

وطالما كان أمراء آل الرشيد وشمر لا يشكلون تهديداً لأمن «طريق الحج الأمبراطوري» من دمشق إلى المدن المقدسة في الجزيرة العربية، فقد امتنعت الحكومة العثمانية عن التدخل في شؤونهم الداخلية. وأُبقي على هذا الوضع حتى سبعينات القرن التاسع عشر. إذ أن العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر اتسمت برغبة الحكومة العثمانية في فرض سيطرتها على وسط الجزيرة العربية بصفة عامة. وبالتالي، أسفر هذا عن تضارب في المصالح بين الحكومة المركزية ومراكز القوى المحلية في المنطقة.

يمكن أن يُعزى التحول نحو القيام بدور سياسي أكبر في أقاليم الأمبراطورية العثمانية في الجزيرة العربية إلى رغبة الحكومة العثمانية في التعويض عن خسائرها الاقليمية في أوروبا[٤]. يضاف إلى ذلك أن دخول بريطانيا في الخليج وقتذاك

اعتبر تهديداً للمصالح العثمانية في المنطقة. وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت الحكومة العثمانية شديدة الحرص على التصرف كدولة حديثة واكتساب سيطرة حقيقية على أراضيها. وكان الباب العالي يريد أن يبسط سلطته على تلك الأقاليم من الجزيرة العربية التي كانت حتى ذلك الوقت خارج سيطرته المباشرة والفعلية. وتجسد دخول الحكومة العثمانية في الجزيرة العربية بسلسلة من الحملات العسكرية التي كان هدفها ضمان سيطرة ثابتة على الأقاليم الطرفية للأمبراطورية في الجزيرة العربية. ورغم أن الحملات العسكرية العثمانية في تلك الفترة جرت على أطراف نجد فإن هدفها كان اضعاف الاستقلال السياسي للحكام المحليين والحيلولة دون توسع دائرة نفوذهم إلى الأراضي المجاورة.

كانت الحملة العسكرية ضد واحة الجوف شمال غرب جبل شمّر مؤشراً إلى النيات العثمانية. وكان طلال بن رشيد قد احتل الواحة في عام ١٨٥٣ ومنذ احتلالها أخذ سكان الواحة يدفعون الاتاوة لأمراء حائل. ولكن في عام ١٨٧٠ استغلت الحكومة العثمانية ما حدث في حائل من أحد اضطرابات حول الخلافة على منصب الأمير وشجعت شيخ قبيلة الروالة، سطام بن شعلان، على غزو الواحة بمساعدة والي دمشق وبعض القوات التركية. (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٧ : ٢٤٢ وج. لوريمر J. Lorimer ١٩٠٨ : ١١١١ الجزء الأول ب).

فشلت الحملة في انتزاع الواحة من سيطرة ابن رشيد وتم التوصل معه إلى اتفاق على السماح لمسؤول تركي مع ٨٠ جندياً بالبقاء هناك. واستمر ابن رشيد في أخذ الاتاوة من سكان الواحة موافقاً في الوقت نفسه على دفع ١٥٠٠ مجيدي تركي إلى الحكومة العثمانية مقابل خضوع الواحة له[٥]. وكان هذا المبلغ اشارة رمزية إلى إذعانه الاسمي.

كشفت هذه الواقعة عن سياسة الحكومة العثمانية في تأليب زعيم قبلي على آخر (في هذه الحالة ابن شعلان على ابن رشيد) في محاولة لبسط سيطرتها هي على شؤون المنطقة السياسية. وكانت القدرة على استثمار العلاقات السياسية القبلية بين المجموعات المتنافسة تعتبر من مستلزمات فرص السيطرة العثمانية. وكانت الحكومة العثمانية تمتنع في بعض الأحيان عن القيام بأي عمل مباشر ضد وحدات قبلية عاصية لكنها كانت تفضل هذه السياسة في تحريض زعيم قبلي ضد آخر.

وكانت الحملة العسكرية في عام ١٨٧١ على الاحساء، وهو اقليم يقع على

الأطراف الشرقية من نجد، محاولة عثمانية أخرى لزيادة تدخلها في شؤون وسط الجزيرة العربية. وكانت الحكومة العثمانية تسعى إلى اقامة وجود عسكري وسياسي دائم على الشاطئ العربي من الخليج وجاءت اللحظة المناسبة للهجوم في عام ١٨٧١ عندما اختلف عبد الله بن فيصل، الحاكم السعودي، مع شقيقه سعود على زعامة الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية (انظر الفصل الثالث). وطلب عبد الله معونة السلطات العثمانية ضد أخيه الخارج عن الطاعة، فكانت نتيجة ذلك أن قوة عثمانية بقيادة مدحت باشا، والي بغداد، احتلت اقليم الاحساء[٦]. وزُعم أن أهل الاحساء وجهوا مذكرة إلى السلطان يلتمسون فيها من جلالته أن يشمل نجداً بحكمه المباشر ويعين والياً تركياً بدلاً من أحد أفراد آل سعود. وعندما ألح المسؤولون البريطانيون في الخليج على تفسيرات توضح ما حدث، أكدت الحكومة العثمانية، وبخاصة مدحت باشا، أن الهدف الحقيقي والوحيد من المشروع الحالي هو تهدئة الشقيقين السعوديين والحيلولة دون استمرار الفوضى وإعادة السكينة[٧].

ولكن بحلول عام ١٨٧٢ أصبحت الأهداف الحقيقية ظاهرة. وقيل ان عبد الله بن فيصل بعث برسالة إلى السلطات العثمانية يشكو فيها من أنهم رغم دخولهم بلاده بنية معقودة على اعادته إلى السلطة، عمدوا في الواقع إلى لجمه ويعتزمون تقويض امارته بإحلال سلطتهم محلها[٨]. وسرعان ما تجلَّت المشاريع العثمانية لإقليم الاحساء في سلسلة من الاجراءات الادارية هدفها المزيد من السيطرة المباشرة. فقد نيطت ادارة المنطقة، ومنها مدينة القطيف، بمتصرف يعينه والي البصرة وقائم مقام يعينه المتصرف. والأكثر من ذلك أن قائداً عسكرياً محلياً عُين للأغراض العسكرية[٩]. وقامت الحكومة العثمانية فيما بعد بتغيير سياستها الادارية. ومنحت متصرفية الاحساء إلى ابن عريعر، شيخ بني خالد، وهي قبيلة محلية قهرتها القوات السعودية ـ الوهابية في أواخر القرن الثامن عشر. اضافة إلى ذلك، تقرر سحب القوات النظامية العثمانية واناطة الدفاع عن الحدود بين نجد وإقليم الاحساء بقوة من الجندرمة تُشكل في البلد لهذا الغرض[١٠].

وما ان نجح العثمانيون في اقامة وجود دائم في اقليم الاحساء حتى شرعوا في اجراء سلسلة من الاتصالات مع محمد بن رشيد مشجعين اياه على الانخراط في حملات عسكرية مشتركة تحت إشرافهم. ولهذا الغرض جرت مراسلات كثيرة بين متصرف اقليم الاحساء وابن رشيد[١١]. وفي عام ١٨٨٨ اشارت تقارير إلى أن

الحكومة تحاول تشجيع ابن رشيد على غزو عُمان بالاشتراك مع الشيخ جاسم في قطر[١٢]. وتأكد هذا في تقرير أعده المقيم السياسي البريطاني في البحرين: «أن الحكومة التركية تتعامل تعاملاً ودياً مع ابن رشيد، وعما قريب، في الطقس البارد، سيصل ابن رشيد دون ريب أو شك، إلى الاحساء ومن هناك ينطلق نحو عُمان، وهذا معلوم حق العلم، وهو موضوع الحديث الشائع بين أهل الاحساء، وفي المجالس الخاصة بين الأتراك»[١٣].

صُرف النظر عن هذه المشاريع لأنها واجهت معارضة بريطانيا ولكن العلاقة الودية بين ابن رشيد والحكومة العثمانية ظلت قائمة. وفي عام ١٨٨٦ توجهت بعثة عثمانية إلى حائل لحث ابن رشيد على السماح ببناء مسجد ومدرسة رسمية لكنها لم تنجح في مهمتها[١٤].

ولم تدم العلاقات الودية بين ابن رشيد والسلطات العثمانية طويلاً لأنه كانت لدى الطرفين مشاريع ومصالح مختلفة. ففي أواخر القرن التاسع عشر كان نفوذ محمد بن رشيد في توسع متواصل. وفي ذلك الوقت انتهى من اخضاع منطقة القصيم والرياض، عاصمة السعوديين. وكان يريد ضم منطقة الاحساء إلى أراضيه وتمنى على السلطان العثماني أن يضع المنطقة قانونياً تحت سلطته[١٥]. ولكن العثمانيين كانوا يسعون إلى توسيع سلطتهم على الشاطئ العربي من الخليج. ولاقى طموح ابن رشيد في أن يكون حاكماً مستقلاً لا يعترف إلا اسمياً بسيادة السلطان، معارضة الباب العالي الذي كان يخطط لتحويل نجد إلى اقليم عثماني[١٦]. وكان تركيز السلطة بيد ابن رشيد وتوسيع دائرة نفوذه على وسط الجزيرة العربية برمته أسباباً وجيهة لأن يعيد العثمانيون تقييم سياساتهم نحوه. ورغم أن مسؤولي الباب العالي كانوا يساندونه في العلن فإنهم أقاموا في الخفاء اتصالات مع منافسيه في محاولة لاستخدامهم ضده إذا حاول الخروج من السيادة العثمانية وإعلان استقلاله.

عندما استولى محمد بن رشيد على العاصمة السعودية، وطرد حاكمها عبد الرحمن في عام ١٨٩١، لجأ الأخير إلى منطقةالاحساء التي كانت لم تزل تحت الاحتلال العثماني. وقد توجه الحاكم السعودي إلى هناك بدعوة من والي البصرة الذي حدَّد له مخصصات شهرية قدرها ٣٣ ليرة[١٧]. ويبين هذا كيف كان العثمانيون يعتمدون اعتماداً كبيراً على استخدام القوى القبلية ضد بعضها بعضاً

لأنهم ما كانوا ليستطيعون السماح لابن رشيد أو الحاكم السعودي أن يبسط سلطانه بلا منازع في وسط الجزيرة العربية. وهذا ما تبدى في ابتهاج المسؤولين العثمانيين على حدود أراضي ابن رشيد بموت حاكم حائل في عام ١٨٩٧ :

«ارجأ الوالي وشريف مكة اللذان كانا ينتظران خلال تلك الأيام في جدة، سفرتهما بسبب هذا الحدث ذي الأهمية البالغة من ناحية السيطرة التركية على وسط الجزيرة العربية. . . فإن موت عدو خطر شديد التمسك باستقلاليته، والصراعات الداخلية، ستخدم المصالح التركية في هذا البلد على نحو أفضل»[١٨].

خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر كانت الحكومة العثمانية تراقب عن كثب ظهور محمد بن رشيد الحاكم الأوحد بلا منازع في وسط الجزيرة العربية. ولكن موته أبعد عن المسرح حاكماً قوياً لم يكن يدين بالولاء للحكومة العثمانية الا إعلاناً دون أن يفرط في الواقع باستقلاله أو يبدي إذعاناً مطلقاً. وفيما بعد، كانت لدى خلفاء محمد قوة تفاوضية أقل مع الحكومة لأنهم ووجهوا بعودة عبد العزيز بن سعود (المعروف بابن سعود) في الرياض. وتزامن هذا مع خطط الحكومة العثمانية للشروع في انتهاج سياسة نشيطة في وسط الجزيرة العربية وقرارها بدعم ابن رشيد في أي صِدام يقع مستقبلاً بينه وبين ابن سعود. وفي الوقت نفسه بدأت الحكومة العثمانية تعد العدة في عام ١٩٠٤ لتجريد حملة عسكرية وقعت في منطقة القصيم بين أراضي ابن رشيد وأراضي ابن سعود: «قرر السلطان أخيراً اعتماد سياسة نشيطة باتجاه نجد وأمر بالتحضير دون ابطاء، لحملة جديدة وأقوى غرضها المعلن مساعدة ابن رشيد على سحق ابن سعود واتباعه الوهابيين»[١٩].

ورغم الغرض المعلن من الحملة فقد أبقى مسؤولون عثمانيون قنوات الاتصال مفتوحة مع ابن سعود. ودعا والي البصرة والد ابن سعود، عبد الرحمن، إلى اجتماع عقد في البصرة. وفي هذا الاجتماع أعرب عبد الرحمن عن ولائه وإخلاصه للسلطان ووعد باطاعة أوامره. كما قال انه مستعد لعمل كل ما في وسعه لمساعدة الحملة العثمانية على القصيم[٢٠]. وفي نهاية المطاف انطلقت الحملة من البصرة بقيادة فائز باشا واحتلت مدن القصيم الرئيسية. ولكن القوات التركية اضطرت إلى الانسحاب بسبب الصعوبات في الحفاظ على أمن خطوط الامداد والمرض وعداء القبائل المحلية. ونتيجة لذلك رُسمت سياسة جديدة للتعامل مع الوضع.

كانت هذه السياسة ترمي إلى الابقاء على توازن القوى بين ابن رشيد وابن سعود. وإذا مال الوضع لصالح أحدهما ستتدخل الحكومة العثمانية في الحال بتقديم مساعدات عسكرية وأشكال من الدعم إلى الآخر لاعادة التوازن والحفاظ على الوضع القائم في المنطقة. ورغم اعتراف الحكومة بالاثنين حاكمين مشروعين في نجد، فإنها كانت تضعف سلطة أحد الحاكمين بدعم غريمه. وحاول الباب العالي أن يمنع ظهور حاكم واحد بلا منازع لديه طموحات سياسية قوية، من المحتم أنه سيتحدى السلطة العثمانية في أقاليم الأمبراطورية الأكثر حيوية مثل العراق وسوريا. ومثل هذه المخاوف لم تكن من دون سابقة تاريخية لأن حكام الامارة السعودية ـ الوهابية الأولى وصلوا إلى كربلاء في العراق وقاموا بتجاوزات على الحدود السورية. والأكثر من ذلك أن محمد بن رشيد، في أواخر القرن التاسع عشر، أجبر تدمر في الصحراء السورية على دفع إتاوة له[٢١]. وكانت الطريقة الوحيدة لمنع حوادث كهذه، الابقاء على حاكمين في نجد سيمنعهما عداؤهما لأحدهما الآخر من التوسع شمالاً.

يضاف إلى ذلك أن الحكومة كانت تريد أن تبني شبكة نقل لربط الأجزاء الطرفية من الأمبراطورية بالمدن الكبيرة مثل دمشق وبغداد. وفي عام ١٩٠٠، بدأت لجنة تحت إشراف السلطان عبد الحميد الثاني، تدرس امكانية مد خط للسكة الحديد يربط دمشق بمدينتي مكة والمدينة المقدستين في الجزيرة العربية. وعُرف هذا الخط فيما بعد بخط الحجاز. وكان السلطان عبد الحميد الثاني يعلق أهمية خاصة على الإسلام بوصفه أساس الولاء للدولة. وبالتالي كان مستعداً لإيلاء الاهتمام اللازم بكسب قلوب العرب[٢٢]. وتجسد هذا في محاولاته لتأمين سلامة الحجاج الذين يزورون مكة والمدينة سنوياً. ولكن العوامل الدينية لم تكن القوة الدافعة الوحيدة. فإن م. عارف، وهو عربي مدافع عن الحكم التركي، أطلع السلطان على فوائد خط السكة الحديد هذا[٢٣]. وقال «ان الخط سوف يساعد في اعادة السكان إلى جنوب شرق سوريا وتهدئة القبائل البدوية ووقف غاراتها وتطوير الزراعة واستغلال الموارد الطبيعية واعادة تأكيد سلطة السلطان وتمكين المسلمين من سائر انحاء العالم من أداء مناسك الحج». لذا كان واضحاً أن المنافع السياسية والعسكرية للحكومة العثمانية كانت بقدر أهمية المنافع الدينية ان لم تكن أكثر أهمية.

كان من المحتم أن يواجه مد خط الحجاز معارضة القبائل البدوية المحلية التي

أفادت طيلة سنوات من نقل الحجاج وفرض ضريبة عليهم مقابل حمايتهم. وكان واضحاً أن استثمار قوافل الحج لن يعود بأيدي هذه القبائل البدوية بعد بناء الخط. وقد تعاملت الحكومة العثمانية مع هذه المشاكل بالقوة والدبلوماسية. فأُرسلت قوات لتهدئة هذه القبائل واقترن بناء خط السكة الحديد باشتباكات عسكرية[٢٤]. ولكن الحكومة العثمانية كانت تحاول في بعض الأحيان كسب تأييد الشيوخ البدو الأقوياء من خلال أشكال من الدعم والهدايا:

«المهمة صعبة ولا يمكن أن نرى أي تعويض يمكن أن تقدمه الحكومة إلى البدو بما يحقق مساهمتهم للمساعدة في انجاز هذا المشروع الذي سوف يحرمهم من مصدر ربحهم الوحيد. ولا بد من استخدام القوة لانجاز العمل على مد خط السكة الحديد في الصحراء حيث توجد حاجة إلى قوات وأموال كبيرة»[٢٥].

نتيجة لذلك كان المسؤولون العثمانيون يدفعون لشيوخ القبائل مقابل وعد بضبط اتباعهم. ورغم هذه المصاعب وصل خط السكة الحديد إلى المدينة في عام ١٩٠٨ رغم أن امتداده إلى مكة لم ينجز قط.

ونفذت الحكومة العثمانية مشروعاً مماثلاً في بلاد النهرين. ففي أواخر القرن التاسع عشر منح السلطان امتيازاً إلى شركة ألمانية لمد خط للسكة الحديد يربط الأناضول بالخليج ويمر ببغداد. ولم يلق هذا المشروع الذي عرف بخط بغداد، أي معارضة من المجموعات المحلية. ولكن بريطانيا اعتبرته تهديداً لمصالحها في الخليج حيث بسطت هيمنتها بلا منازع منذ حوالي قرن. ونتيجة لذلك عمدت بريطانيا في عام ١٨٩٩ إلى تشجيع شيخ الكويت، مبارك بن صباح، على توقيع معاهدة سرية تضمن استقلاله ازاء الحكومة العثمانية مقابل بعض الامتيازات التي تمنح لبريطانيا[٢٦].

كانت المعاهدة السرية مع الكويت تهدف إلى الحيلولة دون بناء محطة لخط السكة الحديد في الكويت وتنذر بمزيد من التدخل البريطاني في شؤون المدينة المحلية. وكانت ايذاناً بتنامي المصالح البريطانية في وسط الجزيرة العربية وبوجود بريطاني دائم في الكويت بحلول عام ١٩٠٤. وكان من شأن هذا أن يوفر الأساس لكي تستغل مجموعات محلية التزاحم بين بريطانيا والحكومة العثمانية لصالحها. وعلى سبيل المثال، في أوائل القرن العشرين حاول ابن رشيد أن يفتح خطوط اتصال مع المسؤولين البريطانيين في المنطقة. وأبلغ مبعوثوه القنصل البريطاني في

العراق أنه يريد الدخول في علاقات تعاقدية مع الحكومة البريطانية. كما أنه سيقبل بموقع بريطانيا في الكويت ويمنح امتيازاً بمد خط للسكة الحديد عبر الجزيرة العربية إذا كانت الحكومة البريطانية ترغب في ذلك. وبالمقابل ينتظر من بريطانيا أن تسمح بتدفق السلاح بحرية عن طريق الخليج إلى حائل[٢٧]. وعلى الغرار نفسه حاول ابن سعود في الرياض من خلال حليفه مبارك بن صباح في الكويت، أن يكسب تعاطف بريطانيا مع قضيته. وكانت استراتيجية ابن سعود ترمي إلى زيادة تدخل بريطانيا في شؤون الجزيرة العربية كثقل مضاد لتركيا[٢٨].

كانت الحكومة العثمانية تراقب هذه المحاولات بارتياب. واعترض المسؤولون العثمانيون لدى السفير البريطاني في الآستانة واتهموا بريطانيا بنيتها في التوجه إلى نجد لاقناع ابن سعود بالتمرد على الحكومة الأمبراطورية، وقبول الحماية البريطانية. وأكد السفير البريطاني للسلطات العثمانية أن لا دليل على هذه التُهم: « قلت إني لم أسمع بتحرك مزعوم للسفن البريطانية، ولكن التقرير القائل إن حكومة صاحب الجلالة تفكر في اقامة محمية بريطانية في عمق الجزيرة العربية تقرير يثير السخرية ولا يمكن لي أن أفترض أن أي أحد يشتبه بأننا نبيِّت مخططات كهذه»[٢٩].

وفي الوقت نفسه لم تستجب بريطانيا للعروض المقدمة من ابن رشيد وابن سعود رغم انتهاج سياسة متعمدة في الامتناع عن استعدائهما. فقد كان هم بريطانيا الرئيسي أن تضمن بقاء الكويت في دائرة نفوذها، ومن هذه الناحية لم يكن ابن سعود يمثل خطراً. لذا كانت القضية الرئيسية تتمثل في منع أي هجوم يقوم به ابن رشيد على الكويت. وكان يُعتقد بأنه «رغم أن الحكومة البريطانية لم تكن لديها علاقات مباشرة مع أمير حائل، لم تكن هناك ضرورة لاستعدائه بلا طائل. يضاف إلى ذلك، أن صراعاً على السلطة بين حائل والكويت سيضعف الطرفين على السواء ويزيد بذلك النفوذ التركي في الجزيرة العربية. وكانت المصالح البريطانية تقتضي أن لا يكون هناك نزاع بين مبارك وابن رشيد»[٣٠].

وإذ واجه ابن رشيد إحجام بريطانيا عن دعمه بنشاط، استجاب إلى تشجيع السلطات العثمانية على مهاجمة الكويت. وكانت الحكومة العثمانية تخشى العواقب المترتبة على وقوع مجابهة مباشرة مع بريطانيا وفكرت بأنه إذا هاجم ابن رشيد الكويت نيابة عنها فإن احتمالات اندلاع عمليات عسكرية مع بريطانيا ستكون أقل. وقام ابن رشيد بالاعداد لهجوم وهزم مباركاً في عام ١٩٠١. ثم عسكر لبعض الوقت على مشارف الكويت حيث دأب على الاتصال مع السلطات التركية

في البصرة مطالباً بمعونتها للاقتصاص من أمير الكويت على عدوانه ضد الأراضي النجدية[٣١].

أثار انتصار أمير حائل قلق المسؤولين البريطانيين في الكويت وحين واصل هجماته على الكويت فتحت القوات البحرية البريطانية نيرانها وأجبرته على الانسحاب إلى نجد. وفي ضوء هذه الأحداث أصبح واضحاً أن الحكومة العثمانية مستعدة لدعم ابن رشيد ضد أمير الكويت وحلفائه البريطانيين والسعوديين. ومن الجهة الثانية، لفت الوكلاء السياسيون البريطانيون في الكويت انتباه حكومتهم إلى أهمية إرسال بعثة إلى وسط الجزيرة العربية لجمع معلومات تمكن الحكومة من اعادة تحديد موقفها ورسم سياسات فعالة تتعلق بالوضع في نجد[٣٢].

وحين بلغت هذه المقترحات وزارة الخارجية في لندن، واجهت قدراً من المعارضة. ففي الوقت الذي كانت الحكومة البريطانية تريد مزيداً من المعلومات عن عمق الجزيرة العربية، فكرت وزارة الخارجية أن البعثة ستؤدي على الأرجح إلى مزيد من المقترحات بإقامة علاقات أوثق مع غريم ابن رشيد، أي مع ابن سعود. ونتيجة لذلك تقرر عدم ارسال بعثة إلى نجد. وبدلاً من ذلك تم التوصل إلى اتفاق بين بريطانيا والحكومة العثمانية بما مؤداه أن الحكومتين ستحافظان على الوضع القائم في وسط الجزيرة العربية. وكان هذا يعني أن السلطات العثمانية ستثني ابن رشيد عن مهاجمة الكويت فيما ستثني الحكومة البريطانية الشيخ مبارك في الكويت عن مهاجمة وسط الجزيرة العربية. والأكثر من ذلك، تم الاتفاق على امتناع بريطانيا عن الدخول في مفاوضات مع ابن سعود. وبحلول عام ١٩٠٦ أقر ابن سعود بالسيادة الاسمية للسلطان العثماني ووافق على وقف العمليات القتالية مع حائل.

وخلال العقد الأول من القرن العشرين كانت بريطانيا لم تزل تنتهج سياسة تقضي بعدم استعداء الحكومة العثمانية على نحو مكشوف. فطالما أن العثمانيين وحلفاءهم في وسط الجزيرة العربية يحترمون المصالح البريطانية في الخليج، لا ترى بريطانيا جدوى من الدخول في مفاوضات أو معاهدات سرية مع مجموعات يمكن أن تستخدم الدعم البريطاني لتحدي السلطة العثمانية في المنطقة. وانعكس هذا في الاحجام عن التفاوض لعقد معاهدة حمائية مع ابن سعود رغم محاولاته من أجل التقارب مع المسؤولين البريطانيين في الخليج والكويت. إذ كانت بريطانيا تفضل، من باب أولى، الدخول في مفاوضات مع الحكومة العثمانية حول حماية مصالحها

في الخليج. وأسفر هذا عن اتفاقية ١٩١٣ الانكلو ـ تركية التي اعترفت فيها بريطانيا بالاحساء، الإقليم الواقع على الجانب العربي من الخليج والذي كان تحت الاحتلال العثماني منذ عام ١٨٧١، أرضاً عثمانية. وكان هذا الاعتراف يعني أن بريطانيا قبلت بالسيادة العثمانية على الاحساء ونجد نفسها[٣٣].

ولكن اقليم الاحساء استرده في العام نفسه ابن سعود الذي كتب إلى السلطات العثمانية في البصرة قائلاً إن العملية «فرضتها عليه شكاوى السكان من ظلم المسؤولين المرؤوسين الأتراك». وأضاف أنه سيمثل الأتراك والياً عن طيب خاطر وأنه سيأخذ على عاتقه مسؤولية اشاعة الهدوء في المنطقة[٣٤]. ولم يكن لدى السلطات العثمانية من خيار سوى الاعتراف بابن سعود حاكماً في واقع الأمر في الاحساء. وفي أيار (مايو) ١٩١٤ وقعت معاهدة مع ابن سعود اعترف فيها العثمانيون به حاكماً على نجد. كما عُيِّنَ ابن سعود والياً وقائداً أعلى للقوات العسكرية في نجد. وتم الاتفاق على بقاء كل الضرائب والرسوم في يديه، وعلى أن يغطي من هذه العائدات نفقات البلاد مع إرسال ما يتبقى إلى القصر. ولكن ليس هناك ما يدل على أن ابن سعود كان يرسل أي ضرائب أو رسوم للحكومة العثمانية ـ بل على العكس، كان يتلقى مخصصاً شهرياً قدره ٢٥٠ مجيدياً تركياً بوصفه حاكم الاحساء[٣٥]. واعتبر هذا المخصص راتباً من الحكومة العثمانية للايحاء بأنه يعمل حسب مشيئتها.

وفي الوقت نفسه كانت الحكومة العثمانية تتصل بابن رشيد وتشجعه على استعادة الاحساء من ابن سعود:

«خلال اجتماع عقد مؤخراً بين والي البصرة وابن رشيد سأل الوالي الأمير ما إذا كان في وضع يمكنه، إذا اقتضت الضرورة، من غزو الاحساء مجدداً واعادتها إلى الأتراك. ويقال ان ابن رشيد أبدى استعداده للقيام بذلك وقال انه لا يطلب سوى تعاون ٢٠٠ جندي تركي لهذا الغرض»[٣٦].

على أثر ذلك أُرسِل ضابط عثماني كبير إلى حائل لبحث تفاصيل الحرب التي يُنتظر من ابن رشيد أن يشنها على ابن سعود. والأكثر من ذلك أن أسلحة وذخائر بضمنها ثلاثة مدافع منصوبة وأسلحة نارية تُلقَّم من المؤخرة مع ٥٠٠ قذيفة، و٣٠ ألف بندقية، أُرسلت من دمشق إلى ابن رشيد على خط سكة حديد الحجاز[٣٧]. ورغم أن الخط لم يكن داخل أراضيه فقد كان من الممكن إرسال السلاح والعتاد

إليه على هذا الطريق.

في عام ١٩١٣ كانت الحكومة البريطانية ما زالت تنتهج سياسة عدم تدخل في شؤون وسط الجزيرة العربية. وكانت لدى المسؤولين البريطانيين في الخليج أوامر صارمة بأن:

«حكومة صاحب الجلالة لا يمكن أن تتدخل بأي شكل في النزاع، ويجب أن تلتزم بأقصى حدود الحياد بين الفرقاء. وما دام ابن سعود يقصر نفسه على الاحساء، يمكن تجاهله بلا تَبَعات. وينبغي أن تمتنع الحكومة البريطانية عن أي اتصال مهما يكن سوى الاتصال ذي الطبيعة الرسمية المحضة حيث، لا يكون مفر من ذلك، مع ابن سعود أو أي زعيم آخر في الجزيرة العربية ليس لحكومة صاحب الجلالة علاقات تعاقدية معه. والأكثر من ذلك، أكد المسؤولون البريطانيون على أنه ينبغي أن يكون مفهوماً بوضوح أن نفوذ حكومة صاحب الجلالة ومصالحها تقتصر حصراً على الخط الساحلي لشرق الجزيرة العربية، وأن لا تتخذ أي اجراءات أو تستخدم لغة، قد يبدو أنها تربطها حتى ولو بصورة غير مباشرة بالحرب القبلية المستعرة الآن في العمق[٣٨].

جرى احترام هذه السياسة طيلة العقد الأول من القرن العشرين. واعترفت بريطانيا بالسلطة العثمانية على نجد وامتنعت عن أي تدخل في الاشتباكات بين ابن رشيد وحلفائه العثمانيين من جهة وابن سعود من الجهة الثانية. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ حرر بريطانيا وتركيا معاً من سياساتهما السابقة.

السياسة العثمانية والسياسة البريطانية خلال الحرب

مع اقتراب شبح الحرب سعى مسؤولو الباب العالي إلى مصالحة بين الحاكمَين في نجد ونيل وعد بتعاونهما العسكري[٣٩].

ويبدو أنهم شعروا أن الأسلوب القديم في تأليب الشيوخ العرب ضد بعضهم بعضاً لن يعود ناجحاً كما كان، حتى في الحفاظ على ذلك المظهر للسيادة العثمانية عليهم[٤٠]. وكانت مشاركة الحكومة العثمانية في الحرب تتطلب سياسة أكثر ايجابية ازاء حاكمي نجد. ولكن المحاولات العثمانية لعقد مصالحة بينهما باءت بالفشل وتجددت العمليات العسكرية بين ابن رشيد وابن سعود.

وعلى الغرار نفسه حرر اندلاع الحرب بريطانيا من سياستها السابقة في عدم التدخل في وسط الجزيرة العربية. وأخذت بريطانيا تبحث عن حلفاء محليين في نجد كان تأييدهم وتعاونهم ضروريين لإنهاء السلطة العثمانية في المنطقة. وإذ كان ابن سعود مستعداً للتعاون مع الحكومة البريطانية في هذا الشأن فقد استقبل النقيب شكسبير، المبعوث البريطاني الذي كان دوره تقديم مشورة حول الأمور المتعلقة بالحرب والعمليات العسكرية اللازمة. وأعقب هذا توقيع معاهدة مع ابن سعود في عام ١٩١٥[٤١].

حين ضُمن ولاء ابن سعود لبريطانيا، حاولت الحكومة البريطانية كسب ابن رشيد وحرمان العثمانيين من حليفهم المحلي. وعلى أثر ذلك اقترح المسؤولون البريطانيون أن يفتح شريف مكة اتصالات مع ابن رشيد بالنيابة عنهم[٤٢]. وفي رسالة إلى الشريف أعلن المسؤولون البريطانيون أنه إذا وافق ابن رشيد على الوقوف إلى جانب بريطانيا «سيفقد الأتراك مصدرهم الرئيسي من الإمداد بالإبل وسيكون لديهم عدو صعب المراس على جناحهم الشرقي من خط السكة الحديد (خط الحجاز)»[٤٣]. والأكثر من ذلك قامت بريطانيا بتشجيع ابن سعود على التصالح مع ابن رشيد ظناً منها أن المصالحة ستخدم المصالح البريطانية ـ خاصة إذا عمل الحاكمان معاً ضد تركيا[٤٤]. وكانت هذه المحاولات محكوماً عليها بالفشل لأن ابن رشيد أعلن من خلال مبعوثيه أنه سينضم إلى العثمانيين بكل تأكيد إذا أرسلوا قوات لمساندته.

في ذلك الوقت كانت السلطات العثمانية قد عينت ابن رشيد «قائداً لكل نجد» وأرسلت له ٢٥ ضابطاً تركياً وألمانياً مع ٣٠٠ جندي[٤٥]. وكانت الحكومة العثمانية على اقتناع بأن حائل مركز مهم وإذا فُقدت ستتحد الجزيرة العربية كلها حتى دمشق ضدهم. لذلك كان تحالفهم مع ابن رشيد ضرورياً لأنه الحاكم المحلي المتنفذ الوحيد الذي لم ينضم إلى أعدائهم في الجزيرة العربية.

وما ان غدا واضحاً أن تحالف ابن رشيد مع العثمانيين تحالف راسخ حتى تخلت بريطانيا عن سياستها في المصالحة وشجعت ابن سعود على مهاجمة ابن رشيد من الجنوب. وكان يُعتقد أن هذا سيشاغل ابن رشيد ويمنعه من توفير مساعدة عسكرية للعثمانيين في الشمال. وبحلول كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧ كانت المبادرة المتعلقة بالمقترح الداعي إلى مهاجمة حائل قد جاءت من السلطات البريطانية

(المكتب العربي) في القاهرة[٤٦]. وأُرسل مبعوث هو العقيد هاملتون إلى ابن سعود لبحث هذه الإمكانية. وقد أوضح في تقرير له:

«قال ابن سعود انها مهمة مستحيلة لأن ابن رشيد شيخ قبيلة قوية واحدة ستتحد على الفور للدفاع عن النفس في حالة الهجوم على حائل. كما أوضح ابن سعود أن تركيب قواته لن يجعل الحملة ضد حائل ناجحة. إذ كانت قواته تتألف من اتحاد قبائل مختلفة مثل مطير والدواسر وسبيع وعتيبة وهجر وضفير، وكلها ستلتئم وتكوِّن جمعاً كبيراً يصعب السيطرة عليه أو ابقاؤه محتشداً أكثر من أيام قليلة في مكان واحد. وبالتالي ينبغي عدم التفكير بأي شيء من قبيل عمليات مديدة ضد حائل بقوات كهذه»[٤٧].

وادعى ابن سعود أن الرقعة الواقعة بين المنطقة التي يسيطر عليها في القصيم وحائل أرض قاحلة، ومن المحتم أن يجعل هذا من الصعب على القوات والجمال أن تصمد فترة طويلة، وبالاضافة إلى ذلك فإن حائل واحة محصنة تحصيناً متيناً يصعب فتحها بالأسلحة التي في حوزته. واعترف المسؤولون البريطانيون بأن:

«ابن سعود قد لا يجد من الممكن القيام بعمليات واسعة النطاق تمكنه من الاستيلاء على حائل وليست هناك ضرورة للضغط عليه بلا مبرر في هذا الصدد ولكن يبقى من المهم في كل الأحوال أن يقيم سيطرة أشد فاعلية ويمارس ضغطاً حقيقياً على شمّر. وتم الاتفاق على أن تساعده بريطانيا بألف بندقية ومئة ألف طلقة لتحقيق هذه الغاية»[٤٨].

والأكثر من ذلك، استخدمت بريطانيا استراتيجية أخرى للضغط على ابن رشيد. فقد تم الاتفاق على أن شمّر ورعايا ابن رشيد ينبغي أن لا تتاح لهم إمكانية الوصول إلى أسواق بغداد والبصرة والكويت التي وقعت أصلاً تحت السيطرة البريطانية. وجرى التفكير بأن امكانية المرور ينبغي أن تمنح للقبائل الصديقة وأن القبائل الموالية للحكومة العثمانية ينبغي أن تُحرم من «المسابلة» (امكانية الوصول إلى السوق)[٤٩]. ومن شأن هذا الضغط الاقتصادي أن يدفع شمّر ورعايا ابن رشيد إلى الانفضاض عنه وإعلان ولائهم لبريطانيا وابن سعود ـ الذي أتيحت لرعاياه امكانية الوصول إلى الأسواق.

وإذ كان سكان حائل الحضر وشمر يعتمدون اعتماداً كبيراً على التموينات

من العراق وميناء البصرة، فقد كان هذا الحصار الاقتصادي فعالاً في عزل الواحة جزئياً واثارة متاعب لرعايا ابن رشيد. وكان يُعتقد أن ظروف شمّر الاقتصادية ستجبرهم على الاستسلام. وللحيلولة دون ذلك أرسل ابن رشيد مبعوثه ابن ليلى إلى دمشق في محاولة لجلب امدادات غذائية وعتاد من السلطات العثمانية هناك. وتوجه المبعوث إلى الآستانة حيث كان هدفه بحث مشاريع لاحقة تتعلق بدور ابن رشيد كحليف للعثمانيين في الجزيرة العربية. وفيما كان ابن رشيد ينتظر في حائل عودة مبعوثه، تلقى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت معلومات بأن ابن رشيد يفكر في الوقت نفسه في فتح مفاوضات مع بريطانيا: «عاد ابن ليلى (مبعوث ابن رشيد) إلى دمشق من الآستانة يحمل مالاً وهدايا. وينتظر ابن رشيد عودة ابن ليلى بما يحمله من المال إلى حائل ثم يعتزم فتح مفاوضات معنا»[٥٠].

ولكن ابن رشيد كان متردداً في التخلي عن دوره التقليدي كحليف للعثمانيين، والأخبار المتعلقة بعدم رغبته في بدء مفاوضات فورية جاءت من ابن سعود: «ان ابن رشيد لا يمكن أن يُشترى، وهذا أمر ابن سعود واثق منه، كما أنه لا يمكن أن يُشترى لاتخاذ جانبنا لأن سياسة حائل وشمر الأساسية هي الاتكاء على الأتراك لكي يبقوا مستقلين في نجد»[٥١].

كان ابن رشيد يدرك أن استقلاله واستقلال شمّر سِيُصان على نحو أفضل إذا أبقى تحالفه مع الحكومة العثمانية التي لم تتمكن على امتداد قرون من ممارسة سيطرة مباشرة على نجد. وقد تبدى هذا واضحاً من متابعة سياسات بريطانيا ازاء حلفائها مثل ابن سعود في نجد والشريف حسين في الحجاز. فقد كانت بريطانيا عازمة على تشجيع حلفائها المحليين على اتخاذ اجراءات ايجابية ضد السلطات العثمانية. وكانت الثورة العربية التي قام بها الشريف حسين وقبائل الحجاز في عام ١٩١٦ حصيلة هذه السياسة. وعلى النقيض من ذلك استمر الباب العالي خلال الحرب في تزويد ابن رشيد بالإمدادات وأشكال من الدعم دون أن يستطيع اجباره على المشاركة بنشاط في الحرب إلى جانبهم. وحالت شبكة الاتصالات الضعيفة مع الشيوخ العرب المحليين دون قيام سيطرة حقيقية عليهم. والأكثر من ذلك أن خطوط الاتصال مثل سكة حديد الحجاز سرعان ما تعرضت إلى هجوم قبائل محلية معادية، فزاد هذا من عجز الحكومة العثمانية عن ممارسة سيطرة فعالة على ابن رشيد. ومن وجهة نظر الأخير كان التحالف مع حكومة مركزية ضعيفة يعتبر

مفيداً للحفاظ على الاستقلال المحلي. ولكن هزيمة العثمانيين في الحرب في عام ١٩١٨ أنهت السيادة العثمانية في الجزيرة العربية. وحلت بريطانيا محل الأمبراطورية العثمانية في التعامل مع مراكز القوى المحلية في الجزيرة العربية بصفة عامة.

السياسات البريطانية بعد الحرب في نجد

مع اقتراب الحرب من نهايتها في الجزيرة العربية حددت بريطانيا سياستها في السعي إلى تحقيق أهداف ثلاثة هي أمن طرق الحج كل عام، وحصانة الجزيرة العربية من أي احتلال أجنبي، والحفاظ على السلام وتشجيع التسهيلات التجارية على حدود جزيرة عربية مستقلة[٥٢].

وأسفرت أحداث الحرب عن ظهور حاكم مستقل في الحجاز. فقد أعلن الشريف حسين، في الحجاز نفسه «ملك العرب» وكان ينتظر من بريطانيا أن تفي بالوعود التي قدمتها خلال الحرب مقابل تعاونه ضد الأمبراطورية العثمانية. وتوقع الملك حسين من بريطانيا أن تدعم دعاواه في مؤتمر السلام الذي أعقب الحرب وتمنع أي مجموعة محلية من تحدي هذه الدعاوى. ومن الجهة الأخرى، أسفرت أشكال الدعم والمساندة البريطانية في وسط الجزيرة العربية عن اتساع دائرة نفوذ ابن سعود. فبانتهاء الحرب كان ابن سعود يسيطر على وسط نجد، بما في ذلك منطقة القصيم الواقعة بين عاصمته الرياض ودائرة نفوذ ابن رشيد. وكان هذا قد تحقق على أيدي محاربيه «الاخوان»[٥٣]. وكان ابن سعود ومحاربوه يريدون توسيع سيطرتهم إلى مناطق خارج حدود وسط الجزيرة العربية مثل الحجاز. لذا كانت الصدامات مع ملك الحجاز محتومة. ولكن أي مجابهة بين ابن سعود والملك حسين كانت محرجة للبريطانيين لأن الاثنين كانا حليفين وثيقين لبريطانيا وتلقيا دعومات كبيرة ابان الحرب. وكان دعم أحد الحاكمين ضد الآخر سيضع بريطانيا في موقف صعب نظراً للحقيقة الماثلة في أنه كانت لدى الحاكمين على السواء دعاوى قوية وعدد كبير من الاتباع.

وساهمت هزيمة العثمانيين في تهميش ابن رشيد الذي أصبحت دائرة نفوذه تقتصر على حائل وجبل شمّر رغم أنه ظل قادراً على مد سيطرته إلى طريق الحج من العراق إلى المدن المقدسة. والأكثر من ذلك أن ابن رشيد خسر بعض رعاياه

من رجال القبائل الذين انضموا إلى الملك حسين أو ابن سعود. وكانت سلطته تقتصر على واحة جبل شمّر وبعض العشائر الشمرية.

وإذ أخذ المسؤولون البريطانيون هذه التطورات في الاعتبار، فكروا أن من مصلحتهم بقاء ابن رشيد حاكما مستقلاً في حائل: «فيما يتعلق بالأوضاع بعد الحرب يبدو أن الحفاظ على توازن القوى في الجزيرة العربية سيتحقق بشكل أفضل إذا استمر ابن رشيد في الحكم هناك بصورة مستقلة»[٥٤].

يضاف إلى ذلك أنه عندما نجح البريطانيون في الاستيلاء على القدس من العثمانيين في نيسان/ابريل ١٩١٨ أبلغ المسؤولون البريطانيون في الخليج حكومتهم أن ابن رشيد ليس في وضع يمكنه من الحاق أي ضرر أو تقديم أي اسناد للعثمانيين عن طريق المنطقة التي تسيطر عليها الآن بريطانيا. ونتيجة لذلك طُرح الرأي القائل إن ابقاءه سوف يساعد في الحفاظ على توازن القوى بين ابن سعود وملك الحجاز. وقام حاكم الهند باطلاع وزارة الخارجية حول الاجراءات اللازمة: «لذا نوصي بأن كوكس ينبغي أن يُبقي ابن سعود لاعباً، بهدايا من المال، ولكن المساعدة بالسلاح والمدربين ينبغي أن لا تُعطى الا بمقدار ضئيل جداً. وبخلافه يبدو أننا نواجه خطر قيام قوتين في الجزيرة العربية تتبادلان العداء ولكننا قدمنا للقوتين على السواء تعهدات بالدعم»[٥٥].

في ضوء هذه المشورة قررت الحكومة البريطانية الوقوف ضدّ التخلص تماماً من ابن رشيد على يد ابن سعود. إذ كان يُعتقد أن وقوع حائل بيد ابن سعود ليس من شأنه الا زيادة المصاعب البريطانية في وسط الجزيرة العربية لأن من المحتم أن يلاقي ذلك معارضة من الملك حسين ويزيد الاحتكاك بينه وبين ابن سعود[٥٦].

ورغم التغير الذي طرأ على السياسة البريطانية ازاء حائل استمر ابن سعود في تنظيم هجمات صغيرة على شمّر وأراضي ابن رشيد. وفي آب/اغسطس ١٩١٨، شن ابن سعود، يرافقه مستشاره البريطاني فيلبي، ومحاربوه الاخوان، هجوماً على جبل شمّر وحائل. ولكن حين أصبح واضحاً أنه يكاد يربح المعركة أمرته الحكومة البريطانية من خلال مبعوثها في الرياض، بالانسحاب. وكان هذا يعكس السياسة البريطانية في صرف انتباه ابن سعود عن الحجاز ومشاغلته بهجمات صغيرة ضد حائل.

وأدرك ملك الحجاز أن لدى ابن سعود مطامح في أراضيه، وخاصة عندما بدأت قوات ابن سعود سلسلة من الهجمات على حدود الحجاز تكللت بمعركة خُرمة في عام ١٩١٨. وعلى اثر ذلك بدأ الملك حسين، ملك الحجاز، في محاولة لعزل ابن سعود، مفاوضات مع ابن رشيد عن طريق نجله عبد الله. وتلقى المسؤولون البريطانيون في المنطقة أنباء مفادها أن صلحاً عقد بين ابن رشيد والملك حسين وأن مفاوضات تجري حول شؤون المناطق الشمالية من وسط الجزيرة العربية: «من المرجح أن ابن رشيد، إذا هاجمه ابن سعود، سيتعامل بلا ابطاء إما مع ملك الحجاز أو معنا، وهو في كلا الحالتين سيوضع في موقف صعب. وإذا انضم إلى ملك الحجاز سيُطلَب منا دون شك أن نوقف ابن سعود»[٥٧].

نظر ابن سعود إلى مفاوضات السلام بين ابن رشيد وملك الحجاز على أنها مفاوضات تؤدي إلى تحالف موجه ضده بالدرجة الرئيسية. وإذا مُدَّ هذا التحالف إلى نهايته المنطقية، سيجد ابن سعود نفسه معزولاً ويمكن أن يتعرض إلى ضغط من الغرب يمارسه عليه الملك حسين وضغط من الشمال يمارسه عليه ابن رشيد. والأكثر من ذلك أنه لم يعد مطمئناً إلى أمن أراضيه الشرقية لأن الشيخ سالم في الكويت كان يجري اتصالات مع ابن رشيد: «هناك مؤشرات إلى أن شريف مكة وابن رشيد والشيخ سالم في الكويت يجرون اتصالات أحدهم مع الآخر. والنية العامة هي الحد من سطوة ابن سعود المتنامية، والهدف الآني هو منعه من التوجه إلى مكة بتهديدات بالحرب والغزو»[٥٨].

وفي الوقت نفسه كان الشيخ سالم يوفر مأوى لقبائل العجمان التي دأبت على تحدي سلطة ابن سعود والثورة ضده. وبدا أن الكويت أعادت تحديد سياستها السابقة ازاء ابن سعود ما ان أصبح واضحاً أن قوته تتنامى تنامياً أسرع مما توقعه شيوخ الكويت.

نتيجة لذلك أخذت دائرة نفوذ ابن رشيد تتوسع إلى حدود العراق. ولأن طريق الحج من العراق إلى الأماكن المقدسة كان لم يزل تحت سيطرته، قام المسؤولون البريطانيون بتفصيل مبادئ سياستهم لأخذ ذلك في الحسبان. وكان يُعتقد أنه بغية حمل ابن رشيد على احترام حدودهم في العراق وإبقاء الطريق مفتوحاً للحجاج، فإن من المرغوب فيه الدخول في علاقات معه إلى حد دعمه بالمال[٥٩]. وفي الوقت نفسه أرسل ابن رشيد مبعوثاً إلى المندوب المدني البريطاني

في بغداد لتحديد مقدار الدعم المالي الذي يقدم مقابل تعاونه. وكان المندوب المدني يعتقد أن مقدار الدعم ينبغي أن يحدد بـ ٣٥٠٠ روبية شهرياً تساهم ادارة بلاد النهرين بنصفها.

كان ابن سعود الذي أخذ يزداد طموحه في توحيد نجد تحت زعامته، يتابع كل هذه الأحداث عن كثب. والأكثر من ذلك أنه كان ينظر إلى أراضي الحجاز وخاصة مدينتي مكة والمدينة المقدستين على أنها أهداف ممكنة. وكان اتباعه من «الاخوان» يتطلعون إلى بسط نفوذهم على هذه الأماكن ولكن ابن سعود كان يدرك أن من الضروري توحيد نجد أولاً بإبعاد ابن رشيد عن الساحة. وبعد تحقيق هذا الهدف لا بد أن يصبح ضم أراضي الحجاز إلى مُلْكِه عملية أسهل. وسنحت الفرصة في فترة الاضطرابات الداخلية في حائل حول قضية الخلافة.

في عام ١٩٢٠ اغتيل حاكم حائل، سعود بن رشيد، على يد ابن عمه عبد الله بن طلال الذي ما لبث أن قتله عَبيد سعود. وعادت الخلافة إلى الأمير الصغير عبد الله بن متعب الذي سجن شقيق القاتل محمد بن طلال خوفاً من احتمالات الثأر[٦٠]. وأوجدت هذه الأحداث ظرفاً ملائماً لابن سعود الذي كتب في الحال إلى الوكيل السياسي البريطاني يبلغه أنه لن يتصالح ولن يعقد معاهدة مع أمير حائل الجديد لأنه لا يثق بموقف الامارة من التحالفات والصداقة بصفة عامة[٦١]. وشرع ابن سعود على الفور في تنظيم قواته مصمماً على انهاء حكم ابن رشيد في حائل وجبل شمّر. وبدأت الحملة في عام ١٩٢٠، وقُهرت الواحة في العام التالي[٦٢].

كان هم بريطانيا الرئيسي في ذلك الوقت بسط سيطرتها على العراق وشرق نهر الأردن بإقامة أنظمة ملكية صديقة هناك. إذ كان يُعتقد أن من شأن هذا أن يساعد في حل مشكلة ملك الحجاز الذي كان لا يزال ينتظر من بريطانيا أن تنفذ وعودها من خلال الاعتراف بزعامته «ملك العرب». ونتيجة لذلك لم يعتبر اقدام ابن سعود على ضم حائل تهديداً للمصالح البريطانية في الشمال لأنه ظل يقيم علاقات ودية مع بريطانيا حينذاك.

في الختام تجب الاشارة إلى أن الحكومات الخارجية، أكانت عثمانية أو بريطانية، لم تكن، هي نفسها بمنأى من تلاعب المجموعات المحلية. فقد كانت مراكز القوى الخارجية هذه تمثل مصدر قوة خارج النظام المحلي، كان الزعماء المحليون في لهفة على استغلاله لصالحهم. يضاف إلى ذلك، أن توفر أكثر من

مصدر خارجي أتاح الفرصة أمام المجموعات المحلية للمناورة وممارسة لعبات سياسية خطرة. ونتيجة لذلك تعززت القوة التفاوضية لهؤلاء الزعماء المحليين مع العثمانيين بمجرد ظهور بريطانيا على المسرح.

أحدثت العلاقة التي أقامها أمراء حائل مع الحكومات الخارجية بعض التغييرات الاقتصادية والسياسية في الامارة، وخاصة على مستوى القيادة[٦٣]. فإن هؤلاء الأمراء، بوصفهم حلفاء للحكومة العثمانية، أصبحوا متلقي أشكال مختلفة من الدعم والمخصصات والأسلحة والهدايا رغم الحقيقة الماثلة في أنهم كان يُطلب منهم أحياناً دفع إتاوة خاصة تشير رمزياً إلى خضوعهم للحكومة. وإذ لم يُبذل مجهود حقيقي لضمان الدفع فقد كان تدفق أشكال الدعم لصالح الأمراء، ولكن في غالبية الحالات عملية ذات اتجاه واحد.

لذا ساهمت العلاقات الخارجية في خلق فائض بأيدي الفئة الحاكمة ورغم أن جزءاً كان يوجه عائداً إلى الوسط السياسي كهدايا وأشكال من الدعم للعشائر فإن مقداراً كبيراً كان يبقى تحت سيطرة الأمراء، مؤدياً إلى زيادة التمايز الاقتصادي. وكان هذا التمايز سمة مميزة لزعامة أمراء آل الرشيد المقيمين في الواحة، التي كانت تختلف عن زعامة شيوخ عشائر شمّر. اذ كان لدى هؤلاء الأخيرين الحد الأدنى من الاتصالات مع الحكومات الخارجية[٦٤]. وظلوا سياسياً واقتصادياً غير متميزين عن بقية عشيرتهم. والأكثر من ذلك أنهم كانوا زعماء عشيرتهم فقط ولم تكن لديهم سلطة خارج هذه العشيرة. ومن الجهة الثانية كانت الحكومات الخارجية تنتظر من أمراء حائل لا أن يثنوا اتباعهم عن تحدي سلطة الحكومة فحسب بل وأن يتصرفوا كحكام لديهم قوة عسكرية مستعدة لطاعة الأوامر الصادرة من فوق.

يميل روزنفيلد في عمله حول تطور «دولة» آل الرشيد إلى تجاهل أهمية العلاقات مع مراكز القوى الخارجية. فإن روزنفيلد يعزو تطور بيت ابن رشيد كشريحة متمايزة في المجتمع الشمري البدوي إلى عوامل اقتصادية محضة ناجمة عن تفاعل بدوي حضري داخل هذا المجتمع. وهو ينظر إلى هيمنة أمراء حائل على أنها دالة تجارة واتجار وعلاقات اتاوية. (هـ. روزنفيلد H. Rosenfeld ١٩٦٥ : ٨٠). ورغم أن هذه كانت عوامل هامة في ادامة هيمنة آل الرشيد، يتعين على المرء أن يتذكر أهمية التفاعل مع الحكومات الخارجية في عملية التمايز الاقتصادي بين الحكام والرعية.

الفصل التاسع

الانحدار

الضغوط الخارجية

قامت الأمبراطورية العثمانية والحكومة البريطانية على السواء بدور حاسم في الاخلال بالتوازن بين مراكز القوى المحلية في وسط الجزيرة العربية. فإن ارتباط أمراء حائل بالأمبراطورية العثمانية واندحار الأخيرة في الحرب العالمية الأولى حرم الفئة الحاكمة في حائل من حليف هام. وفَقَد أمراء آل الرشيد مصدرهم الوحيد لمدهم بأشكال الدعم والسلاح. وعلى النقيض من ذلك نجح غريمهم ابن سعود في اقامة علاقات متينة مع بريطانيا، الطرف المنتصر بعد الحرب.

وخلال الفترة الواقعة بين ١٩١٨ و١٩٢٠ حاول أمراء حائل باستمرار التعويض عن خسائرهم والخروج من عزلتهم في وسط الجزيرة العربية. فدخلوا في مفاوضات مع الهاشميين في الحجاز وآل الصباح، أمراء الكويت الذين بدأوا يدركون الخطر الذي يمثله ابن سعود ـ خاصة بعد أن أصبح واضحاً أن دعم بريطانيا له خلال الحرب عزز موقعه في وسط الجزيرة العربية. وبدا في ذلك الوقت أن ابن سعود يخطط لتوسيع دائرة نفوذه أبعد من أراضي أجداده التقليدية في جنوب نجد. واعتبر الحكام الهاشميون وآل الصباح ذلك تهديداً لمصالحهم وسعوا إلى اقامة تحالف مع أمراء آل الرشيد ضد ابن سعود. ونقل الوكيل السياسي البريطاني في البحرين إلى المندوب المدني في بغداد: «هناك مؤشرات إلى أن شريف مكة وابن رشيد والشيخ سالم في الكويت يجرون اتصالات أحدهم مع الآخر. والنية العامة هي الحد من سطوة ابن سعود المتنامية، والهدف الآني هو منعه من التوجه إلى مكة بتهديدات بالحرب والغزو»[١].

ورغم نجاح هذه المفاوضات في كسر عزلة آل الرشيد بعد الحرب فإنها لم تتجسد في أي نشاط عسكري مشترك ضد ابن سعود. ولم يكن أمراء حائل قادرين على الحيلولة دون هجوم ابن سعود على أراضيهم في العشرينات.

وكان ابن سعود قد أدرك منذ عام ١٩١٨ أنه رغم الصراعات الداخلية المتعاقبة على السلطة وأعمال الاغتيال فإن المجموعة الحاكمة في حائل ظلت تتمتع بتأييد قبيلة شمّر. وكشف ابن سعود عن شكوكه في نجاح أي هجوم كبير على حائل للمسؤولين البريطانيين في الخليج[٢]. وأبدى عجزه عن ضمان توسيع سلطته إلى أراضي ابن رشيد طالما يتمتع هذا الأخير بدعم شمّر على مستوى القاعدة. وفي محاولة لإضعاف هذا الدعم وتشديد عزلة ابن رشيد سعى ابن سعود إلى كسب بعض عشائر شمّر إلى جانبه. وهذا ما نقله فيلبي إلى المندوب البريطاني في بغداد. «اليوم بعث ابن سعود بخمس عشرة رسالة إلى شيوخ شمّريين كبار ينقل إليهم ويعرض عليهم بدائل الصداقة شريطة الاقامة داخل حدوده الفعلية أو الحرب إن وُجدوا في مكان آخر»[٣].

يضاف إلى ذلك أن ابن سعود أدرك بأنه إذا أريد لهجومه أن يصيب أي قدر من النجاح فإن من المهم قطع كل خطوط الاتصال بين حائل وشمر وإجبار الأخيرة على التوطن في مناطق مثل الاحساء أو جنوب نجد. وكان يُعتقد أن هذا سيمنع شمّر من تقديم أي دعم أو مساعدة عسكرية في الشمال إذا هاجم ابنُ سعود أمراءَ آل الرشيد. وحاول ابن سعود بتنفيذه هذه السياسة، ممارسة ضغط اقتصادي على شمّر بحرمانها من امكانية الوصول إلى أسواق المدن التي وقعت ضمن دائرة نفوذه (مثل الرياض وعُنيزة والقطيف وبريدة)، وتوصل إلى اتفاق مع الوكيل السياسي البريطاني في الكويت على أن لا تعطى «المسابلة» (امكانية الوصول إلى الأسواق) في المناطق الخاضعة للسيطرة البريطانية إلا لرجال القبائل الصديقة. وكان ابن سعود على اقتناع بأن شمّر لن تقاتل بأي حال معه ضد زعامتها الرشيدية التقليدية[٤]. ولكن في السنوات التي أعقبت الحرب حاول بدأب أن يضمن على الأقل حياد بعض العشائر الشمّرية إذا ما شن هجوماً على خائل. ولتحقيق أهدافه وعد شمّر بحصص من المواد الغذائية من المسؤولين البريطانيين في الكويت إذا أبدوا علائم استعداد للبقاء محايدين أو تحويل ولائهم إليه.

وكانت احدى عشائر شمّر، وهي عشيرة الأسلم، أصلاً، على اتصال مع

المسؤولين البريطانيين في الكويت. وأقنع شيخها ضاري بن طوالة السلطات البريطانية بالسماح لعشيرته بدخول الكويت لشراء الأغذية والرز وغير ذلك من البضائع الضرورية. ومُنح الأسلم حق «المسابلة» على أن يبقوا قرب الكويت وأن يقطعوا الصلات مع أمراء آل الرشيد. ومر وقت طويل قبل أن يكتشف المسؤولون البريطانيون في الكويت أن ضاري بن طوالة وعشيرته الأسلم كانوا ضالعين في تسريب البضائع إلى ابن رشيد[٥]. وعلى أثر ذلك أوصى فيلبي، المبعوث البريطاني لدى ابن سعود، بأن يفرض المسؤولون البريطانيون في الكويت رقابة صارمة على اصدار تصاريح المرور التي تُسحب على الفور في حالة أي عمليات قتالية ضد ابن سعود: «ان مشاركة أي شخص مشاركة ثابتة في غارات وعمليات قتالية ضد ابن سعود ينبغي أن يعقبها سحب الامتيازات من عشائر وزعماء كبار بالجملة»[٦].

لم تكن هذه الضغوط الاقتصادية على قدر كبير من النجاح في اضعاف دعم شمّر لأمراء آل الرشيد. ولكن خلال العقدين الأولين من القرن، طرح ابن سعود استراتيجية بديلة محدَّدة بلغة الدين. فقد استحضر من جديد الوهابية في محاولة لتوفير ايديولوجية شاملة يمكن توحيد قبائل المنطقة المتناحرة على اختلافها تحت رايتها[٧].

صور ابن سعود توسعه العسكري وطموحاته السياسية على أنها جهاد ضد أعدائه ومنافسيه متوجهاً إلى القبائل المختلفة في وسط الجزيرة العربية باسم الله. وأصبح مَنْ اعتنقوا الوهابية، اتباعه «الاخوان» (الاخوان المسلمين). وجرى تنظيمهم للاقامة في الهُجر (مستوطنة قروية أقيمت لهذا الغرض) حيث كانوا يتلقون تربية دينية ويجري إعدادهم للقبول بخوض حروب ابن سعود. وكان الاخوان يتسلمون دعماً مالياً من «بيت المال» مقابل التخلي عن حياتهم البدوية والاستقرار والتحالف مع ابن سعود. وعلى سبيل المثال أن «القيدة» كانت مبلغاً من المال يوزع على «الاخوان» الذين يُقيَّد اسمهم في سجل مقاتلي ابن سعود. يضاف إلى ذلك، أنه كانت توزع أشكال أخرى من الدعم عيناً، مثل هبات من الرز والزبدة والسكر والملابس.

وفي بداية توطن «الاخوان» في الهجر في عام ١٩١٣، أحجم الشمّريون عن الانضمام إلى ابن سعود الذي لم تجتذبهم تعاليمه الوهابية وما يقترن بها من نمط حياة. ولكن بحلول عام ١٩١٨، أصبح حوالي ربع الشمر، بفعل الضغوط

الاقتصادية آنفة الذكر، من «الاخوان» وتحالفوا مع ابن سعود. ومع اقتراب الحرب من نهايتها أصبحت شمّر أكثر استعداداً لقبول الحركة الوهابية لأن ذلك كان يعد بمكافآت اقتصادية بيّنة.

تقليدياً، كانت شمّر تهاجر إلى الشمال باتجاه سوريا والعراق بحثاً عن الماء والكلأ. وأجبرت العمليات الحربية بين العثمانيين والحكومة البريطانية في المنطقة، شمّر على ادامة معيشتهم في حدود وسط الجزيرة العربية. وتضافرت هذه الضغوط مع الجفاف وسوء الأحوال المناخية لإضعاف قدرة اقتصادهم الرعوي على البقاء وحَمْلهم على قبول التوطن في هُجر ابن سعود.

واعترى اقتصاد شمّر مزيد من الضعف بمد خط سكة حديد الحجاز الذي ربط دمشق بالمدينة المنورة. وكان يُعتقد أن الخط سيحل تدريجياً محل قوافل الجمال التي تنقل الحجاج ومختلف البضائع المستوردة إلى الجزيرة العربية. يضاف إلى ذلك أن النقل منخفض التكاليف بالمراكب البخارية إلى الموانئ الكبيرة في الجزيرة العربية، وخاصة جدة، ساهم في تناقص عدد الحجاج الذين يستخدمون قوافل الابل للقيام بالرحلة. ونتيجة لذلك قلَّ الطلب على الجمال والأدلاء والمرافقين. وانخفضت أسعار الجمال عندما بدأت وسائل نقل أخرى تحل محلها.

لقد كان الاقتصاد الرعوي للقبائل البدوية لا في الجزيرة العربية فحسب بل وفي الشرق الأوسط بصفة عامة، يمر بعملية تهميش. والجدير بالذكر هنا أن ادخال وسائل نقل حديثة عمل لصالح خطط ابن سعود الرامية إلى توطين البدو. فإن الاقتصاد الرعوي الذي اعتراه الضعف دفع البدو المُفْقَرين إلى التخلي عن رعويتهم والانخراط في حركة «الاخوان». وأصبح التوطن في قرى «اخوانية» صغيرة بديلاً صالحاً وجذاباً كان من المحتم أن يكون مقبولاً للبدو في أوقات الشح الاقتصادي أكثر منه خلال الانتعاش الاقتصادي.

واشتملت الترتيبات التي أعدت لأفراد شمّر الذين تحولوا إلى «اخوان»، على توطينهم في جنوب نجد حيث يكون من الصعب عليهم الانضمام إلى ابن رشيد والعشائر الشمّرية الأخرى في الشمال، التي كانت لم تزل تناصب ابن سعود العداء[٨]. وساهم هذا في تشظي القبيلة وإضعاف وحدتها معاً. كما أنه خلق عداوات وتناحرات بين الشمريين الذين كانوا لا يزالون يدينون بالولاء لأمراء آل الرشيد والشمريين الذين انضموا إلى ابن سعود.

ان الوهابية لم تعتنقها بعض العشائر الشمّرية فحسب بل وجدت أنصاراً لها بين سكان حائل الحضر أيضاً. وفي ربيع ١٩٢٠ تلقى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين أنباء بأن مجموعة من التجار والقضاة من حائل كتبت إلى ابن سعود معبرة عن آرائهم حول حكمهم في الماضي بطريقة لا تبعث على الرضا، وطالبة من ابن سعود أن يستغل الوضع القائم ويضطلع بمسؤولية السهر على مصالحهم[٩].

وعلى النقيض من عجز ابن رشيد عن اتخاذ اجراءات تأديبية جادة ضد الشمريين الذين حولوا ولاءهم إلى ابن سعود، فقد كان قادراً على ممارسة بعض السيطرة على سكان الواحة. إذ ما ان اكتُشف أمر قاضي حائل واتباعه حتى جرى استدعاؤهم في ميدان السوق حيث أعدموا بوصفهم خونة[١٠]. ولكن هذه المحاولة للاتصال بابن سعود كانت تعكس الاستياء المتزايد بين سكان الواحة من زعامتهم لعدد من الأسباب. فأولاً، تسبب عدم الاستقرار الناجم عن الاغتيالات المتعاقبة في اضعاف مشروعية الأمراء. وفي حين أن عدم الاستقرار هذا كان محتملاً في القرن التاسع عشر عندما لم يكن هناك تحدٍ واضح لهيمنة آل الرشيد، فإن ظهور ابن سعود وفر بديلاً لسكان حائل. وقامت ثروته من الدعم المالي البريطاني وازدهار أراضيه وأمنها بتشجيع مجموعات أخرى في وسط الجزيرة العربية على اجراء اتصالات معه، الأمر الذي أضعف مشروعية الزعماء والحكام المحليين. ثانياً، ان سكان حائل وخاصة تجارها، بدأوا يحسون بوطأة الحصار الاقتصادي وتهميش حائل كمحطة لمرور القوافل.

في القرن التاسع عشر كان ازدهار حائل يعتمد اعتماداً كبيراً على اقتصاد القوافل، وأصبحت المدينة الثالثة من حيث أهميتها للقوافل بعد مكة والمدينة. وفي حين أن قوة أمرائها في ذلك الوقت مكنتهم من تحويل مسار القوافل إلى واحتهم، فإن ضعف أمراء العقدين الأولين من القرن العشرين جعلهم غير قادرين على الحيلولة دون تحويل تجارة القوافل إلى مراكز تجارية نامية أخرى في وسط الجزيرة العربية. ودفع انعدام الاستقرار السياسي في حائل التجار بعيداً عن سوقها. وازداد الانحدار تفاقماً بالحقيقة الماثلة في أن أمراء آل الرشيد أخفقوا في توسيع دائرة نفوذهم لتشمل أحد الموانئ. فقد اعتمدت حائل دائماً على المراكز العثمانية في سوريا والعراق (ميناءي البصرة والكويت) لإمداداتها من البضائع. وكان الأمراء

يشجعون التجارة بصفة خاصة مع الكويت التي كانت تستقبل أنواع البضائع من الهند وأوروبا وبلاد فارس. ولكن امكانية الوصول إلى ميناء الكويت كانت شديدة التأثر بالعلاقات السياسية بين أمراء حائل وأمراء الكويت. وفي أوقات النزاع كان من المعهود أن يقيد أمراء الكويت تدفق البضائع إلى حائل وإمكانية وصول شمّر إلى السوق. وفي محاولة لتقليل هذا الاعتماد سعى عبد العزيز بن رشيد في عام ١٩٠١ إلى إلحاق الكويت بدائرة سلطته بشن سلسلة من الهجمات على ضواحي الكويت. واستاء المسؤولون البريطانيون في الكويت من نشاطات ابن رشيد التي اعتقدوا أنها كانت مدعومة بموافقة عثمانية. ولكن القوات البحرية البريطانية أجبرته على التراجع إلى وسط الجزيرة العربية تاركاً حائل بلا منفذ على شاطئ الخليج.

واستناداً إلى روزنفيلد فإن تجار حائل كانوا من نواحٍ عديدة مشابهين لبدو شمّر. ونتيجة للضغوط الاقتصادية أبدت المجموعتان استعدادهما لتحويل ولائهما إلى ابن سعود. وإذ كانت لدى المجموعتين ثروة متحركة ودون ممتلكات تذكر من الأرض فقد كانتا قادرتين على أن تفعلا ذلك بسهولة. فلقد كانت ثروتهم تتألف من مواد يمكن نقلها ببساطة: «لأنهم كانوا بلا أرض، أو عملياً بلا أرض، ولأنه لم تكن لديهم مصلحة عميقة في الانتاج الثابت ولا استثمار حقيقي في الزراعة وإنما في التجارة، فإن ولاء طبقة التجار الذين كانوا في جزء منهم غرباء، يتحول مع انتقال مركز السلطة». (هـ. روزنفيلد H. Rosenfeld ١٩٦٥: ١٨٥ ـ ١٨٦). لذا، حين انتقل مركز السلطة من حائل إلى الرياض، كان التجار قادرين، حسب روزنفيلد، على الذهاب مع ثرواتهم حيث توجد زعامة قوية وقدر أكبر من الأمن. ولأن غالبية تجار حائل كانوا من القصيم والاحساء وسوريا والعراق، لم تكن لديهم جذور عميقة أو ارتباطات مديدة في المنطقة. فقد اجتذبهم الأمن في حائل خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولكن عندما لم تعد امارة حائل قادرة على توفير هذا الأمن، انتقل التجار بحثاً عن أماكن أفضل.

ان أوجه الشبه بين البدو والتجار، التي يستدعيها روزنفيلد ليست مقنعة جداً. وإذا كان صحيحاً أن البدو كانوا قادرين على التنقل بسهولة فإن قدرة التجار على ذلك ليست واضحة بالقدر نفسه. فقد كان البدو يتمتعون حقاً بسهولة الحركة ولا يمكن ثنيهم من المركز إذا أرادوا الانتقال. وعلى النقيض من ذلك كان قرب

التجار الجغرافي من مركز السلطة في حائل يحد من قدرتهم على الرحيل بحرية. ولعل من الأدق القول إن انعدام الاستقرار السياسي في حائل لم يكن يشجع على توطن تجار جدد هناك.

فَقَد أمراء حائل بعض العائدات نتيجة انحسار سلطتهم وقوتهم العسكرية. ومع تناقص العائدات لم تكن الفئة الحاكمة قادرة على ادامة نظام الدعم لشيوخ العشائر مقابل ولائهم وولاء عشيرتهم. وعندما انخفضت أشكال الدعم هذه أو توقفت، عمد الشيوخ إلى تحويل ولائهم وكانوا مستعدين لتقديم ولائهم إلى مجموعة منافسة توفر منافع كهذه. وحتى العشائر الشمّرية التي كانت تُرشى باستمرار للحفاظ على ولائها حولت ولاءها إلى ألد أعداء ابن رشيد عندما رأت أن إمارة آل الرشيد لم تعد سلطة قادرة على البقاء (المصدر السابق).

هذه الظروف كلها شكلت خلفية ملائمة لقيام ابن سعود بغزو جبل شمّر. وقد تمكن من أن يضمن على الأقل حياد ربع شمّر وإقامة اتصالات مع شخصيات محلية في حائل. وتزامن هذا مع اندلاع صراع عنيف على السلطة في حائل. فعندما اغتيل الأمير سعود بن رشيد في عام ١٩٢٠ كان الأمير الجديد، عبد الله ابن متعب، فتى شاباً بلا خبرة سياسية. وعقد ابن سعود عزمه على استغلال الوضع وانهاء حكم منافسيه التقليديين في وسط الجزيرة العربية. وتقدم على الفور صوب حائل من الجنوب وفرض حصاراً على الواحة.

أرسل الأمير الجديد ممثله إلى ابن سعود في محاولة للتفاوض بشأن معاهدة تؤدي إلى وقف العمليات العسكرية بين حائل والرياض. وأعلن ابن سعود أنه مستعد لعقد صلح مع ابن رشيد إذا وافق الأخير على الشروط التالية. أولاً، طالب ابن سعود بأن لا تكون لحائل علاقات خارجية إلا معه. ثانياً، يأخذ ابن سعود على عاتقه كل العلاقات مع شمّر. ثالثاً، وافق ابن سعود على بقاء حائل مستقلة في ادارة شؤونها الداخلية شريطة بقاء السيطرة النهائية بيده. ورابعاً، تحال الاستئنافات النهائية في كل النزاعات إلى ابن سعود لتسويتها[١١].

عاد ممثل ابن رشيد إلى حائل لبحث شروط المعاهدة. واستناداً إلى تقرير أعده الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، فإن ثلثي سكان حائل كانوا مع الشروط والثلث الباقي ضدها[١٢]. الأمير نفسه وجد الشروط مرفوضة وشجب المعاهدة. وبدلاً من ذلك تم التوصل إلى اتفاق بين أفراد الفئة الحاكمة بما مؤداه أنهم

مستعدون للاستمرار في مقاومة هجمات ابن سعود على حائل وجبل شمّر(١٣). وحين بلغ خبر الرفض ابن سعود، استمر في ممارسة مزيد من الضغط العسكري على حائل. وكتب أيضاً إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين في محاولة لتبرير حملته العسكرية والاشارة إلى أن شريف الحجاز طرف في النزاع بينه وبين ابن رشيد: «فيما يتعلق بابن رشيد، أحاول منذ زمن طويل نيل إرادته الطيبة ولكنه يتجنب مبادراتي بسبب الآمال الكاذبة التي يلوح الشريف له بها. والآن وعد الشريف بدعمه بالمال والسلاح. وقد وصل عتاد وإمدادات إلى حائل ومن المزمع أن يغادر المدينة مزيد منها»(١٤).

وشن ابن سعود على الفور ثلاث هجمات متعاقبة على جبل شمّر. وكان الهجوم الأول بقيادة نجله سعود، وقد نجح في الوصول إلى بقعا شمال شرق حائل. وكان الهجوم الثاني بقيادة الزعيمين الاخوانيين الشهيرين، ابن ربيان من قبيلة عتيبة وفيصل الدويش من قبيلة مطير. وقام بتنظيم الهجوم الأخير ابن حميد من قبيلة عتيبة الذي كان أيضاً شيخ مستوطنة اخوانية تسمى غطغط(١٥).

أثارت هذه الهجمات قدراً من البلبلة في الواحة. ورغم أن الأمير الشاب عبد الله بن متعب كان يؤيد السلام مع ابن سعود تحت وطأة الضغط المتعاظم فإنه لم يتمكن من التعبير عن هذا الرأي بسبب الاعتراضات القوية من تكتلات ابن عمه محمد بن طلال الذي كان في السجن. وكانت هذه التكتلات قوية بما فيه الكفاية للتأثير في قرارات عبد الله حتى عندما كان محمد لا يزال في السجن، بل انها أجبرت الأمير على الإفراج عنه(١٦). وما لبث أن لجأ عبد الله بن متعب عند ابن سعود الذي كانت قواته تعسكر على أطراف حائل عاجزة عن دخول الواحة. وكان من المتوقع أن يقود الأمير المحرَّر محمد المقاومة ضد ابن سعود والدفاع عن الواحة.

ورغم نجاح الحملة العسكرية التي جردها ابن سعود في ممارسة ضغط شديد على حائل، فإنه فشل في الذهاب أبعد من السور المخيط. وكان قد استهان بالحقيقة الماثلة في أن بعض شيوخ شمّر كانوا ما زالوا مستعدين لدعم أمراء آل الرشيد. وعندما وجه محمد بن طلال رسائل إلى شمّر يحذرهم من هجمات ابن سعود الوشيكة على حائل ومطلعاً إياهم على الضغط المتعاظم على سكانها وطالباً منهم المؤازرة، استجاب لدعوته ثلاثة شيوخ. وقام ابن علي من شمّر عبدة وابن زميل من سنجارة وابن طوالة من الأسلم بتحشيد عشائرهم والتوجه صوب حائل

في محاولة لإنقاذ ما كانوا يعتبرونه زعامتهم المشروعة التقليدية. وعادت هذه العشائر موحدة باستثناء العشائر التي أصبحت من «الاخوان» وأُجبرت على التوطن في جنوب نجد[١٧].

ومع اشتداد الضغط العسكري على حائل كتب محمد بن رشيد إلى الملك فيصل في العراق والمسؤولين البريطانيين في بغداد طالباً منهم التوسط في النزاع والتدخل لرفع الحصار عن حائل[١٨]. ورفض ابن سعود الدعوة إلى التوسط مصراً على استسلام محمد بن رشيد رسمياً كشرط للسلام.

ونتيجة للحصار قُطعت حائل عن كل خطوط الإمداد عندما منعت قوات ابن سعود القوافل التي تحمل المواد الغذائية من دخول الواحة. وتحت وطأة هذه الضغوط الاقتصادية وافق محمد بن رشيد على السماح لابن سعود بدخول حائل بعد أن تلقى منه ما يضمن سلامته الشخصية. وعلى أثر ذلك فُتحت أبواب حائل في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر عندما استقبل ابن رشيد ابن سعود وخمسين من رجاله ضيوفاً عليه[١٩]. وسرعان ما طلب ابن سعود من ابن رشيد وأربعة أفراد من آل الرشيد أن يرافقوه إلى الرياض حيث كان من المنتَظَر أن يعيشوا تحت مراقبة شديدة[٢٠]. وعُينِّ إبراهيم بن سبهان الذي كانت عائلته متحالفة مع أمراء آل الرشيد عن طريق الزواج، حاكماً على الواحة. وبرر ابن سعود هذه الاجراءات زاعماً أنه لم يكن يريد أن يستعدي شمّر وزعامتها بالكامل فقام بتعيين ممثل ذي أصل محايد. ولكن هذه كانت صيغة مؤقتة لأن ابن سعود استعاض عن حاكمه فيما بعد بابن عمه الذي لم يكن ولاؤه موضع شك[٢١].

بعد رحيل المجموعة الحاكمة عن حائل، لم تعتنق بعض عشائر شمّر الوهابية واستمرت في دعم أمراء آل الرشيد، وهاجرت إلى العراق حيث انضمت إلى الجرباء، احدى عشائر شمّر التي كانت في بلاد النهرين منذ قرنين. وإذ كان العراق تحت الانتداب البريطاني، قررت السلطات البريطانية: «أن تدفق شمّر على العراق يضع الحكومة العراقية في وضع بالغ الصعوبة. إذ يكاد أن يكون من المتعذر إبقاؤهم بعيداً، ونحن نبذل كل ما في وسعنا من أجل إرسالهم للانضمام إلى شمّر الجرباء في شمال الجزيرة»[٢٢].

كان يراد بهذا القول تطمين ابن سعود الذي كان يخشى أن تقوم شمّر باستخدام العراق قاعدة لشن غارات في المستقبل على أراضيه. ووعد المندوب

السامي البريطاني ابن سعود بعمل كل ما يمكن عمله لمنع ذلك رغم صعوبة منعه بصورة فعالة، حتى دفع شمّر إلى شمال الفرات. ولكن غالبية شمّر بقوا في أرضهم التقليدية في جبل شمّر التي أضافها ابن سعود إلى الأقاليم الواقعة تحت سيطرته. وأصبحت هذه الأرض جزءاً من الدولة السعودية الحالية.

رأينا كيف شكلت العوامل الخارجية أرضية ملائمة لانحدار حكم آل الرشيد. وفي القسم التالي أحلل كيف أن تدخل هذه الأحداث التاريخية في عموم البنية السياسية والاقتصادية لم يفعل سوى التعجيل بسقوط حكم آل الرشيد الذي كان يتسم بتناقضات بنيوية متأصلة.

مواطن الضعف البنيوية الداخلية

على امتداد القرن التاسع عشر، والقرن العشرين، اتسمت إمارة آل الرشيد بمواطن ضعف بنيوية داخلية على المستويين السياسي والاقتصادي، لم تدفعها نحو تكوين كيان سياسي ثابت ودائم.

مواطن الضعف الداخلية السياسية

يمكن وصف النظام السياسي الذي أقامه أمراء آل الرشيد بكونه نظاماً له الخصائص التالية. أولاً، عدم استقرار على مستوى الزعامة أوجده نمط خلافة غير محدَّد. ثانياً، مطاطية الحدود السلالية نتيجة التقلب في السلطة. ثالثاً، غياب القنوات النظامية والمتمأسِسة للاتصال والتواصل مع المستوى القاعدي للقبيلة بسبب اقامة الأمراء في حائل. رابعاً، عدم القدرة على احتكار الاستخدام المشروع للعنف. وسأجادل بأن الخصيصتين الأولى والثانية لم تكونا كافيتين للتسبب في تفكك سلطة الأمراء في حين أن الخصيصتين الأخيرتين أثرتا تأثيراً بالغاً في قدرة البنية السياسية على البقاء.

وصفتُ في الفصل الثالث كيف كانت زعامة الامارة منوطة ببيت آل الرشيد دون نمط ثابت للخلافة. وأصبحت الخلافة بالاغتيال هي القاعدة - من بين اثني عشر أميراً مات ثلاثة أمراء فقط لأسباب طبيعية، ولقي واحد مصرعه في القتال مع ابن سعود واغتيل الأمراء الباقون على أيدي أفراد من عائلتهم نفسها(٢٣). ما هي الآثار التي تركها ذلك على البنية السياسية؟ لقد ساهم غياب نمط محدَّد

للخلافة، متضافراً مع كثرة تعاقب الأمراء، في عدم استقرار الزعامة السياسية. فقد أُطيح عدد كبير من الأمراء بعد عام أو عامين في المنصب. والأكثر من ذلك أن الاغتيالات المتعاقبة للأمراء وأقاربهم المباشرين قلصت القاعدة الديموغرافية التي يمكن أن يؤخذ منها أمراء المستقبل. وأسفر هذا عن تعيين أمراء شباب غير متمرسين في غياب أمراء كبار مؤهلين.

ان عدم الاستقرار على مستوى الزعامة لا يشكل عائقاً بحد ذاته. فإن صراعات القوى الداخلية على الخلافة تحدث في كل الأنظمة السياسية وأشكال الحكم تقريباً بصرف النظر عما إذا كانت لديها قواعد محدَّدة للخلافة. وحالة آل الرشيد ليست حالة فريدة. إذ يقدم التاريخ أمثلة عديدة على صراعات داخلية على السلطة، واغتيالات. وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة يبدو أن الخلافة بالاغتيال كانت شائعة بين السكان الحضر والبدو على السواء. وأن أمراء الكويت وسلاطين عمان وشيوخ الروالة والحكام السعوديين في القرن التاسع عشر كلهم عرفوا فترات كان فيها الاغتيال وسيلة مشروعة للخلافة. وفي الحقيقة ان ما قد يبدو خصيصة سلبية يمكن أن يعتبر صفة ايجابية. فالصراع ليس سلبياً على نحو متأصل فيه. والصراعات الداخلية على السلطة بين مجموعات حاكمة إنما هي آليات تؤكد البنية السياسية بها طبيعتها الدينامية. والصراعات على الخلافة أحداث تاريخية تساهم في إضعاف جمود البنية السياسية بإدخال ضوابط على ممارسة السلطة.

كانت الاغتيالات المتعاقبة بين الفئة الحاكمة من آل الرشيد أحداثاً تؤثر في البنية السياسية في لحظات تاريخية محدَّدة دون أن تشكل في الحقيقة عوامل سببية لتفككها. ولم تكن هذه الصراعات تشكل ظروفاً ملائمة لانحدار إمارتها إلا حين كانت الصراعات الداخلية على السلطة والاغتيالات تتزامن مع تهديدات وتحديات خارجية للزعامة. ولكن حتى حينذاك لا يمكن النظر إلى هذه الصراعات على أنها سبب الانحدار.

وبالقدر نفسه لا يمكن أن يقال إن مطاطية الحدود السلالية التي تغطيها سلطة الأمراء عجلت بالعملية التي انتهى من خلالها حكم آل الرشيد. فإن حدود إمارة آل الرشيد كانت حدوداً متحركة. وكان رسم هذه الحدود يعتمد اعتماداً كبيراً على قوة الأمراء العسكرية ومواطن ضعف جيرانهم. وكان وجود زعامة قوية عسكرياً، يقترن به وجود جيران ضعفاء، يتيح للأمراء التوسع أبعد من أرض

قبيلتهم التقليدية. وعلى النقيض من ذلك أسفر ضعف الأمراء في العقدين الأولين من القرن العشرين وظهور ابن سعود قوة منافسة في المنطقة، عن تقلص أرض آل الرشيد إلى حدود القبيلة التقليدية.

ان مطاطية حدود الامارة لا تعني بالضرورة غياب الحكم المشروع على الأراضي التي وقعت تحت سيطرتهم وكانت خارج ديرة قبيلتهم التقليدية. فإن مشروعية زعامتهم لم تكن تعتمد على ممارسة السلطة داخل أرضهم التقليدية المحدَّدة. وكان التوسع أبعد من جبل شمّر يكرس حق الحكم في الأراضي المكتسبة حديثاً. وعلى الغرار نفسه، كان مفهوم الأرض يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسيادة. بكلمات أخرى، إذا كان أمير من الأمراء قادراً على توسيع سيطرته إلى أراض خارج ديرة شمّر التقليدية وفرض الاتاوة على السكان فإن هذا كان بحد ذاته يشكل حقاً مشروعاً في الحكم. وهذا ما كان يدركه الأمراء ومجموعات أخرى في وسط الجزيرة العربية.

ان هاتين السمتين من سمات امارة آل الرشيد لم تضعفا قدرة البنية السياسية على البقاء. ومع ذلك فإن السؤال الذي ينبغي أن يطرح هو لماذا تفككت الامارة في وقت نجحت فيه مراكز قوى أخرى مثل ابن سعود، في تحويل بنية السلطة التقليدية التي ارتكزت عليها الزعامة إلى «دولة».

للاجابة عن هذا السؤال، أرى أن موطن الخلل الرئيسي ناجم عن غياب القنوات النظامية للاتصال والتواصل مع قاعدة القبيلة، وهي خصيصة أضعفت أمراء آل الرشيد. وإذ بقيت غالبية شمّر بدواً فإن تنقلهم بحثاً عن الماء والكلأ كان يعني الرحيل مسافات طويلة عن مركز الزعامة في حائل. وعلى الرغم من أن ديرتهم كانت تغطي مساحة واسعة في صحراء النفود الكبرى وجبل شمّر فإن بحثهم عن المراعي كان يتطلب منهم الرحيل أبعد إلى الشمال باتجاه سوريا والعراق. وخلال هجرتهم الموسمية كان من الصعب اقامة اتصالات معهم، وحاول أمراء حائل تذليل هذه المشكلة باعتماد ثلاث استراتيجيات. أولاً، أنهم أوجدوا تقليداً بالاقامة في مخيم بين بدو شمّر بضعة أشهر على الأقل كل عام. وثانياً، كانوا يتزوجون ببنات شيوخ شمّر في محاولة لتعزيز التحالفات السياسية. وثالثاً، في أوقات الأخطار الخارجية والغزوات كان الأمراء يرسلون مبعوثين إلى عشائر شمّر المبعثرة لاطلاعها على أي حملات عسكرية وشيكة ضد آل الرشيد

وتشجيعها على المشاركة بنشاط في الدفاع عن زعامتها.

وكانت هذه الاستراتيجيات غير الرسمية ناجحة ما دامت الزعامة في حائل قوية ومزدهرة. ولكن الاستراتيجيات نفسها باءت بالفشل حين طبقها أمراء القرن العشرين الذين كانت سلطتهم وثروتهم في انحدار. ولم تكن لدى هؤلاء الأمراء وسائل متمأسِسة لتأمين اتصالاتهم مع شمّر أولاً، ومما له أبلغ الأهمية لضمان سيطرتهم على اتباعهم في القبيلة.

وازداد هذا تفاقماً عندما أصبحت اقامة الأمراء في حائل اقامة دائمة وأخذوا ينتقلون إلى قدر أكبر من المركزية السياسية. ويمكن أن توضع حالة أمراء آل الرشيد في مواجهة حالة أمراء بدو الروالة من آل الشعلان في الصحراء السورية. فقد استغل آل الشعلان تدهور حائل تدهوراً عاماً في مطلع هذا القرن وقاموا بغزو واحة الجوف التي كان سكانها يدفعون الاتاوة إلى حائل. فحول سكان الجوف ولاءهم إلى آل الشعلان وأخذوا يدفعون الاتاوة إليهم. وفضل آل الشعلان أن لا يقيموا بصورة دائمة في الواحة التي لم يكونوا يستخدمونها الا مقراً صيفياً لهم. وبقوا شيوخاً تقليديين لقبيلة بدوية تمارس رعي الإبل، الأمر الذي أتاح لهم اقامة صلات وثيقة مع قبيلتهم والتنقل معهم والعيش مثل باقي مجموعتهم. ولم يتوطن آل الشعلان الا بعد تقسيم أرض الروالة بين ثلاث دول هي العربية السعودية والأردن وسوريا (أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨ و و. لانكستر W. Lancaster ١٩٨١). وعلى النقيض من ذلك أصبح أمراء حائل حضراً يعيشون في قصر في حائل حيث كانوا يتمتعون بترفيات الحياة الحضرية. ولم يعودوا شيوخاً بدواً تقليديين. وزادهم هذا ابتعاداً عن شمّر وأضعف صلاتهم بها.

واقترن هذا بعجز الأمراء عن احتكار الاستخدام المشروع للعنف. فقد ظلت العشائر تسيطر على رسائل الاكراه الخاصة بها، وفي المقام الأول السيطرة على مواردها البشرية. فقد كانت عشائر شمّر وحدات عسكرية متلاحمة. وبقيت كل العشائر التي أقرت بسلطة آل الرشيد مسؤولة عن قواها البشرية، الركن الرئيسي بين أركان العنف. والأكثر من ذلك أن تلاحم هذه المجموعات كان سليماً عندما احتفظت بزعامتها التقليدية الممثلة بشيوخها. وكان هؤلاء الشيوخ ومعهم عشيرتهم يتمتعون بحرية التصرف بقوتهم العسكرية التي لم تفككها سلطة سياسية أعلى. وكان عجز أمراء حائل عن الحد من القوة العسكرية للعشائر أو تحييدها، نابعاً من العامل التالي:

رغم امتلاك الأمراء وسائل إكراه خاصة بهم كانت مستقلة عن التحالفات القبلية فإنهم لم يكونوا قادرين على تطويع البدو إلا في بعض الأحيان دون أن ينجحوا حقاً في التخلص بشكل كامل من قوتهم العسكرية. وغاراتهم التأديبية المنتظمة على العشائر المتمردة توضح هذه النقطة. إذ كان على محمد بن رشيد، حتى في أوج هيمنته العسكرية والسياسية، أن ينظم غارات كل عام لتأديب العصاة وفرض الولاء لزعامته. ولكن هذه الغارات لم تفلح الا في استعراض قوته وكانت وظيفتها أن تكون رادعاً ضد أي تمردات لاحقة وانشقاقات محتملة. وعلى العموم، فقد أخفقت الغارات في ايجاد وضع تُدمج فيه قوة العشائر العسكرية وسيطرتها على وسائل الاكراه الخاصة بها دمجاً نظامياً بالجهاز العسكري للامارة.

وعلى النقيض من ذلك كانت خطوة ابن سعود الأولى نحو اقامة نظام سياسي مستقر هي تقويض الاستقلال السياسي ـ العسكري للقبائل المحلية. وكان هدفه دمج قوة القبائل العسكرية بجهاز الدولة محققاً بذلك احتكار الاستخدام المشروع للعنف. ونُفذ هذا من خلال حركة «الاخوان» ونظام «الهُجر» الذي أجبرت العشائر فيه على التوطن في قرى أقيمت خصيصاً. وكان يُنتظر من القبائل المختلفة التي قبلت الدعوة الوهابية أن تتخلى عن عاداتها في التنقل التي كانت في الماضي تميل إلى تشجيع الغزوات وتغيير الولاءات (ج. كوستينر J. Kostiner ١٩٩١). ويجادل كوستينر أنه باعتماد الزراعة وواجهات الانبعاث الديني كان يُفتَرض بهذه القبائل أن تكتسب كذلك احساساً جديداً بالولاء للدولة يحل محل الروابط القبلية. وأخيراً، عمل ابن سعود على الافادة من المهارات العسكرية لهذه القبائل بتحويلها إلى جيش دائم في خدمة الدولة. ولكن هذا النظام لم يكن في البداية ناجحاً كما كان يَؤَمَّل منه بسبب سيادة استقلال القبائل. وحتى عقد العشرينات كانت محاولة ابن سعود لبناء دولة في نجد ذات مردود معاكس، حيث يجادل كوستينر: «أن هذه العملية التي تجلت في تضافر التوسع الاقليمي مع الظاهرة الاخوانية، كانت تميل إلى اعادة توليد خصائص معهودة في الاتحادات القبلية وجد ابن سعود من الصعب السيطرة عليها». (المصدر السابق).

ورغم محاولة ابن سعود لاحتواء استقلال القبائل من خلال المرْكَزَة فإن تمرد «الاخوان» في ١٩٢٧ ـ ١٩٢٩ يبين الصعوبات التي واجهها في توطيد زعامته. فقد تنامت حركة «الاخوان» إلى كيان منفصل مستعد لتحديه[٢٤]. ولم تُكسَر شوكة

«الاخوان» وتُؤَمّن قوتهم بفاعليه الا بمعونة مصادر خارجية مثل الأسلحة الحديثة والمستشارين البريطانيين.

إمارة آل الرشيد لم تكن لديها هذه الأفضلية. فقد ظلت البنية السياسية قائمة على ترتيبات لا نظامية تقليدية بين الزعامة في حائل والمجموعات القبلية. وأخفق الأمراء في ايجاد بنية تحتية بيروقراطية تؤمن وجود صلات واتصال مع القبائل. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك جهاز عسكري يساعد على دمج مصادر الامارة العسكرية بمصادر القبائل. وكان غياب التكامل يعني أن العشائر المختلفة التي أعلنت ولاءها للأمراء كانت تمتلك في الوقت نفسه الوسائل لتحدي سلطتهم. واقترن هذا بتناقضات تبدت على مستوى الاقتصاد.

التناقضات الاقتصادية

بينتُ في الفصل الرابع أن إمارة حائل كانت تعتمد على تجارة القوافل لبقائها وادامة البنية السياسية. فالواحة نفسها لم تكن تمتلك الوسائل الكفيلة بتأمين معيشتها، بل كانت تعتمد على الامدادات من بلاد النهرين وسوريا والخليج.

وكانت قدرة الاقتصاد المتمحور حول تجارة القوافل على البقاء ترتبط بالقوة العسكرية للأمراء. وكلما زادت قوتهم ازداد ما يجتذبونه من تجارة وتجار إلى عاصمتهم. وهذا بدوره أتاح لهم أن يفرضوا إتاوات جعلت استثمارهم في وسائل الإكراه ممكناً. وأثّر التوازن الدقيق بين القوة العسكرية والتجارة والاتاوات في قدرة الأمراء على كسب الولاء وتوطيد حكمهم. وأي تغيير في واحد من هذه الأركان الثلاثة كان يؤثر تلقائياً في موقعهم السياسي في وسط الجزيرة العربية.

وتضرر ازدهار حائل نتيجة تحويل الطرق التجارية. وحدث هذا من جراء صعود ابن سعود إلى السلطة واتساع دائرة نفوذه. فقد عُزلت حائل عن كل خطوط الإمداد ولأنه لم تكن لديها قاعدة زراعية داخلية متطورة فقد عانى سكانها من نقص المواد الغذائية خلال حصار ١٩٢٠ ـ ١٩٢١. ومع تدهور تجارة حائل فقدت فئتها الحاكمة أيضاً عائداً كبيراً من الاتاوات التي تجبى من القوافل التجارية.

بالاضافة إلى انكشاف الاقتصاد القائم على تجارة القوافل للتأثيرات الخارجية، كان هذا الاقتصاد يجسد تناقضاً داخلياً ناجماً عن عدم الانسجام بين متطلبات تجارة القوافل، مثل أمن الطرق، والظروف القبلية المحلية. فقد كانت استمرارية التجارة

تُؤمَّن على حساب السكان البدو الذين يمثلون غالبية المجموعات التي تعيش ضمن دائرة نفوذ الأمراء.

وكان منع غارات القبائل أول المستلزمات المطلوبة لضمان تدفق التجارة إلى حائل التي تتسلم رسم الحماية (الخوّة) من القوافل التجارية. ورغم أن قسماً من «الخوة» كان يعاد توزيعه على شكل دعومات لشيوخ القبائل فإن إعادة التوزيع لم تكن كاملة. بكلمات أخرى، أن الفوائد المتحققة من الاقتصاد التجاري لم تصل إلى كل المجموعات القبلية التي تسافر القوافل في أراضيها. ونتيجة لذلك كانت هناك مجموعات قبلية لم تفد من نظام الدعم واستمرت في الاغارة على القوافل. وبدأ تضارب في المصالح يظهر بين أمراء حائل وبعض العشائر البدوية. وكما ورد ذكره سابقاً، كانت لدى العشائر البدوية الوسائل للاغارة على القوافل بسبب عدم احتواء قوتها العسكرية. وعندما كان أمراء حائل يرشون هذه العشائر من خلال الدعومات، كانوا يوفرون دخلاً اضافياً يعوض عن المنافع المتحققة من الاغارة على القوافل أو من فرض «خوّاتها» الخاصة على القوافل.

ولكن هذا لم يكن كافياً لكي يثني العشائر عن شن غارات وغارات معاكسة على القوافل. وكان هذا يعود إلى أن الغارات لم تكن استراتيجيات عسكرية هدفها الوحيد هو الحصول على موارد اقتصادية اضافية[٢٥]. فقد كانت غارات القبائل متداخلة مع نمط حياة البدو ونظام قيمهم، وكانت تحدث في أوقات الوفرة والشح. والأكثر من ذلك أن القبائل ذات التقليد العريق في الغارات لم تكن القبائل الأفقر في الجزيرة العربية، بل على العكس، فإن القبائل التي كثيراً ما تغير على الآخرين كانت أغنى القبائل بالجمال وأشدها قوة. كما أنه ليس هناك دليل قوي للاعتقاد بأن الغارات كانت تزداد، على سبيل المثال، نتيجة الجفاف الذي يتسبب في زيادة انكشاف الاقتصاد الرعوي.

ان منع الغارات من أجل الحفاظ على اقتصاد القوافل، لم يكن مجرد مشكلة عملية بل كان مشكلة اجتماعية وثقافية. فلكي يكون المنع ناجحاً كان يتطلب تبديل قيم المجتمع البدوي المرتبطة بهذا النشاط وتغيير أساس هذا المجتمع ذاته. ولم تكن أي من المهمتين ممكنة في القرن التاسع عشر أو حتى في أوائل القرن العشرين. وطالما أن أمراء حائل كانوا غير قادرين على السيطرة على غارات القبائل فإن ازدهار اقتصاد القوافل وهيمنتهم السياسية ذاتها ظلا تحت رحمة ضغوط

خارجية. لذا كانوا ينظمون باستمرار غارات تأديبية ضد مَنْ يهاجمون القوافل ولكنهم لم يتمكنوا من النجاح في تحقيق أمن كامل للقوافل. وكان انحسار قوة الأمراء العسكرية في أوائل هذا القرن يعني أنهم ليسوا في وضع يمكنهم من معاقبة المغيرين واستعادة الثقة بأمن أرضهم وقوتهم. ونتيجة لذلك أخذ التجار يتّبعون طرقاً تجارية أكثر أماناً بسبب الحماية التي يوفرها زعماء وحكام محليون أقوى.

ويمكن مقارنة عجز أمراء آل الرشيد عن ردع غارات القبائل بمحاولات ابن سعود لحل التناقض بين الاقتصاد التجاري والغارات. فقد كانت ثروة ابن سعود تعتمد على العائدات المتحققة من التجارة والاتاوات المفروضة على قوافل التجارة والحج بالاضافة إلى دعم مالي كبير من الحكومة البريطانية. ولكنه بدلاً من كبح غارات القبائل، الذي كان مهمة صعبة التنفيذ، عمد إلى توظيفها لصالحه بتحويل ما كان يسمى غارات قبلية إلى جهاد ضد مَنْ لم يستجيبوا لدعوته الوهابية. فاستمرت القبائل التي أصبحت من «الاخوان» في ممارسة الغارات تحت مظلة مغايرة. وأصبحت الغارات نشاطاً محموداً يتداخل مع الشهامة والشجاعة والشرف، لكنها أيضاً وسيلة لنشر رسالة ذات طبيعة دينية وسياسية، فضلاً عن توسيع دائرة نفوذ ابن سعود. وبعد أن بلغ توسعه نقطة تهديد المصالح البريطانية في الضفة الشرقية لنهر الأردن والعراق، تعرض ابن سعود إلى ضغط بريطاني لوقف هذه الغارات. وتلك كانت على وجه التحديد اللحظة التي كشفت عن التناقض الكامن بين أهدافه وتصوره لهذه الغارات وأهداف «الاخوان» وتصورهم لها. وقد تمرد «الاخوان» عندما أُجبروا على وقف غاراتهم على أراض معترف دولياً بكونها خارج دائرة نفوذ ابن سعود.

وهكذا كانت مواطن الضعف البنيوية الاقتصادية الداخلية لامارة آل الرشيد مسؤولة إلى حد بعيد عن انحدارها. فقد أعاقت النواقص المتأصلة في البنية الاقتصادية تطور كيان سياسي مستقر في حائل. كما أن هذه العيوب لم تكن أرضية ملائمة بصفة خاصة لدفع إمارة آل الرشيد إلى التحرك باتجاه تكوين دولة في مطلع هذا القرن.

ايديولوجيات متنافسة

في «حضارة الصحراء» La Civilisation du desert جادل ر. مونتان .R

Montagne بأن إمارة آل الرشيد كانت تفتقر إلى المؤثر التثبيتي للايديولوجية الدينية، فكانت الامارة نتيجة لذلك هشة وغير ثابتة:

«هناك حاجة إلى قوة الدين من أجل أن تقام، بالمادة الاجتماعية، أمبراطوريات ثيوقراطية تستحق حقاً اهتمام المؤرخين. . . . . . وتقاليد حكمها يكتنفها غموض شديد. فالمؤسسات التي يمكن أن ترتكز عليها أكثر بدائية من أن يبقى هذا الانجاز أكثر من جيلين أو ثلاثة أجيال». (ر. مونتان R. Montagne ١٩٤٧ : ١٥٩).

ليس من الصعب أن نلاحظ تأثير ابن خلدون في طرح مونتان. فقد كان المفكر الشمال أفريقي في القرن الرابع عشر، أول من أكد أن العصبية القبلية، مرتبطةً بتأثير الدين القوي، تشكل الأساس لقيام هياكل سياسية ثابتة على الأقل في منطقته من العالم. وأعلن ابن خلدون في «المقدمة» أن أصل الامارات ذات السلطات الواسعة والمُلْك الكبير هو الدين القائم على النبوة أو الدعوة الصادقة. وأن صعود الأمبراطورية الإسلامية مع بداية الدعوة النبوية في القرن السابع والخلافاء الراشدين بالاضافة إلى الامارات الشمال افريقية التي قامت في فترة لاحقة، هي الأمثلة التي أتاحت لابن خلدون أن يخلص إلى هذا الاستنتاج. ولكنه جادل بالقدر نفسه أن الدعوة الدينية لا يمكن أن تتجسد من دون شعور جماعي أو ما سماه «العصبية» (ابن خلدون ١٩٨٧ : ١٢٥ ـ ١٢٧).

واستناداً إلى ابن خلدون فإن الظروف الرعوية في منطقته من العالم، مرتبطةً بانعدام الأمن في حياة الصحراء، تهب الأفراد تلاحماً فيما بينهم. ومَنْ لا يوجد تلاحم بينهم لا يستطيعون البقاء في الصحراء. وتصبح «العصبية» والتلاحم الداخلي قضية بقاء ناجمة عن البيئة القاسية وما يترتب عليها من انعدام الأمن. ويكمن الأصل المشترك والصلات القرابية في جوهر هذه العصبية، أو هذا التلاحم. ولكن رغم أن ابن خلدون يجادل بأن روابط الدم الطبيعية التي توجد بين الأفراد تشكل أساس التلاحم فإنه لا يتجاهل أهمية التحالف والتبعية في اقامة روابط قوية بالقدر نفسه بين جماعات لا ترتبط من خلال الأصل. ويذهب إلى أن العلاقة بين التابع والسيد تؤدي إلى صلات وثيقة تماماً، كما يؤدي إليها، أو تقريباً كما يؤدي إليها الأصل المشترك (المصدر السابق: ٩٨).

وتكون العصبية، بالتعريف، استبعادية وانطوائية. وهي تضم كل أفراد

الجماعة الذين تربط بينهم علاقة النَسَب حسب قواعد الأصل. وتكون بطبيعتها ايديولوجيا متفوقة. ويجادل ابن خلدون بأن العصبية موجهة نحو التفوق: ما ان تبسط عصبية تفوقها على مَنْ يشتركون بها حتى تسعى، بطبيعتها، إلى التفوق على مَنْ لديهم عصبية أخرى لا علاقة لها بالأولى. (المصدر السابق: ١٠٨). وأن تضامن جماعة الأصل والاتباع يوفر للزعيم ما يحتاجه من دعم لتحقيق تفوق وتفوق جماعته. ولا تعيش الامارات حياة أطول وتصبح أكثر استقراراً إلا حين يتضافر هذا التضامن مع دين يشيع التجانس. واستناداً إلى ابن خلدون، يبدو أن التلاحم القبلي والدين عنصران هامان في قيام الامارات.

في ضوء نموذج ابن خلدون، يمكن وصف امارة آل رشيد بأنها إمارة قبلية كانت في بدايتها تتمتع بتضامن قبيلة شمّر ولكنها تخلفت عن استحضار ايديولوجية دينية. فحين جاء الأمراء إلى السلطة في عام ١٨٣٦ كانوا يعتمدون، سياسياً وعسكرياً، اعتماداً كاملاً على دعم جماعتهم القبلية. وكانوا في نداءاتهم طلباً للدعم يتوجهون إلى جماعة أصلهم التي تتمتع بتلاحم داخلي شديد. وقد أسبغ هذا على زعامتهم قوة ومشروعية. يضاف إلى ذلك أن زعامتهم أصبحت متميزة عن الزعامات الأخرى في وسط الجزيرة العربية مثل زعامة الامارات السعودية الثلاث. وعلق هوغارت على الاختلاف بين زعامة آل الرشيد وزعامة آل سعود:

لنأخذ العائلة الحاكمة على سبيل المثال، فإن زعماء آل الرشيد ليسوا مثل زعماء آل سعود في الرياض، زعماء جماعات متوطنة منسجمين معها، وقبائل محيطة من البدو، تختلف عنهم، بل انهم، أولاً، زعماء قبيلة بدوية سائدة كبيرة، وثانياً، زعماء المستوطنات التي تخدم تلك القبيلة بتوفير أسواق ونقاط تجمع. (د. غ. هوغارت D.G. Hogarth ١٩٠٥: ١٦٦).

وحين قام أمراء آل الرشيد بتوسيع دائرة نفوذهم في وسط الجزيرة العربية، كانوا في الحقيقة يؤكدون هيمنة قبيلة شمّر. وكانت المجموعات غير الشمّرية المقهورة تعتبر تسيد زعامة حائل فرض حكم غريب تمارسه مجموعة على مجموعات أخرى. ولم تكن هذه المجموعات قادرة على تحرير نفسها بسبب ضعفها أمام شمّر وزعامتها. وبقيت مجموعات تابعة أو مجموعات تدفع الاتاوة، ذات مكانة متدنية.

وظل أساس حكم آل الرشيد، وهو تلاحم القبيلة، بلا منازع في القرن التاسع عشر رغم وجود ايديولوجية دينية مزاحمة على الحكم والزعامة في وسط

الجزيرة العربية. فقد ظلت الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية وفيةً لدعوتها الأصولية الدينية وفشلت في أن تشكل تحدياً لحكم آل الرشيد. وفي أواخر القرن الماضي انتصر حكم آل الرشيد القبلي على إمارة آل سعود ذات التوجه الديني.

وانقلب الوضع في مطلع القرن الحالي. فقد تعثر حكم آل الرشيد حين واجه عودة السعوديين إلى وسط الجزيرة العربية بدعاوى دينية قوية من أجل اقامة حكمهم في المنطقة. وكانت الزعامة السعودية مسلحة بالوهابية التي وفرت الأساس لتوحيد المجموعات القبلية المختلفة تحت رايتها. اذ أنها كانت ايديولوجية شاملة توجهت خلال العقدين الأولين من القرن العشرين إلى طائفة أوسع من القبائل التي كانت متفرقة نتيجة الانقسامات القبلية. وكانت الوهابية بتشديدها على المساواة بين المسلمين ورفضها التراتبيات القائمة على أصالة النَسَب القبلي، ذات جاذبية لقبائل كثيرة في الجزيرة العربية كانت في الماضي تحتل مكانة متدنية. وكانت الوهابية، نتيجة لذلك، ذات جاذبية لفئات مثل «الصُلَب» الذين كانوا يُعدّون أكثر الجماعات دونية ووضاعة في المنطقة. فأصبحوا أشد المحاربين تفانياً وضراوة بين «الاخوان» متبوئين مكانة جديدة بوصفهم مقاتلين مسلمين وموعودين بالتحرر من مذلتهم.

اذا طبقنا نموذج ابن خلدون يكون لدينا في القرن العشرين امارتان متنافستان في وسط الجزيرة العربية، إمارة آل الرشيد بحكومتها القبلية القائمة على العصبية القبلية الشمرية، والإمارة السعودية التي ادعت حق المشروعية باستحضارها البديل الاسلامي القوي موجهاً نحو اقامة دولة اسلامية. وقد انتصر البديل الإسلامي مؤكداً صحة استنتاج ابن خلدون بأن الحكم يفيد من الدعوة الدينية التي تجعله أكثر قوة واستقراراً.

ولكن هذا سيكون طريقة تبسيطية لتفسير انحدار إمارة آل الرشيد ونجاح الإمارة السعودية في اقامة دولة دائمة، على الأقل حتى اليوم الحاضر. صحيح أن الوهابية كانت ايديولوجية توحيدية قوية نجحت في توفير الأساس لاحتواء استقلال القبائل، الذي كان شرطاً هاماً لتوطيد حكم ابن سعود المُمَرْكِز. وكانت الوهابية، منذ صعودها في القرن الثامن عشر، تمثل أساس الحكم السعودي وتوسعه رغم أن الحركة والحكم السعودي على السواء واجها تحدياً لهما مرتين في القرن التاسع عشر. فقد تفككت إمارتهم الأولى نتيجة الغزو المصري في عام

١٨١٨ وانهارت محاولتهم الثانية لبسط هيمنتهم في وسط الجزيرة العربية أمام توسع آل الرشيد في عام ١٨٩١. ونجحت محاولتهم الثالثة لاقامة حكمهم في نجد في مطلع القرن بمعونة الوهابية. ولكن هذا لا يمكن أن يعتبر العامل الوحيد وراء ديمومة واستقرار الامارة الثالثة التي أصبحت دولة في عام ١٩٣٢. لقد كان سقوط آل الرشيد ونجاح آل سعود عمليتين متوازيتين حدثتا لا بمعزل وإنما بالارتباط مع سلسلة كاملة من الأحداث التاريخية مثل انفراط الأمبراطورية العثمانية وتدخل الحكومة البريطانية فيما بعد. ولم يُحسم الصراع بين الايديولوجيتين المتنافستين لصالح البديل الإسلامي إلا نتيجة تدخل هذه الأحداث التاريخية.

لقد أطلق انهيار الأمبراطورية العثمانية عملية تكوين دولة، لا في الجزيرة العربية فحسب بل وفي ما أصبح معروفاً بالشرق الأوسط. ورغم أن غالبية أقاليم الشرق الأوسط دخلت في علاقات انتداب مع بريطانيا وفرنسا، القوتين المتصرتين بعد الحرب العالمية الأولى، فإن الاتجاه في هذه الأقاليم كان ينحو صوب تكوين دولة. واتَّبع تاريخ وسط الجزيرة العربية، حتى تكوين الدولة السعودية الحالية، دورة متكررة كانت تصعد فيها إمارات قبلية إلى السلطة وتتوسع إلى الأراضي المجاورة وتمارس مَرْكَزَة سياسية. وكانت هذه الكيانات تتفكك فيما بعد نتيجة الميول الطاردة المتأصلة التي كانت نابعة من تضافر التقليد الراسخ لاستقلال القبائل والرعوية التي تكرس هذا الاستقلال. وكانت الكيانات نفسها غير مستقرة في حين أن النمط الدوري العام لصعودها وسقوطها كان خلاف ذلك. ولم تُكسَر الدورة إلا بتأثير الظروف الحديثة للقرن العشرين والضغوط الخارجية لحكومات أجنبية.

الفاصل العاشر

أمراء في المنفى

«بدت حائل مدينة مهجورة بين الرمال، سكانها كلهم أموات... كان واضحاً أن سكان حائل في انحدار. كان عدد من البيوت في حي المدينة الشمالي خرائب... وهرب الكثير من أهل حائل إلى ربوع الملك فيصل الأرحب في العراق... ان عشرة أعوام من حكم الوهابيين حوّلت سكان حائل إلى متعصبين. هُدمت حصون حائل القديمة وبُني حصن حجري جديد فوق تل صغير يطل على المدينة». (أ. راتر E. Rutter ١٩٣١ : ٧٨ ـ ٧٩).

دخلت حائل، بعد أن هيمنت على الساحة السياسية في وسط الجزيرة العربية حوالي تسعين عاماً، مرحلة من الانحدار بإبعاد أمراء آل الرشيد كشخصيات سياسية هامة في نجد. وأصبحت الواحة نفسها ومنطقة جبل شمّر رقعاً قروية في الكيان السياسي الذي كان عبد العزيز بن سعود يسعى إلى اقامته. وبسقوط سلطة آل الرشيد فقدت حائل الركيزة التي نهض عليها ازدهارها طيلة سنوات. وبعد انهيار حائل أعلن ابن سعود نفسه سلطان نجد، حاكم وسط الجزيرة العربية بلا منازع.

ورغم أن حائل لم تعان المجازر والفظائع التي أصبحت مصير بعض المدن في الحجاز (مثل الطائف) التي وقعت تحت سيطرة «اخوان» ابن سعود، فإنها مع ذلك أخفقت في استعادة دورها الاقتصادي والسياسي السابق. وفي عام ١٩٣٠ زار راتر الواحة التي وصفها في المقطع اعلاه واحةً لا يسع المسافر إلا أن يلاحظ ما فيها من تدهور حضري وإحساس بهبوط المعنويات بين سكانها. وبعد عشرة أعوام من انهيار سلطة الأمراء، انخفض عدد سكان الواحة انخفاضاً حاداً. وقدر راتر عدد السكان بألفين، وهو عدد أقل بكثير من عدد سكانها في أواخر القرن التاسع

عشر. وكان السبب في ذلك أن غالبية تجار الواحة هاجروا إلى العراق والمدينة المنورة والقصيم وأن عدداً كبيراً من سكان الواحة الشمريين قرروا الهجرة إلى العراق للانضمام إلى أشقائهم في القبيلة الذين سكنوا بلاد النهرين منذ أجيال. وترك النزوح غالبية البيوت في خراب واقترن هذا بتهديم الحي الذي كان فيه قصر الأمراء في حائل. وفي محاولة لمحو آثار أمراء آل الرشيد في الواحة، أصدر ابن سعود أوامره بتدمير قصر برزان. وشُيد قصر جديد لسكن حكام العهد الجديد. كما لاحظ راتر أن السوق التي كانت مزدهرة ذات يوم بدت مقفرة.

وأقيم حكم الوهابيين في حائل عندما جيء بغالبية المسؤولين والحكام المحليين من القصيم والرياض. وهؤلاء المسؤولون لم يرسوا دعائم الوهابية في الواحة ويؤمّنوا الالتزام بقوانين الدين فحسب بل كان يراد منهم أيضاً أن يبقوا عيناً يقظة على السكان الحضر والبدو الذين فقدوا زعامتهم التقليدية. فقد جرى انتقاء الحكام الذين أُرسلوا من الرياض للحكم في حائل بعناية. وكانوا من أقارب ابن سعود المباشرين وأبناء عمومته. وكان ولاؤهم لا يمارى، وهو شرط هام للزعامة في منطقة صعبة كهذه. وكان هم ابن سعود الرئيسي في ذلك الوقت توطيد حكمه في حائل. فاعتمد استراتيجية فرض بها رقابة قصوى على شمّر ومنع أي اتصالات بينها وبين أمراء آل الرشيد. ولتحقيق هذا الهدف رفض ابن سعود أن يترك حائل في عام ١٩٢١ دون أن يرافقه محمد بن طلال وبقية أفراد عائلته.

حين فُتحت أبواب حائل في الأيام الأولى من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢١ لاذ محمد بن طلال مع عائلته وأصدقائه ومؤازريه بالقصر. وما زال أفراد من آل الرشيد يتذكرون اللقاء بين محمد بن طلال وابن سعود. وقد تمكنتُ من تسجيل سرد رشيدي وُصِف فيه هذا اللقاء. ورغم أن مُخبري لم يشهد الاحداث في عام ١٩٢١ فقد زعم أنه سمع الرواية من شخص كان حاضراً:

«انسحب محمد بن طلال مع عائلته وأصدقائه وراء البوابات الخشبية لبرزان، قصره. كانت الأبواب مغلقة وظلت محروسة بعبيده الأشد ولاء. بدأ رُسُل ابن سعود يصلون إلى البوابة بتطمينات ووعود بالحماية. وسُمح لأحد الرُسُل بدخول برزان ولقاء محمد. قال الرسول «استعد للقاء الشيوخ»، (وكان يعني بالشيوخ ابن سعود). فرد محمد «أي شيوخ؟ أوَ لا يسمى ابن سعود الإمام؟!».

بدأ محمد بن طلال يهيّئ نفسه. فاستحم وارتدى أحسن ثيابه. لم يكن خائفاً

من الموت الذي كان يتوقع حدوثه لحظة خروجه من قصره. لقد كان مستعداً لملاقاة مصيره. فُتحت بوابة برزان وخرج محمد بإباء.

وحين دخل محمد على مجلس ابن سعود الذي أقيم مؤقتاً في حائل، نهض ابن سعود لتحيته ومعانقته. وقال ابن سعود «اجلس جنبي، الآن وقد انتهى القتال بيننا. اننا سنصبح أخوة. وسترافقونني أنت وعائلتك إلى الرياض حيث تعيشون كأبنائي معززين مكرمين»، أضاف ابن سعود. واحتسيا القهوة ورش ابن سعود عطراً على ابن رشيد. وفيما بعد نهضا معاً وتوجها إلى الرياض. ولم ير ابن رشيد حائل ثانية قط».

ان هذا السرد لا يروي اللقاء الذي جرى بين محمد بن طلال وابن سعود فحسب بل انه رواية آل الرشيد عن ذلك اللقاء وله شعريته الخاصة. ـ اذ يبدأ السرد بما يبين أن محمد بن طلال أدرك انه لم يعد قادراً على الدفاع عن عاصمته. ونتيجة لذلك ينسحب إلى قلعته مع أنصاره تعبيراً عن اعتزاله الحياة العامة. وينقطع هذا بوصول مبعوثي ابن سعود ناقلين تطمينات إلى الأمير المقهور. ويتلقى محمد بن طلال دعوة لحضور مجلس ابن سعود.

يؤكد الراوي نقطة هامة عندما يكرر رد محمد بن طلال على الدعوة. فعندما يقول الرسول «استعد للقاء الشيوخ». يحار محمد بن طلال ويسأل «أي شيوخ؟ أَوَ لا يسمى ابن سعود الإمام؟!». هذا السؤال يميط اللثام عن موضوعتين اساسيتين. أولاً، ان استجابة محمد بن طلال تنطوي على افتراض ضمني لديه بأن ابن سعود إمام، قائد ديني، وليس شيخ قبيلة. ثانياً، ان السؤال يكشف أيضاً عن محاولة متعمدة لاستبعاد امكانية اعتبار ابن سعود شيخ قبيلة. وهنا، يدلي الراوي بقول ذي أهمية سياسة بالغة. فإن هزيمة آل الرشيد تبقى في خلفية السرد، ولكن سؤال محمد يمثل محاولة لإضفاء نظام ومعنى على الأحداث. ويؤكد سؤاله افتراضاً أساسياً بأنه رغم هزيمته فليس هناك، في ذهنه على الأقل، مجال للابهام. ويبدو أن السؤال يحدد دور ابن سعود ويُجلي كيف كان يُنظر إلى هذا الدور في ذلك الوقت.

حين يقبل محمد الدعوة «يستحم» و«يرتدي أحسن ثيابه». وهذه أفعال رمزية ذات مغزى. إذ يُصور محمد على أنه يمارس طقساً من الطقوس التطهيرية يراد به اعداده للقاء ابن سعود. وفي هذه اللحظة لا يكون المستقبل واضحاً وهناك إمكانية

أن يُعدم محمد ما إن يخرج من بوابة القلعة. لذا يصبح الطقس التطهيري ذا معنى لأنه يعدُّه للموت.

يدخل محمد على مجلس ابن سعود. ويخبرنا الراوي أن محمداً يؤخذ في الاحضان حيث يعانقه ابن سعود الذي ينهض لتحيته كضيف مقدماً له القهوة والعطر، وهما رمزان يراد بهما تأكيد الأمان والكرم والتطمين والصداقة. والأكثر من ذلك أن القرابة تُستحضر هنا عندما يقول ابن سعود لضيفه إنه سوف يعيش في الرياض كإبن أو أخ. ويكرر الراوي كلمات ابن سعود «معززين ومكرمين» التي يراد بها ضمان كرامة الضيف وصيانة شرفه. وهذا السرد لا يصف لقاء بين غالب ومغلوب فحسب بل يستحضر أيضاً توقعات تتعلق بالمستقبل. ومن نواحٍ عديدة يكون السرد بياناً حول الطريقة التي نظر بها آل الرشيد إلى مستقبلهم فيَ الرياض.

في القسم التالي أصف تجربة محمد في المنفى على أساس معلومات وفرها ابنه طلال. وأتيحت لي أيضاً إمكانية الاطلاع على يوميات مكتوبة نثراً وشعراً أودعها محمد مع ابنه.

وتضم هذه اليوميات قصائد حفظها ونظمها محمد.

مصير الرجال والنساء

وصل محمد بن طلال إلى الرياض مع عائلته، ورغم وعود ابن سعود وتطميناته في حائل فقد وُضع فوراً في السجن حيث بقي في زنزانة مظلمة صغيرة طيلة عامين. وكان اتصاله الوحيد مع العالم الخارجي من خلال نافذة صغيرة ذات قضبان حديد تطل على أحد شوارع الرياض حيث كان يتجمع حراس السجن. وكان الحراس يدأبون على الكلام بصوت مرتفع بحيث يستطيع أن يسمع حديثهم دون أن يكون قادراً على رؤيتهم. وكان الحراس دائماً يناقشون مصير محمد ويتبادلون الشائعات القائلة بأن محمداً سيُعدم بعد صلاة الجمعة في ذلك الأسبوع. وعلى امتداد عامين انتظر محمد اليوم الذي سينفذ فيه اعدامه في الميدان العام في الرياض. ولم تأت تلك الجمعة قط، وقد أفرج عنه من السجن ليعيش تحت الاقامة الجبرية.

شكل ابن سعود قوة بوليسية من خمسين رجلاً لمراقبة نشاطات محمد. وكان

هؤلاء الرجال يقيمون مع محمد في البيت الذي خُصص له. وكانوا يأكلون معه ويكونون حاضرين دائماً في مجلسه حيث لم يكن مسموحاً له باستقبال أي ضيوف وشيوخ كبار من شمّر، ولا كان مسموحاً له بلقاء أكثر أصدقائه وأصحابه حميمية.

ومنع ابن سعود محمداً من لقاء شاعره الأكثر ولاء، وهو من القصيم اسمه العوني تحالف مع محمد قبل غزو حائل. وكان العوني أحد الرجال الذين أجبروا على الانتقال إلى الرياض حيث تكون مراقبتهم أسهل. وكان ماهراً في نظم الشعر النبطي. فكان ابن سعود يخشى أن أي لقاءات بين الرجلين يمكن أن تسفر عن نظم بعض القصائد في مديح محمد التي لها قوة الانتشار في عموم الجزيرة العربية. وفي احدى المناسبات التقى محمد مع العوني سراً في بيت الأخير. واكتشف عَبيد ابن سعود الأوفياء أمرهما. وفي الحال أُرسل العوني إلى السجن في الهفوف حيث أصبح ضريراً. وفيما بعد أصيب بمرض السل، وأفرج عنه من السجن ومات بعد الافراج عنه مباشرة (س. صوايان S. Sowayan ١٩٨٥ : ٨٦ ـ ٨٧). وكان هذا هو الثمن الذي دفعه هذا الشاعر النبطي المشهور عن اخلاصه لأمير آل الرشيد ورفضه الالتزام بالقواعد التي فرضها ابن سعود. وقدمت سنوات العوني الأخيرة في السجن وموته المؤسف عبرة لمن يفكرون في الاتصال لاحقاً بأمير آل الرشيد.

خفف ابن سعود القيود المفروضة على محمد الذي سُمح له بمغادرة البيت وزيارة الآخرين إذا رافقه الرجال الخمسون الذين كانت مهمتهم الرئيسية مراقبة تحركاته. وسُمح لمحمد حتى بحضور مجلس ابن سعود مع شيوخ وأمراء آخرين. ولكن القيود المفروضة على مَنْ يُسمح له برؤيته والاختلاط معه ظلت سارية.

عاش محمد في بيت أعده له ابن سعود. وإذ صادر ابن سعود كل ممتلكاته في حائل فقد كان محروماً في الرياض من أي دخل. وكانت عائلته تعتمد على تموينات من ابن سعود الذي كان يرسل بانتظام أكياساً من الرز والبن والسكر والتمور. وكانت هذه التموينات تحت رقابة صارمة من وزير مالية ابن سعود. اذ تقرر أن تتيح التموينات لمحمد وعائلته العيش بيسر مع ابقائهم على مستوى لا يسمح لهم بالكرم أو دعوة الضيوف أو الاحتفاء بآخرين. وكان يراد بهذه السياسة ضمان عزلة محمد وإدامة عجزه عن اعادة بناء سمعة لنفسه في الرياض أو كسب اتباع ومؤازرين.

وخُففت القيود المفروضة على تحركات محمد مرة أخرى في أوائل الخمسينات حين سُمح له بالسفر مع ابنيه خارج العربية السعودية، على أن تُنظم الرحلة من قبل السفارات السعودية في الخارج وتكون بإشرافها. فسافر محمد إلى مصر ولبنان وفيما بعد قام بجولة حملته إلى فرنسا وبلجيكا وألمانيا. واعترض ابن سعود على زيارة محمد لانكلترا في ذلك الوقت متوجساً حتى حينذاك من أنه قد يقيم اتصالات مع المسؤولين البريطانيين في لندن بهدف زعزعة أركان سلطته.

بقي محمد بن طلال مهمَّشاً من الناحية السياسية حتى موته في عام ١٩٥٢. فقد اغتاله عبدُه فارس الذي وُجد ميتاً بعد قتله مباشرة. وأمر ابن سعود بفتح تحقيق خلص إلى أن العبد كان مختلاً عقلياً وأنه خطط للجريمة بمفرده. كما زُعم أن العبد انتحر نتيجة شعوره بالذنب على قتل سيده. واستناداً إلى متحدرين من ذرية محمد فإنه ليس واضحاً حتى الآن ما إذا كانت هناك أدلة كافية لإسناد الاستنتاج القائل أن العبد انتحر، أو ما إذا كان هو نفسه قد قُتِل لإزالة القرينة الوحيدة التي من شأنها أن تكشف عن هوية القاتل.

وأفلت آخرون بين أفراد آل الرشيد من مصير محمد في الرياض. وعلى سبيل المثال، أن حاكم حائل السابق، عبد الله بن متعب الذي عقد صلحاً وغادر حائل قبل غزوها في عام ١٩٢١ للانضمام إلى ابن سعود، أُستُقدم أيضاً للعيش في الرياض. وعاش عبد الله حياة أخف قيوداً حيث كان قادراً على السفر إلى مدن أخرى في الجزيرة العربية. وأمضى ما تبقى من أيامه في السفر بين الرياض ومكة (ض. الرشيد ١٩٦٦ : ١٦٨). فإن ابن سعود لم يتخذ بحق عبد الله الاجراءات التأديبية نفسها التي اتخذها بحق ابن عمه. ومن الواضح أن تصميم محمد على مواصلة النضال ضد ابن سعود والدفاع عن حائل حتى اللحظة الأخيرة كان سبب القيود التي فرضت عليه. فكثيراً ما وُصف محمد حتى من جانب أعدائه بأنه شاب ثابت العزيمة ذو طموحات سياسية قوية ما كان ليفوت الفرصة من أجل أن يسترد سلطة أسلافه في حائل لو سمح له ابن سعود بالعيش في ظروف أخف قيوداً. وما إذا كان سينجح فهذه مسألة لا يمكن بأي حال الجزم فيها.

وتسبب التاريخ والسياسة بالقدر نفسه في تغيير حياة النساء من آل الرشيد. فعندما فقد آباؤهن سلطتهم دَفعن هن أيضاً الثمن. وبعد الاستيلاء على حائل نُقلن للعيش مع رجالهن في الرياض.

وإذ كان التزاوج مع المجموعات القبلية جزءاً من سياسة ابن سعود الرسمية، جرى التخطيط لسلسلة من الزيجات بنساء من آل الرشيد وعقدها في الرياض. فبعد سجن محمد بن طلال مباشرة تزوج ابن سعود بنورة بنت سبهان احدى زوجات محمد التي اضطر إلى أن يطلقها تحت الضغط. ويزعم أفراد من آل الرشيد أنه في ليلة العرس أصيب ابن سعود برَمَد فقد على أثره البصر في احدى عينيه. وفكر ابن سعود أن هذه لا بد أن تكون زيجة منحوسة فأقدم فوراً على طلاق نورة وإعادتها إلى حائل. ورغم صعوبة العثور على دليل يسند رواية آل الرشيد فإن للقصة مغزاها. إذ أنها، أولاً، تبين أن هذه الزيجة كانت خرقاً لميثاق الشرف لأن ابن سعود ضغط على محمد لكي يطلق المرأة التي يريد الزواج بها. ويزعم آل الرشيد أن ابن سعود استخدم سطوته لاذلال محمد. وتؤكد القصة، ثانياً، أن مرض العين الذي أصاب ابن سعود كان جزاء أو عقاباً أُنزل به لانتهاكه شرف آل الرشيد.

تزوج ابن سعود امرأة أخرى من آل الرشيد. واختار هذه المرة فهدة بنت عاصي الشريم، أرملة سعود بن رشيد. وأصبحت فهدة أم الابن الثامن لابن سعود، وهو عبد الله ولي العهد الحالي الذي ولد بعد سنتين من الاستيلاء على حائل. ورُتِّبت زيجة ثالثة بجواهر، ابنة محمد بن طلال. وإذ عاشت جواهر حتى عام ١٩٨٢ فقد تسنى لي التعرف على تاريخ حياتها. اذ أنها تزوجت ابن سعود حين كانت في الرابعة عشرة من العمر وعاشت في قصره بين زوجاته الأخريات. ولأنها كانت صغيرة فإن الزواج لم يكتمل بالدخول الا بعد سنتين. وكانت جواهر جذابة استطاعت أن تنال اعجاب ابن سعود. وأثار هذا غيرة زوجاته الأكبر اللواتي نغصن عليها حياتها في القصر. ولم تنجب جواهر أطفالاً. وقد تذكرت فحصها بانتظام من قبل طبيب ابن سعود الذي وصف لها حقناً أسبوعية لتقويتها ومعالجة عُقرها. وترملت في السادسة والعشرين دون أن ترى الطفل الذي كانت دائماً تصبو إلى إنجابه. وبعد وفاة ابن سعود في عام ١٩٥٣ لم تتزوج جواهر ثانية. وفي الستينات بدأت تعاني مشاكل صحية وأخذت تبحث عن العلاج في باريس ولبنان حيث قال لها أطباء مختلفون أن الحقن التي تلقتها وهي امرأة شابة أثرت في صحتها تأثيراً سيئاً وأنها في الواقع هي المسؤولة عن حقيقة انها لم تنجب أطفالاً قط. وزعم الأطباء أن هذه الحقن كان يراد بها أن تكون عقيمة وليس معالجة مشكلتها. وفي تلك اللحظة اشتدت مرارتها على مصيرها في بيت ابن سعود. وإذ

تابعت فيما بعد ما حدث لشقيقتها التي تزوجت بنجل ابن سعود وأنجبت أربعة أطفال قتل أقاربهم من ناحية الأب اثنين منهما، بدأت تدرك أنها كانت على نحو ما محظوظة لأنها لم تنجب طفلاً من ابن سعود.

تزوجت شقيقة جواهر الصغرى وطفاء بمساعد نجل ابن سعود وأصبحت أم الأمراء خالد وفيصل وبندر والأميرة الجوهرة. وفيما بعد أقدم مساعد على طلاق وطفاء. وقد عاشت حياة تعيسة حيث فقدت اثنين من أبنائها تركها موتهما المأساوي بلا أمل واستنزف طاقتها. ففي عام ١٩٦٥ شارك خالد، ابن وطفاء البكر، في تظاهرة نظمها للاحتجاج على ادخال التلفزيون في العربية السعودية. وكان خالد متمسكاً بتفسير متزمت للوهابية، وكان أيضاً ضد تهميش العلماء الوهابيين، وهي عملية كان الملك فيصل يهيّئ لها البلاد. وبسبب مشاركة خالد في الاحتجاج أطلقت الشرطة السعودية النار عليه فأردته قتيلاً في عقر داره. وأورث هذا الحادث إحساساً بالمرارة بين الباقين من أشقاء خالد الذين أصبحوا أكثر قرباً إلى أخوالهم وخالاتهم، آل الرشيد. ونظر أشقاء خالد إلى اغتيال أخيهم على أنه عمل غير مبرر، بل جريمة ارتكبها ذووهم من ناحية الأب ونفذها عمهم الملك فيصل نفسه. وكان هذا الحادث سيطويه النسيان لو لم يظهر على السطح في عام ١٩٧٥ باغتيال الملك فيصل على يد شقيق خالد، الأمير فيصل بن مساعد.

ففي ١ نيسان/ابريل ١٩٧٥ أعلنت الاذاعة السعودية أن الملك أُغتيل في مجلسه على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد الذي دخل شأنه شأن غالبية الأمراء السعوديين بهدف السلام على الملك. وإذ لم يكن هؤلاء الأمراء يتعرضون إلى التفتيش على بوابات القصر الملكي فقد تمكن الأمير فيصل من الدخول ومعه مسدس صغير. وما ان التقى الملك حتى أطلق عليه ثلاث رصاصات أدت إلى مصرعه على الفور. وقام حرس القصر الملكي باعتقال الأمير فيصل في الحال. ولم تأت البيانات الرسمية السعودية وقتذاك حتى على ذكر مقتل شقيق القاتل بالرصاص على أيدي الشرطة السعودية في عام ١٩٦٥. وبدلاً من ذلك جمعت وسائل الاعلام سيرة حياة للأمير فيصل بن مساعد تصوره شاباً أهوج عاش حياة من الانغماس في الملذات في الولايات المتحدة حين كان طالباً في جامعة كولورادو. كما زعمت البيانات الرسمية السعودية أن احتمال أن يكون القاتل مختلاً عقلياً ينبغي أن لا يُستبعد.

وضع الأمير فيصل في السجن حيث جرى التحقيق معه لمعرفة دوافعه وما إذا كان يعمل بالتعاون مع آخرين. وأعلنت الحكومة السعودية بعد شهر أن الجريمة كانت عملاً محسوباً قام به رجل واحد وأن الأمير فيصل عاقل ومسؤول عن أعماله. ومثل أمام محكمة اسلامية أمرت بإعدامه في احدى الساحات العامة في الرياض (مجلة «تايم» ٧ و١٤ نيسان/ابريل ١٩٧٥). وكان الأمير فيصل ثاني ابن من أبناء وطفاء يقتله أقاربه من ناحية الأب. وسجن ابنها الباقي، الأمير بندر لمدة عام ثم أفرج عنه. وهو يعيش الآن في العربية السعودية.

ورغم نتائج التحقيقات السعودية التي أكدت أن الأمير فيصلاً كان يعمل بمفرده، قامت المخابرات السعودية باستجواب أخواله من آل الرشيد. وسُجن أحد أخواله، وهو متعب، لمدة عام دون محاكمة. فأثار هذا غضب أفراد آخرين من آل الرشيد نجحوا في الضغط على الحكومة لاطلاق سراحه. وأُفرج عن متعب بعد أن ثبتت براءته. وما لبث أن غادر البلاد مع أسرته وطلب اللجوء السياسي في العراق حيث يعيش الآن مواطناً عراقياً. كما قامت الشرطة في ذلك الوقت باستجواب خال الأمير فيصل الآخر، طلال، ورغم أنه لم يُسجن فقد كانت تحركاته في الرياض تحت مراقبة شديدة. وغادر هو أيضاً العربية السعودية في صيف ١٩٧٥. وتلقى طلال في السنوات الأخيرة دعوات كثيرة للمصالحة مع الحكومة السعودية. وتحققت هذه أخيراً في عام ١٩٨٨ وعاد طلال في زيارة قصيرة للعربية السعودية. وليس معروفاً على وجه التأكيد ما إذا كان سينتقل للعيش في البلاد بصورة دائمة.

في هذا العرض تناولتُ تجارب آخر حكام حائل والمتحدرين من ذريته في الرياض. فإن أفراداً آخرين من آل الرشيد أُجبروا أيضاً على الاقامة في عاصمة ابن سعود لم يتعرضوا إلى القيود نفسها. وهناك اليوم أربعة فروع من عائلة آل الرشيد تعيش في الرياض، وهي الطلال والمتعب والعبيد والجبر.

ويتألف الفرع الأول من المتحدرين من ذرية عبد الله بن رشيد، مؤسس الامارة. والطلال هم أبناء وأحفاد آخر حكام حائل، محمد بن طلال. ولا يعيش طلال ومتعب، ابنا محمد، الآن في العربية السعودية كما ورد ذكره آنفاً. ولكن بعض أبنائهم، أي أحفاد محمد، عادوا للبحث عن عمل. ورغم أن عدداً منهم تلقوا تعليمهم في الخارج ويحملون شهادات جامعية فإن أحداً منهم لم يتمكن من

ايجاد عمل دائم في البلاد. وتقدم أحد أحفاد محمد للعمل مدرساً في جامعة الرياض حيث رفض طلبه. ولعل شكوك السعوديين وعدم ثقتهم هي الأسباب التي حالت دون حصوله على الوظيفة. وجرب أحفاد آخرون حظهم في الأعمال الحرة دون أن يتمكنوا من شق طريقهم حتى في مجال بعيد عن السياسة أو التعليم. ويتلقى الطلال رواتب شهرية قليلة (في المتوسط ٥٠٠٠ ريال سعودي للذكور و١٠٠٠ ريال سعودي للإناث) من الحكومة شأنهم شأن غالبية العوائل في العربية السعودية التي ارتبطت بالفئة الحاكمة السعودية عن طريق الزواج.

الفرع الثاني، المتعب، أيضاً متحدرون من مؤسس الامارة. وكان عدد من أجدادهم قد أمسكوا مقاليد السلطة في حائل في أوائل القرن العشرين مثل سعود ابن رشيد (١٩١٠ ـ ١٩٢٠) وعبد الله بن متعب (١٩٢٠ ـ ١٩٢١). وهاجر أحد أبناء سعود بن رشيد، واسمه أيضاً سعود، إلى العراق في الأربعينات وعاد للعيش في العربية السعودية قبل ثماني سنوات. ويتسلم المتعب الآن رواتب شهرية من الحكومة. ولكن ما من أحد منهم يشغل منصباً حكومياً. فإن المتعب، شأنهم شأن أبناء عمهم الطلال، حُرموا من الفرص الكثيرة المتاحة في العربية السعودية.

العبيد هم المتحدرون في أصلهم من عبيد بن رشيد، شقيق مؤسس الامارة. ولم يتبوأ العبيد منصب الأمير في حائل الا لفترة قصيرة (١٩٠٧ ـ ١٩١٠). وجميعهم يعيشون في العربية السعودية. وعلى غرار العبيد كان الفرع الرابع من عائلة آل رشيد، وهم الجبر، هامشيين سياسياً في حائل. وبالتالي فإنهم عندما استقروا في الرياض لم يتعرضوا إلى القيود أو السجن.

عموماً يبدو أن آل رشيد احتفظوا بقدر من النفوذ في العربية السعودية رغم استبعادهم من تبوُّؤ أي مناصب حكومية رسمية. وهم جزء من شبكة الزواج التي أقامها آل سعود مع مجموعات قبيلة مختلفة في البلاد. وعلى المرء أن يتذكر أن لولي العهد الحالي أُماً شمّرية. يضاف إلى ذلك أن الزيجات المختلفة التي عقدها ابن سعود وأبناؤه مع نساء من آل الرشيد غذت نشوء علاقات قرابية جمعت بين الطرفين. ورغم تأثر آل الرشيد سلباً ببعض هذه العلاقات، وخاصة في حالة زواج وطفاء واغتيال أبنائها، فإن هذه الزيجات أتاحت لهم امكانية التداخل مع شبكة واسعة من الأمراء السعوديين. وكانوا قادرين على ممارسة بعض النفوذ من خلال استخدام هذه الشبكات. وإذا لم يكن نفوذهم قوياً بما فيه الكفاية للحيلولة

دون سجن أحد أفرادهم في عام ١٩٧٥ فإنهم نجحوا في الضغط على الحكومة للإفراج عنه. كما أن اتصالات الحكومة مع آل الرشيد في الخارج وموقفها التصالحي تثبت أنهم ليسوا مجردين تماماً من القوة. فلقد أُدخل آل الرشيد، شأنهم شأن غالبية المجموعات القبلية في العربية السعودية، في نظام المحسوبية الذي احتضنته الدولة.

نظام المحسوبية

وُصِفت العربية السعودية بأنها دولة قبلية حيث تملك الدولة عائلة منظمة كقبيلة (ف. خوري F. Khouri ١٩٨٠). وتشبه العائلة المالكة السعودية قبيلة ذات أقسام وفروع متعددة. وتتألف العائلة اليوم من أبناء وأحفاد عبد العزيز بن سعود. ولعل ابن سعود تزوج ٤٠٠ امرأة فأصبح لديه نتيجة ذلك ٤٣ ابناً (دكسن Dickson ١٩٥١ : ١٦٢ ور. ليسي R. Lacey ١٩٨١). وجعل الانفجار السكاني داخل العائلة السعودية من الصعب أن يكون الجميع مشاركين في السياسة أو الحكومة. فإن القرارات السياسية والاقتصادية الكبيرة تتخذها حلقة محدودة من الاخوة، أبناء ابن سعود الكبار، يساعدهم وزراء معينون.

لقد نشأت الدولة المركزية السعودية الحديثة ببيروقراطيتها المتطورة جزئياً وقاعدتها الاقتصادية وتحديثها التكنولوجي، خلال فترة امتدت خمسين عاماً. وفي عام ١٩٣٢ عندما أعلن عبد العزيز بن سعود نفسه ملكاً وأصبحت البلاد تعرف باسم المملكة العربية السعودية، فإن الدولة التي سعى إلى إقامتها ربما كانت تبدو قطيعة مع نظام الحكم التقليدي الذي وُجد منذ قرون في الجزيرة العربية وتمثّل في إمارة آل الرشيد. ولكن العلاقات السياسية في ذلك الوقت بين ابن سعود والقبائل المقهورة ومَنْ كانوا سابقاً أصحاب سلطة ظلت قائمة إلى حد بعيد على فرضيات السياسة القبلية. وكان هذا يصح على الدولة السعودية حتى اكتشاف النفط في الأربعينات. فإن الثروة المتحققة من النفط مكّنت ابن سعود ثم خلفاءه الذين ورثوه من مركزة سلطاتهم وإيجاد بيروقراطية حكومية (ج. كوستينر J. Kostiner ١٩٩١).

واليوم فإن الحكومة السعودية، أي العائلة المالكة مؤلفة من الملك والأمراء، تحكم من خلال المحسوبية. إذ أن العائدات النفطية الضخمة وتوزيع الثروة توزيعاً غير متساوٍ في البلاد تتيح للحكام أن يقوموا بدور الرعاة. وفي هذا المجتمع، بدلاً

من فرض ضرائب على النشاطات المنتجة لمواطنيها تصبح الحكومة والفئة الحاكمة مانحين في دولة من دول الرفاهية. ويُعتقد أن هذه خصيصة من الخصائص الرئيسية لما يسميه ديفيز «المجتمع الهيدروكربوني» (ج. ديفيز J. Davis ١٩٨٧). وحيث يحصل الأمير (عاهل أو أفراد العوائل الملكية من الرجال) على أكثر من ٩٠ في المئة من دخله بضرائب على انتاج النفط، فإن أساس السياسة يتغير (المصدر السابق: ١٦). وفي العربية السعودية، كما في مجتمعات هيدروكربونية أخرى (مثل ليبيا والكويت) تكون القطيعة الأكثر أهمية مع الماضي، على مستوى السياسة، حقيقة أن الأمير اليوم لا يحتاج إلى أي اتفاق بين مواطنيه. ويجادل ديفيز بأن الأمير الهيدروكربوني يمكن أن يخفي حجم عائداته، ويمكن أن لا يميز بين الخزينة والجيب، ويمكن أن يكافئ شلة محدودة وخاصة، عائلة، مجموعة تنتمي إلى أصله، دون أي محاسبة عامة (المصدر السابق: ١٨). ويعمل نظام المكافآت في هذا المجتمع وفق قواعد المحسوبية. وفي القسم التالي سأصف كيف تنشأ علاقات المحسوبية بين أفراد الفئة الحاكمة السعودية والمحاسيب الذين يشكلون قطاعاً كبيراً من المجتمع السعودي اليوم. ويقوم هذا الوصف على ملاحظة الطريقة التي أُدخِل بها بعض أفراد عائلة آل رشيد في شبكة المحسوبية خلال السنوات الخمس عشرة الماضية.

في العربية السعودية تنطوي المحسوبية على اقامة علاقة غير متساوية بين راع، هو عادة أمير سعودي، ومحسوب، كثيراً ما يكون وجيهاً من الوجهاء أو صاحب سلطة سابقاً أو شيخ قبيلة. ويكون للامساواة في العلاقة أساس اقتصادي وسياسي وليس أساساً اجتماعياً. إذ يمتلك الراعي موارد أكبر مما يمتلكه المحسوب. وفي غالبية الحالات يكون معاشه (راتبه أو تقاعده الشهري) من الحكومة أكبر بكثير مما يتقاضاه المحاسيب. ومعاش الراعي لا يُدفع عادة نتيجة عمل في دوائر الحكومة. فالأمراء السعوديون كلهم يتقاضون رواتب بصرف النظر عما إذا كانوا يعملون للحكومة. يضاف إلى ذلك أن الأمير غالباً ما يكون قادراً على زيادة ثروته من خلال العمل وسيطاً بين الحكومة والشركات الأجنبية. وبعض الأمراء ينظمون عقوداً بين الحكومة وهذه الشركات يحصلون بنتيجتها على عمولة كبيرة. وعلى المستوى السياسي يتمتع الأمير بسطوة أكبر من محسوبه. ورغم أن بعض الأمراء السعوديين أقوى من البعض الآخر ويشاركون في صنع القرارات فإن لدى غالبيتهم درجات متفاوتة من النفوذ.

ويرتبط المحاسيب عادة بأمراء مختلفين بوصفهم «خوي» (خلان). فهم يحضرون مجلس الأمير ويأكلون معه، وبعض «الخويين» يرافقون الأمراء في السفر خارج البلاد. ويصبح المحاسيب جزءاً من حاشية الأمير. ورغم أن الفوارق الاقتصادية والسياسية بين المحسوب والأمير فوارق واضحة فإن الحدود، اجتماعياً، مبهمة ويصعب رسمها. ومن حيث السمعة يتمتع بعض المحاسيب في الحقيقة بمكانة عالية كأفراد قبائل نبيلة أو أمراء سابقين وشيوخ. ويعتبرهم الأمير والمجتمع بصفة عامة أبناء فئة ذات مكانة متميزة. ومكانة المحسوب العالية أصلاً تتيح له إمكانية الوصول إلى الأمير. ومن دون هذه المكانة سيجد المحسوب من الصعب الارتباط بالأمير ومجالسته وإقامة علاقة حميمة معه. ومن نواحٍ عديدة يمكن القول إن المحسوب يتمتع بمكانة مماثلة لمكانة الأمير.

ولأن الأمير يكون عادة ثرياً ومتنفذاً سياسياً فلعل من الواضح كيف يصبح راعياً. ولكن كيف يصبح أحد ما محسوباً فإن هذه عملية تنطوي على عوامل هامة. أولاً، أن علاقات الراعي ـ المحسوب يمكن أن تنشأ نتيجة روابط مصاهرة مع الأمير. إذ أن تعدد الزوجات يسفر عن نشوء تجمعات بين اخوة وأخوات غير أشقاء كثيراً ما لا تكون بينهم الوحدة التي توجد بين الأشقاء والشقيقات. ويجد أمراء أنفسهم بعيدين عن ذويهم من ناحية الأب وعن أخوتهم غير الأشقاء ويكونون في الوقت نفسه أقرب إلى ذويهم من ناحية الأم. وليس من الغريب أن نجد بين محاسيب الأمير خالاً أو قريباً من ناحية الأم أو حتى فرداً بعيداً من أفراد قبيلة الأم. كما يمكن إقامة شبكات من الرعاة والمحاسيب عن طريق الزواج. وعادة تكون لأفراد عائلة زوجة الأمير فرصة طيبة في دخول شبكة المحسوبية لدى الأمير.

ثانياً، يمكن لصداقة الطفولة المبكرة أن تكون أساس المحسوبية. فقبل تحديث الرياض تحديثاً حضرياً، وهي عملية لم تبدأ الا قبل ثلاثة عقود، كان الأمراء السعوديون الصغار يختلطون مع الأطفال الآخرين في شوارع المدينة وأزقتها. وكثيراً ما يسمع المرء تعليقات من قبيل أن فلاناً الفلاني كان يلعب مع حاكم الرياض حين كانا صغيرين. وهذه التعليقات مثيرة للاهتمام لأنها تكشف كيف أصبح فلان الفلاني من محاسيب الحاكم نفسه. واليوم تميل الصداقات إلى أن تنشأ في المدارس داخل البلاد أو في الخارج حيث يُرسل أمراء لتلقي تعليمهم

العالي والحصول على شهادات جامعية. ويميل أصدقاء الطفولة إلى أن يكونوا محاسيب كباراً.

ثالثاً، لدخول شبكة المحسوبية يتعين على المرء أن يمتلك مهارات كلامية وقدرات اجتماعية معينة. فعلى المحسوب أن يكون بليغاً ومتحدثاً مُلمّاً وأنيساً إلى جانب كونه مرناً وصبوراً. ويكون الإخلاص والسرية موضع اعجاب عادة لدى المحسوب لأن الاحتمال كبير في أن يصبح مطلعاً على تفاصيل خاصة في حياة الأمير.

ان المحسوبية في المجتمع السعودي آلية متعددة الوظائف. وهي، في المقام الأول، تغذي نشوء علاقات اقتصادية بين أطراف غير متكافئة. ويقوم الأمير بدور المانح. فهو يمكن أن يوزع هبات نقدية فيما يمكن في أحيان أخرى أن يساعد في تخصيص عقارات وأراضٍ. كما أنه يستطيع أن يمنح موافقته على عقد أو صفقة يظفر بها أحد المحاسيب. وتصبح المحسوبية هي الاداة لتقاسم الثروة الطائلة المتاحة للأمراء.

كما أن لهذا الشكل المحدد من المحسوبية أفضلية الايهام بوجود مشاركة سياسية. فحين يجد المحاسيب أنفسهم في مجالس أمراء متنفذين يحتلون مواقع عليا في الحكم، تكون لديهم فرصة الوصول إلى الحكومة نفسها لأنهم أحياناً يبدون آراء ووجهات نظر سياسية حول قضايا راهنة.

رابعاً، أن لهذا النوع من المحسوبية مقدرة على تشتيت المعارضة السياسية. فنتيجة لنمو شبكات واسعة من المحسوبية يصبح أمراء البلد على اختلافهم مطلعين على قطاع واسع من المجتمع يجنح إلى أن يكون من عوائل وقبائل هامة ووجهاء كبار. ويقيم هؤلاء الأمراء مع المجتمع الأوسع علاقات مُشَخْصَنَة تخلق من نواحي عديدة ارتباطات وأواصر. وهذه الارتباطات تجعل من الصعب التعبير عن أي معارضة سياسية منظمة، وخاصة بين الدائرة الواسعة من المحاسيب وأقاربهم وعوائلهم.

خامساً، ان السمعة جانب هام آخر من جوانب المحسوبية، للأمير ولمحسوبه على السواء. فالأمير ينال سمعة إذا كان عدد من محاسيبه شيوخاً محترمين أو أمراء قبائل أصيلة. فالمجتمع السعودي ما زال يتمسك بالعرف القبلي الذي يؤكد على

أهمية الاصالة والنسب. وإذا كانت حاشية الأمير من أفراد قبائل كانت في الماضي واسعة النفوذ والسطوة، يميل هذا إلى تعزيز موقعه في الحكم. وستعامله مجموعته ذاتها باحترام لأن من الممكن اعتباره حلقة الوصل بين الحكم ومحاسيبه. والمحسوب أيضاً يكسب سمعة من رؤيته في مجلس الأمير حيث يُعامل بمودة. وتزداد سمعته وقوته بين عائلته وقبيلته عندما يصبح الوسيط بين مجموعته والحكم. ويُنتَظر منه أن يلفت عناية الأمير إلى قضاياها. ويُنظر إلى صلاته بالحكم على أنها تسرِّع في انجاز المعاملات الخاصة بطلبات الحصول على جوازات السفر والجلسات القضائية للمحاكم والسكن والعلاوات وخدمات مختلفة من الحكومة. وعموماً يكتسب المحسوب، نتيجة انخراطه في شبكة المحسوبية، أساساً جديداً للسمعة ينبع من القدرة على التوسط لدى جهاز بيروقراطي حكومي لا مشخصن، مكشوف للاستغلال والتلاعب.

وعلى العموم أصبح نظام المحسوبية الوسيلة التي تؤدي الحكومة والمجتمع وظائفهما ويعملان من خلالها. ويتيح هذا النظام ممارسة رقابة قصوى على السكان المرتبطين من خلال علاقات مشخصنة بنخبة سياسية بعيدة لولا هذه العلاقات. وهو يتيح توزيع جزء من الثروة في غياب القنوات النظامية المتمأسسة. ومَنْ ينجحوا في دخول شبكة المحسوبية يفيدوا من خدمات مختلفة وأشكال من الدعم والمعاملة التفضيلية. وتتكون لديهم مصلحة خاصة في استمرار النظام وتكريسه. ولكن البقاء بلا راع في البلد عائق يؤثر في كل ناحية من نواحي الحياة. ولأن هذا النظام غير رسمي ويعتمد على عوامل متعددة فلا بد له أن يُبقي البعض خارج الشبكة. ومَنْ يختاروا أن لا يكونوا جزءاً من الشبكة يجدوا أنفسهم عاجزين في مجتمع من الصعب العمل فيه بلا راعٍ.

الفصل الحادي عشر

خلاصات

يتيح لنا استطلاع السياسة الاقليمية في وسط الجزيرة العربية ابان القرن التاسع عشر الخروج بخلاصتين. الأولى تتناول تعقيد البنى السياسية في الجزيرة العربية قبل تكوين الدولة السعودية الحديثة. والثانية تعالج العلاقة المتبادلة بين هذه السياسة الاقليمية والاطار التاريخي العام للقرن التاسع عشر.

التعقيد الاقليمي

صحيح أن وسط الجزيرة العربية (نجد) كان يتسم بغياب الدولة المركزية التوحيدية. وصحيح أيضاً أن سكان هذه المنطقة من الجزيرة العربية كانوا يعيشون قبائل متنقلة في الصحراء. ورغم صعوبة اعطاء تقديرات دقيقة عن السكان البدو الذين كانوا يعيشون حياة كهذه، هناك اتفاق عام على أن بعض القبائل كانت بدوية وظلت تعيش حياة البداوة حتى عهد قريب. والثابت أيضاً أن وسط الجزيرة العربية كانت له قبائله المتوطنة التي لم تكن تتنقل في الصحراء لكنها احتفظت بدرجة من التنظيم القبلي. وكانت الجماعات الحضرية تقطن واحات ومدن نجد حيث تُصنع السياسة، كما تبين حالة إمارة حائل ودراسات على مدن أخرى في الجزيرة العربية (التُركي Altorki وكول Cole ١٩٨٩). لذا من الخطأ الافتراض أن التاريخ المحلي لوسط الجزيرة العربية كان حتى القرن الحالي محكوماً بمجموعات متنقلة لا تعرف سوى الحرب والسلب.

ولعل القالب النمطي الذي يصف تاريخ نجد بأنه معركة أبدية بين قبائل بدوية عدوانية وسكان واحات سلبيين، نابع من الثنائية الجامدة غير المبرَّرة التي تقام بين البدو والسكان المتوطنين، أي بين البدو والحضر. وكما جادلتُ، فإن هذه

الثنائية تقسم السكان إلى مجموعتين متميزتين ولكنهما ليستا بالضرورة معزولتين عن احداهما الأخرى. فإن الفارق بين البدو والحضر هو، في المقام الأول، فارق ثقافي يتعلق بهوية الأفراد وصورتهم الذاتية. وكان التفاعل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي العميق بين المجموعات الحضرية والبدوية يغذي نشوء بنى سياسية مستقرة نسبياً في المنطقة.

وحين نثبِّت أن السياسة في وسط الجزيرة العربية كانت تصنع في الواحات، يتعين علينا الإقرار بأنه كان لهذه السياسة، أحياناً، عمق في الصحراء. وعندما نمت زعامة مركزية وازدهرت في واحات عديدة، كان بعض أمراء الواحات يستمدون مشروعيتهم وقوتهم من الصحراء، أي من القبائل البدوية. ولم يكن هذا يصح على كل سلالة أو امارة في وسط الجزيرة العربية. فإن السلالة السعودية ـ الوهابية الأولى والثانية (الفصل الثاني) وإمارة عُنيزة (التركي Altorki وكول Cole ١٩٨٩) والسلالة الشريفية الهاشمية في الحجاز (العمر Al Amr ١٩٧٤) كانت تفتقر إلى دعم قبيلة بدوية قوية واحدة. وعلى النقيض من ذلك، كانت امارة آل الرشيد حالة فريدة في وسط الجزيرة العربية، حيث ارتبطت زعامة تقيم في الواحة، من البداية، بدعم قبيلة واحدة. وهذه الخصيصة الهامة جعلت السياسة في حائل تختلف عنها في واحات أخرى لأنها أثرت في كل جانب من جوانب البنية السياسية وحددت آفاق السلالة في الاستقرار والتوسع.

لقد جمعت امارة آل الرشيد بين المركزية السياسية والاستقلالية القبلية. وسعى أمراء حائل إلى اقامة دولة مركزية من أجل الاستئثار بحماية الطرق التجارية. وتحقق هذا من خلال التوسع الاقليمي. وتعين التوفيق بين حكم الامارة والاستقلال القبلي. وتبدى هذا التوفيق في تعايش الأمراء والشيوخ. وكان هناك اعتراف متبادل يكمن بالأساس في أن احدى الزعامتين لا يمكن أن تتجاوز على دائرة نفوذ الأخرى. ولا يمكن للأمراء أن يمارسوا الإكراه مع الشيوخ الذين يسيطرون وعشيرتهم سيطرة تامة على مواردهم البشرية. ولنيل موافقة العشائر ودعمها لم يكن بوسع الأمراء سوى شراء ولائها.

وكانت الثروة في حائل تتحقق من السيطرة على شبكة القوافل التي تربط بلاد النهرين وبلاد فارس والهند والخليج بالمدن الكبيرة في وسط الجزيرة العربية والحجاز. وأن موقعها الاستراتيجي متضافراً مع ظهور زعامة مركزية في الواحة

أتاح لهذه الزعامة أن تحتكر حماية الطرق التجارية. والسيطرة على التجارة مكنت الأمراء من فرض اتاوات على قوافل التجارة والحج التي كانت في غالبية الحالات تسافر معاً على الطرق نفسها. وفي مرحلة لاحقة أخذ الأمراء يرسلون قوافلهم الخاصة. وكان العائد المتحقق من التجارة يوظف في تقديم أشكال من الدعم لشيوخ العشائر، وهي آلية تضمن ولاءهم ومؤازرتهم. كما أن العائدات المتحققة من التجارة أتاحت للأمراء أن يستثمروا في وسائل إكراه جديدة.

وأقيم جهاز عسكري كان يُرفَد في البداية من شمّر ولكنه أصبح فيما بعد مستقلاً عنها. وبدأ الأمراء يستثمرون في بناء قوة عسكرية ثابتة ودائمة، مستقلة عن التحالفات القبلية المتغيرة. وكانت هذه خطوة هامة في تاريخ الامارة لأنها كانت تنطوي على قطيعة بنيوية وتنظيمية مع النظام التقليدي. وبهذه القوة العسكرية مضى الأمراء أبعد من فتح حائل. وقاموا بتوسيع مُلكهم ثم الدفاع عنه لاحقاً. كما أنهم استحدثوا قوة شرطة تتألف من بدو متوطنين وعبيد للسهر على مصالح الامارة، وبالدرجة الرئيسية حماية السوق في حائل وتنفيذ الأوامر والتوجيهات ومعاقبة المجرمين.

بالاضافة إلى القوة الاقتصادية والعسكرية استخدم أمراء آل الرشيد قوة الشعر النبطي لصنع التاريخ. فقد وُجِد الشعر النبطي دائماً في الجزيرة العربية بوصفه وسيلة فعالة للتواصل في الحياة السياسية والاجتماعية. وفي سياق إمارة مُمَرْكِزة اكتسب الشعر النبطي قوة اذاعة الصيت ونشر الهيمنة. وكان الأمراء أنفسهم شعراء يوثقون خبراتهم وخبرات قبيلتهم. ويشير شعر الفترة إلى أحداث تاريخية هامة ونزاعات قبلية وتجارب شخصية وانتصارات وهزائم. ومن هنا يكون الشعر مصدر معلومات أساسياً يكشف عن جوانب عديدة تتعلق بالتراث والقيم واهتمامات الناس في ذلك الوقت. وقبل كل شيء، كان شعر آل الرشيد احدى الوسائل التي استخدموها لتوطيد سلطتهم.

وبالقدر نفسه استُخدم الزواج استراتيجيةً سياسيةً. وقد كشف تحليل زيجات الأمراء أن الجمع بين عدد من استراتيجيات الزواج يعكس تنوع العلاقات السياسية وتعقيدها في الامارة. إذ جرى الجمع بين الممارسة الراسخة للزواج اللحمي (بما في ذلك الزواج اللحمي من داخل البيت ومن الحمولة ومن القبيلة) وعدد من الزيجات الخارجية التي، رغم ضآلتها احصائياً، كانت في الحقيقة ذات أهمية سياسية

واستراتيجية بالغة. وتصبح زيجات الأمراء مفهومة لدى تحليلها ووضعها في سياقها السياسي الصحيح.

ان النظر في دراسة حالة واحدة لا يتيح لنا اطلاق تعميمات واسعة حول طبيعة السلالات القبلية في العالم وأصلها وخصائصها وتطورها. ولكني في متن هذا الكتاب برمته ألفتُ الانتباه إلى وجود بنى سياسية معقدة ومتباينة في وسط الجزيرة العربية. وقد تبلورت أشكال أخرى من المركزية السياسية بصعود الحركة الوهابية واعتناق السعوديين لها. وسيقودنا العرض المفصل للكيانات السياسية المختلفة إلى وضع ثنائية الدولة والمجتمع الذي لا دولة له موضع تساؤل. ففي القرن التاسع عشر لم تكن لدى وسط الجزيرة العربية سلطة دولة مستمرة ولكن كانت فيه مع ذلك أشكال حكم مختلفة، بعضها مركزي وبعضها الآخر أقل مركزية. وتعايشت أصناف مختلفة من الزعامة والأمراء والأئمة والشيوخ، وتنافسوا فيما بينهم. وكانت هناك فترات من الاستقرار والتنافس والصراع. وكانت المركزية واللامركزية عمليتين متساوقتين. وكان التقلب في السلطة السياسية خصيصة عميقة الجذور من خصائص كل الكيانات السياسية في المنطقة.

لا يمكن اعتبار عدم الاستقرار في ماضي الامارات والزعامة السياسية في وسط الجزيرة العربية، سمة سلبية، أو خصيصة تكرس القالب النمطي لما يسمى «قبائل عاصية وعصية على الحكم». فإن التقلبات في سلطة الأمراء وصعود الامارات وسقوطها كانت صفات ايجابية تتّبع دورة متكررة يطاح فيها حكام وتصعد امارات وتسقط إمارات ويعاد رسم الحدود السياسية في مجرى السعي إلى التغيير السياسي على مستوى الزعامة بالدرجة الرئيسية. وكان عدم استقرار البنى السياسية كابحاً على ممارسة السلطة. فلقد كان من الممكن اطاحة الحكام الدكتاتوريين والظالمين واستبدالهم. وكان هذا النظام عاملاً إلى أن جرى تجميده بتأسيس الدولة السعودية الحالية. والآن فإن تجميد النظام السياسي نتيجة تدخل قوى خارجية والتحديث ترك العربية السعودية بلا نظام يؤمّن حدوث تغييرات سياسية وتغييرات في الزعامة. وفقدت البلاد ديناميتها السابقة وفي المقام الأول قدرتها المحلية على التغيير السياسي.

يتيح لنا تحليل امارة آل الرشيد إعادة النظر في بعض الافتراضات الراسخة بأن تكوين الدولة في الجزيرة العربية بدأ بمحاولة ابن سعود توحيد الجزيرة العربية

في أوائل القرن العشرين. فإن وسط الجزيرة العربية لم يكن ساحة فوضى وحروب قبلية بل أفرز بنى اقتصادية وعسكرية وسياسية تعكس خصوصية المنطقة بوصفها مجالاً ثقافياً. ولكن خصوصية هذه المنطقة ليست ناجمة عن عزلة جغرافية. ورغم أن وسط الجزيرة العربية لم يكن قط جزءاً مندمجاً من الأمبراطورية العثمانية فإنه زُجَّ مع ذلك في مضمار السياسة الدولية. وكانت سياسته الاقليمية متداخلة مع تطورات تجري في أماكن أخرى. ونتيجة لذلك بُحث ظهور امارة آل الرشيد في سياق السياسة العثمانية في القرن التاسع عشر.

السياسة الاقليمية والدولية

لا يمكن دراسة التطور السياسي الاقليمي في وسط الجزيرة العربية بمعزل عن المناطق الأخرى. فرغم أن نجداً كانت طَرَفية جغرافياً واقتصادياً ازاء المراكز الكبيرة للهيمنة العثمانية، لكنها كانت قريبة بما فيه الكفاية من اقليم من أهم اقاليم الأمبراطورية، وهو الحجاز. ولم تكن لدى وسط الجزيرة العربية ثروة اقتصادية كبيرة لاجتذاب الباب العالي العثماني. لكنه أنجب ايديولوجية منافسة سببت قلقاً بالغاً للعثمانيين. إذ أن الدعوة الوهابية وتوسع الامارة السعودية الأولى في أواخر القرن الثامن عشر إلى أقاليم الأمبراطورية الأكثر حيوية، هددا استقرار المنطقة. وأطلق هذا سلسلة من التدخلات لتطويق الخطر الذي مثلته الوهابية. وفي أوائل القرن التاسع عشر أقام الزعماء السياسيون المحليون صلة بمسؤولي الباب العالي وولاته. ورغم أن الأخيرين لم يقيموا قط قاعدة دائمة في وسط الجزيرة العربية فإنهم استمروا في الاتصال بالسكان وزعامتهم من المناطق المجاورة. وفتحت قنوات الاتصال هذه أبواباً جديدة لمزيد من التدخل وأشكال من الدعم والمناورة. وحين بدأ العثمانيون يدركون العبث وربما الصعوبة الكامنة في ممارسة سيطرة مباشرة على وسط الجزيرة العربية، تحولت سياساتهم نحو اقامة سيادة اسمية لا أكثر على المنطقة. ولكن طيلة القرن التاسع عشر كانت سياساتهم ازاء القبائل والقوى المختلفة تتذبذب بين التدخل العسكري المباشر والحكم غير المباشر.

وسواء مارست حكومة مركزية حكماً مباشراً أو غير مباشر في المناطق التي تدعي السلطة عليها فإن تفاعلها مع الشخصيات السياسية المحلية يكون مسؤولاً عن الكثير من التغيرات الاقتصادية والسياسية على المستوى المحلي. وفي حالة إمارة آل الرشيد، أطلقت العلاقات مع الحكومة العثمانية بالفعل بعض العمليات التي لا

يمكن أن تفهم من دون الاشارة إلى تأثير العوامل الخارجية. فإن العثمانيين، لكسب ولاء الأمراء، دعموهم بالمال والسلاح والعتاد ومواد أخرى مختلفة. وكان يراد بأشكال الدعم والمعونات هذه تمكين الأمراء من ممارسة سيطرة أكبر على اتباعهم القبليين. ونتيجة لذلك أوجد التدخل العثماني الوسائل الكفيلة بنشوء تمايز أكبر بين الأمراء ورعاياهم. ولم يعد الأمراء شيوخاً قبليين ذوي موارد محدودة لأن قسماً كبيراً من عائداتهم أخذ يتحقق الآن من خارج الاقتصاد المحلي.

في القرن العشرين بدأ وسط الجزيرة العربية ينجر إلى الصراع بين الأمبراطورية العثمانية والحكومة البريطانية. ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى اشتدت المصالح الأجنبية في المنطقة احتداماً. وفي بحث مستميت عن مؤيدين محليين بدأت بريطانيا تفتش في المنطقة عن حلفاء يمكن أن يزعزعوا أركان الأمبراطورية العثمانية من الداخل. وقد عثروا على قليل من المؤيدين مثل ابن سعود وشريف الحجاز اللذين قدمت لهما خدمات ودعومات مختلفة مقابل ولائهما. وأخلّت هذه التدخلات الجديدة بالتوازن في وسط الجزيرة العربية بين مجموعاته المتنافسة المحلية.

وتأثرت الشؤون السياسية في وسط الجزيرة العربية بصراع القوى الدولية وحسمه الذي أسفر عن خروج بريطانيا منتصرة بعد الحرب. وكان النصر في نجد من نصيب الذين تحالفوا مع بريطانيا. ولم تصمد إمارة آل الرشيد أمام التغيرات المتسارعة التي كانت تحدث وقتذاك. وتعثرت نتيجة تدخل فاعلين جدد على الساحة الدولية. ولأن عوامل خارجية صاغت البنية السياسية للامارة، فإن سقوطها، بالاضافة إلى كونه نتاج خصائصها الداخلية المحدَّدة، كان إلى حد بعيد نتيجة عوامل خارجية. وعلى الغرار نفسه تأثر تأسيس الدولة السعودية الحالية بالتدخل الخارجي في المنطقة.

وحين أقيمت الدولة السعودية في عام ١٩٣٢ كانت تشبه إلى حد بعيد المشايخ أو الامارات القبلية التي عُرفت في الجزيرة العربية منذ قرون. وكانت الدولة تفتقر في ذلك الوقت إلى البنى التحتية الاقتصادية والبيروقراطية والتكنولوجية التي كانت ستمكنها من التحول إلى نظام سياسي مركزي يعمل بكفاءة. وبالعائدات النفطية وحدها كانت الدولة السعودية الحالية قادرة على تقويض استقلال القبائل واحتواء مَنْ كانوا في السابق أصحاب سلطة في الجزيرة

العربية على اختلافهم احتواء كاملاً. وبدأت الدولة تعمل من خلال نظام محسوبية مشَخْصَن ونجحت في تحقيق المركزية السياسية على حساب المشاركة السياسية. ونتيجة لذلك ازداد تهميش مَنْ كانوا في السابق أصحاب سلطة مثل أمراء آل الرشيد. وما إذا كانت الدولة السعودية الحالية ستبقى كما هي أو تتكيف مع الظروف الجديدة التي أوجدتها بنفسها فإن هذا سؤال ربما ستجيب عنه أحداث المستقبل وأبحاثه.

الهوامش

١ ـ الارض والبشر

(١) تظهر كلمة «شمر» في بعض النصوص الأسطورية على أنها اسم ملك من جنوب الجزيرة العربية بين قبائل اليمن. ويأتي م. رودنسون على ذكر الأسطورة في كتابه عن حياة النبي محمد:
«نشأت سلسلة من الأساطير حول أمجاد الملوك القدماء، ناقلة حقائق تاريخية ومشوهة اياها ومبالغة فيها. وهكذا فإن الملك شمر الذي كان فاتحاً بحق على مستوى الجزيرة العربية، نُسبت إليه غزوات وصلت إلى الصين. ومدينة سمرقند التي ربما كان هو مؤسسها، دليل على عملية بناء الأسطورة هذه».
(م. رودنسون M. Rodinson ١٩٦١: ٤٥).

(٢) ترد اشارة إلى بهيج في قصيدة نظمها عبيد بن رشيد، شقيق مؤسس امارة آل رشيد في عام ١٨٣٦. وستناقش صلة هذا الجنس من الشعر النبطي لاحقاً.

(٣) تميل فالينسي في دراستها لقبائل جنوب تونس إلى تأييد الرأي القائل ان التراث المحكي يتضمن نتفاً وقطعاً من التاريخ الحقيقي، ولكن لا يمكن النظر إليه على أنه تأريخ زمني للأحداث. وهي تعلق على وجود ثغرات في التاريخ القبلي المبني من مرويات محكية. وتجادل بأنه إذ يتحرك المرء عائداً في الزمن إلى الوراء يصبح التاريخ أقل كثافة ولا يعود التاريخ الزمني أبعد من قرن عاملاً ويكف الزمن عن أن يكون قابلاً للقياس. ولكن على النقيض من الزمن المؤرخ، يكون هذا القسم من الماضي أكثر ثراء كلما أوغل أبعد في الماضي. وكلما كان التقرير أقرب إلى المؤسس كانت دقته أكبر. وفي دراستها لقبيلة حمامة لاحظت فالينسي أن الغرض من التسلسل الزمني لم يكن تثبيت «حقائق تاريخية» وإنما تحديد موقع حمامة ازاء القبائل الأخرى. للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن هذه الدراسة انظر L. Valensi 1985.

(٤) هذه تقديرات تقريبية ولا يمكن التسليم بها كتقديرات مؤكدة. وللأسف لا توجد احصائيات دقيقة عن عدد سكان جبل شمر في القرن التاسع عشر. ويصح هذا على الجزيرة العربية بأسرها.

(٥) ستناقش الفئات المختلفة ذات المكانة في الفصل الرابع الذي يتناول اقتصاد جبل شمر.

(٦) انظر: A. Musil 1927 and 1928a, G. Wallin 1854 and U. Fabietti 1984.

(٧) يشمل هذا مؤرخي نجد المحليين مثل ابن بشر وابن غنام. كما أن رحالة أوروبيين مثل والن ودوتي وبالغريف وبلنت ويوتنغ زاروا المنطقة في القرن التاسع عشر، اعتبروا أن

الشمريين ينتمون إلى قبيلة واحدة. ويشاطرهم هذا الرأي وكلاء سياسيون أجانب، لا سيما الضباط البريطانيون في الخليج. واعتبرت مجموعات أخرى في الجزيرة العربية شمر قبيلة واحدة بين القبائل المختلفة في الجزيرة العربية.

(٨) انـظـر: D. Eickelman 1981, E. Marx 1977 & 1979, p. Salzman 1979, R. Tapper 1983 and E. Gellner 1983.

(٩) ارتبط صعود الامارة السعودية ـ الوهابية الأولى في عام ١٧٤٤ بظهور الحركة الدينية لمحمد ابن عبد الوهاب. اعتنق السعوديون الرسالة وبدأوا جهاداً لنشر تعاليمه. وأدخلهم توسعهم شمالاً في نزاع مع شمر التي قاومت ضم ديارها إلى دائرة النفوذ السعودي. هزمت القوات السعودية شمر في تسعينات القرن الثامن عشر وهاجرت بعض عشائر القبيلة إلى بلاد النهرين. ترد تفاصيل المجابهة بين شمر والقوات السعودية في الفصل الثاني.

(١٠) لن تعالج شمر الشمالية باستفاضة كبيرة هنا. لمزيد من المعلومات عن وضعها في العراق، انظر J. Williamson 1975.

(١١) اذا أضيفت شمر بلاد النهرين فإن حجم هذه الوحدة القبلية وانتشارها على مساحة شاسعة سيجعل العمل الجماعي مستحيلاً تقريباً.

(١٢) تستخدم هذه التسميات مجموعات أخرى في الشرق الأوسط ولكنها تعني أشياء مختلفة بين المجموعات المختلفة.

(١٣) في أوائل القرن العشرين انفضت بعض العشائر الشمرية عن زعامة حائل وانضمت إلى معسكرات أعدائها. وكان هذا ضد ايديولوجيتها التقسيمية التي تشدد على وحدة المجموعات المختلفة وخاصة في فترات الخطر الخارجي. وسيُقَدَّم مزيد من الأدلة التاريخية في الفصول اللاحقة.

(١٤) حين مارس ابن سعود ضغطاً عسكرياً واقتصادياً على الشمريين في بداية القرن العشرين، لم يتمكنوا من البقاء أوفياء لمفاهيمهم في التلاحم والتعاضد والتعاون. فإن الوهابية قسمتهم وأضعفت تضامنهم القبلي (عصبيتهم). وستناقش هذه القضايا لاحقاً في الكتاب.

٢ ـ غليان في وسط الجزيرة العربية

(١) لا يراد بهذا التعريف الموجز بالوهابية الا اعطاء القارئ فكرة عامة عن اهتماماتها الرئيسية وقضيتها المركزية.

(٢) أفكار ابن تيمية موضحة في كتابه «السياسة الشرعية»، القاهرة ١٩٥١.

(٣) اتسم الوضع السياسي في وسط الجزيرة العربية قبل صعود الهيمنة السعودية ـ الوهابية بوجود أمراء وشيوخ محليين في المدن والواحات كانوا مستقلين أو بحماية احدى القبائل الكبيرة من القبائل التي ترعى الإبل. وكان لدى الواحات والمدن الكبيرة في وسط الجزيرة العربية مثل حائل وبريدة وعنيزة حكام مدنها الذين لهم علاقات مع القبائل الصحراوية المحيطة. وكانت الأخيرة كثيراً ما تزور المدن لشراء البضائع الزراعية والمصنعة وبيع حيواناتها وأصوافها وزبدتها.

(٤) في القرن الثامن عشر كانت الحجاز ملحقة بالأمبراطورية العثمانية. وكان العثمانيون يحكمون المنطقة حكماً غير مباشر من خلال العائلة الشريفية المحلية.

(٥) كان توسع محمد علي في فلسطين وسوريا ولبنان وطموحاته السياسية هماً كبيراً من هموم

السلاطين العثمانيين في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر. واستلزم هذا تحركاً لاحقاً من جانب الأمبراطورية العثمانية بهدف كبح النفوذ المتعاظم والسلطات المتسعة لممثلهم في مصر الذي أصبح مستقلاً ولا يدين بالولاء للسلطان إلا قولاً.

(٦) إذ كان محمد علي يحظى بدعم متزايد من الحكومة الفرنسية، اعتبرت بريطانيا توسعه في الجزيرة العربية تهديداً لمصالحها في البحر الأحمر والخليج. وكان هذا التوسع يعني مزيداً من التدخل نيابة عن الفرنسيين في شؤون المنطقة. ونتيجة لذلك كانت بريطانيا أكثر تطلعاً من السلطان العثماني إلى رؤية اليوم الذي انسحبت فيه القوات المصرية من شبه الجزيرة العربية.

(٧) سيناقش سقوط الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية وطرد العائلة السعودية من الرياض بالتفصيل في الفصل الخامس.

(٨) يجادل بعض المؤرخين بأن الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية لم تنجح في اقامة قاعدة سلطة حقيقية حتى عام ١٨٦٥ رغم عودة الامام تركي بن عبد الله إلى جنوب نجد في عام ١٨٢٤ (انظر Vassiliev ١٩٨٦).

(٩) كان النزاع بين محمد علي والسلطان العثماني مدفوعاً بتوسع الأول الذي اعتبر تهديداً لسلامة الأمبراطورية العثمانية.

(١٠) بعد انسحاب القوات المصرية في عام ١٨٤١ استعاد السلطان العثماني سيادته على الجزيرة العربية. ولكن هذه السيادة كانت اسمية لأن الأمبراطورية العثمانية كانت تفتقر إلى الارادة لفرض حكمها المباشر في المنطقة. ولم تبد الحكومة العثمانية علائم على ممارسة الحكم المباشر في الجزيرة العربية إلا في أواخر القرن التاسع عشر. ستناقش هذه القضايا بالتفصيل في الفصل الثامن.

٣ ـ انماط الزعامة: أمير وشيخ وإمام

(١) كانت لدى غالبية المدن الكبيرة في وسط الجزيرة العربية قلاع أو بيوت محصنة يسكنها الحاكم المحلي. وكان حكام المدن أو الواحات يُعيَّنون من السكان المحليين أو من القبائل البدوية المحيطة. وعندما تُقهر المدن أو توضع تحت حماية حاكم خارجي كان ممثلو هذه القوة الخارجية يقيمون عادة في القلعة. وهذه ليست ظاهرة خاصة بوسط الجزيرة العربية. فقد لاحظ مونتان هذا النمط في شمال افريقيا بين قبائل البربر في المغرب (R. Montagne ١٩٣٠).

(٢) في غالبية المدن في وسط الجزيرة العربية كانت السجون جزء من محل اقامة الأمير. وكانوا يضعون المنافسين من أفراد العائلة في هذه السجون بالاضافة إلى المنشقين من شيوخ القبائل وحكام المدن. وكان نشوء مؤسسة السجن في أحيان كثيرة مؤشراً إلى طبيعة الزعامة المتغيرة. وكان هذا التغير يصاحب استقرار الحاكم في المدينة. ولاحظ مونتان الظاهرة نفسها بين أمغر (زعماء) البربر في المغرب:
«ابتكاران يوضحان الانتصار الذي تحقق على التقاليد البربرية: بناء القصبة وبناء السجن... أما السجن فهو دليل أكبر من الحصن على التغيرات الهامة التي تحدث في حياة البلد. فإن وجوده فوق قوانين القبيلة التي لا يتعين عليه الرجوع إليها لتقديم أي تبرير أمامها لأعماله... فالمرء يودع الزنزانة في أي وقت والله وحده يعرف متى يخرج

منها». (المصدر السابق: ٣١٩).

(٣) يشكل العهد بين عبد الله وعبيد موضوعة تروى حولها حكايات كثيرة. وأن الشعر النبطي الذي نظمه حمود، نجل عبيد، يُلقى دائماً كدليل على وجود اتفاق بين الأخوين رشيد حول خلافة المنصب.

(٤) انظر G.A. Wallin 1854, W. Palgrave 1865, C. Doughty 1979 and A. Blunt 1968.

والمؤرخان المحليان لوسط الجزيرة العربية هما ابن بشر ١٩٣٠ وابن غنام ١٩٧١.

(٥) سجلات مكتب الهند 10R, R/15/5/24, p. 260, from O'Conor to Sir E. Grey, Kuweit 25, September 1907.

(٦) ساهم مد سكة حديد الحجاز وبغداد واستخدام السفن البخارية في انحسار قوافل الحج في بداية القرن العشرين.

(٧) سيناقش حصار حائل وهزيمة آخر أمراء آل الرشيد في الفصل التاسع.

(٨) كان أفراد عائلة آل الرشيد كلهم تقريباً ذوي مواهب شعرية من نوع ما. وقد وصف والن أهمية فن الشعر النبطي في تعليقه على أمراء حائل: «ان ذلك الفن يكون في موطنه في جبل شمر، وكل واحد، شاباً كان أو شيخاً، يعرف كمّاً من الأغاني على ظهر قلب. وأمراء عائلة آل الرشيد شعراء مثلما كان في الزمان القديم الأمير والشاعر الشهيد امرؤ القيس الذي كان أميرهم فيما مضى». (G. Wallin 1854: 185). ستناقش الأهمية السياسية للشعر النبطي في الفصل السادس.

(٩) حول الأمبراطورية العثمانية انظر B. Lewis 1961 and H. Inalcik 1978.

(١٠) كانت استراتيجيات الأمراء في الزواج ذات مغزى على المستوى السياسي لأنها كانت تربط الفئة الحاكمة بعوائل مختلفة، شمرية وغير شمرية. لمزيد من التفاصيل انظر الفصل السابع.

(١١) عندما نصب عبد الله بن رشيد نفسه أميراً على حائل في عام ١٨٣٦ لم تكن لديه النية ولا الوسائل للابتعاد عن النمط التقليدي لزعامة الشيخ. ولم يبدأ دور الأمير بالتبلور الا في ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر.

(١٢) الزعامة السياسية بين السكان البدو في الشرق الأوسط موضوع بحث ذو شعبية بين الانثروبولوجيين. للاطلاع على أبحاث مقارنة انظر G. Garthwaite 1983, L. Beck 1986, J. Black 1972, F. Barth 1956 and P. Salzman 1974.

(١٣) يمكن العثور على توصيفات مبكرة حول التنظيم السياسي لقبيلة الروالة في دراسة أ. موسيل A. Musil ١٩٢٨.

(١٤) كانت القبائل البدوية في سوريا أقرب جغرافياً إلى إشراف العثمانيين من قبائل وسط الجزيرة العربية التي أفلتت طيلة قرون من احتواء الامبراطورية العثمانية لها احتواء مباشراً. وجادل ن. لويس N. Lewis بأن السياسة العثمانية ازاء هذه المجموعات كانت غير محدّدة ومترددة: «تُهاجَم [القبائل] عاماً وتُدعم عاماً آخر. وعود تُعطى ويُنكث بها. رشاوى يدفعها الولاة لها لإبقائها هادئة، ورشاوى يتسلمها منها أعضاء المجلس لنيل عفو عن تجاوزاتها» (N. Lewis ١٩٨٧ : ٢٧). وكان لقرب هذه القبائل جغرافياً من مراكز البيروقراطية العثمانية والمسؤولين والولاة والحكام العثمانيين تأثير في تطورها السياسي. إذ بقيت دائرة نفوذها في الصحراء حيث كانت تحتكر المنطقة ومواردها احتكاراً سياسياً وعسكرياً كاملاً. ولكن القبائل البدوية لم تتمكن من توسيع هيمنتها إلى المراكز الحضرية

التي ظلت بيد الحكومة العثمانية وممثليها في المنطقة.

(١٥) يمكن العثور على معالجات حول الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية في ر. وايندر R. Winder ١٩٦٥، ل. بيلي L. Pelly ١٨٦٦، أبو علية ١٩٦٩، ابن بشر ١٩٣٠ وابن غنام ١٩٧١.

(١٦) ربما كان طرح بالغريف القائل ان الأمراء كانوا معادين للشريعة الإسلامية قولاً مبالغاً فيه. فإن المواقف والممارسات الدينية في حائل وقتذاك كانت بكل بساطة لا تسمح بالتعبير تعبيراً صريحاً عن العداء للدين. ولكن يمكن الجدال بثقة أنه مقارنة مع تزمت الأقاليم السعودية ـ الوهابية الجنوبية وأورثذوكسيتها، كان أمراء آل الرشيد وسكان حائل أكثر ليناً حين يتعلق الأمر بالقوانين الإسلامية. ولعل رومانسية الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر حول قانون العرف في الجزيرة العربية أثرت في آرائهم والملاحظات التي سجلوها في حائل. وكانت هذه الرومانسية مسؤولة عن تفسيرهم للمواقف الدينية المعتدلة الذي ذهب إلى حد الزعم بأنها كانت مواقف معادية للشريعة الإسلامية.

٤ ـ اقتصاد القوافل: التجارة والحجاج والاتاوة

(١) سيناقش تركيب القوات المسلحة للأمير في الفصل الخامس.

(٢) كان نظام «الخوَّة» معروفاً في شمال أفريقيا. ولكن يبدو أن الأنثروبولوجيين العاملين في تلك المنطقة لا يعتبرونه آلية تنظم التفاعل السلمي بين القبائل الضعيفة والقبائل القوية. ولعل هذا يرتبط بالحقيقة الماثلة في أن «الزاويات» التي توجد فيها أضرحة الأولياء في شمال أفريقيا كانت تعمل بوصفها منطقة محايدة حيث يخضع العنف تحت السيطرة. وبالتالي كان السلام يتحقق باستحضار بركة الولي. سيناقش نظام «الخوَّة» لاحقاً في هذا الفصل.

(٣) خلال القرن التاسع عشر لم يصب الأئمة السعوديون قدراً كبيراً من النجاح في تزيين صورتهم وسمعة اتباعهم رغم أنهم حاولوا انتهاج سياسة أقل توسعية في المنطقة. فإن المجازر التي ارتكبت بحق القرى الشيعية في حنوب العراق كانت لم تزل ماثلة في الذاكرة وقصص التعصب الوهابي كانت تتردد باستمرار على ألسنة الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة في القرن التاسع عشر.

(٤) ناقش نظام «الخوَّة» كثير من الانثروبولوجيين. للاطلاع على مادة مقارنة انظر W. Lancaster 1981 and U. Fabietti 1983.

(٥) تقليدياً كانت جباية «الخوَّة» كيفما اتفق، ولم يُفرض مبلغ محدَّد على مَنْ يدفعونها. وقد حاول أمراء حائل أن يمأسسوا الدفع باعتماد الحساب في تحديد «الخوة» بدقة أكبر.

(٦) كان من المحتم أن يتسبب توسع مُلك الأمير أبعد من حائل وجبل شمر وزيادة عدد المجموعات التي تدفع الاتاوة في اضعاف التفاعل المباشر الذي كان جانباً مهماً في العلاقة. فإن دافعي «الخوَّة» ومتسلميها كانوا تقليدياً يخيمون في أرض واحدة وعلى مقربة من بعضهم بعضاً. وعلى النقيض من ذلك لم يكن لدى الأمراء اتصال عن قرب بمن يدفعون لهم «الخوَّة». وقد أدى هذا إلى تبقرط علاقات «الخوَّة» على حساب العلاقات الأخوية التي ينطوي عليها النظام.

(٧) كان غياب التكامل العسكري بين حائل وأطرافها البدوية من أهم العوامل التي أضعفت سلطة الأمراء في وقت لاحق من القرن العشرين وساهمت في سقوطهم. فإن البدو (شمر

وغير شمر) إذ استمروا في حيازة أسلحتهم وامتلاك مواردهم البشرية، كانوا يشكلون خطراً كامناً على الأمراء. وكانوا مستودعاً كامناً لاستخدامه من قبل مراكز قوى صاعدة أخرى في المنطقة ضد أمراء آل الرشيد. وهذا ما حدث على وجه التحديد عندما نجح ابن سعود في كسب ولاء السكان البدو من خلال أشكال الدعم واعتناق الوهابية في مطلع القرن العشرين. وعندما أحكم ابن سعود قبضته على السكان البدو خارج حائل تمكن من السير على الواحة وقهرها.

(٨) أدب الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر يجب أن يُقرأ بعناية لأنه من نواح عديدة يعيد انتاج القوالب النمطية عن البدو التي تكون أحياناً ذات طابع رومانسي أو تحقيري. كما أن من الهام استكمال هذا الأدب بمصادر أخرى يفضل أن تكون مصادر البدو أنفسهم.

(٩) لاغراض هذا البحث جمعت بعض القصائد من أفراد من عائلة آل الرشيد. وقد انتقلت هذه القصائد من جيل إلى جيل وهي تمثل مصدراً هاماً من مصادر فهمنا لقيمهم وتصورهم عن أنفسهم وفي المقام الأول تاريخهم. سيناقش هذا باستفاضة في الفصل السادس.

(١٠) السياسة العثمانية ازاء القبائل في المنطقة لم تكن دائماً سياسة ثابتة. وكان المسؤولون ميالين إلى اعتماد سياسات مختلفة ازاء الزعماء والشيوخ المحليين حسب الوضع وضغوط المرحلة. هذه السياسات وعلاقات الأمراء مع الحكومة العثمانية ستناقش في الفصل الثامن.

٥ ـ الجهاز العسكري

(١) تُستخدم «قوة الاكراه» في هذا السياق للاشارة إلى اجمالي الموارد البشرية التي يستخدمها الأمراء لممارسة العنف بصورة مباشرة أو التهديد بالعنف.

(٢) هذه تقديرات تقريبية مستقاة من مصادر بريطانيا مثل Handbook of Arabia, Admiralty, Naval Intelligence Division, GB, HMSO, 1916, 1917, 1970 and 1949.

(٣) للاطلاع على مادة مقارنة مستقاة من أجزاء أخرى من الشرق الأوسط انظر E. Peters 1960, and 1967, J. Black 1972 and T. Asad 1970.

(٤) للاطلاع على نقد لأدب الرحالة الأوروبيين انظر K. Tidrick 1981, R. Brent 1977, Z. Frecth Winstone H. 1978, R. Bidwell 1976, E. Said 1978 and M. Rodinson 1988.

(٥) على سبيل المثال، في معركة مليدة التي ستناقش لاحقاً في هذا الفصل، قامت شمر بدور كبير في دعم زعامتها في حائل.

(٦) خلال العقدين الأولين من القرن العشرين أحيا ابن سعود الحركة الوهابية في محاولة لإعادة هيمنة عائلته في الجزيرة العربية. وقد اجتذبت هذه الحركة عدداً صغيراً من الشمر الذين انفضوا عن أمراء حائل وانضموا إلى مضارب ابن سعود. سيناقش هذا بالتفصيل في الفصل التاسع.

(٧) تتكرر قواعد الغزوات في أدب الرحالة الأوروبيين. انظر Burckhardt 1831, C. Doughty 1979, W. Palgrave 1865, A. Blunt 1968 and H.R.P. Dickson 1951.

(٨) تعامل البدو الرعويون في مناطق أخرى من العالم مع مشكلة النزاع المسلح بطرق مختلفة.

وعلى سبيل المثال، أن نوير السودان كانوا يعيشون في غمرة حروب واعتداءات قبلية متكرراً لكنهم لم يستحدثوا منصباً سياسياً على درجة عالية من المركزية. للاطلاع على مزيد من التفاصيل انظر E. Evans-pritchard 1940
مجموعات أخرى مثل بربر المغرب تعاملوا مع ظروف انعدام الأمن والفوضى بايجاد ثقافة دينية متكاملة ذات توجه نحو الأولياء في مواجهة المشاكل الناجمة عن تكرار الغزوات والغزوات المضادة باستمرار. انظر E. Gellner 1969.

(٩) لمزيد من التفاصيل حول عشيرة الرمال الشمرية انظر U. Fabietti 1984.

(١٠) بعد عام ١٨٩١ هرب عبد الرحمن، آخر الأئمة السعوديين، إلى الربع الخالي حيث لجأ عند قبيلة المرّة. وفيما بعد قرر أن يقبل دعوة مبارك بن صباح، أمير الكويت، للاقامة في مدينته. فكر عبد الرحمن أن هذا سيتيح له الفرصة لتخطيط عودته إلى الرياض.

(١١) في نهاية القرن التاسع عشر كان لدى بريطانيا موقع راسخ في الخليج حيث يقيم وكلاؤها السياسيون. وأصبحت الكويت مقر الوكيل السياسي في الخليج بعد التوقيع على اتفاقية الحماية مع بريطانيا في عام ١٨٩٩.

(١٢) كانت صرخة الحرب الشمرية تطلق دائماً قبل أن تغادر قوات الأمراء حائل وعلى امتداد الطريق إلى المعركة. وكان يراد بها شحذ الهمم وتشجيع المشاركين في الغزوة.

(١٣) سيناقش حصار حائل ورحيل عائلة آل الرشيد عن عاصمتهم بالتفصيل في الفصل التاسع.

(١٤) شمر لم تكن القبيلة الوحيدة في المنطقة التي تأثرت بادخال أسلحة حديثة. فإن قبيلة الروالة الشمالية أيضاً شهدت مشاكل مماثلة، كلها ناجمة عن استخدام الأسلحة النارية على نطاق واسع. للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن الروالة انظر: W. Lancaster 1981.

٦ ـ صنع التاريخ: قوة الشعر

(١) أجريت المقابلات لغرض هذا البحث في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٦ وبين حزيران/يونيو وكانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧. وجرت مقابلة خمسة افراد من عائلة آل الرشيد. وهم يفضلون البقاء مجهولين. الجدير بالملاحظة هنا أن المرويات والقصائد مترجمة بطريقة يراد منها نقل المعنى المقصود.

(٢) كانت العدوان عشيرة من عشائر شمر شيخها ابن تيماط الذي استاء من نجاح عبد الله بن رشيد في اطاحة ابن عمه، ابن علي. ويشير اسم نعيس إلى شيخ شمري آخر في حين أن ابن طوالة كان زعيم الأسلم.

(٣) «أبو طلال» لقب شائع لعبد الله بن رشيد. وطلال ابنه البكر.

(٤) طي وقيس هما القبيلتان العربيتان القديمتان اللتان يُعتقد أنهما كانتا تقطنان المنطقة التي تسمى الآن جبل شمر.

(٥) كانت معركة بقعا بالغة الأهمية لأنها أدت إلى توسع سلطة آل رشيد في منطقة القصيم جنوب جبل شمر.

(٦) سعدي هو اسم حصان عبيد.

(٧) في هذا البيت يشير عبيد إلى تقليد بين شمر وقبائل أخرى في الجزيرة العربية يعود إلى ما قبل ظهور الإسلام حيث كان الفرسان كثيراً ما تتبعهم أجمل نساء القبيلة. وينشدن الأخيرات الأغاني ويمتدحن المغيرين بهدف تشجيعهم في المعركة.

(٨) انظر ابن بشر ١٩٣٠ وابن غنام ١٩٧١ وض. ابن رشيد ١٩٦٦.

(٩) كانت شمر وعنزة تشتبكان في غزوات وغزوات مضادة باستمرار. وانعكست أعمال العداء بينهما في شعرهما النبطي ومروياتهما المحكية.

(١٠) حقيقة أن التراث المحكي يكشف عن تاريخ بنيوي وليس عن تاريخ زمني يجري التشديد عليها في عمل فالينسي على رجال القبائل التونسية. انظر L. Valensi ١٩٨٥.

(١١) الشعر النبطي العربي قبل ظهور الإسلام زاخر بالأمثلة على هذا الجنس من القصائد. وكانت قصائد البطولة ينظمها شعراء يوثقون معارك وغزوات مختلفة بين القبائل المختلفة في الجزيرة العربية.
لمزيد من التفاصيل انظر S. Al Sowayan ١٩٨٥.

(١٢) دراسة الشعر العامي تقع في مجال سوسيولوجيا الفن. انظر K. Burke 1969 and A. Hauser 1982.

(١٣) تتمثل المقاربة الوظيفية على أحسن وجه في عمل مالينوفسكي. انظر B. Malinowski 1922. انظر أيضاً عمل أ. لويس I. Lewis وب. اندرجيفسكي B. Andrzejewski حول الشعر الصومالي (١٩٦٤).

(١٤) تتمثل المقاربة الماركسية على أحسن وجه في عمل م. بلوخ M. Bloch ١٩٧٥.

(١٥) اهتم المؤرخون بتحديد قيمة التراث المحكي في البحث التاريخي. يمكن متابعة المناظرة بين المؤرخين في كتابات ج. فانسينا J. Vansina ١٩٨٥ وب. تومسون P. Thompson ١٩٧٨ ود. هنايج D. Henige ١٩٨٢.

(١٦) تناقش المشكلة المتعلقة بالحقائق التاريخية في J. Vansina 1985.

(١٧) غياب التسلسل الزمني للأحداث (الكرونولوجيا) سمة تشترك بها غالبية التواريخ القبلية التي تبنى من التراث المحكي. تناقش هذه المشكلة في عمل فالينسي Valensi، ١٩٨٥.

(١٨) أعرب ب. سكالنك P. Skalnik عن إمكانية كتابة تاريخ انثروبولوجي باستخدام التراث المحكي. انظر P. Skalnik 1979: 197.

(١٩) جادل تومسون بأن التاريخ المحكي قديم قدم التاريخ نفسه. وأنه كان أول نوع من التاريخ. ((P. Thompson 1978: 19)).

٧ ـ سياسة الزواج

(١) مكتب سجلات الهند 10R، ملف R/15/5/25 من مونهان Monahan إلى الوكيل السياسي، في الكويت.

(٢) مما يؤسف له عدم وجود سجل مكتوب للزيجات قيد البحث. المعطيات المقدمة هنا مجموعة بأكملها من مقابلة أفراد من عائلة آل الرشيد. الجدير بالملاحظة أن بعض الزيجات التي لم تسفر عن انجاب أطفال، لم تُذكر ونتيجة لذلك نُسيت الزوجات ذوات العلاقة وأسقطت أسماؤهن من ذاكرة الناس. ومن الجهة الثانية كانت أسماء الزوجات الغريبات أو اللواتي ينتمين إلى مجموعات قبلية غير شمرية كانت حاضرة في الذاكرة رغم أن بعض هؤلاء الزوجات لم ينجبن أطفالاً. ولحذف أسماء النساء اللواتي لم ينجبن أطفالاً مغزاه لأنه يعكس المواقف من الزوجات في ذلك الوقت. إذ ما لم ينجبن أطفالاً كن يبقين هامشيات وسرعان ما تُنسى أسماؤهن، الا إذا كن غريبات. وهذا مؤشر إلى أهمية العلاقات السياسية التي

تقيمها وتديمها هذه الزيجات.

(٣) انظر M. Fortes ١٩٥٣ للاطلاع على دراسته الكلاسيكية عن الجماعات ذات الأصل الأحادي. ولكن الزواج بابنة العم ليس ممارسة شرق أوسطية حصراً. ويُذكر أن مثل هذه الزيجات كثيرة الحدوث بين التسوانا Tswana في جنوب القارة الأفريقية. لمزيد من التفاصيل انظر I. Schapera ١٩٦٣.

(٤) عالج هذا الموضوع كثير من الانثروبولوجيين. انظر: F. Barth 1954, M. Ayoub 1959, R. Patai 1965, G. Tillion 1966, R. Murphy and L. Kasdan 1959 and 1967, F. Khouri 1970, M. Meeker 1976, L. Holy 1989, P. Bourdieu 1977, E. Peters 1960, and S. Caratini 1989.

(٥) نوقش صعود الامارة السعودية ـ الوهابية الثانية في جنوب نجد في الفصل الثاني.

(٦) ستناقش هزيمة آل الرشيد في عام ١٩٢١ ووصولهم إلى الرياض في الفصل العاشر.

(٧) انظر U. Fabietti ١٩٨٤ للاطلاع على مناقشة حول ممارسات عشائر الرمال الشمرية في الزواج. للاطلاع على بيانات مقارنة انظر D. Cole حول قبيلة المرّة في الربع الخالي و W. Lancater ١٩٨١ حول قبيلة الروالة في شمال الجزيرة العربية.

٨ ـ الأمبراطورية والإمارة

(١) From Roussel to Richelieu, Alexandria 1 December 1816, in E. Driault, p. 37.

(٢) Archive du Ministère des Affaires Etrangères, Paris, Correspondance Politique et Commerciale, Turquie: Arabie, Dossier Generale, Vol. 139.

(٣) سجلات مكتب الهند IOR، ملف L/P & 5/20 C 240, P. 48 Précis of Nejd Affairs 1804-1904.

رسالة من نائب القنصل في دمشق، ٢٢ تموز/يوليو ١٨٨٠.

(٤) حول تاريخ الأمبراطورية العثمانية وخسائرها الإقليمية في البلقان انظر: S.J. Shaw and E.K. Shaw 1977 Vol. II, B. Lewis 1961 and M.S. Anderson 1966.

(٥) سجلات مكتب الهند IOR ملف L/P & S/20C 238, p. 17 Précis of Nejd Affairs 1804-1904.

رسالة من نائب القنصل في دمشق، ٢٢ تموز/يوليو ١٨٨٠.

(٦) سجلات مكتب الهند IOR ملف L/P & S/20C 238, p. 17 Précis of Nejd Affairs 1804-1904.

(٧) المصدر السابق، ملف L/P & S/20C 238, p. 17 Précis of Turkish Expansion on the Arab Littoral of the Persian Gulf and Hasa and Katif Affairs 1871.

(٨) المصدر السابق، ملف L/P & S/20C 240, p. 36, Précis of Nejd Affairs 1804-1904.

(٩) المصدر السابق، ملف L/P & S/20C 238, p. 238, Précis of Turkish Expansion of the Arab Littoral on the Persian Gulf and Hasa and Katif Affairs 1871.

(١٠) المصدر السابق، ملف L/P & S/20C 240, p. 42, Précis of Nejd Affairs 1804-1904.

(١١) المصدر السابق، ملف R/15/6/19, p. 14، من المقيم السياسي في البحرين إلى المقيم السياسي في الخليج، بوشير، ٢١ تشرين الأول/اكتوبر ١٨٨٨.

(١٢) المصدر السابق، ملف L/P & S/20C 238, p. 135, Précis of Turkish Expansion on the Arab Littoral of the Persian Gulf and Hasa and Katif Affairs 1871.

(١٣) المصدر السابق، ملف R/15/6/19, p. 14 من المقيم السياسي في البحرين إلى المقيم السياسي في الخليج، بوشير، ١٢ تشرين الأول/اكتوبر ١٨٨٨.

(١٤) المصدر السابق، ملف L/P & S/20C 240, p. 51, Précis of Nejd Affairs 1804-1904.

(١٥) المصدر السابق ملف R/15/6/19, p. 56, من المقيم السياسي في البحرين إلى مركيز سولسبري، ٩ أيار/مايو ١٨٨٩.

(١٦) المصدر السابق، ص ٥٢.

(١٧) المصدر السابق، Report on the Administration of the Persian Gulf Political Residency and Muscat Political Agency, 1891-92 and 1892-93, from Talbot to the Governor of India.

(١٨) Archive du Ministère des Affaires Etrangères, Paris, Correspondance Politique et Commerciale, Turquie: Arabie, Dossier Générale, vol. 139, no. 50.

(١٩) R. Bidwell (ed), Foreign Office Confidential Prints, Affairs of Arabia, 1905-6, vol. I, Part I, P. 6, 1971.

(٢٠) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢١) الجدير بالذكر هنا أنه بسبب نشاطات ابن رشيد شمال جبل شمر بدأت السلطات العثمانية تفكر في ضم منطقة معان وكرك (الآن في الأردن) في متصرفية لتتمكن الحكومة من ممارسة سيطرة أكبر على ابن رشيد. واعتبر قرار السلطة العثمانية بتوسيع سيطرتها إلى هذه المنطقة ضرورياً للحد من نشاطات ابن رشيد «الضارة». انظر: E Akarli 1986 in Dirasat.

(٢٢) E. Akarli in D. Kushner (ed) 1986: 74.

(٢٣) مخطوطة من م. عارف، ترجمة ج. لاندو ١٩٧١.

(٢٤) Archive du Ministère des Affaires Etrangères, Correspondance Politique et Commerciale, Turquie: Arabie, vol. 141, Part III, P. 24.

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦) سجلات مكتب الهند IOR، ملف L/P&S/20C 239 (1896-1904), Précis of Kuweit.

(٢٧) R. Kumar 1965: 196.

(٢٨) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٢٩) R. Bidwell (ed), Foreign Office Confidential Prints, Affairs of Arabia (1905-1906), Part I, P. 4, 1971.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) IOR, Report on the Administration of the Persian Gulf Political Residency and Muscat Political Agency 1900-1901.

(٣٢) J.B. Kelly 1968: 226.

(٣٣) سجلات مكتب الهند IOR، ملف L/P&S/20/C 247 A, Historical Summary of Events in Territories of the Ottoman Empire, Persia, and Arabia Affecting the British Position in the Persian Gulf 1907-1928.

(٣٤) المصدر السابق، L/P&S/10/384 ملف 2184/1913، من كوكس Cox إلى حاكم الهند، ٣٠ أيار/ مايو ١٩١٣.
(٣٥) المصدر السابق، L/P&S/10/385، معاهدة بين ابن سعود والأتراك، ١٥ أيار/ مايو ١٩١٤.
(٣٦) المصدر السابق، من السر ل. ماليت Sir L. Mallet إلى السر أ. غراي Sir E. Grey، ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩١٤.
(٣٧) المصدر السابق، Report by Captain Shakespear: Notes on Ibn Rashid's Affairs, January 1914.
(٣٨) المصدر السابق، L/P/&S/10/384، ملف 2182/1913 Memorandum by Mr. Parkes on British Policy of Non-Interference in the Affairs of Nejd.
(٣٩) المصدر السابق، L/P/&S/20/C 247A, p. 25. Historical Summary of Events in Territories of the Ottoman Empire, Persia and Arabia affecting the British Position in the Persian Gulf 1907-1928.
(٤٠) المصدر السابق، L/p/&S/10/385 Report by Captain Shakespear: Notes on Ibn Rashid's Affairs, January 1914.
(٤١) انظر: C.V. Aitchison 1933.
(٤٢) في عام ١٩١٦ كانت بريطانيا قد كسبت شريف مكة إلى جانبها. وبدأ الثورة العربية ضد الحكومة العثمانية في الحجاز. وقد حدث هذا بدعم وتشجيع من بريطانيا.
(٤٣) سجلات مكتب الهند IOR، ملف L/P&S/10/387:، ص ٢٥٤، من ولسن إلى شريف مكة، ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩١٦.
(٤٤) المصدر السابق.
(٤٥) المصدر السابق، ص ص ١٧٧ و٢٧١.
(٤٦) المصدر السابق، L/P&S/10/388، ص ١٣.
(٤٧) المصدر السابق R/15/5/104 p. 19 Report of Hamilton on Recent Journey to Nejd 1917.
(٤٨) المصدر السابق، R/5.101, p. 34، من كوكس في مسقط إلى وزارة الخارجية، ٩ آذار/ مارس ١٩١٨.
(٤٩) المصدر السابق، R/15/5/104, p. 20 Report of Hamilton on Recent Journey to Nejd 1917.
(٥٠) المصدر السابق.
(٥١) المصدر السابق، R/15/5/104, p. 20 Report of Hamilton on Recent Journey to Nejd 1917.
(٥٢) المصدر السابق، L/P&S/11/131, p. 457, 1918 from Foreign Office to the Secretary to the State of India 1918.
(٥٣) للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن حركة «الاخوان»، انظر ج. حبيب ١٩٧٨.
(٥٤) سجلات مكتب الهند IOR, L/P&S/10/389, p. 2142, 1918
(٥٥) المصدر السابق، L/P&S/10/389, p. 179 from Viceroy of India, 5 January 1918.
(٥٦) المصدر السابق، ص ٤٨٥.

(٥٧) المصدر السابق، ص ٤٨٤.
(٥٨) المصدر السابق، ملف R/15/5/99 ص ١٠٤ من الوكيل السياسي في البحرين إلى المندوب المدني، ٢٥ تموز/يوليو ١٩٢٠.
(٥٩) المصدر السابق، ص ٨.
(٦٠) المصدر السابق، ص ١٢، من المندوب المدني في بغداد إلى الوكيل السياسي في البحرين، ١٧ نيسان/ابريل ١٩٢٠.
(٦١) المصدر السابق، ص ١٧، من ابن سعود إلى الرائد هـ. ر. ب. دكسن، الوكيل السياسي في البحرين، ١٤ نيسان/ابريل ١٩٢٠.
(٦٢) تفاصيل حصار حائل وسقوط سلطة آل الرشيد ستناقش في الفصل التاسع.
(٦٣) درس الكثير من الانثروبولوجيين في الشرق الأوسط وأماكن أخرى نتائج العلاقة بين الحكومات المركزية والزعماء المحليين. لمزيد من التفاصيل انظر G. Garthwaite 1983, P. Salzman 1967, 1974 and 1980, D. Bates 1971, E. Marx 1967 and 1978, P. Lienhardt 1975, L. Beck 1986, R. Tapper 1983 and B. Spooner 1969 and 1975.
(٦٤) ضاري بن طوالة، شيخ عشيرة الأسلم الشمرية، كان استثناء إذ أقام اتصالات مع المسؤولين البريطانيين في الكويت خلال الحرب العالمية الأولى. وتمكن من الحصول على تصريح مرور لعشيرته من أجل دخول السوق في الكويت. وبالمقابل كان يُنتظر من ابن طوالة أن يقدم ولاءه ويقاتل إلى جانب الحكومة البريطانية. ولكن المسؤولين البريطانيين في الكويت اكتشفوا فيما بعد أن ابن طوالة كان يشارك في تهريب البضائع إلى حائل.

٩ ـ الانحدار

(١) سجلات مكتب الهند IOR، ملف R/15/5/99 ص ١٠٤ من الوكيل السياسي في البحرين إلى المندوب المدني في بغداد، ٢٥ تموز/يوليو ١٩٢٠.
(٢) المصدر السابق، R/15/5/104، ص ١٩ Report of Hamilton on Recent Journey to Nejd 1917.
(٣) المصدر السابق، ملف R/15/5/101، ص ٤١ من فيلبي إلى الوكيل السياسي في بغداد، ٢٨ نيسان/ابريل ١٩١٨.
(٤) المصدر السابق، ملف R/15/5/101، ص ١٦٣، من الوكيل السياسي في بغداد إلى الوكيل السياسي في البصرة، ٢٣ تموز/يوليو ١٩١٨.
(٥) المصدر السابق، ملف R/15/5/103، ص ٨، من فيلبي إلى المندوب، بغداد ١٨ تموز/يوليو ١٩١٨.
(٦) المصدر السابق، ص ٥٥.
(٧) أدرك ابن سعود في وقت مبكر في القرن العشرين التناقض القائم بين البداوة والانتماء القرابي من جهة وبناء دولة من جهة أخرى. فأعطي توطين من اعتنقوا الدعوة الوهابية في قرى زراعية، أولوية على أساس أن المسلمين الحقيقيين يستطيعون ممارسة دينهم على نحو أفضل بكثير في الهُجر. وأقيمت قرى استيطانية جديدة لهذا الغرض. وكانت هذه تجمع بين المعسكرات الحربية والمستوطنات الزراعية والمراكز التبشيرية. وأصبح مَنْ توطنوا في

الهُجر يُعرفون بالاخوان. ويعرفهم حبيب بأنهم «أولئك البدو الذين قبلوا مبادئ الاسلام المتشددة للمذهب الحنبلي كما بشر بها عبد الوهاب وهي المبادئ التي نسيها آباؤهم وأجدادهم أو قاموا بتشويهها، والذين، من خلال اقناع الدعاة الدينيين وبمساعدة مادية من عبد العزيز، تخلوا عن حياتهم البدوية للعيش في الهجر التي بناها لهم» (ج. حبيب ١٩٧٨ : ١٦). وظل الاخوان أشد المحاربين ضراوة في قوات ابن سعود المسلحة التي وحدت القبائل تحت غطاء الانبعاث الإسلامي. لمزيد من التفاصيل عن صعود ابن سعود إلى السلطة وتوطيد حكمه في الجزيرة العربية انظر J. Philby 1928, 1930 & 1948, J. Kostiner 1982, 1985 & 1991, T. Niblock 1982, D. Hopwood 1972, H. Lackner 1978, C. Helms 1981, H.R.P. Dickson 1951 and J. Habib 1978.

(٨) سجلات مكتب الهند IOR، ملف R/15/5/25.

(٩) المصدر السابق، ملف (33) R/51/1/557 61/6 III D، ص ١٥، من الوكيل السياسي في البحرين إلى المندوب المدني في بغداد، ١٢ أيار/مايو ١٩٢٠.

(١٠) المصدر السابق، ملف R/15/5/25.

(١١) سجلات مكتب الهند IOR، ملف R/15/2/40، ص ٢٠، من ابن سعود إلى الوكيل السياسي في البحرين، ٨ أيار/مايو ١٩٢٠.

(١٢) المصدر السابق، ص ٣٠.

(١٣) المصدر السابق، ملف R/15/5/99 من الوكيل السياسي في البحرين إلى المندوب المدني، بغداد، ١٤ تموز/يوليو ١٩٢٠.

(١٤) المصدر السابق، ملف (33) R/15/1/557 61/6/ III D ص ٢٤٧، من ابن سعود إلى الوكيل السياسي في البحرين، حزيران/يونيو ١٩٢٠.

(١٥) المصدر السابق، ملف R/15/5/25.

(١٦) جادلت غز بيل بأن محمد بن طلال وشقيقه عبد الله كانا يتمتعان بشعبية بين الشمريين الذين كانوا يحرصون على حضور مجالس قهوة الأميرين ودعوتهما إلى اجتماعاتهم منذ عام ١٩١٧. انظر G. Bell 1940: 51.

(١٧) سجلات مكتب الهند IOR، ملف R/15/5/25.

(١٨) المصدر السابق، ملف R/15/5/28، من الوكيل السياسي إلى ابن سعود، ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٢١.

(١٩) المصدر السابق، ملف R/15/5/25.

(٢٠) المصدر السابق، ملف R/15/5/25، ص ٦٥، من الوكيل السياسي في الكويت إلى المندوب السامي في بغداد، ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢١.

(٢١) المصدر السابق، ملف R/15/5/28.

(٢٢) المصدر السابق، R/15/5/28، ص ١٨، من المندوب السامي في بغداد إلى الوكيل السياسي في الكويت، ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٢١.

(٢٣) مات محمد بن طلال، آخر أمراء حائل، في الرياض بعد أن اغتاله عَبدُه. الأحداث المؤدية إلى اغتياله والجهات الضالعة في تدبيره ستناقش في الفصل العاشر.

(٢٤) كان «الاخوان» أرخص قوة عسكرية جُندت لغزو مساحات واسعة من الأرض. ولكن ما ان وُجدت الحركة حتى اكتسبت زخمها الخاص. وإن تعصب مَنْ اعتنقوها حديثاً قادهم إلى احتقار موقف سكان المدن الأكثر اعتدالاً. كما أنهم كانوا ذوي آراء متشددة ضد الاتصال

بغير المؤمنين أو التسامح مح التنوع الديني. ولم يكن هناك ما يوقف جهادهم الذي بادر ابن سعود إلى اعلانه. ففي عام ١٩٢٧ بدأ «الاخوان» سلسلة من الهجمات على الأراضي العراقية. وعلى أثر ذلك، حين ضغط ابن سعود عليهم لاحترام الحدود الشمالية مع العراق وشرق نهر الأردن والامتناع عن الاغارة على قبائل أخرى خارج هذه الحدود، تمردوا على سلطته. وتمرد قادة «الاخوان» الشهيرون فيصل الدويش وابن حثلين وابن مشهور وابن بجاد على ابن سعود بمواصلتهم شن هجمات داخل الأراضي العراقية. وقد استفز هذا السلطات البريطانية في البلاد التي ردت بإصدار أوامر إلى قوتها الجوية بقصف مقاتلي «الاخوان». تمكن ابن سعود من كبح نفوذ «الاخوان» في عام ١٩٣٠. قُتل بعض الزعماء وسُجن بعضهم الآخر على يد ابن سعود. لمزيد من التفاصيل عن تمرد «الاخوان» انظر ج. حبيب J. Habib 1987.

(٢٥) جادلتُ في الفصل الخامس أن مقاربة ل. سويت L. Sweet التي تعتبر الغزوات آليات لتداول الجمال، لا تأخذ في الاعتبار عوامل ثقافية وسياسية واجتماعية أخرى ذات أهمية بالغة لفهم غزوات القبائل.

ببليوغرافيا

مصادر أصلية

أرشيفات في مكتبة وسجلات مكتب الهند، (IOR) لندن:

A. Residency Records: Persian Gulf Residency and Agencies: Bushire Political Residency: R/15/1/135, 154 (vol. 197), 166 (vol. 251), 167 (vol. 253), 557 (vol. 61/6 III D33).

Bahrain Political Residency: R/15/2/40 E/12

Kuwait Political Residency: R/15/5/24, 25, 27, 29, 66, 99, 100, 101, 103, 104, 38, 59, 94, 45.

Muscat Political Agency: R/15/6/19, 34.

B. Departmental Papers: Political and Secret Annual Files (1912-30):

L/P&S/11/2, 55, 64, 71, 89, 106, 110, 119, 131, 135, 139, 140.

C. Departmental Papers: Political and Secret Annual Files (1902-31):

L/P&S/10/12, 135, 188, 259, 348, 384, 385, 387, 388, 389, 462, 560, 576, 586, 635.

D. Political and Secret Library (1800-1947):

L/P&S/20/C 227 *Selection from State Papers*

L/P&S/20/C 236 *Turkish Arabia 1801-1905*

L/P&S/20/C 240 *Précis of Nejd Affairs 1870-72*

L/P&S/20/C 239 *Précis of Koweit Affairs 1896-1904*

L/P&S/20/C 238 *Précis of Turkish Expansion on the Arab Littoral of the Persian Gulf and Hasa and Katif Affairs*

L/P&S/20/C 247A *Historical Summary of Events in Territories of the Ottoman Empire, Persia, and Arabia Affecting the British Position in the Persian Gulf 1907-28.*

Report on the Administration of the Persian Gulf Political Residency and Muscat Political Agency 1883-1905, Calcutta.

أرشيفات في وزارة الخارجية في باريس:

A. Correspondance Politique et Commerciale (1897-1918):
Turquie (Arabie)-Dossier Général: vol. 139, 140, 141, 142, 143, 144, 145.
Mésopotamie (Golfe Persique): vol. 149, 150, 151, 152.
B. Correspondance Consulaire et Commerciale (1793-1901):
Djeddah: vol. 1, 2, 3, 4, 5.
C. Memoires et Documents (Turquie): vol. 16, 20, 31, 104.
D. Serie E
Levant 1918-40.
Arabie (Hidjaz) 1918-29.

مواد أرشيفية مصرية منشورة:

مختارات من دار الوثائق القومية، القاهرة، نشرها عبد الرحيم، ١٩٧٦.
مختارات من الدار نفسها، القاهرة، نشرها س.أ. جمال، ١٩٧٤.

كتب ومقالات

Abir, M. (1987) 'The consolidation of the ruling class and the new elite in Saudi Arabia', *Middle Eastern Studies,* vol. 23: 149-71.

Abu-Lughod, L. (1986) *Veiled Sentiments: Honor and Poetry in a Bedouin Society* (University of California Press).

Admiralty (1916, 1917, 1920, & 1946) *Handbook of Arabia* (Naval Intelligence Division, Great Britain H.M.S.O.).

Ahmad, A. & Hart, D. (eds) (1984) *Islam in Tribal Society: from the Atlas to the Indus* (London: Routledge and Kegan Paul).

Aitchison, C.U. (1933) *A Collection of Treaties, Engagements & Sanads Relating to India & the Neighbouring Countries* (Delhi).

Akarli, E.D. (1986) 'Establishment of the Ma'an-Karak Mutasarrifiyya, 1891-1894', *Dirasat* vol. XIII: 27-42.

——— (1986) 'Abdulhamid II's attempt to integrate Arabs into the Ottoman system', in *Palestine in the Late Ottoman Period,* edited by D. Kushner.

Al Amr, S.M. (1974) *The Hijaz Under Ottoman Rule 1869-1914* (Saudi Arabia).

Al Rasheed, M. (1987) 'The process of chiefdom formation as a function of nomadic-sedentary interaction', *Cambridge Anthropology:* 32-40.

——— (1989) 'The Political System of a North Arabian Chiefdom: the Ra-

shidi Amirs of Hail 1836-1921', PhD. thesis, Cambridge University.

——— (1991) 'Le pouvoir et l'économie caravinière dans un oasis de l'arabie du nord', in J. Bisson (ed.), *Le nomade, l'oasis et la ville.*

Al Rasheed, S. (1981) *Darb Zubeidah: the Pilgrim Road from Kufa to Mecca* (Riyadh).

Altorki, S. (1980) 'Milk kinship in Arab society: an unexplored problem in the ethnography of marriage', *Ethnography* (2): 233-44.

Altorki, S. and Cole, D. (1989) *Arabian Oasis City: the Transformation of Unayzah* (University of Texas Press).

Altorki, S. and El Solh, C. (1988) *Arab Women in the Field: Studying your Own Society* (Syracuse University Press).

Anderson, M.S. (1966) *The Eastern Question 1774-1923: a Study in International Relations* (London & New York: Macmillan).

Andreski, S. (1968) *Military Organisation and Society* (London: Routledge & Kegan Paul).

Asad, T. (1970) *The Kababish Arabs: Power, Authority, and Consent in a Nomadic Tribe* (London: C. Hurst).

——— (1973) 'The Bedouin as a military force: notes on some aspects of power relations', in *The Desert and the Sown,* edited by C. Nelson.

——— (1979) 'Equality in nomadic social systems? Notes towards the dissolution of an anthropological category', in *Pastoral Production and Society.* Proceedings of the international meeting on nomadic pastoralism, edited by l'equipe écologie et anthroplogie des sociétés pastorales (Cambridge University Press).

Ashkenazi, T. 'La Tribu Arabe: ses elements', *Anthropos,* Bd XLT-VLIV, HF 4-6: 657-72.

Awad, M. (1962) 'Nomadism in the Arab lands of the Middle East' in *The Problems of the Arid Zone.* Proceedings of the Paris symposium, UNESCO 18. Paris.

Ayoub, M. (1959) 'Parallel cousin marriage and endogamy: a study in sociometry', *Southwestern Journal of Anthropology,* vol. 15: 266-75.

Bacon, E. (1954) 'Types of pastoral nomadism in central and southwest Asia', *Southwestern Journal of Anthropology,* vol. 10: 44-57.

Bailey, F.G. (1969) *Stratagems and Spoils: a Social Anthropology of Politics* (Oxford: Basil Blackwell).

——— (ed). (1971) *Gifts and Poison: the Politics of Reputation* (Oxford: Basil Blackwell).

Balandier, G. (1970) *Political Anthropology* (New York: Random House).

Barth, F. (1953) *Principles of Social Organisation in Southern Kurdistan* (Oslo).

——— (1954) 'Father's brother's daughter marriage in Kurdistan', *Southwestern Journal of Anthropology,* vol. 10: 164-71.

——— (1959) *Political Leadership among Swat Pathan* (London: Athlone Press).

——— (1961) *Nomads of South Persia: the Basseri Tribe of the Khamseh Confederacy* (Oslo University Press).

Bates, D.G. (1971) 'The role of the state in peasant-nomad mutualism', *Anthropological Quarterly,* vol. VLIV: 109-13.

Beck, L. (1986) *The Qashaqa'i of Iran* (Yale University Press).

Bell, G. (1907) *The Desert and the Sown* (London: William Heinemann).

——— (1914) 'A Journey in North Arabia', *Geographical Journal,* vol. 44: 76-77.

——— (1940). *The Arab War: Confidential Information for General Headquarters from Gertrude Bell* (London: Golden Cockerel Press).

Benet, F. (1970) 'Explosive markets: the Berber high-lands', in L. Sweet (ed.), *Peoples and Cultures of the Middle East* (New York: The Natural History Press).

Benoit-Mechin, J. (1957) *Arabian Destiny* (London: Elek Books).

Bidwell, R. (1971) *The Affairs of Arabia,* Foreign Office Confidential Print, vol. I & II (London: Frank Cass).

——— (1976) *Travellers in Arabia* (London: Hamlyn).

——— (1985) *Arabian Gulf Intelligence: Selction from the Records of the Bombay Government.* New Series no. XXIV. (Cambridge: Oleander Press).

——— (1986) *Arabian Personalities of the Early Twentieth Century* (Cambridge: Oleander Press).

Birks, J.S. (1978) 'Development or decline of pastoralists: the Bani Qitab of the Sultanate of Oman', in *Arabian Studies,* edited by R. Serjeant & R. Bidwell, vol. IV: 7-19.

Bisson, J. (ed.), *Le nomade, l'oasis et' la ville* (Urbama: Tours).

Black, J. (1972) 'Tyranny and strategy for survival in an egalitarian society: Luri facts versus an anthropological mystique', *MAN,* vol. 7: 614-34.

Bligh, A. (1984) *From Prince to King: Royal Succession to the House of Saud in the Twentieth Century* (New York University Press).

Boch, M. (1975) *Marxist Analysis and Social Anthropolgy* (London: ASA).

——— (1975) Political Language and Oratory in Traditional Society (London: Academic Press).

Blunt, A. (1968) *A Pilgrimage to Nejd, The Cradle of the Arab Race: a Visit to the Court of the Arab Emir and 'our Persian Campaign',* 2 vols.

(London: John Murray, 1881, reprinted in 1968).

Bocco, R. (1987) 'La notion de dirah chez les tribus bedouines en Jourdanie: le cas de Beni Sakhr', in *Terroirs et sociétés au Maghreb et au Moyen Orient,* edited by B. Cannon.

Bombay Government (1985) *Selection form the Records* vol. XXIV. H. Thomas & R. Bidwell (eds) Bombay 1856. (New Edition Cambridge: Oleander Press).

Bonnenfant, P. (1982) *La Peninsule Arabique d'aujourd'hui,* 2 vols. (Paris).

Boucheman, A. De. (1939) *Une petite cité caravanière: Sukhné* (Damascus).

Bourdieu, P. (1977) *Outline of a Theory of Practice* (Cambridge University Press).

Brent, R.W. (1977) *Far Arabia: Explorers of the Myth* (London: Weidenfeld & Nicolson).

Briant, P. (1977) *Etat et pasteur au Moyen-Orient ancien* (Cambridge University Press).

Brown, L.C. (1984) *International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Games* (Princeton University Press).

Bujra, A. (1971) *The Politics of Stratification: a Study of Political Change in a South Arabian Town* (Oxford: Clarendon Press).

Bulliet, R.W. (1975) *The Camel and the Wheel* (Harvard University Press).

——— (1980) 'Sedenterisation of Nomads in the Seventh Century: the Arabs in Basra and Kufa', in *When Nomads Settle,* edited by P. Salzman.

Burckhardt, J.L. (1831) *Notes on the Bedouins and the Wahabys,* 2 vols. (London: Colburn & Benthey).

Burke, K. (1969) *A Rhetoric of Motives* (University of California Press).

Burling, R. (1974) *The Passage to Power: Studies in Political Succession* (New York: Academic Press).

Busch, B.C. (1967) *Britain and the Persian Gulf 1894-1914* (University of California Press).

——— (1971) *Britain, India and the Arabs 1914-1921* (University of California Press).

Bush, A. (1987) *Al Sabah: History and Genealogy of Kuwait's Ruling Family 1752-1987* (London: Ithaca Press).

Callocott, T. & Throne, J. (eds) (1961) *Chamber Gazetteer and Geographical Dictionary* (London).

Cannon, B. (1987) *Terroirs et Sociétés au Maghreb et au Moyen Orient* (Lyon: Maison de l'Orient).

Caratini, S. (1989) «A propos du mariage arabe: discours endogame et pra-

tiques exogames: l'exemple des Rgaybat du nord-ouest saharien', *l'Homme:*30-48.

Carniero, R. (1978) 'Political expansion as an expression of the principles of competitive exclusion', in *Origins of the State: the Anthropology of Political Evolution,* edited by R. Cohen & E. Service.

Caskel, W. (1954) 'The Bedouinisation of Arabia', in *Islamic Cultural History,* edited by G.E. Von Grunebaum. The American Anthropological Association, vol. 56, no. 2, pt. 2, memoir no. 76, Wisconsin.

Caton, S. (1984) 'Tribal Poetry as Political Rhetoric: from Khawlan At-Tiya, Yemen Arab Republic', Unpublished PhD. thesis, University of Chicago.

Chatty, D. (1977) 'Leaders, land, and limousines: emir versus sheikh', *Ethnology* (16): 385-97.

——— (1986) *From Camel to Truck: Bedouin in the Modern World* (Vantage Press).

Chelhod, J. (1965) 'Le Mariage avec la cousine parallele dans le systeme arabe', *l'Homme:* 113-73.

Claessen, H. & Skalnik, P. (eds) (1978) *The Early State* (The Hague: Mouton).

——— (1981) *The Study of the State* (The Hague: Mouton).

Cohen, A. (1974) *Two-Dimensional Man: an Essay on the Anthropology of Power and Symbolism in Complex Societies* (London: Routledge & Kegan Paul).

Cohen, B. (1980) 'History and anthropology: the state of play', *Comparative Studies in Society and History,* vol. 22: 188.

——— (1981) 'Anthropology and history in the 1980's, *Journal of Interdisciplinary History,* vol. 12: 227-52.

Cohen, R. & Service, E.R. (1978) *Origins of the State: the Anthropology of Political Evolution* (Philadelphia Institute for the Study of Human Issues).

Cole, D. (1975) *Nomads of the Nomads: The Al Murrah Bedouin of the Empty Quarter* (USA: AHM Publishing Corporation).

Coon, C. (1961) *Caravan: the Story of the Middle East,* revised edition, (New York: Rinehart & Winston Inc).

Corancez L. (1810) *Histoire des Wahabis depuis leur origine jusqu'a la fin de 1809* (Paris).

Cuisenier, J. (1962) 'Endogamie et exogamie dans le mariage arabe', *l'Homme:* 80-105.

Cunnison, I. (1957) 'History and genealogy in a conquest state', *American Anthropologist,* vol. 59: 20-31.

——— (1966) *Baggara Arabs: Power and Lineage in a Sudanese Nomad Tribe* (Oxford: Clarendon Press).

Davis, J. (1987) *Libyan Politics, Tribe and Revolution* (London: I.B. Tauris).

Destre, A. (1969) 'Le Developpement des etats du Moyen-Orient et la crise du Nomadism', *Revue de L'Institut de Sociologie:* 236-81.

Dickson, H.R.P. (1951) *The Arab of the Desert: a Glimpse into Badawin Life in Kuweit and Saudi Arabia* (London: George Allen and Unwin).

Digard, J. (1978) 'The segmental system: native model or anthropological construction? Discussion of an Iranian example', in *The Nomadic Alternative,* edited by W. Weissleder.

Doughty, C. (1979) *Travels in Arabia Deserta,* 2 vols, first published 1888. (Cambridge University Press).

Dresh, p. (1984) 'The position of shaykhs among the northern tribes of Yemen', *Man:* 31-49.

——— (1986) 'The significance of the course events take in segmentary systems', *American Ethnologist:* 309-24.

——— (1989) *Tribes, Government and History in Yemen* (Oxford: Clarendon Press).

Driault, E. *La Formation de l'empire de Mohamed Aly: de l'Arabie au Soudan 1814-1823. Correspondance des Consuls de France en Egypte* (Cairo MPGGCC XXVII).

Dunn, R. (1977) *Resistance in the Desert* (University of Wisconsin Press).

Dyson-Hudson, R. (1980) 'Nomadic pastoralism', *Annual Review of Anthropology,* vol. 9: 15-61.

Earle, T. (1987) 'Chiefdoms in Archaeological and ethnohistorical perspective', *Annual Review of Anthropology:* 279-308.

Easton, D. (1953) *The Political System* (New York: Knopf).

——— (1965) *A Framework for Political Analysis* (London: Prentice Hall).

Eickelman, D. (1976) *Moroccan Islam: Tradition and Society in a Pilgrimage Centre* (University of Texas Press).

——— (1981) *The Middle East: an Anthropological Approach* (New Jersey: Prentice Hall).

Eisenstadt, S.N. (1959) 'Primitive political systems: a preliminary comparative analysis', *American Anthropologist,* vol. 61: 200-20.

Elam, Y. (1973) *The Social and Sexual Roles of Himla Women: a Study of Nomadic Cattle Breeders in Nyabushozi Country, Ankole, Uganda* (Manchester University Press).

Elphinstone, W. (1945) 'The future of the Bedouin of Arabia', *International Affairs,* vol. 21: 370-75.

Euting, J. *Tagbuch einer Reise in Inner Arabien* 2 vols. (Leiden: Brill 1896-1914).

Evans-Pritchard, E.E. (1940) *The Nuer: a Description of Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic Tribe* (Oxford University Press).

——— (1949) *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford University Press).

Fabietti, U. (1983) 'Una citta dell'Arabia settentrionale: Hail', in *La Salvaguardia delle citta storiche in Europa e nell' area Mediterranea,* 147-60.

——— (1984) 'Centri carovanieri differenziazione social e potere tra: nomadi d'Arabia', in *Ethnicita e Potere,* edited by P. Chiozzi.

——— (1984) *Il Popolo del Deserto. I Bedouini Shammar del Gran Nefud Arabia Saudita* (Rome).

——— (1986) 'Control and alienation of territory among the Bedouin of Saudi Arabia', *Nomadic Peoples:* 33-9.

Farra, O.T.E. (1973) 'The Effects of Detribalizing the Bedouins on the Internal Cohesion of an Emerging State: Saudi Arabia', Unpublished PhD. thesis, University of Pittsburgh.

Fernea, R. (1987) 'Technological innovation and class development among the Bedouin of Hail', in B. Cannon (ed.), *Terroirs et sociétés au Maghreb et Moyen Orient.*

Field, H. (1950) 'Among the Bedouins of North Arabia', *ADIM,* no. 294: 1-20.

Finnegan, R. (1977) *Oral Poetry, its Nature, Significance, and Social Context* (Cambridge University Press).

Forder, A. (1902) *With the Arabs in Tent and Town* (London: Marshall Brothers).

Fortes, M. (1953) 'The structure of unilineal descent groups', *American Anthropologist,* vol. 53: 17-41.

Fortes, M. & Evans-Pritchard, E.E. (eds) (1940) *African Political Systems* (Oxford University Press).

Fortes, M. & Patterson (eds) (1975) *Studies in African Social Anthropology* (London: Academic Press).

Freeth, Z. & Winstone, H. (1978) *Explorers of Arabia: from the Renaissance to the end of the Victorian Era* (London: Allen and Unwin).

Fried, M. (1967) *The Evolution of Political Society: an Essay in Political Anthroplogy* (New York: Random House).

——— (1975) *The Notion of Tribe* (USA: Cummings Publications).

Fried, M., Harris, M. & Murphy, R. (1967) *War: the Anthropology of Armed Conflict and Aggression* (USA: Garden City).

Galaty, J. & Salzman, P. (eds) (1981) *Change and Development in Momadic*

Societies (Leiden).

Garthwaite, G. (1983) *Khans and Shahs: a Documentary Analysis of the Bakhtiyari in Iran* (Cambridge University Press).

Geertz, C., Geertz, H. & Rosen, L. (1979) *Meaning and Order in Moroccan Society* (Cambridge University Press).

Geertz, H. (1971) 'Review of Saints of the Atlas', *American Journal of Sociology* vol. 76:763-6.

Gellner, E. (1969) *Saints of the Atlas* (London: Weidenfeld & Nicolson).

——— (1973) *Introduction in The Desert and the Sown* edited by C. Nelson: 1-9.

——— & Micaud, C. (eds) (1973) *Arabs and Berbers: From Tribe to Nation in North Africa* (London: Duckworth).

——— & Waterbury, J. (eds) (1977) *Patrons and Clients in Mediterranean Societies* (London: Duckworth).

——— (1981) *Muslim Society* (Cambridge University Press).

——— (1983) 'The tribal society and its enemies', in *The Conflict of Tribe and State in Iran and Afghanistan,* edited by R. Tapper.

——— (1991) 'Tribalism and the state in the Middle East', in *Tribes and State Formation in the Middle East,* edited by P. Khoury and J. Kostiner.

Glubb, Sir J.B. (1961) *War in the Desert* (New York: Norton).

Godelier, M. (1977) *Perspectives in Marxist Anthropolgy* (Cambridge University Press).

Goldberg, J. (1985) 'Philby as a source for early twentieth-century Saudi history: a critical examination', *Middle Eastern Studies,* vol. 21: 223-44.

Goody, J. (1966) *Succession to High Office* (Cambridge University Press).

——— (1971) *Technology, Tradition and the State* (Oxford University Press).

——— (1973) *The Character of Kinship* (Cambridge University Press).

——— (1977) *The Domestication of the Savage Mind* (Cambridge University Press).

Guarmani, C. (1938) *Northern Najd: a Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim* (London: Argonaut Press).

Habib, J. (1978) *Ibn Saud's Warriors of Islam* (Leiden: Brill).

Halliday, Fred (1974) *Arabia without Sultans* (Penguin).

Hallpike, C.R. (1973) 'Functional interpretations of primitive warfare', *MAN,* vol. 8: 451-70.

Hamoudi, A. (1980) 'Segmentarity, social stratification, political power and sainthood: reflections on Gellner's theses', *Economy and Society,* vol. 9: 279-303.

Harrison, R. (1973) *Warfare* (USA: Burgess Press).

Hauser, A. (1982) *The Sociology of Art* (London: Kegan Paul).

Helm, J. (ed.) (1968) *Essays on the Problem of Tribe,* Proceedings of the 1967 Annual Spring Meeting of the American Ethnological Society (University of Washington Press).

Helms, C. (1981) *The Cohesion of Saudi Arabia* (Baltimore: Johns Hopkins University Press).

Henige, D. (1982) *Oral Historiography* (London).

Hilal, J. (1972) 'Father's brother's daughter marriage in Arab communities: a problem for sociological explanation', *Middle East Forum,* vol. 46: 73-84.

Hitti, P. (1937) *History of the Arabs* (London: Macmillan).

Hobday, P. (1978) *Saudi Arabia Today* (London: Macmillan).

Hogarth, D. (1905) *The Penetration of Arabia: a Record of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula* (London: J.G. Bartholomew).

Holden, D. & Johns, R. (1982) *The House of Saud* (London: Sidgwick and Jackson).

Holy, L. (1989) *Kinship, Honour, and Solidarity. Cousin Marriage in the Middle East* (Manchester University Press).

Hopwood, D. (1972) *The Arabian Peninsula, Society and Politics* (London: Allen and Unwin).

Hourani, A. (1970) *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939* (Oxford University Press).

Huber, C. (1888) *Journal d'un voyage en Arabie (1883-1884)* (Paris).

Hudson, M. (1977) *Arab Politics, the Search for Legitimacy* (Yale University Press).

Hurgronje, C.S. (1931) *Mekka in the Latter Part of the Nineteenth Century* (Leiden).

Ibn Khaldun (1987) *The Muqqadimah. An Introduction to History,* translated by F. Rosenthal 1967 (London, reprint).

Igbal, S.M. (1977) *The Emergence of Saudi Arabia: a Political Study of King Abd al Aziz ibn Saud 1901-1953* (Kashmir: Saudiya Publications).

Inalcik, H. (1978) *The Ottoman Empire, Conquest, Organisation and Economy* (London: Variorum Reprints).

Ingham, B. (1986) *Bedouin of North Arabia* (London: KPI).

Irons, W. (1971) 'Variation in political stratification among the Yomut Turkmen', *Anthropological Quarterly,* vol. 44: 143-56.

——— (1979) 'Political stratification among pastoral nomads', in *Pastoral Production and Society.* Proceedings of the international meeting on no-

madic pastoralism. Edited by l'equipe écologie et anthropologie des sociétés pastorales (Cambridge University Press).

Irons, W. & Dyson-Hudson, N. (1972) *Perspectives on Nomadism* (Leiden).

Issawi, C. (ed). (1966) *The Economic History of the Middle East 1800-1914* (Chicago University Press).

Jaussen, A. (1908) *Coutumes des arabes au pays de Moab* (Paris).

Johnson, D. (1969) *The Nature of Nomadism* (University of Chicago Press).

Katakura, M. (1977) *Bedouin Village: a Study of Saudi Arabian People in Transition* (Japan).

Kelly, J.B. (1968) *Britain and the Persian Gulf 1795-1880* (Oxford: Clarendon Press).

Kennet, A. (1925) *Bedouin Justice* (Cambridge University Press).

Khazanov, A.M. (1978) 'The early state among the Scythians', in *The Early State,* edited by H. Claessen & P. Skalnik.

——— (1978) 'Some theoretical problems of the study of the early state', in *The Early State,* edited by H. Claessen & P. Skalnik.

——— (1984) *Nomads and the Outside World* (Cambridge University Press).

Khoury, P. & Kostiner, J. (1991) *Tribes and State Formation in the Middle East* (London: I.B. Tauris).

Khuri, F. (1970) 'Parallel cousin marriage reconsidered: a Middle Eastern practice that nullifies the effects of marriage on the intensity of family relationship', *MAN,* vol, 4: 597-618.

Kister, M. (1965) 'Mecca and Tamim', *Journal of the Economy and History of the Orient,* vol. 8: 113-61.

Kostiner, J. (1982) 'The Making of Saudi Arabia 1917-1936', PhD thesis, London School of Economics and Political Science, 1982.

——— (1985) 'On instruments and their designers: the Ikhwan of Najd and the emergence of the Saudi State', *Middle Eastern Studies,* vol. 21: 298-323.

——— (1991) 'Tranforming dualities: tribe and state formation in Saudi Arabia', in *Tribes and State Formation in the Middle East,* edited by P. Khoury and J. Kostiner.

Krader, L. (1968) *Formation of the State* (Englewood Cliffs: Prentice-Hall).

——— (1978) 'The origins of the state among the nomads of Asia', in *The Early State,* edited by H. Claessen & p. Skalnik.

Krasner, S.D. (1984) 'Approaches to the state: alternative conception and historical dynamics', *World Politics,* December.

Kumar, R. (1965) *India and the Persian Gulf Region (1858-1907): a Study in British Imperial Policy* (London: Asian Publishing House).

Kushner, D. (1986) *Palestine in the Late Ottoman Period* (Leiden: Brill).

Lacey, R. (1981) *The Kingdom* (London: Fontana/Collins).

Lackner, H. (1978) *A House Built on Sand: a Political Economy of Saudi Arabia* (London: Ithaca Press).

Lacoste, Y. (1966) *Ibn Khaldun: naissance de l'histoire passé de tiers monde* (Paris: Maspero).

Lancaster, W. (1981) *The Rwala Bedouin Today* (Cambridge University Press).

——— (1982) 'The development and function of the shaykh in nomad/settler symbiosis', in *Arabian Studies,* edited by R. Serjeant and R. Bidwell. vol. VI.

——— (1986) 'The concept of territory among the Rwala Bedouin', *Nomadic Peoples:* 41-8.

Landau, J. (1971) *The Hijaz Railway and the Muslim Pilgrimage: a Case of Ottoman Propaganda* (Detroit).

Lattimore, O. (1940) *Inner Asian Frontiers of China* (Oxford University Press).

Leach, E. (1954) *Political System of Highland Burma: a Study of Kachin Social Structure* (London: G. Bell & Sons).

Leachman, G.E. (1910) 'A journey in North Eastern Arabia', *Geographical Journal,* vol. 37: 265-74.

Lewellen, T.C. (1983) *Political Anthropology: An Introduction* (Massachusetts).

Lewis, B. (1951) 'The Ottoman archives as a source for the history of the Arab lands', *Journal of the Royal Asiatic Society:* 139-55.

——— (1961) *The Emergence of Modern Turkey* (Oxford University Press).

Lewis, I.M. (1961) *A Pastoral Democracy: a Study of Pastoralism and Politics among the North Somali of the Horn of Africa* (Oxford University Press).

——— (ed.) (1968) *History and Anthropology* (London: Tavistock Publications).

——— & Andrzejewski, B. (1964) *Somali Poetry. An Introduction* (Oxford: Clarendon Press).

Lewis, N. (1987) *Nomads and Settlers in Syria and Jordan 1800-1980* (Cambridge University Press).

Lienhardt, P. (1975) 'The authority of shaykhs in the Gulf: an essay in nineteenth century history', in *Arabian Studies,* edited by R. Serjeant & R. Bidwell, vol. II: 61-75.

Linder, R.P. (1983) *Nomads and Ottomans in Medieval Anatolia* (Bloomington).

Lorimer, J.G. (1908) *Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia,* vols I & II. (Calcutta, 1908-1915).

Macro, E. (1968) *Bibliography of the Arabian Peninsula* (University of Miami Press).

Mahdi, M. (1957) *Ibn Khaldun's Philosophy of History* (London).

Mair, L. (1962) *Primitive Government* (London: Pelican Original).

Malinowski, B. (1922) *Argonauts of the Western Pacific; an Account of Native Enterprise and Adventure in the Archipelagoes of Melaesian New Guinea* (London: Routledge & Kegan Paul).

Marx, E. (1967) *The Bedouin of the Negev* (Manchester University Press).

——— (1977) 'The tribe as a unit of subsistence: nomadic pastoralism in the Middle East', *American Anthropologist,* vol. 79: 343-63.

——— (1978) 'The ecology and politics of nomadic pastoralists', in *The Nomadic Alternative: Modes and Models of Interaction in the African and Asian Desert and Steppes,* edited by W. Weissleder.

——— (1979) 'Back to the problem of tribe', *American Anthropologist,* vol. 1: 124-5.

Meeker, M. (1976) 'Meaning and society in the Near East: examples from the Black Sea Turks and the Levantine Arabs', *Journal of Middle Eastern Studies,* vol. 7: 243-70.

——— (1979) *Literature and Violence in North Arabia* (Cambridge University Press).

Meillassoux, C. and Forde, D. (eds), *The Development of Indigenous Trade: Trade and Markets in West Africa* (Oxford University Press).

Messerschmidt, D. (ed.) (1981) *Anthropologists at Home in North America: Methods and Issues in the Study of One's Own Society* (Cambridge University Press).

Middleton, J. & Tait, D. (1958) *Tribes Without Rulers. Studies in African Segmentary Systems* (London: Routledge and Kegan Paul).

Midhat Bey, A.H. (1903) *The Life of Midhat Pasha* (London).

Montagne, R. (1930) *Les Berbéres et le Makhzen dans le sud Du Maroc* (Paris).

——— (1932) 'Notes sur la vie sociale et politique de l'Arabie du Nord: les Semer du Negd', *Revue des Etudes Islamiques,* vol. 6: 61-79.

——— (1935) 'Contes poetiques bedouins', *Bulletin des Etudes Orientales:* 33-119.

——— (1947) *La Civilisation du Desert* (Paris).

——— (1973) *The Berbers, Their Social and Political Organisation* (London).

Murphy, R. & Kasdan, L. (1959) 'The Structure of parallel cousin marriage', in *American Anthropologist,* vol. 61: 17-29.

——— (1967) 'Agnation and endogamy: some further considerations', *Southwestern Journal of Anthropology,* vol. 23: 1-14.

Musil, A. (1927) *Arabia Deserta. A Topographical Itinerary* (New York: American Geographical Society).

——— (1928) *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (New York: American Geographical Society).

——— (1928a) *Northen Negd* (New York: American Geogrphical Society).

Nelson, C. (1973) *The Desert and the Sown. Nomads in the Wider Society* (University of California Press).

Nettleship, M. (ed.) (1975) *War, Its Causes and Correlates* (The Hague).

Niblock, T. (1982) *State, Society and Economy in Saudi Arabia* (London: Croom Helm).

Nolde, E. (1895) *Reise nach Inner Arabien, Kurdistan, und Armenien* (Brunswick).

Ochsenwald, W. (1984) *Religion, Society and the State in Arabia. The Hijaz under Ottoman Control 1840-1908* (Ohio State University Press).

Palgrave, W.G. (1865) *Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia (1862-1863),* 2 vols (London: Macmillan & Co).

Parry, V. & Yapp. M. (1975) *War, Technology and Society in the Middle East* (Oxford University Press).

Patai, R. (1965) 'The structure of endogamous unilineal descent groups', *Southwestern Journal of Anthropology,* vol. 21: 325-50.

——— (1978) 'The cultural areas of the Middle East', in *The Nomadic Alternative,* edited by W. Weissleder.

Pelly, L. (1978) *Report on a Journey to the Wahabee Capital of Riyadh in Central Arabia 1865-1866* (Reprint Cambridge: Oleander Press).

Pershits, A. (1979) 'Tribute relations', in *Political Anthropology: the State of Art,* edited by S.L. Seaton & H. Claessen (The Hague).

peters, E. (1960) 'The proliferation of segments in the lineage of the Bedouin of Cyrenaica', *Journal of Royal Anthropological Institute,* vol. 90: 29-53.

——— (1967) 'Some structural aspects of feuds among the camel-herding Bedouin of Cyrenaica', *Africa,* vol. 37: 261-82.

——— (1968) 'The tied and the free: an account of a type of patron-client relationship among the Bedouin pastoralists of Cyrenaica', in J. Peristiany (ed.) *Contributions to Mediterranean Sociology* (The Hague).

Philby, H.St-J.B. (1928) *Arabia of the Wahhabis* (London: Constable & Co).

——— (1930) *Arabia* (London: Ernest Benn).

——— (1933) *The Empty Quarter* (London: Constable and Company Limited).

——— (1948) *Arabian Days: an Autobiography* (London: Robert Hale).

——— (1952) *Arabian Jubilee* (London: Robert Hale).

——— (1955) *Saudi Arabia* (London: Ernest Benn).

Rabinow, P. (1977) *Reflections on Fieldwork in Morocco* (University of California Press).

Raswan, C. (1930) 'Migration lines of North Arabia tribes', *Geographical Review:* 494-502.

Richards, J. (1949) 'Desert city: an account of Hail in Central Arabia', *The Architectural Review,* vol. 105: 35-41.

Rodinson, M. (1961) *Mohamet* (Paris: Editions du Seuil).

——— (1988) *Europe and the Mystique of Islam* (London: I.B. Tauris).

Rosenfeld, H. (1965) 'The social Composition of the military in the process of state formation in the Arabian Desert', Parts I & II, *Journal of the Royal Anthropological Institute,* vol. 95: 75-86 & 174-194.

Rutter, E. (1931) 'Damascus to Hail', *Journal of Royal Central Asian Studies,* vol. 18: 61-73.

Safran, N. (1985) *Saudi Arabia: the Ceaseless Quest for Security* (Harvard University Press).

Sahlins, M. (1961) 'The segmentary lineage: an organisation of predatory expansion', *American Anthropologist,* vol. 63: 322-43.

——— (1968) *Tribesmen* (Prentice-Hall).

——— (1981) *Historical Metaphors and Mythical Realities: Structure in the Early History of the Sandwich Islands Kingdoms* (University of Michigan Press).

Said, E. (1978) *Orientalism* (London: Routledge & Kegan Paul).

Salzman, P.C. (1967) 'Political organisation among nomadic people', *Proceedings of the American Philosophical Society,* vol. III: 115-31.

——— (1971) 'Adaptation and political organisation in Iranian Baluchistan', *Ethnology,* vol. 10: 433-44.

——— (1974) 'Tribal chiefs as middlemen: the politics of encapsulation in the Middle East', *Anthropological Quarterly,* vol. 47: 203-10.

——— (1979) 'Tribal organisation and subsistence: a response to Emmanuel Marx', *American Anthropologist,* vol. 81: 121-4.

——— (1980) *When Nomads Settle: Processes of Sedentarisation as Adaptation and Response* (New York: Praeger).

Salzman, P. & Galaty, J. (eds) (1981) *Change and Development in Nomadic and Pastoral Societies* (Leiden).

Sanger, R. (1954) *The Arabian Peninsula* (Cornell University Press).

Scoville, S.A. (ed.) (1979) *Gazetteer of Arabia: a Geographical and Tribal History of the Arabian Peninsula,* vols I & II (Austria).

Seaton, S. & Claessen, H. (1979) *Political Anthropology: the State of the Art* (The Hague: Mouton).

Service, E. (1975) *The Origins of State and Civilisation* (New York: Norton).

Schapera, I. (1962) 'Should Anthropologists be Historians?', *Journal of the Royal Anthropological Institute,* vol. 92: 143-56.

——— (ed.) (1963) *Studies in Kinship and Marriage* (London: Royal Anthropological Institute Occasional Paper no. 16).

Shaw, S.J. & Shaw, E.R. (1977) *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,* 2 vols (Cambridge University Press).

Smith, M.G. (1956) 'On segmentary lineage systems', *Journal of the Royal Anthropological Institute,* vol. 86: 39-80.

——— (1962) 'History and Social Anthropology', *Journal of the Royal Anthropological Institute,* vol. 92: 73-85.

Spooner, B. (1972) 'The status of nomadism as a cultural phenomenon in the Middle East', *Journal of Asian and African Studies,* vol. 7: 122-31.

Sowayan, S. (1985) *Nabati Poetry: the Oral Poetry of Arabia* (University of California Press).

Stacy International (1977) *The Kingdom of Saudi Arabia* (London).

Stein, L. (1967) *Die Sammar-Gerba. Beduinen im Ubergang Vom Nomadismus Zur Sesshaftigkeit* (Berlin: Akademie Verlag).

Sweet, L. (1965) 'Camel raiding of North Arabian bedouin: a mechanism of ecological adaptation', *American Anthropologist,* vol. 67: 1131-50.

——— (1968) *The Central Middle East: a Handbook of Anthropology,* 2 vols (New Haven).

——— (1969) 'Camel pastoralism in North Arabia and the minimal camping unit', in *Environment and Cultural Behaviour,* edited by P. Vayda.

Tapper, R. (1979) 'The organisation of nomadic communities in pastoral societies of the Middle East', in *Pastoral Production and Society.* Proceedings of the international meeting on nomadic pastoralism. Edited by l'equipe ecologie et anthropologie des societés pastorales (Cambridge University Press).

——— (1979) *Pasture and Politics: Economics, Conflict and Ritual among Shahsevan Nomads of Northwestern Iran* (London: Academic Press).

——— (ed.) (1983) *The Conflict of Tribe and State in Iran and Afghanistan,*

(London: Croom Helm).

Thesiger, W.P. (1950) 'The Badu of Southern Arabia', *Journal of Royal Central Asian Society,* vol. XXXIV: 53-61.

Thompson, P. (1978) *The Voice of the Past* (London).

Tidrick, K. (1981) *Heart-Beguiling Araby* (Cambridge University Press).

Tillion, G. (1966) *Le Harem et les cousins* (Paris: Le Seuil).

Turney-High, H.H. (1949) *Primitive War. Its Practice and Concepts* (USA).

Valensi, L. (1977) *Fellah Tunisiens: l'economie rurale et la vie des compagnes aux 18ème et 19ème siecle* (Paris: La Haye).

——— (1985) *Tunisian Peasants in the Eighteenth and Nineteenth Centuries* (Cambridge University Press).

Van Bruinessen, M. (1978) 'Agha, Shaikh and State: on the Social and Political Organisation of Kurdistan', Doctoral thesis submitted to the State University of Utrecht.

Van Nieuwenhuijze, C.A.O. (1971) *Sociology of the Middle East* (Leiden).

Vansina, J. (1985) *Oral Tradition as History* (London: James Curry).

Von Grunebaum, G.E. (ed.) (1954) *Studies in Islamic Cultural History* (The American Anthropological Association, Memoir No. 76, vol. 56, Wisconsin).

Wahba, H. (1964) *Arabian Days* (London: Arthur Barker).

Wallin, G.A. (1850) *Notes Taken During a Journey through Part of Northern Arabia in 1850* (London).

——— (1854) 'Narrative of a journey from Cairo to Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-Jauf, Jublae, Hail and Negd in 1845', *Journal of the Royal Geographical Society,* vol. 24: 115-201.

Ward, P. (ed.) (1983) *Hail: an Oasis City of Saudi Arabia* (Cambridge: Oleander Press).

Weber, M. (1964) *The Theory of Social and Economic Organisation* (New York: Free Press).

Weissleder, W. (ed.) (1978) *The Nomadic Alternative: Modes and Models of Interaction in the African and Asian Desert Steppes* (Leiden: Mouton).

Williamson, J. (1975) 'The Political History of the Shammar Jarba Tribe of al Jazirat 1800-1958', Unpublished PhD thesis, Indiana University.

Winder, R. (1965) *Saudi Arabia in the Nineteenth Century* (London: Macmillan).

Winstone, H.V.F. (1980) *Gertrude Bell* (London: Quartet Books).

Wolf, E. (1951) 'The social organisation of Mecca and the origins of Islam', *Southwestern Journal of Anthropology,* vol. 7: 329-56.

Wirght, H. (1977) 'Recent research on the origin of the state', *Annual Review of Anthropology:* 379-97.

أعمال باللغة العربية

إبراهيم، أ.أ. (١٩٨١)، «حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي»، دراسة وثائقية (الرياض).

ابن بِشر، أ.أ. (١٩٣٠)، «عنوان المجد في تاريخ نجد»، جزءان (مكة).

ابن تيمية، ت.د. (١٩٥١)، «السياسة الشرعية» (القاهرة).

ابن رشيد، د. (١٩٦٦)، «نبذة تاريخية عن نجد» (الرياض).

ابن عيسى، إ. (١٩٦٦)، «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ٧٠٠ ـ ١٣٤٠هـ.» (الرياض).

ابن غنام (١٩٧١)، «تاريخ نجد»، جزءان (القاهرة).

ابن هذلول، س. (١٩٦١)، «تاريخ ملوك آل سعود» (الرياض).

أبو حكيمة، أ.م. (١٩٦٧)، «لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (بيروت).

أبو عليه، أ. (١٩٦٩)، «تاريخ الدولة السعودية الثانية ١٨٤٠ ـ ١٨٩١» (الرياض).

البطريق، أ. (١٩٦٤) «الوهابية دين ودولة»، في «حوليات كلية البنات» (القاهرة).

الجمال، س.أ. (١٩٧٤)، «الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر» (القاهرة).

حراز، ر. (١٩٧٠)، «الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ ـ ١٩٠٩» (القاهرة).

الحصري، س. (١٩٦٠)، «البلاد العربية والدولة العثمانية» (بيروت).

حمزة، ف. (١٩٣٣)، «قلب جزيرة العرب» (القاهرة).

رافق، أ. (١٩٧٤)، «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» (دمشق».

الريحاني، أ. (١٩٧٣)، «تاريخ نجد وملحقتها» (بيروت).

الزكرلي، ك. (١٩٧٠)، «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» (بيروت).

شارط، أ. (١٩٨٤)، «نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون» (الجزائر).

شامية، ج. (١٩٨٦)، «آل سعود ماضيهم وحاضرهم» (لندن).

شرارة، و. (١٩٨١)، «الأهل والغنيمة» (بيروت).

الطاهر، أ.ن. وهنيدي، م. (١٩٥٤)، «البدو والعشائر في بلاد العربية» (القاهرة).

عبد الرحيم، أ.أ. (١٩٧٦)، «الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥ ـ ١٨١٨» (القاهرة).

العثيمين، أ. (١٩٦٩)، «نشأة إمارة الرشيد» (الرياض).

فاسيلييف، أ. (١٩٨٦)، «تاريخ العربية السعودية» (موسكو).

القاسم، أ. (١٩٣٦)، «الثورة الوهابية» (القاهرة).

المارِك، ف. (١٣٨٦هـ)، «من شيام العرب» (بيروت).

الماوردي (١٨٨٠)، «الأحكام السلطانية» (القاهرة). (الترجمة الفرنسية وضعها ب. سغنان، ١٩١٥).

محجوب، م. (١٩٧٤)، «مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية» (الكويت).

الهندي (١٣٨٠هـ)، «زهر الخمايل في تراجم علما حايل» (جدة).

الياسيني، أ. (١٩٨٧)، «الدين والدولة في المملكة العربية السعودية» (لندن).



فهرس الأعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

هذا الكتاب دراسة في العلاقات بين القبائل وتكوين الدولة، وتاريخ سياسي هام لوسط الجزيرة العربية في الفترة التي سبقت قيام الدولة السعودية الحالية. وهو يتناول إمارة الرشيد التي ظهرت في القرن التاسع عشر بين رعاة الإبل الشمّر، وجعلت واحة حائل عاصمة تضاهي مكة والمدينة في الشهرة والازدهار، وحاولت أن توحد وسط الجزيرة العربية في كيان واحد.

تنظر المؤلفة في الأسباب التي جعلت شمّر تصبح في هذه اللحظة على وجه التحديد قابلة للمركزية السياسية، والعوامل الداخلية والخارجية التي ساهمت في ظهور إمارتها، والتغيرات التي حدثت في النظام السياسي، والتطورات التي أدت إلى ما حدث لاحقاً من عدم استقرار وسقوط كيان شمّر السياسي في القرن العشرين. وأخيراً، إذ يقيم الكتاب السياق التاريخي الدولي لنشوء الإمارة في حائل، فإنه يناقش أهمية السلطنة العثمانية وتنافسها مع بريطانيا في تحديد مجرى الأحداث على المستوى الإقليمي.

وبالاستناد إلى مادة أرشيفية وأدب الرحّالة ومقابلات غنية ما كانت لتعطى إلى غريب، تعيد مضاوي الرشيد بناء التاريخ الاجتماعي لإمارة أثارت انتباه مسؤولين رسميين غربيين ورحالة أوروبيين مثل والن وبالغريف ودوتي وبلنت.

مضاوي الرشيد أنثروبولوجية تدرّس في الكلية الملكية (كنغز كولج) في جامعة لندن.

ISBN 1 85516 813 8

